

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبو القاسم سعد الله (الجزائر 2)

كلية العلوم الاجتماعية
قسم علم الاجتماع
رقم التسجيل :
الرقم التسلسلي :
الموضوع:

المقاربة السوسولوجية للمجتمع الجزائري

عند مالك بن نبي

The sociological approach to Algerian society
according to Malek Bennabi

دراسة تحليلية لقضايا الثقافة، المرض الاجتماعي والتغيير الاجتماعي والثقافي

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في علم الاجتماع
تخصص: علم الاجتماع الثقافي

إشراف:

أ.د. شريف زهرة

من إعداد الطالبة:

يمينة بن عروس

أعضاء اللجنة:

الرقم	الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
01	أ.د. عبد العزيز رأسمال	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	رئيسا
02	أ.د. شريف زهرة	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	مشرفا ومقررا
03	أ.د. فتيحة بن فرحات	أستاذة التعليم العالي	جامعة البليدة 2	عضوا مناقشا
04	د. حسين آيت عيسى	أستاذ محاضر	المركز الجامعي تيبازة	عضوا مناقشا
05	د. حياة بن عروس	أستاذة محاضرة	جامعة الجزائر 2	عضوا مناقشا
06	د. معمرى جميلة	أستاذة محاضرة	جامعة الجزائر 2	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 2022/2021

شكر

الحمد لله على نعمة الإسلام

لله الحمد الكثير، والشكر الجزيل على إتمام هذه الدراسة،

والحمد لله على نعمة العلم، ونعمة أساتذة العلم

أتقدم بجزيل الشكر للدكتور: زهرة شريف الذي تكرم بقبول

إشرافه على هذه الأطروحة، وتقديم توجيهاته السديدة.

وأشكر أساتذة اللجنة الموقرة على قبول مناقشة هذه الأطروحة.

كما أشكر كل من ساندني وساعدني في إنجاز هذه الدراسة

ولوبكلمة طيبة أثابه الله عليها كل خير...

وبالأخص الصديق: حمودي محمد.

والصديقة: مباركى وهيبة.

بن عروس يمينه

إهداء

أهدي هذه الدّراسة -ثمرة سنين من العمل والبحث- سائلة

المولى العزيز الجبار أن يجعلها صدقة جارية

إلى والديّ الطيّبين : ابراهيم ومحبوبة

والإخوة بالأخصّ: حسان، جمال، محمد، عيسى، حسين.

والأخوات : أحلام، فتيحة، أميرة

إلى روح المفكّر: بن نبي مالك

كما أهدي هذا العمل إلى كلّ أساتذتي الكرام

بالأخصّ: إلى روح الدكتور: العيادي سعيد رحمه الله.

وصديقاتي خاصة سارة ونعيمة

إلى كلّ من اتّسع صدرهم لمحبتّي.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ،

وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ،

وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ }

صدق الله العظيم

سورة النمل، الآية 19

فهرس المحتويات

الباب الأول: البناء النظري للموضوع

أ

مقدمة

الفصل الأول: منهجية الدراسة والتقنيات المستعملة

- 1/ أسباب اختيار الموضوع..... 6
- 2/ أهداف الدراسة..... 6
- 3/ أهمية الدراسة..... 7
- 4/ الاشكالية..... 8
- 5/ الفرضيات..... 10
- 6/ تحديد المفاهيم 10
- 7/ المنهج والتقنيات المستعملة في الدراسة..... 14
- 8/ الدراسات السابقة 16
- 9/ المقاربة السوسيولوجية 26
- 10/ صعوبات الدراسة 29

الفصل الثاني: حياة مالك بن نبي والبيئة التي عاش فيها

- تمهيد..... 32
- المبحث الأول: حياة مالك بن نبي ورحلاته..... 33
- المطلب الأول: نبذة تاريخية عن حياته 33
- المطلب الثاني: رحلاته..... 35
- أولا : رحلة مالك بن نبي إلى فرنسا..... 35
- ثانيا : رحلة مالك بن نبي إلى مصر..... 37
- ثالثا : عودة مالك بن نبي إلى الجزائر..... 39
- المبحث الثاني: المنابع والخصائص الفكرية لمالك بن نبي ودراسات عن فكره..... 41
- المطلب الأول: المنابع الفكرية 41

41	أولا : تأثير البيئة الأسرية.....
43	ثانيا : تأثير المحيط الاجتماعي.....
46	ثالثا : قراءات مالك بن نبي.....
49	رابعا : تأثير التكوين العلمي والتطبيقي.....
49	خامسا : الشخصيات الوطنية والدولية.....
51	المطلب الثاني: الخصائص الفكرية.....
51	أولا : الاتجاه الفكري.....
52	ثانيا : الإنتاج الفكري.....
54	المطلب الثالث: دراسات عن فكر مالك بن نبي.....
61	المبحث الثالث: سمات البيئة التي عاش فيها مالك بن نبي.....
61	المطلب الأول: البيئة السياسية والاقتصادية أثناء الفترة الاستعمارية.....
61	أولا : البيئة السياسية أثناء الفترة الاستعمارية.....
62	ثانيا : البيئة الاقتصادية أثناء الفترة الاستعمارية.....
64	المطلب الثاني: البيئة الاجتماعية والثقافية والدينية أثناء الفترة الاستعمارية.....
64	أولا : البيئة الاجتماعية أثناء الفترة الاستعمارية.....
65	ثانيا : البيئة الثقافية والدينية أثناء الفترة الاستعمارية.....
67	المطلب الثالث: أوضاع الجزائر بُعيد الاستقلال.....
68	خلاصة الفصل.....

الفصل الثالث: الثقافة ودلالاتها عند مالك بن نبي

70	تمهيد.....
71	المبحث الأول: ماهية الثقافة.....
71	المطلب الأول: مفهوم الثقافة وأهميتها.....
71	أولا : تعريف الثقافة.....
72	ثانيا : أهمية الثقافة.....
73	المطلب الثاني: خصائص الثقافة.....
78	المطلب الثالث: الشكل البنائي للثقافة.....

78	أولاً: السّمة النّقاّفيّة
79	ثانيًا: المركّب النّقاّفي
79	ثالثًا: الدّائرة النّقاّفيّة
80	رابعًا: النّمودج النّقاّفي
80	المبحث الثاني: مركّبات وأنواع النّقاّفة وأهمّ النّظريّات المفسّرة لها
80	المطلب الأول: مركّبات النّقاّفة (العناصر البنائيّة)
80	أولاً: العناصر اللّاماديّة للنّقاّفة
80	1- اللّغة.....
82	2- الفن.....
82	3- الأفعال الإنسانيّة.....
83	4- الطّرائق الشّعبيّة.....
83	5- العُرف.....
84	6- القانون والنّظم الاجتماعيّة.....
85	7- المعتقدات والقيم.....
88	8- الطّقوس والأسطورة والرّموز.....
89	ثانيًا: العناصر الماديّة للنّقاّفة
89	المطلب الثاني: أنواع النّقاّفة
89	1- النّقاّفة الجامدة والنّقاّفة المتغيّرة.....
89	2- النّقاّفة الماديّة والنّقاّفة وغير الماديّة.....
89	3- النّقاّفة الظّاهرة والنّقاّفة الضّمنيّة.....
90	المطلب الثالث: أهمّ النّظريّات المفسّرة للنّقاّفة
90	1- نظريّة عبد الرّحمن ابن خلدون.....
91	2- نظريّة برونيسلاف مالينفسكي.....
91	3- نظريّة رالف لنتن.....
93	4- نظريّة وليام سمنر.....
94	المبحث الثالث: النّقاّفة عند مالك بن نبي، المفهوم، المركّبات الدّلالات والوظائف
94	المطلب الأول: مفهوم النّقاّفة عند مالك بن نبي

97	المطلب الثاني: مركّبات الثقافة عند مالك بن نبي.....
97	أولاً: التّوجيه الأخلاقي.....
98	ثانيًا: التّوجيه الجمالي.....
99	ثالثًا: المنطق العملي.....
100	رابعًا: التّوجيه الفنّي أو الصّناعة.....
102	المطلب الثالث: دلالات الثقافة عند مالك بن نبي
103	المطلب الرابع: وظائف الثقافة عند مالك بن نبي.....
104	المبحث الرابع: مشكلات الثقافة عند مالك بن نبي.....
104	المطلب الأول: الأزمة الثقافيّة وأزمة المفهوميّة.....
107	المطلب الثاني: مشكلة الأفكار وأزمة الثقافة واللّغة.....
108	المطلب الثالث: تعايش الثقافات والثقافة في اتّجاه العالميّة وماضدّ الثقافة
112	خلاصة الفصل.....

الفصل الرابع: المرض الاجتماعي عند مالك بن نبي

114	تمهيد.....
115	المبحث الأول: ماهية المرض.....
115	المطلب الأول: المرض من المنظور الطّبي والاقتصادي.....
115	أولاً : المرض من المنظور الطّبي
115	ثانيًا : المرض من المنظور الاقتصادي.....
115	المطلب الثاني: المرض الاجتماعي من المنظور البسيكولوجي والسّوسيولوجي.....
117	أولاً : المرض من المنظور البسيكولوجي.....
117	ثانيًا : المرض من المنظور السّوسيولوجي.....
117	المبحث الثاني: المرض الاجتماعي عند مالك بن نبي.....
117	المطلب الأول: ماهية المرض الاجتماعي ودلالاته عند ملك بن نبي.....
117	أولاً : مفهوم المرض الاجتماعي عند مالك بن نبي.....
119	ثانيًا : آليّة انتقال الأمراض الاجتماعيّة.....
120	ثالثًا : دلالات المرض الاجتماعي عند مالك بن نبي.....

126	المطلب الثاني: أعراض المرض الاجتماعي عند مالك بن نبي.....
126	أولاً : أعراض المرض النفسي الاجتماعي.....
131	ثانياً : أعراض المرض الاجتماعي الثقافي.....
140	المطلب الثالث: طرق العلاج من المرض الاجتماعي عند مالك بن نبي.....
144	خلاصة الفصل.....

الفصل الخامس: التغيير الاجتماعي والثقافي عند مالك بن نبي

145	تمهيد
147	المبحث الأول: ماهية التغيير الاجتماعي وأهم النظريات المفسرة له.....
147	المطلب الأول: التعريف السوسيولوجي للتغيير الاجتماعي
148	المطلب الثاني: أهم النظريات المفسرة للتغيير الاجتماعي.....
148	أولاً: النظرية الدائرية (ابن خلدون - فيكو - شبنجلر - توينبي)
154	ثانياً: النظرية التطورية (روسو - كوندرسه-كونت).....
157	ثالثاً: النظرية الوظيفية (بارسونز - سمسر).....
160	رابعاً: النظرية الاقتصادية.....
161	خامساً: النظرية التكنولوجية.....
162	المبحث الثاني: التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي.....
162	المطلب الأول: ماهية التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي.....
162	أولاً: مفهوم التغيير الاجتماعي عند بن نبي.....
165	ثانياً: الفرق بين التغيير الاجتماعي والتغيير الاجتماعي عند بن نبي.....
166	ثالثاً: أهمية التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي.....
166	المطلب الثاني: مراحل التغيير الاجتماعي لدى مالك بن نبي.....
167	أولاً: مرحلة الروح.....
168	ثانياً: مرحلة العقل.....
169	ثالثاً: مرحلة الغريزة.....
169	المطلب الثالث: مجالات التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي.....
170	أولاً: الإنسان والتغيير الاجتماعي.....

173	ثانيا: التّراب والتّغيير الاجتماعي
174	ثالثا: الوقت والتّغيير الاجتماعي
176	المبحث الثالث: التّغير الثقافي عند مالك بن نبي
176	المطلب الأول: ماهية التّغير الثقافي:
176	أولا: مفهوم التّغير الثقافي
177	ثانيا: عوامل التّغير الثقافي
178	ثالثا : عوائق التّغير الثقافي
178	المطلب الثاني: مظاهر التّغير الثقافي
178	أولا: التمثيل الثقافي والتكيف
179	ثانيا: التكامل الثقافي
179	ثالثا: الصّراع الثقافي
179	رابعا: الاتّصال والتّغير الثقافي
181	المطلب الثالث: عوامل التّغير الاجتماعي والثقافي عند مالك بن نبي
181	أولا: الدّين
183	ثانيا: الحضارة
185	ثالثا: النّقافة
185	رابعا: الإيديولوجيا
186	خامسا: شبكة العلاقات الاجتماعية
188	المطلب الرابع: دور الانسان في التّغير الثقافي
189	خلاصة الفصل

الباب الميداني للدراسة

الفصل السادس: عرض وتحليل بيانات جداول كتب العيّنة

192	تمهيد
193	تحديد مجتمع البحث واختيار العيّنة
198	مجالات الدّراسة:
198	أولا : المجال المكاني

198	ثانيًا: المجال الرّماني
200	عرض وتحليل بيانات الجداول الخاصّة بكتب العينّة
200	1- عرض وتحليل بيانات الجداول الخاصّة بكتاب القضايا الكبرى
208	2- عرض وتحليل بيانات الجداول الخاصّة بكتاب تأملات
221	3- عرض وتحليل بيانات الجداول الخاصّة بكتاب شروط النهضة
239	4- عرض وتحليل بيانات الجداول الخاصّة بكتاب فكرة كمنويلث إسلامي
251	5- عرض وتحليل بيانات الجداول الخاصّة بكتاب مجالس دمشق
258	6- عرض وتحليل بيانات الجداول الخاصّة بكتاب مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي..
270	7- عرض وتحليل بيانات الجداول الخاصّة بكتاب مشكلة الثقافة
285	8- عرض وتحليل بيانات الجداول الخاصّة بكتاب من أجل التّغيير
292	9- عرض وتحليل بيانات الجداول الخاصّة بكتاب ميلاد مجتمع
309	10- عرض وتحليل بيانات الجداول الخاصّة بكتاب وجهة العالم الإسلامي
322	حوصلة توظيف المفاهيم الهامة في كتب العينّة
329	خلاصة الفصل

الفصل السابع: النّتائج العامّة المتعلّقة بالفرضيّات

331	تمهيد
332	• النّتائج العامّة المتعلّقة بالفرضيّة الأولى
335	• النّتائج العامّة المتعلّقة بالفرضيّة الثّانيّة
339	• النّتائج العامّة المتعلّقة بالفرضيّة الثّالثة
344	الاستنتاج العام للدراسة
353	خاتمة
356	النّوصيات
358	قائمة المراجع

فهرس الجداول:

الرقم	عنوان الجدول	الصفحة
1	مؤلفات مالك بن نبي	52
2	توزيع المفاهيم الأساسية في كتاب القضايا الكبرى	200
3	تأثير الفعالية في الثقافة	202
4	دور القيم في تكوين الثقافة	204
5	العلاقة بين الأفكار والثقافة والعلم	205
6	توزيع المفاهيم الأساسية في كتاب تأملات	208
7	أهمية الفعالية	210
8	مكانة الحق والواجب في الثقافة	213
9	تأثير التاريخ في الانسان	214
10	دور العلاقات الاجتماعية في الثقافة	216
11	المركبات الأربعة للثقافة.	218
12	توزيع المفاهيم الأساسية في كتاب شروط النهضة	221
13	المفاهيم الأساسية المرتبطة بالتغيير الاجتماعي	223
14	مجالات التغيير الاجتماعي	225
15	دور الانسان في العلاقات الاجتماعية	227
16	عوامل التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي	228
17	مراحل التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي	233
18	تأثير ثنائية الواجب والحق في إحداث التغيير الاجتماعي	235
19	علاقة التاريخ بالحضارة عند مالك بن نبي	237
20	المفاهيم الأساسية في كتاب فكرة كمنويلث إسلامي	239
21	علاقة الأفكار بالأشياء	241
22	تأثير الزمن وعالمي الأفكار والأشياء في الأخلاق	245
23	علاقة الأفكار بالمنطق العملي	247

250	مكانة الأفكار في العلم	24
251	المفاهيم الأساسية في كتاب مجالس دمشق	25
253	مكانة الفعالية بين العلم والثقافة	26
254	تأثير الثقافة في العلاقات الاجتماعية	27
255	دور الأفكار في التغيير الثقافي	28
256	آلية التغيير الثقافي عند مالك بن نبي	29
258	المفاهيم الأساسية في كتاب مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي	30
260	علاقة الأفكار المطبوعة والأفكار الموضوعية بالثقافة	31
261	علاقة الأفكار الميَّنة والمميَّنة (القاتلة) بالثقافة	32
262	علاقة المرض الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية بالأفكار	33
264	علاقة التاريخ، الفعالية والمرض الاجتماعي بالأفكار	34
066	مكانة الأفكار في الحضارة والعلم والنهضة	35
268	علاقة الأفكار باللغة	36
270	المفاهيم الأساسية في كتاب مشكلة الثقافة	37
272	علاقة الأفكار بالثقافة	38
276	علاقة المرض الاجتماعي بالثقافة	39
277	علاقة الإنسان بالثقافة	40
278	عناصر الثقافة عند مالك بن نبي	41
282	العناصر اللامادية للثقافة	42
285	المفاهيم الأساسية في كتاب من أجل التغيير	43
287	أهمية الزمن في التغيير الثقافي	44
288	علاقة اللغة بالثقافة	45
289	علاقة المرض الاجتماعي بالتغيير الثقافي	46
292	المفاهيم الأساسية في كتاب ميلاد مجتمع	47
294	المفاهيم المتعلقة بماهية المرض الاجتماعي عند بن نبي	48
298	تقسيم المجتمعات عند بن نبي	49

301	نطاق المرض الاجتماعي عند مالك بن نبي	50
302	علاقة الدين والمرض الاجتماعي بالعلاقات الاجتماعية	51
306	المؤثرات الإيجابية للعلاج من المرض الاجتماعي	52
307	المؤثرات السلبية المفردة للمرض الاجتماعي	53
309	المفاهيم الأساسية في كتاب وجهة العالم الإسلامي	54
311	أعراض المرض الاجتماعي	55
316	أعراض المرض الاجتماعي النفسي (السوسيوسيكولوجي)	56
318	أعراض المرض الاجتماعي الثقافي (السوسيوقافي)	57
319	أعراض الاضطراب الفكري	58
320	أعراض الاضطراب السلوكي	59
322	حوصلة توظيف المفاهيم الهامة في كتب العينة	60

قائمة الأشكال :

الرقم	عنوان الشّكل	الصفحة
1	رسم بياني يوضّح التّغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي	167

المجلد الأول

المجلد الثاني

المجلد الثالث

مقدمة :

انصبّ الاهتمام الفكري للمفكر مالك بن نبي بمشكلات المجتمعات الإسلامية عامّة والمجتمع الجزائري خاصّة نظراً لتراجع التمسك بالدين، فقد لاحظ أنّه يعيش التخلّف في مختلف المجالات (السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، العلمية، الثقافية...)، وتنتشر في ثقافته أعراض مرضية عديدة (أعراضا سلوكيّة ونفسية)، أرجعها إلى المخلفات السلبية لعصر ما بعد الموحّدين، في حين يملك هذا المجتمع كلّ مقومات الإقلاع الحضاري.

فمالك بن نبي من المفكرين المسلمين البارزين الذين عالجوا مشكلات الحضارة وتحليلاتها، تناول في كلّ كتبه المواضيع ذات الصلة بالحضارة، وجمع محاضراته ومؤلفاته في مجموعة سمّاها بسلسلة "مشكلات الحضارة" والتي عالج فيها مشكلات التخلّف في مختلف الميادين الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية للشعوب والتي يفسرها بالأساس مشكلات حضارية، إذن الحضارة هي صلب فكره، ومجتمع الحضارة هو مجتمع متحرّك واستغلّ قدراته وثرواته البشرية والمادية والزمنية لتحقيق التّغيير والتّميّز الحضاري.

يعتبر مفهوم المجتمع لبّ مواضيع مالك بن نبي، وأساس مشكلات الحضارة، فلا حضارة ولا تغيير إلّا في المجتمع بعوالمه: عالم أشخاص، عالم الأفكار وعالم الأشياء، فالمجتمع عند مالك بن نبي يتكوّن عن طريق وظيفة ويؤدّي وظيفة ويشترط ضرورة انسجام أفراده مع الوظيفة العامة للمجتمع. واختلال في هذه الأخيرة معناه اختلال في علاقات أفراده.

وتعرّض بالنقد والتحليل لتاريخ المجتمعات الانسانية والإسلامية مقسّما مراحلها ومتتبّعا تطوّراتها، متأثرا بما دونه ودرسه سابقوه في كافّة المجالات، فجاء فكره أكثر شموليّة وموضوعيّة.

كما قام مالك بن نبي بدراسة واقع المجتمعات الإسلامية منذ أن خرجت من عصر الحضارة، دراسة تحليليّة تسعى لفهم تخلفها من خلال السّياق التّاريخي، وساعيا لإيجاد الحلول للمشكلات التي تعاني معظمها منها، وإحداث التّغيير الاجتماعي الذي يبدأ بالفرد أولا ثمّ بالمجتمع، بما يتوافق مع خصوصياتنا الثقافية الإسلامية وبيئتنا الاجتماعية.

وقد جاءت هذه الدّراسة للبحث في المقاربة السّوسولوجية للمجتمع الجزائري عند مالك بن نبي من خلال دراسة وتحليل أهمّ القضايا السّوسولوجية تتعلّق بالثقافة والمرض الاجتماعي والتّغيير الاجتماعي والثقافي نحاول فيها تقديم جملة معطيات ضمن إطار عام رصدناه من خلال الفصول التّالية:

الفصل الأول:

تمّ التطّرق في هذا الفصل إلى البناء المنهجي للدراسة والذي تضمّن أسباب اختيار الموضوع، أهداف وأهميّة الدراسة وكذا الإشكاليّة والفرضيّات وتحديد المفاهيم وأيضاً عرضنا فيه المناهج المستخدمة في الدراسة وهو: المنهج الوصفي التحليلي. كما عرضنا الأدوات المنهجية المستعملة كتحليل المحتوى والمقارنة.

وقمنا بتوظيف المقاربة السوسيولوجية مع ذكر الدراسات السابقة التي وظّفناها في معالجة هذا الموضوع.

الفصل الثاني:

تعرّضنا فيه إلى حياة مالك بن نبي والبيئة التي عاش فيها حيث تناولنا فيه حياته ورحلاته، بالإضافة إلى منابع فكره وخصائصه الفكرية، وبعض الدراسات العربية والجزائرية عن فكره، وفي الأخير تطرّفنا إلى سمات البيئة التي عاش فيها أثناء الفترة الاستعمارية وبُعِيد الاستقلال.

الفصل الثالث:

خصّصناه للثقافة ودلالاتها عند مالك بن نبي، حيث تطرّفنا فيه إلى ماهية الثقافة من خلال مفهومها، أهميّتها، خصائصها، شكلها البنائي، أمّا الجانب الثاني من هذا الفصل فقد بيّنا مركّبات وأنواع الثقافة والنظريات المفسّرة لها وبعدها تعرّضنا إلى الثقافة عند مالك بن نبي: المفهوم، المركّبات والدلالات والوظائف من خلال التطّرق إلى تعريف الثقافة، وذكر مركّباتها الثقافية ودلالاتها ووظائفها عند مالك بن نبي، ثمّ عالجنا مشكلات الثقافة عند مالك بن نبي.

الفصل الرابع:

تطرّفنا فيه إلى المرض الاجتماعي عند مالك بن نبي وقد عرضنا فيه ماهية المرض الاجتماعي من خلال معانيه الطبّية، الاقتصادية، السيكولوجية والسوسيولوجية، بعدها وضّحنا ماهية المرض الاجتماعي عند مالك بن نبي من خلال مفهومه، آلية انتقاله ودلالاته بالإضافة إلى أعراض المرض الاجتماعي (النفس-اجتماعية والاجتماعية-الثقافية) وفي الأخير طرق العلاج منه حسب مالك بن نبي.

الفصل الخامس:

خصّص هذا الفصل للتغيير الاجتماعي والثقافي عند مالك بن نبي إذ أدرجنا فيه أولاً تعريف التغيير سوسيولوجياً، بعدها تطرّفنا إلى النظريات المفسّرة للتغيير الاجتماعي ثمّ بيّنا ماهية التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي حيث وضّحنا مفهومه وميّزنا بين التغيير والتغيير الاجتماعي عنده،

ووضّحنا أهمّيته لنحدّد بعدها مراحل التّغيير الاجتماعي لديه، لننتقل لتبيان مجالات التّغيير الاجتماعي عنده، وفي الأخير عالجنا التّغيير الثقافي عند مالك بن نبي من خلال تبيان ماهية التّغيير الثقافي (المفهوم، العوامل، العوائق) وحددنا مظاهره لنوضّح بعدها عوامل التّغيير الاجتماعي والثقافي عند مالك بن نبي ووضّحنا علاقة الانسان بالتّغيير الثقافي.

الفصل السادس:

اشتمل هذا الفصل على عرض وتحليل بيانات الجداول الخاصّة بكتب العيّنة تطرّقنا فيه إلى تحديد مجتمع البحث واختيار العيّنة، دون أن نغفل عن ذكر مجال الدّراسة المكاني وكذا المجال الزّمني من خلال توضيح المراحل التي مرّت بها الدّراسة، بعدها قمنا بعرض وتحليل بيانات الجداول الخاصّة بكتب العيّنة وعددها عشرة.

الفصل السابع:

احتوى هذا الفصل على النّتائج العامّة المتعلّقة بفرضيّات الدّراسة: الفرضيّة الأولى، الفرضيّة الثّانية والفرضيّة الثّالثة.

وفي الأخير عرض الاستنتاج العام للدّراسة، الخاتمة والتّوصيات.

الفصل الأول :

منهجية الدراسة

والثغرات المستعملة

1/ أسباب اختيار الموضوع:

الأسباب الذاتية:

- الحصول على شهادة دكتوراه العلوم في تخصص علم الاجتماع الثقافي.
- الرغبة في البحث السوسولوجي في المقاربات الفكرية للمفكر مالك بن نبي.
- محاولة فهم جوانب من فكر مالك بن نبي وإسهاماته الفكرية لفهم الظواهر الاجتماعية ومدى تأثرها بواقع المجتمع الجزائري.
- اكتشاف الأفكار الاجتماعية التي انفرد بها المفكر مالك بن نبي.

الأسباب الموضوعية:

- التدريب على البحث العلمي في مجال علم الاجتماع.
- اكتساب خبرة علمية ومنهجية في مجال البحوث والدراسات النظرية الوصفية.
- النقطة لدراسة فكر المفكر الجزائري هو "مالك بن نبي" بطريقة علمية موضوعية نظرا للتركيز المتزايد على مفكرين ومنظرين أجانب.
- تزويد المكتبة الجامعية بدراسة علمية حول مالك بن نبي بسبب ندرة الدراسات السوسولوجية التي عالجت الموضوع.
- الاستفادة من الدراسات السابقة وإن اختلفت تخصصاتها وحصر تلك التي لها علاقة بعلم الاجتماع الثقافي وتوظيفها في هذه الدراسة.

2/ أهداف الدراسة:

- الإجابة على تساؤلات الإشكالية بطريقة علمية .
- البحث في الاقتربات الفكرية التي عالجت الظواهر الاجتماعية وقضايا المجتمع الجزائري.
- محاولة إبراز دور الثقافة في بروز المرض الاجتماعي.
- تحليل العناصر الثقافية وتأثيرها في بروز الصراع بين الأجيال.
- التعرف على تأثير التغيير الاجتماعي على البناء الاجتماعي والثقافي.
- تشريح عناصر التغيير الاجتماعي والتغيير الثقافي ومدى تأثيره على البناء الاجتماعي للمجتمع الجزائري والتعرف على مفهوم الثقافة ومكوناتها التي حددها مالك بن نبي وتأثيرها فيما بينها.
- تحليل البنية المفاهيمية لدى مالك بن نبي، وإبراز أهم المفاهيم التي انفرد بها في علم الاجتماع .
- التعرف على مناهج مالك بن نبي في تشريحه للقضايا الاجتماعية

- محاولة حصر المساهمة السوسيولوجية في فكر مالك بن نبي من خلال تساؤلات الإشكالية.
- التعرف على نظرة المفكر مالك بن نبي السوسيولوجية للمجتمع الجزائري.
- فتح مجال البحث العلمي في تخصص علم اجتماع المعرفة باعتباره من أحدث تخصصات علم الاجتماع.

3/ أهمية الدراسة:

- إبراز القيمة العلمية والثقافية لآراء وأفكار مالك بن نبي.
- التعرف على تحليلات مالك بن نبي لمجموعة ظواهر لاحظها في المجتمع.
- الكشف عن الخصوصية السوسيولوجية في تعريف ومعالجة مفاهيم ثقيلة في علم الاجتماع عند المفكر مالك بن نبي.
- إيجاد مقاربة سوسيولوجية للمجتمع الجزائري من طرف مفكر جزائري باعتبار انتمائه إليه.
- فتح الباب لدراسات أخرى في الموضوع أعمق تمس جوانب مختلفة من فكر مالك بن نبي.
- تدعيم المكتبة الجامعية ببحث أكاديمي يتناول فكر مالك بن نبي، بعدما أثراها بدوره بمجموعة عديدة من الكتب ضمن سلسلة مشكلات الحضارة.
- إدراج موضوع الدراسة في إطار تخصص حديث في علم الاجتماع وهو علم اجتماع المعرفة.
- محاولة الإجابة على السؤال التالي: هل أعطي للمفكر مالك بن نبي حقه من الدراسة والنقد في مختلف التخصصات.

4/ الإشكالية:

- في بداية القرن العشرين عرفت معظم مجتمعات العالم الإسلامي تواجدا استعماريًا على أراضيها الذي ساهم في إحداث تغييرات عميقة في مجالات شتى أدت إلى تخلفها، طمس معالم ثقافتها، ناهيك عن اهتراء في العلاقات الاجتماعية، ما سمح بظهور نخبة من المفكرين والمصلحين أمثال: محمد عبده، شكيب أرسلان، محمد إقبال، وفي الجزائر ابن باديس، البشير الإبراهيمي، مالك بن نبي...

- عايش المفكر مالك بن نبي مرحلتين مهمتين من تاريخ المجتمع الجزائري، حقبة الاستعمار الفرنسي وحقبة مابعد الاستقلال، فخلال الفترة الاستعمارية انتهجت فرنسا سياسة العنف المادي والمعنوي للقضاء على البنيات السياسية والاقتصادية والثقافية للمجتمع الجزائري، أهمها القضاء على هوية الجزائريين، فانتبه بن نبي لما كان شائعا آنذاك من سلوكات متناقضة لأفراد المجتمع الجزائري ومايتخبط فيه من ظواهر سلبية أبعده عن دينه وثقافته، بسبب الخلل الذي أصاب عوالمه الثلاث: عالم الأفكار، عالم الأشخاص، عالم الأشياء. وحقبة مابعد الاستقلال التي واكبت مرحلة البناء السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

حيث عني مالك بن نبي في جل مؤلفاته بتحليلات كثيرة اجتماعية وتاريخية واقتصادية وسياسية لمجمل الاختلالات التي ظهرت في العوالم الثلاث السابقة الذكر، فصار المجتمع الجزائري يبدو مجتمعا بدائيًا فقير الوسائل، مسلوب الطاقة ومتحلل العلاقات الاجتماعية، وبدأ إفلاس مخزونه الروحي والتقني.

ولما كانت إرادة الأفراد تتبع دائما من الإطار العام لمجتمعهم، وكان المجتمع متماسكا ولأفكاره دور وظيفي انتظمت إرادتهم وتنافست جهودهم في بناء هذا المجتمع، وتجاوزوا مخلفات التخلف والتأهب للانطلاق في دورة التاريخ. هذا الانطلاق الذي يشترط تغييرا في شبكة العلاقات الاجتماعية، مايسمح بوضع حدودا لنشاط الطاقة الحيوية الغريزية للإنسان.

وصف مالك بن نبي الواقع الاجتماعي والثقافي، باعتباره يخص أسلوب الحياة في مجتمع معين، ويخص كذلك السلوك الاجتماعي الذي يطبع تصرفات الفرد في ذلك المجتمع. وأن الإنسان قد اتخذ العالم الثقافي إطارا ينظم فيه شبكة علاقاته الاجتماعية تبعا للعلاقة بين العناصر الثلاثة المتحركة: الأشياء، الأشخاص والأفكار على حد تعبيره.

كما فسّر الدور الوظيفي لعالم الأفكار في تطور أو تدهور المجتمع أي كل تغيير في عالم

الأفكار يصاحبه تعديل في خصائص المجتمع.

- اهتم مالك بن نبي بالحقائق الاجتماعية والتاريخية باطلاعه على تاريخ الإنسانية وما قدمته من معارف وعلوم، ليشخص لأهم القضايا السوسولوجية في الجزائر أولا ثم العالم العربي ثانيا ثم العالم الإسلامي أخيرا أو ما سماه بمحور طنجة- جاكرتا، مما أدى بالبعض إلى تصنيف دراساته ضمن الماكروسوسولوجيا، ونظرته إلى المجتمع الإسلامي هي نظرة تاريخية تطويرية شاملة.

- وقد عالج مالك بن نبي القضايا الاجتماعية بكل أبعادها السياسية والاقتصادية والثقافية والفكرية والنفسية فدرس الحضارة ودورها ومراحلها وعناصرها، والثقافة وسماتها من جانبيها النفسي والاجتماعي وتشخيصه للأزمة الثقافية، كما عالج الأخلاق، القيم، الفن في المجتمع وبيّن فيما تكمن الثروة الاجتماعية، وبيّن أثر التاريخ في السيرة الثقافية والاقتصادية للمجتمع وتأثير الفكرة الدينية في تكوين شبكة العلاقات الاجتماعية، واهتم بالتربية الاجتماعية وفكرة التوجيه على مختلف مستوياته الأخلاقية، الجمالية، العملية والفنية وحلّ المرض الاجتماعي أسبابه، أعراضه في المجتمع ببعديه النفسي والثقافي، وناقش مفاهيم: الديمقراطية والعالمية وتعايش الثقافات وغيرها.

- وإن كان الباحثون في علم الاجتماع يلجؤون إلى نظريات لعلماء غربيين أو مستشرقين عند تفسيرهم للظواهر السوسولوجية في المجتمع الجزائري، في حين أنّ المفكر الجزائري "مالك بن نبي" قد قدّم تفسيرات لهذه الظواهر بنظرة سوسولوجية جزائرية نابعة من دين وتاريخ وثقافة مجتمعنا الجزائري وأيّ تغيير اجتماعي أو ثقافي فيه هو وثيق الصلة بخصوصية هذا المجتمع، وسنسعى إلى فهم هذه التفسيرات، تحليلها، تفسيرها ثمّ توظيفها بما يتوافق مع خصوصية المجتمع الجزائري.

- وعليه نطرح التساؤل الجوهري الآتي :

- هل قدّم "مالك بن نبي" مقارنة سوسولوجية للمجتمع الجزائري؟ وماهي خصوصيّتها، حدودها وإطارها؟

و يترجم هذا التساؤل إلى الأسئلة التالية:

1- مامدى تأثر المرض الاجتماعي بالاختلاف في إنتاج عناصر ثقافية جديدة نابعة من المجتمع

الجزائري عند مالك بن نبي؟

2- ما علاقة المرض الاجتماعي في تقبل عناصر ثقافية دخيلة عن المجتمع الجزائري عند مالك

بن نبي؟

3- هل يحدث التغيير الاجتماعي أثرًا في البناء الثقافي في المجتمع الجزائري من وجهة نظر مالك

بن نبي؟

5/ الفرضيات

انطلاقاً من التساؤلات السابقة الذكر نتوصل إلى الفرضيات الآتية:

الفرضية الأولى هي:

- بروز المرض الاجتماعي في المجتمع الجزائري مرتبط بعدم تجديد عناصره الثقافية.

الفرضية الثانية هي:

- المرض الاجتماعي في المجتمع الجزائري ناتج عن وجود عناصر ثقافية دخيلة.

الفرضية الثالثة هي:

- يحدث التغيير الاجتماعي في المجتمع الجزائري أثراً في بنائه الثقافي (أحداث تغيير ثقافي).

6/ تحديد المفاهيم:

1-المقاربة: يوضح المعجم العربي: "مقاربة: مماثلة شيء آخر، كونه من طبيعته. والفعل قارب

فلانا: داناه في الرأي. تقارب: اتجه في نقطة واحدة، بدا تطابق وتمائل، تقارب أفكار." ¹

وجاء في معجم المصطلحات الاجتماعية "مفهوم المقاربة باعتبارها مرادفة للاتجاه الفكري أنها تحمل عدة دلالات.

-الاتجاه نحو موضوع أو موقف ما.

- أسلوب في التحليل يتسم بالمرونة، حيث أنه ينطوي تحت لواء نظرية معينة، أو فكر معين، بل إنها مجرد مطالعة من زاوية تبدو للبحث أهم من سواها من الروايات.

- هي رؤية منهجية تسعى لاكتشاف قلب الظاهرة الاجتماعية من خلال توجيه الأسئلة إليها من زاوية غير مألوفة ولكن موضوعية، لا تفترض المقاربة الالتزام بنظرية محددة بل إنها أسلوب في التحليل متحرر من القيود الصارمة والعقائدية، تسمح المقاربة للباحث بحرية أكبر في إطار الظاهرة التي يقوم بدراستها وإلقاء نظرة جديدة عليها.

- خريطة وعي للباحث يقارب من خلالها المعطيات بانفتاحية وقصدية من جهة، وعلى خلفية

¹ - أنطوان نعمة، عصام مدور وآخرون، المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط2، 2008، 1137.

تعاليمه من جهة ثانية، فالمعطيات التي يتعامل معها الباحث غير منعزلة عن بعضها البعض وغير منعزلة عن الباحث الذي يضع لها الحدود والمحددات.¹

وعرّفت أيضا: المقاربة هي:

"- أسلوب معالجة موضوع أو مشكل.

- مجموعة المساعي والأساليب الموظفة للوصول إلى هدف معين.

- الحركات والأفعال التي تمكن من التدرج والقرب من الشيء وتحقيق الهدف منه.

وهي أيضا: أسلوب تصوّر موضوع أو تناول مشروع حلّ مشكل أو تحقيق غاية.²

التعريف الإجرائي: هي مجمل الأفكار والآراء السوسيولوجية التي عالجت، حلّت وفسّرت الواقع الاجتماعي للمجتمع الجزائري للوصول لفهمه وإعداد خلفيات علمية نظرية.

2- المجتمع:

حسب ماكيفر وبيج، هو "نسق مكوّن من العرف المتنوع، ومن السلطة والمعونة المتبادلة، ومن كثير من التجمعات، والأقسام، وشتّى وجوه ضبط السلوك الإنساني، والحرّيات، هذا النسق المعقّد الدائم التغيّر يسمّى المجتمع. إنّه نسيج العلاقات الاجتماعية، وأخصّ صفات المجتمع أنّه لا يثبت على حال.

يعرّف هوبهاوس L.T.Hobhouse " مجموعة من الأفراد تقطن على بقعة جغرافية محدّدة من الناحية السياسية ومعترف بها ولها مجموعة من العادات والتقاليد والمعايير والقيم والأحكام الاجتماعية والأهداف المشتركة التي أساسها الدين والتاريخ واللغة والعنصر.

وعرّفه جيتربرج "مجموعة من الأفراد تربطهم أو تجمعهم صلات معينة من السلوك تميّزهم عن أفراد آخرين لا تشملهم أو لا تربطهم هذه الصّلات أو يختلفون عنهم في السلوك.

بينما يعرّفه عالم الاجتماع الألماني تونيز: عبارة عن مجموعة من الناس تربطهم علاقة عقد إرادي، علاقة مصلحة لتلبية رغباتهم ومصالحهم التي هي مصدر تفاعلهم، وتنهض العلاقات بينهم على التبادل الذي يكون حتّى بين الغرباء الذين لا يعرفون بعضهم البعض، والعلاقة هنا علاقة مصلحة ومنفعة قائمة على الحذر، ومن الجائز أن يعتبروا أنفسهم أعداء، والمجتمع بهذا

¹ - احمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، 1993، ص 111.

² - د. فيروز مامي زراقة، مشكلات وقضايا سوسيولوجية معاصرة، دار الأيام، عمان، الأردن، 2014، ص 384.

هو جهاز اصطناعي، أوجدته مصالح الناس.¹

ويعرفه مالك بن نبي: "هو تجمع أفراد ذوي عادات متعدّدة، يعيشون في ظلّ قوانين واحدة ولهم فيما بينهم مصالح مشتركة."²

إذن لا يكف عند مالك بن نبي لتشكّل مجتمع ما تجمع أفراد في مكان معيّن "المجتمع فهو ليس مجرد مجموعة من الأفراد، بل هو تنظيم معيّن ذو طابع انساني يتمّ طبقاً لنظام معيّن."³ وأكثر من ذلك المجتمع في ظلّ التّغيير هو "الجماعة التي تغيّر دائماً خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التّغيير، مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التّغيير"⁴

"المجتمع هو بنيان وليس تكديسا من الأفراد، بنيان فيه أشياء مقدّسة متّفق عليها. فقبل أن تتجمّع الأفراد تكون هناك فكرة عامّة هي التي تؤلّف بين أفراد المجتمع. فإذا فقدت هذه الفكرة فقد فقدت الصّلات بين الأفراد، وتفكّك المجتمع وضاعت المصلحة التي كانت تتمثّل فيه."⁵

التّعريف الإجرائي:

المجتمع هو جماعة من الأفراد مرتبطون بعلاقات اجتماعيّة، يشتركون في خصائص اجتماعيّة وثقافيّة ويحدّدون أهدافا تغييريّة ضمن مجال زمني ومكاني معيّن. والمقصود بالمجتمع في هذه الدراسة هو المجتمع الجزائري المتواجد على إقليم الدّولة الجزائريّة.

3-تغير اجتماعي:

التّغير الاجتماعي هو التّغيّرات التي تحدث في المجتمع من حال إلى حال. التّغير الاجتماعي يقصد به "كلّ تحوّل يحدث في النّظم والأنساق والأجهزة الاجتماعية سواء البنائيّة أو الوظيفيّة خلال مدّة زمنيّة محدّدة."⁶

- فارلي Fareley : "التبدّل في أنماط السلوك والعلاقات الاجتماعية والنّظم والبناء الاجتماعي."⁷

¹ - د. عبد المجيد لبصير، موسوعة علم الاجتماع ومفاهيم في السياسة والاقتصاد والثّقافة العامّة، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ص ص 408، 409. بتصرف.

² - مالك بن نبي، ميلاد المجتمع (شبكة العلاقات الاجتماعية)، تر عبد الصّبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط3، 1986، ص 15.

³ - نفس المرجع، ص 17.

⁴ - نفس المرجع، نفس الصفحة.

⁵ - مالك بن نبي، تأمّلات، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط6، 2002، ص 157.

⁶ - مصطفى الخشّاب، دراسة المجتمع، دار الانجلومصرية، الإسكندرية، مصر، 1977، ص 188.

⁷ - عثمان إبراهيم وقبس النّوري، التّغير الاجتماعي، الشركة العربيّة للتّسويق، القاهرة، 2009، ص 07.

- أرنولد (Arnold 1967) "تمط من العلاقات الاجتماعية والأشكال الثقافية في وضع معين يطرأ عليها، أو يظهر عليها التغير أو الاختلاف خلال فترة معينة من الزمن".¹
- "التغير الاجتماعي ماهو إلا تغير في العلاقات والبناء الاجتماعي، كذلك ماهو إلا رابطة من العلاقات الحاضرة، ومن ثمة فإن أي تغير في هذه العلاقات ينعكس على البناء الاجتماعي في جملته".²

التعريف الإجرائي:

التغير الاجتماعي هو كل تحول يظهر على سلوك الأفراد وعلاقاتهم الاجتماعية في إطار زمني ومكاني معين وبمناسبة ممارسة حياتهم الجماعية المشتركة.

4- تغير ثقافي:

عرّفه هوركوفيتس "هو عبارة عن التحول الذي يتناول كل التغيرات التي تحدث في أي فرع من فروع الثقافة، بما في ذلك الفنون والعلوم والفلسفة والتكنيك، كما يمل صور وقوانين التغير الاجتماعي نفسه".³

ويعرفه درسليز (Dressler) التغير الثقافي بأنه "تحول أو انقطاع عن الإجراءات المجربة والمختبرة والمنقولة عن ثقافة الماضي مع إدخال إجراءات جديدة".⁴

وعرفه أحمد رشوان: "هو كل المتغيرات التي تحدث في كل عنصر من عناصر الثقافة مادية كانت أم غير مادية، بما في ذلك الفن والتكنولوجيا والفلسفة والأدب والعلم واللغة والأذواق الخاصة بالمأكل والمشرب أو وسائل المواصلات والنقل والصناعة".⁵

عرّفه عاطف غيث هو "أي تغير يطرأ على جانب معين من جوانب الثقافة المادية أو اللامادية سواء عن طريق الإضافة أو الحذف أو تعديل السمات أو المركبات الثقافية. ويمكن أن يحدث التغير الثقافي نتيجة لعوامل متعددة ولكنه في الغالب يحدث بفعل الاتصال بثقافات أخرى أو التجديدات والمخترعات التي تدخل ثقافة معينة".⁶

التعريف الإجرائي :

¹ - د. دلال ملحس أستيتية، التغير الاجتماعي والثقافي، دار وائل، عمان الأردن، ط3، 2010، ص23.

² - نفس المرجع، ص21.

³ - Herskovits.M, Cultural Anthropology, Indian Press, Bombay, India, 1969, p474.

⁴ - د. دلال ملحس أستيتية، مرجع سابق، ص77.

⁵ - نفس المرجع، ص 76.

⁶ - محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1995، ص100.

التغير الثقافي هو كل تحول يطرأ على المكتسبات الثقافية للأفراد (معنوية ومادية) ويظهر في سلوكهم ضمن حيز مكاني ووفق سيرورة زمنية.

- تجدر الإشارة إلى أن بعض المفاهيم الثقيلة المذكورة بالفرضيات لم يتم تحديدها في تحديد المفاهيم وهي: المرض الاجتماعي، الثقافة،... حيث تم التطرق إليها في الفصول المخصصة لذلك.

7/ المنهج والتقنيات المستعملة في الدراسة:

- إن كل بحث علمي يستخدم منهجا يعتمد عليه للوصول إلى الحقائق بكل موضوعية وأمانة علمية، وهو أداة فعالة في تصميم البحوث وتحليل الجداول واستنتاج النتائج، فالمنهج هو "الطريقة التي يتبعها الباحث في دراسة المشكلة لاكتشاف الحقيقة"¹ وسنستعمل في دراستنا المناهج الآتية:

1/ المنهج الوصفي التحليلي:

ويقصد بالتحليل "عملية ذهنية منطقية تقوم على تفكيك الموضوع للمدرس إلى أجزاء أساسية بغية دراسة هذه الأجزاء دراسة مفصلة، بهدف فهم العناصر التي تتكون منها فهما دقيقا."²
- إذ سنقوم بدراسة وفهم المقاربة السوسيولوجية للمجتمع الجزائري عند مالك بن نبي بتحليل الأفكار المحددة في تساؤلات الدراسة وهي: المرض الاجتماعي، الثقافة، والتغير الاجتماعي والثقافي... ذلك أن التحليل يقوم بفك العناصر المكونة للشيء إلى جزئيات أساسية، بغية فهم تركيبها الداخلي من جهة وبغية فهم الآليات التي تتبعها هذه العناصر في تشكيل الظاهرة.³ وعليه لفهم المقاربة السوسيولوجية مالك بن نبي في كلياتها لابد من تفكيكها إلى الأجزاء المكونة له وهي: الثقافة، المرض الاجتماعي، والتغير الاجتماعي والثقافي، ثم تحليل كل جزء إلى جزئياته، لفهم الثقافة والمرض الاجتماعي مثلا يجب التطرق إلى التعريفات، الخصائص، الأنواع و... الخ.

2/ التقنيات المستعملة: تعتبر وسيلة من وسائل البحث العلمي، أو أداة من أدوات البحث

العلمي والتي بواسطتها نقوم بجمع المعلومات المتعلقة بموضوع البحث، فهي عبارة عن وسائل علمية تساعد الباحث على جمع الحقائق والمعلومات.

¹ - محمد عبد الكريم غريب، البحث العلمي، التصميم والمنهج والإجراءات، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، 1982، ص 77.

² - Frederic Maatouk, Dictionary of Sociology (English, French, Arabic), Academia, Lebanon, 1993, p 37.

³ - Ibid, p 38.

1/ تحليل المحتوى : "هي تقنية غير مباشرة للتقصي العلمي، تطبق على المواد المكتوبة،

المسموعة أو المرئية، والتي تصدر عن الأفراد أو الجماعات.¹

إذن هي "الوسيلة الأساسية لدراسة عملية الاتصال في معناها والأسس التي تقوم عليها ودينامياتها

كما تتجسد في أحاديث الناس وفي كتاباتهم وفي نسق المعاني المتبادلة بينهم.²

وفي العموم يسعى تحليل المضمون إلى تحديد المفاهيم الدلالية العامة، والسمات الأسلوبية المميزة

وتحديد الموضوعات الأساسية.³

وهو أيضا "أداة للبحث تستخدم في وصف وتحليل محتويات المؤلفات أو الأقوال، أو الأخبار

أو الصور أو الأحاديث العامة أو الرسائل ويتم ذلك عن طريق تصنيف منظم للمادة موضوع الدراسة

إلى فئات معينة، ثم يعبر عنها بصيغ كمية وتستخدم هذه الطريقة عادة في دراسة مضمون وسائل

الاتصال.⁴

"إن منهجية تحليل المحتوى قائمة على معطيات علمية، خاصة في تجنبها للتحليل الذاتي، وبحثها

عن المعنى الموضوعي للمعطيات، ومعرفة اللغة، فالجهل باللغة ورموزها يعني جهل المعنى الذي

ترمي إليه."⁵

والهدف من استخدام هذه الوسيلة هو الوصول إلى بناء نتائج علمية من خلال التدرج في مراحل

تطبيقه وتقسيم النص إلى وحدات، وقد عرفه لورانس باردان "أنه مجموعة من الوسائل المنهجية

المتقنة ودائمة التحسن والمطبقة على خطابات مختلفة بحيث الهدف من هذه التقنيات المتعددة هو

الوصول إلى حل مبني على الاستنتاج.⁶

¹ - مورييس أنجريس، منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، تر بوزيد صحراوي، كمال بوشرف، سعيد سيعون، دار القصب، الجزائر، 2004، ص219.

² - د. عدلي أبو طاحون، مناهج وإجراءات البحث الاجتماعي، المكتب الجامعي الحديث، اسكندرية، مصر، 1998، ص179.

³ - د. فاطمة القليني، د. هناء الجوهري، د. منى الفزناني، د. ألفت حسن أغا، د. محمد الجوهري، علم الاجتماع الإعلامي، دار القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، ط1، 2001، ص348.

⁴ - محمد عاطف غيث، مرجع سابق، ص 88.

⁵ - ناصر قاسمي، التحليل السوسولوجي نماذج تطبيقية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2017، ص84.

⁶ - Laurence Bardin, L'analyse de contenu, presses universitaires de France, Paris, 2^e édition, 4^e trimestre 1980, p09.

حيث قمنا بتحديد المفاهيم الأساسية في فكر مالك بن نبي والمرتبطة بفرضيات الدراسة أي المتعلقة بالثقافة والمرض الاجتماعي والتغيير الاجتماعي والثقافي، وهذه المفاهيم تمثل فئات التحليل، بعدها استخرجنا أهم المفاهيم المتعلقة بكل فئة تحليل والذي يمثل كل مفهوم وحدة من وحدات التحليل ثم حسبنا تكرار كل فئة أو وحدة ضمن جدول كلي ثم جزأناه في جداول فرعية مقدمين في كل مرة القراءة السوسولوجية من تحليل مقارنات وتركيب ومن ثمة الاستنتاج.

2/ المقارنة:

وظفناها في مقارنة الأحداث من جهة ومقارنة مواقف ونظريات وأفكار مالك بن نبي مع العديد من المفكرين والمنظرين، وإيجاد نقاط الالتقاء ونقاط الاختلاف بالنظر إلى خصوصية كل مفكر وخصوصية التكوين الديني والفكري والحضاري لكل مفكر.

8/ الدراسات السابقة:

رَكَّزْنَا فِيهَا عَلَى أَهَمِّ الدَّرَاسَاتِ الَّتِي عَالَجَتْ ظَوَاهِرَ التَّغْيِيرِ الاجتماعي أو التَّغْيِيرِ الثقافي ومظاهر المرض الاجتماعي، وكذا الخصائص الثقافية أو الموروث الثقافي للمجتمع الجزائري عبر مراحل تاريخية مختلفة فهناك باحثين درسوا هذا التغيير عبر تطوره التاريخي بينما درس آخرون عدة ظواهر اجتماعية مابعد الاستقلال، وأخلال فترة التسعينات أو الألفينيات، تحمل خصوصية كل فترة.

تجدر الإشارة أنّ الدراسات المتعلقة بفكر مالك بن نبي فقد خصصنا لها المطلب الثالث من المبحث الثاني للفصل الثاني المعنون "حياة مالك بن نبي والبيئة التي عاش فيها"

-الدراسات الجزائرية:

الدراسة الأولى

- الدين والطقوس والتغيرات،¹ الدكتور نور الدين طوالي، ترجمة وجيه البعيني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988.

يشتمل هذا الكتاب على 319 صفحة من الحجم المتوسط مقسم إلى قسمين (نظري وتطبيقي) واثنى عشر (12) فصلا وهي:

القسم الأول: نظرية يشمل على 6 فصول وهي: الفصل الأول: المجال المفهومي. الفصل الثاني:

¹ - الدكتور نور الدين طوالي، الدين والطقوس والتغيرات، ترجمة وجيه البعيني، منشورات عويدات، بيروت، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988.

وظائف الطقوس الدينية والرمزية. الفصل الثالث: وظائف المقدس الاجتماعية. الفصل الرابع: التغير الاجتماعي في الجزائر: البحث عن الهوية الثقافية. الفصل الخامس: الثوابت التمهيدية، المشكلة والفرضيات. الفصل السادس: الطقوس في الإسلام، اعتبارات عامة.

القسم الثاني: سيكولوجية الطقس في الجزائر. يشمل على 5 فصول وهي:

الفصل السابع: تحقيق رقم 1: الطقوس المدنية والطقوس الريفية في الجزائر. ملاحظة حول الطريقة. الفصل الثامن: تحقيق رقم 1: الطقوس المدنية والطقوس الريفية في الجزائر. أسباب الانحراف. الفصل التاسع: تحقيق رقم 2: السلوكات المدنية، اعتبارات منهجية. الفصل العاشر: تحقيق رقم 2: السلوكات المدنية أو القلق إزاء التغير الاجتماعي، النتائج. الفصل الحادي عشر: تحقيق رقم 3: السلوكات الريفية أو المقاومات إزاء التغير الاجتماعي. الفصل الثاني عشر: وظائف الطقوس الدفاعية.

يعدّ هذا الكتاب دراسة اجتماعية ميدانية، منهجية وإحصائية، تتناول ممارسة مختلف الطقوس التي تعتبر مندرجة في إطار الدين الإسلامي: التقليدية الشرعية منها والبدعية، مع ما يرافقها من مظاهر ملازمة لها، بشكل أو بآخر. إنّه بحث في الختان، الزواج، الحج، احتفالات الأعياد، وفي زيارة الأضرحة وتقدّيس الأولياء، وإحياء حفلات الذكر وغيرها من الاحتفالات الطقسية المكرّسة لتكريم الأولياء ممّا لم يأت القرآن الكريم ولا الدين الحنيف على ذكره، من جهة أخرى، كطقوس الزردات، النشرات والوعادات... من جهة أخرى، هذا البحث يهتمّ بالممارسة الحالية للطقس في الجزائر، الذي يسعى للتعبير عنه وعن أولياته ووظيفته. وفي ذلك، يأخذ الباحث بعين الاعتبار ردود فعل العامة النفسية عليها، مستعملاً جداول إحصائية دقيقة. وهو يلاحظ بعض الممارسات الحديثة، الخارجة عن إطار الأصولية، كاحتفال بالميلاد ورأس السنة... محاولاً بذلك أن يكشف عن عملية الصراع البيوثقافي الذي يسود المجتمعات العربية الإسلامية عامة، والجزائر خاصة.

ويعتبر الدكتور نور الدين طوالي هذه الدراسة، وإن تمّت في الجزائر، إلّا أنّها قابلة للتعميم على كامل المجتمعات الإسلامية التي رزخت تحت نير الاستعمار والتي، بعد ذلك، ضاعت في متاهات الصراع بين الأصالية والانفصالية.

تقييم الدراسة الأولى :

- تركيز الدكتور نور الدين طوالي على الطقوس الاحتفالية الدينية والبدعية الرمزية الموجودة في المجتمع وتحليلها من الناحية النفس-ثقافية، كما قارن بين طريقة الاحتفال بها بين وسطين: المدينة والريف، باعتبار أنّ الطقس والدين من العناصر اللامادية للثقافة، بينما لم يوضّح لنا

جذورها التي أخرجت لنا طريقة الاحتفال. كما لم يقدم لنا أسباب انتشارها وماهي السبل للحد من بعض الطقوس البدعية التي تتنافى مع الدين الإسلامي بحكم أن المجتمع الجزائري مجتمع مسلم. ومايتوافق مع الدراسة التي نحن بصدها هو التطرق إلى التغير الاجتماعي في الجزائر من حيث هو البحث عن الهوية الثقافية أم هو تأكيد لها بالنظر إلى التغير الثقافي المصاحب له، وكذا من خلال إقامة الطقوس الاحتفالية في مناسبات اجتماعية ودينية والتي تأتي في أشكال جمالية معينة.

الدراسة الثانية:

- مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري (تحليل سوسيولوجي لأهم مظاهر التغير في المجتمع الجزائري المعاصر)، للدكتور: محمد السويدي.¹

يشتمل هذا الكتاب على 204 صفحة من الحجم المتوسط مقسم إلى سبعة (07) فصول وهي: الفصل الأول: الثورة الجزائرية وبناء المجتمع الجديد. الفصل الثاني: الشخصية والثقافة والشباب. الفصل الثالث: السكان الهجرة والتحصن. الفصل الرابع: مظاهر التنمية والتحديث في الجزائر 1962-1980. الفصل الخامس: الرفيف وسياسة التنمية. الفصل السادس: البداوة ومشكلات التوطن والتكامل. الفصل السابع: البداوة في أقصى الجنوب لدى الطوارق. تعرضت هذه الدراسة إلى موضوعات شتى من خلال تركيزها على قضايا تمس المجتمع الجزائري، منها ماهو سياسي، ثقافي، ديموغرافي، تنموي، ريفي، ومنها حتى مايمس بظاهرة البداوة... أي موضوعات سايرت سياسات التنمية والتخطيط في المجتمع الجزائري منذ الاستقلال، وعالجت بعض مظاهر التغير فيه، وهي في مجموعها تمثل مدخلا أو مقدمة سوسيولوجية لدراسة المجتمع الجزائري المستقل.

بدأ الكتاب بالثورة الجزائرية كمتغير أساسي في المجتمع الجزائري على اعتبار أن الثورة الجزائرية من أهم عوامل التغير الاجتماعي، ذلك أن التغير هو لب الثورة وجوهرها، لأنه ينبع من ذات الجماعة التي تستشعر الحاجة إلى الثورة، فيكون تعبيراً عن إرادة أفرادها، معتمداً على إمكانياتهم وطاقاتهم الذاتية، مستوعبا حاجاتهم ومشكلاتهم، هادفاً إلى تحقيق آمالهم في مستقبل أفضل، إذ يعتبر الباحث الثورة الجزائرية حققت الاستقلال السياسي فحسب، ووضعت أسس حياة اجتماعية جديدة بمختلف جوانبها السياسية والاقتصادية والفكرية والثقافية.. كما حاول أن يتجاوز المفهوم التقليدي للثورة الجزائرية الذي يجمد فاعليتها عند العمل العسكري لتحقيق الاستقلال السياسي، وربط

¹ - د. محمد السويدي، مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري (تحليل سوسيولوجي لأهم مظاهر التغير في المجتمع الجزائري المعاصر)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1990.

بين مختلف مظاهر التّغير وفاعليّة الثّورة الجزائرية، باعتبار أنّ الثّورة الجزائرية لم تقف عند تاريخ 1962/07/05 وإنما حملت في طيّاتها تحوّلًا حاسمًا وبعيد المدى في النّظام السّياسي والنّظام الاقتصادي والعلاقات الاجتماعيّة، وفي البناء الفكري للمجتمع الجزائري، يسند لها في ذلك تخطيط موجّه بفلسفة اجتماعيّة (إيديولوجية) تستوعب تاريخ الشّعب الجزائري وحاضره، من أجل وضع قواعد متينة لمستقبله.

وهكذا اعتبرت هذه الدّراسة الثّورة الجزائرية كمتغيّر أساسي ومن ثمّ عالجت الشّخصية والثّقافة والشّباب، وظواهر الهجرة والتّحضر والتّحديث، وسياسات تنميّة الرّيف والباديّة... وغيرها، ومتغيّرات تأثّرت- إلى حدّ كبير- بإنجازات الثّورة، فمسّها التّغير، بما فيه من إيجابيّات عميقة، وبما يحمله من سلبيّات عارضة وهذه طبيعة التّغير.

تقييم الدّراسة الثّانية:

- إرجاع الدّكتور: محمد السّويدي التّغير الذي مسّ النّظام السّياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري، الذي عرفه المجتمع الجزائري إلى نتائج الثّورة الجزائرية (1954-1962) واعتبارها متغيّر أساسي، لهذه النّتائج إنجازات وإيجابيّات عديدة عميقة على جميع الأصعدة منها: الشّخصيّة، الثّقافة، الشّباب، الهجرة، التّحضر والتّحديث، فهذه الدّراسة ورغم نشرها سنة 1990، فهي تأكيد لتأثير دور الثّورة حتّى بعد أكثر من 30 سنة، باعتبارها أهمّ عوامل التّغير الاجتماعي في المجتمع الجزائري.

- إنّ التّغير الاجتماعي هو ظاهرة مستمرة ومتجدّدة. لانتوّف عند إنجازات الثّورة، فالثّقافة والعلم لهما نصيب في التّغير الاجتماعي، بما في ذلك حالًا ممن مظاهر تكنولوجيا الاتّصال وضرورة تأقلمها مع حاجات المجتمع. وبالتالي يتوجّب عند تبني الدّولة الجزائرية إيديولوجيّة سياسيّة واتّجاهها اقتصاديًّا أن يتماشى مع ميكانيزمات وأهميّة التّغير الاجتماعي عن طريق التّخطيط والتّوجيه الذين أكّد عليهما المفكر مالك بن نبي.

- الدّراسة الثّالثة: مقارنة ثقافيّة للمجتمع الجزائري (دراسة لبعض الملامح السّوسيوثقافيّة واقتصاديّة)، للدّكتور: معمر داود.¹

جاء الكتاب في 285 صفحة من الحجم المتوسّط، يعدّ هذا الكتاب مجموع جهد متعدّد الجوانب في العلوم الاجتماعيّة، تمّ جمع وضبط محتواه في قسمين كبيرين: وإحدى عشر فصلا وهي:

¹ - الدّكتور: معمر داود، مقارنة ثقافيّة للمجتمع الجزائري (دراسة لبعض الملامح السّوسيوثقافيّة والاقتصاديّة)، أيدكوم للنشر والتّوزيع، قسنطينة، الجزائر، 2013.

القسم الأول: الجانب الاجتماعي والاقتصادي: اشتمل على مواضيع مختلفة ترتبط بالخدمة والرعاية الاجتماعيتين للعمال والمسنين، وملامح التنشئة الاجتماعية والعنف المصاحب لها، وتنمية الصحة بالمجتمع، إضافة إلى التعرض للمؤسسات الاقتصادية وتسييرها والتركيز على أهمية وفعالية إدارة الموارد البشرية، وجاءت فصوله كمايلي:

الفصل الأول: ملامح التنشئة الاجتماعية والعنف. الفصل الثاني: الخدمة الاجتماعية في المجال الصناعي. الفصل الثالث: الرعاية الاجتماعية للمسنين بالجزائر. الفصل الرابع: دور الصحة في تنمية المجتمع. الفصل الخامس: فعالية تسيير الموارد البشرية في المؤسسة الاقتصادية. الفصل السادس: وضعية تسيير المؤسسة العمومية بالجزائر.

القسم الثاني: الجانب النفسي والتربوي، يدور حول معالجة العديد من المواضيع المرتبطة بالانحراف، والجريمة على الخصوص، وانعكاساتها على المجتمع ومحاولة الوقاية والحماية منها، بالإضافة إلى الاهتمام بمجال محو الأمية وربطه بالتنمية من أجل تثقيف وتربية المجتمع، كما تم التركيز على أهمية الإصلاح بالمجتمع الجزائري في مجالاته المتعددة، واستمد المؤلف نموذج بن باديس في ذلك من خلال اهتمامه بالإصلاح الديني والتربوي والاجتماعي، وكذلك الإصلاح الاقتصادي والسياسي، وهي المجالات التي أسهم بها بن باديس لإصلاح وبناء المجتمع الجزائري. الفصل السابع: الانعكاسات النفسو-اجتماعية والمادية للانحراف. الفصل الثامن: انعكاسات الجريمة عند الشباب الجزائري. الفصل التاسع: نظرة وقائية للشباب من الانحراف. الفصل العاشر: آثار محو الأمية في عملية التنمية. الفصل الحادي عشر: الدور الإصلاحي في الجزائر-ابن باديس نموذجا-

- تقييم الدراسة الثالثة:

جاءت هذه الدراسة في شكل مجموعة دراسات عن: رعاية العمال والمسنين، التنشئة الاجتماعية والعنف، الصحة، إدارة الموارد البشرية في المؤسسات الاقتصادية، الانحراف والجريمة، الأمية، الدور الإصلاحي في الجزائر. إلا أن الدكتور: معمر داود لم يربطها بمستوى التغير الاجتماعي والثقافي، وأثر هذه الظواهر على الفعالية الاجتماعية والعمل المشترك في المجتمع. ومماكانة الأخلاق والجماليات والتخطيط والحس الفني والحرفي في مواجهة السلبيات؟ ومامدى غنى وصمود الثقافة الجزائرية للظواهر السلبية؟

-الدراسة الرابعة:

- الثقافة والشخصية الوطنية، سليمان بشنون.¹

جاء الكتاب في 191 صفحة من الحجم المتوسط متتبعا الباحث ثقافة المجتمع الجزائري، باعتبارها متعددة المراحل في ماضيه قبل الفتح الإسلامي. ثم ما مرّ به هذا المجتمع في عهد الفينيقيين والوندال يليه عهد الرومان وجاء بعده الفتح الإسلامي ثم جاء الأتراك وبعدهم داهمه الاستعمار الفرنسي، وفي هذه الحقبة دخل إلى الجزائر لفييف من الأجناس هذا فرنسي وذاك يهودي والآخر الايطالي ثم المالطي. وبعد الاستقلال دخلت فيه أجناس عديدة.

عالج الباحث ثقافة المجتمع الجزائري ومراحلها التي مرّ بها عبر تاريخه الطويل المليء بالمحطات والنكبات.

اشتمل الكتاب على العناوين التالية: الثقافة - دور الفن في قضية التعريب - نجاح التعريب رهن بتعاون القمة والقاعدة - خطورة ازدواجية التعليم في التحضير الأول والثاني.

تقييم الدراسة الرابعة:

- تركيز الباحث: سليمان بشنون على التتبع التاريخي للمجتمع الجزائري من خلال مراحل الاحتلال الفينيقي والوندالي وكذا الروماني، ليصل على الفتح الإسلامي والتواجد العثماني ثم الاحتلال الفرنسي ودخول العديد من الأجناس للجزائر في هذه المرحلة وأخيرا مرحلة مابعد الاستقلال، ليضع القارئ أمام حقيقة أنّ ثقافة المجتمع الجزائري قد تأثرت بهذه السيرة التاريخية عبر قرون عديدة.

كما عالج قضايا: الثقافة، الفن والتعريب، شروط نجاح التعريب، ازدواجية التعليم في التحضير. - عدم توضيح آثار هذا التعدد للأجناس التي مرّت على المجتمع الجزائري على الثقافة الجزائرية، وشخصية الفرد الجزائري وطبيعة الإضافات التي قدّمتها والسلبات التي أحدثتها.

- أمّا مابعد الاستقلال فرغم مواجهة الدولة والمجتمع الجزائري لسياسة الفرنسة والقيام بعملية التعريب على مستوى المؤسسات الإدارية والتعليمية، إلا أنّ الدراسة لم تتطرق إلى مشكلة القابلية للاستعمار التي بقيت تسيطر على المجتمع من خلال الولع بأشياء ومنتجات الغير بدل انتاجها.

الدراسة الخامسة:

- الثقافة والشخصية الجزائرية (من ماسينيسا إلى أيامنا هذه)، مغربي عبد الغني²

اشتمل الكتاب على 151 صفحة، مقسمة إلى خمسة فصول هي:

¹ - سليمان بشنون، **الثقافة والشخصية الوطنية**، دار هومة، بوزريعة، الجزائر، 2013.

² - Abdelghani Megherbi, **Culture et personnalité algérienne de Massinissa à nos jours**, ENAG, Algerie, 1981.

الفصل الأول: ماهي الثقافة. الفصل الثاني: الإسلام: ثورة ثقافية كونية. الفصل الثالث: تكوين الشخصية الجزائرية: من ماسينيسا إلى عبد القادر. الفصل الرابع: المجتمع المستعمر: تثقيف أوقضاء على الثقافة؟ الفصل الخامس: ثورة ثقافية والشخصية المتمركزة ذاتيا: ثورة ثقافية وأشخصية أنانية.

-ألف هذا الكتاب في مرحلة مليئة بالأحداث، وفي فترة وجيزة جدًا، الثقافة والشخصية في المجتمع الجزائري هي دعوة حيوية لجميع القوى الوطنية الجزائرية من أجل إثراء واستكمال أحداث ثورة نوفمبر 1954.

لا يمكن أن تكون هذه النتيجة إلا بإنشاء مجتمع اشتراكي بألوان جزائرية نموذجية. هذا الكتاب هو أيضًا رسالة لشعوب العالم الثالث، حريصة على التخلص من التبعية المتعددة الأوجه التي تفرضها اللاواقعية.

تقييم الدراسة الخامسة :

- قيام الباحث: مغربي عبد الغني بالتتبع التاريخي لتكوين الشخصية الجزائرية من ماسينيسا إلى الأمير عبد القادر لكونه مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة حسب المؤرخين والسياسيين.

- جاءت الدراسة بعد الاستقلال خلال الفترة التي تبنت فيها الدولة الجزائرية النموذج الاشتراكي في العملية الاقتصادية والإنمائية للمجتمع، فكانت الدراسة تدعينا لهذا التوجه واستكمال مبادئ ثورة نوفمبر 1954، مؤكداً الباحث على أن يكون تطبيق النموذج الاشتراكي بطابع نموذجي جزائري.

- إغفال الباحث كيفية مجابهة تحديات مابعد الاستقلال اجتماعياً وثقافياً، وكيفية إحداث التغيير الاجتماعي والثقافي اللازم لمواجهة الصعوبات وبناء شخصية جزائرية، قادرة على إثبات نفسها داخل الجزائر وخارجها (دولياً).

الدراسة السادسة:

- نفسية الشعب الجزائري (دراسة في الانثروبولوجيا النفسية)، للدكتور: أحمد بن نعمان¹

اشتملت الدراسة على 174 صفحة من الحجم المتوسط، مقسمة إلى ثمانية فصول هي:

القسم الأول: المنظور الانثروبولوجي للثقافة

الفصل الأول: معنى الانثروبولوجيا. الفصل الثاني: علاقة الثقافة بالشخصية. الفصل الثالث: نشأة الثقافة. الفصل الرابع: نشأة الشخصية.

¹ - د.أحمد بن نعمان، نفسية الشعب الجزائري (دراسة علمية في الأنثروبولوجيا النفسية)، دار الأمة، الجزائر، 1994.

القسم الثاني: الشخصية "القومية" للمجتمع الجزائري

الفصل الخامس: المحدّدات الثقافية للمجتمع الجزائري، الفصل السادس: التّراث الشعبي ودراسة الشخصية القومية. الفصل السابع: الأمثال الشعبية، المفهوم والوظيفة وطريقة الدراسة. الفصل الثامن: السمات الأساسية للشخصية القومية للمجتمع الجزائري وشواهدا الثقافية في الأمثال الشعبية، والملاحظة المباشرة للسلوك الاجتماعي.

- تدخل هذه الدراسة في مجال الانثروبولوجيا الثقافية، وهي تتناول السمات والخصائص النفسية للمجتمع الجزائري على ضوء تحليل المضمون للأمثال الشعبية التي تعتبر جزءا أصيلا في ثقافة أي مجتمع بشري، كما هو مفصل في الجزء النظري من الكتاب، وقد توصل المؤلف من خلال هذه الدراسة الى استنتاج وتحديد 44 سمة نفسية مفصلة في فصول هذا الكتاب والتي تظهر فيه الخصائص النفسية والثقافية الجوهرية لشخصية الفرد الجزائري وملامحها العامة.

المنهج: التزم الباحث:

- منهج تحليل المضمون للأمثال الشعبية ذات الطابع الشمولي المعبر عن القيم السائدة في مجتمع الجزائري والعاكسة للسمات الأساسية للشخصية القومية لهذا المجتمع.

واستعمل أداة مهمة في البحث العلمي وهي الملاحظة المباشرة لسلوكات الأفراد داخل المجتمع.

الهدف من الدراسة: معرفة مدى مطابقة الموضوعات التي تتضمنها الأمثال الشعبية مع الحياة العملية وأنماط السلوك العام للأفراد الذين يمثلون السمات الأساسية المراد اكتشافها وتحديدتها في المجتمع الجزائري.

تقييم الدراسة السادسة:

-الدراسة أنثروبولوجية اجتماعية، وإن كانت الأمثال تدخل ضمن الموروث الثقافي اللامادي للمجتمع الجزائري فإنّ الباحث درسها من حيث أنّها تعكس نفسية الشعب الجزائري وشخصية الفرد الجزائري.

- الكثير من هذه الأمثال الشعبية تحمل معانيًا لقيم أخلاقية واجتماعية واقتصادية يتسم بها الفرد الجزائري، والتي تظهر في شكل السلوك الاجتماعي، والباحث لم يبيّن طريقة اكتسابها وانتشارها في المجتمع الجزائري، وماهي الخصوصية الثقافية التي أحدثتها في أسلوب حياة المجتمع الجزائري؟

الدراسة السابعة:

- قراءات في المجتمع الجزائري (مجموع مقاربات سوسيو-أنثروبولوجية) للدكتور: عبد العزيز

جاءت الدراسة في 285 صفحة، اشتملت الدراسة على عشرة فصول موزعة على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المسألة الدينية: الممارسات والتجليات،

الفصل الأول: الخطاب الديني وأزمة المرجعيات في الجزائر، الفصل الثاني: علم الاجتماع وأسلمة

المعرفة في الجزائر: قراءة في علم الاجتماع الإسلامي "المحتوى ودواعي النشأة.

القسم الثاني: أوراق تربوية وابستمية: ملامسات وبناءات.

الفصل الثالث: الإدارة الصفية في الوسط الجامعي الجزائري (حالة العلوم الاجتماعية: ثغرات

ومقترحات)، الفصل الرابع: الإشكال المعرفي والتربوي في النص الخلدوني، الفصل الخامس:

النقاشات المنهجية التأسيسية الكبرى في فلسفة العلوم الاجتماعية.

القسم الثالث: الأنثروبولوجي وسوسيولوجية المحلي: العمق واكتشاف الذات.

الفصل السادس: البدو التوارق: جدلية الإنسان والطبيعة ملامسة سوسيو-أنثروبولوجية. الفصل

السابع: ساحة السوق التقليدية: من علاقة الأنا بالآخر إلى التقسيم الفئوي للمجال (حالة قرية بني

يزقن- وادي مزاب). الفصل الثامن: خصائص المخطوط المغاربي دراسة سوسيو-شكلية: مكتبة

الشيخ : امحمد بن سليمان ابن ادريسو بمزاب نموذجاً. الفصل التاسع: قراءة في كرايس مصاريف

طلبة البعثة المزابية بتونس. الفصل العاشر: مزاب سوسيو-أنثروبولوجيا: قراءة بيبليوغرافية.

قدم الباحث هذه الدراسة بعدما تعرض إلى الحوارات الهوياتية في المجتمع الجزائري والمقاربات

المتعلقة به وهي: البربرية- العربية- الكولونيالية- المدرسة التاريخية الجزائرية، تشمل على

المقالات التي تلامس مسائل متعددة عن واقع مجتمع عرف ويعرف باستمرار تحولات وانقلابات

فكرية وقيمية متسارعة ومفاجئة أحيانا. وهي بذلك تسجل لحظات متباينة من تاريخ التفكير الذاتي

في الذات الوطنية والمجتمعية خلال عقد من الزمن. إنما أيضا محطات من القلق الابدستيمولوجي

والتنقيب العلمي.

تقييم الدراسة السابعة:

- تتوافق هذه الدراسة مع دراستنا من حيث تناول الباحث مقارنة للمجتمع الجزائري من خلال

النظر إلى مجموعة مقاربات سوسيوثقافية المتعلقة بهذا المجتمع.

- التركيز على دراسة سوسيو-انثروبولوجية لسكان منطقة من صحراء الجزائر وهي بني مزاب

¹ - د.عبد العزيز بن محمد خوجة، قراءات في دراسة المجتمع الجزائري (مجموع مقاربات سوسيو-أنثروبولوجية)، نور للنشر، ألمانيا، 2017.

أكثر من المناطق الأخرى.

الدراسة الثامنة:

المشكلة الثقافية في الجزائر (التفاعلات والنتائج) للدكتور: بن قينة عمر¹

جاءت في شكل كتاب يتألف من 157 صفحة من الحجم المتوسط، اشتمل على ثلاثة أقسام؛ القسم

الأول: اشتمل على فصلين هما: المشكلة الثقافية في الجزائر (التفاعلات والنتائج)

المشكلة الثقافية بين الإرادة الاستعمارية ومواثيقنا الوطنية

اشتمل كل منهما على عدة عناوين.

القسم الثاني: المسألة البربرية (الأمازيغية) في ثلاث محطات رئيسية (1949-1999) بـ(الجزائر)

بين الحقبة الوطنية والفعل الفرنسي: أمس واليوم.

القسم الثالث: مقالات قصيرة في المشكلة الجزائرية، ذات الظلال المتداخلة ثقافياً وفكرياً وسياسياً

واجتماعياً.

جاءت الدراسة في شكل مجموعة عناوين ومقالات كتب الباحث أغلبها في الدوحة بدولة قطر سنة

1999، حاول فيها تشريح المشكلة الثقافية في الجزائر وربطها بالظروف السياسية والاقتصادية

والفكرية والاجتماعية السائدة قبل التسعينات، إضافة إلى آثار مخلفات الاحتلال الفرنسي في

الجزائر ..

النتائج:

توصل الباحث إلى العديد من النقاط في تحليله للمشكلة الثقافية عدّد أهمّها فيمايلي:

- دخل الاستعمار الجزائر ولم تعرف تاريخياً مشكلة ثقافية وخرج وقد ترك إرثاً من بؤر الصراع،

فأقحمتنا في ثقافة التدمير الذاتي، انطلاقاً من ثقافة النسيان وثقافة الصراع والحد.

- المشكلة الثقافية نبتت من تسيب سياسي وفراغ فكري روحي في سياسة الدولة، في موازاة

تناقضات سياسية واجتماعية وايدولوجية، وفروق اقتصادية واجتماعية حادة جداً.

- المشكلة الثقافية بدأت تنمو في ظل الاحتلال الفرنسي منذ 1830 حتى بلغت الأوج في آخر

عشرية من القرن العشرين، ابتداء من 1991 بإدانة أجنحة سياسية وحزبية.

تقييم الدراسة الثامنة:

1. تركيز الباحث على أسباب المشكلة الثقافية أكثر من كيفية مجابته.

¹ - د. بن قينة عمر، المشكلة الثقافية في الجزائر (التفاعلات والنتائج)، دار أسامة، عمان، الأردن، ط1، 2000.

2. اهتمام الباحث بالظروف السياسية والفكرية والاقتصادية والتاريخية للمشكلة الثقافية دون الاجتماعية.

3. عدم تشريح الباحث لمظاهر المشكلة الثقافية في الواقع الاجتماعي، ومدى علاقتها بالتغيير الاجتماعي والثقافي.

4. عدم تطرق الباحث إلى تأثير أعراض المرض الاجتماعي في ثقافة المجتمع.

9/ المقاربة السوسولوجية:

- يقصد بالمقاربة السوسولوجية تحديد النظرية المندرج ضمنها موضوع الدراسة، كما تمثل الخطوة المنهجية التي من خلالها يتمكن الباحث من تحديد إشكالية الدراسة، وكذا بناء الفرضيات التي تمكنه من التأكد من أسئلة الإشكالية، "والمقاربة المنهجية" عبارة عن إطار فكري يفسر مجموعة من الفروض العلمية ويصنفها في نسق علمي مرتبط.¹

فكل دراسة في حاجة إلى توظيف أو الانطلاق من نظريات اجتماعية، إذ من خلال الإطار النظري يتم تحديد الزاوية الفكرية التي على ضوءها يقوم الباحث بمعالجة الموضوع، وذلك لأن كل ظاهرة اجتماعية يمكن دراستها من زوايا مختلفة فالمقاربة "بمثابة تحديد الزاوية الفكرية أو الاتجاه النظري الذي نتناول منه دراستنا".²

- سنعتمد في دراسة المقاربة السوسولوجية عند مالك بن نبي على النظرية البنيوية التحليلية من خلال تحليل بنية المعرفة "ذلك أن البنية المعرفية، أي انفتاح المعرفة الداخلي على استيعاب مزيد من المعارف، هي الجسر الذي يسمح لنا بتطوير معارفنا والانتقال به من سجل إلى سجل".³ وطبيعة الدراسة هي دراسة نظرية تحليلية وصفية تتعمق في تحليل البنية الفكرية لمالك بن نبي بمراعاة الظروف التي ساهمت في بلورتها وعلاقتها بالبنى المعرفية الأخرى. إذ يرى "ابن خلدون في مقدمة كتاب العبر أن الصنائع والعلوم تغنينا على صعيدين متميزين: 1- على الصعيد الكمي تكسبنا كمية من المعلومات الجديدة.

¹ - طلعت همّام، قاموس العلوم النفسية والاجتماعية، مؤسسة الرحلة، بيروت، ط1، 1984، ص70.

² - عمار بوحوش، دليل الباحث في المنهجية وكتابة الرسائل الجامعية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص89.

³ - Frederic Maatouk, Dictionary of Sociology (English-French-Arabic), academia, Lebanon, 1993, p328.

2- على الصعيد النوعي تكسبنا بنية فكرية جديدة.¹

"يمكن إيجاز المحاور الكبرى أو مفردات التحليل لهذه النظرية في مجموعة من النقاط هي كالتالي: المطالبة بالدقة والصرامة العلمية في دراسة الظواهر الاجتماعية...

فهم الإنسان فهما مجرداً، بعيداً عن الاعتبارات الواقعية أو التاريخية...

اللغة هي المفتاح الرئيسي في التحليل البنوي...

التاريخ: ما يؤثر في التاريخ هو التفاعل الواعي في صيغة الأحداث والتأثير فيها...

هدف التحليل الاجتماعي للنظرية البنيوية هو التقريب بين ماهية النسق وخصائصه الجوهرية ووجوده كبنية...

لا يمكن تحليل الظواهر الاجتماعية في جزئياتها وفروعها دون الرجوع إلى الكل...²

كما يشار إلى توظيف النسق في النظرية البنيوية إلى أنه: "يوظف النسق كأداة في التحليل البنوي على أساس أنه يدرس الظواهر من خلال ترابط عناصرها فيما بينها، وتحليلها في شكل بنائها لامنغزة عن بعضها البعض."³

فالبناء الفكري لمالك بن نبي سيكسبنا جملة من المعطيات والمعلومات الجديدة في المجال المدروس والمتعلق بالمرض الاجتماعي والثقافة والتغيير الاجتماعي والثقافي، ومن جهة سنسعى من خلال تحليل ومناقشة ونقد هذا البناء الفكري إلى اكتشاف البنية الفكرية لمالك بن نبي ووضع لبنات لانشغال فكري جديد يكسبنا قلماً علمياً جديداً للبحث والتحليل.

- اعتمدت كذلك الدراسة على النظرية البنيوية الوظيفية فقد ربط البنويين الوظيفيين ربطاً علمياً بين الوظيفة والبناء إذ لانباء بدون وظيفة ولاوظيفة بدون بناء، "وقد استثمر علم الاجتماع فكرة البناء والوظيفة في دراسته للمجتمعات والجماعات والمؤسسات والمنظمات، فالمؤسسة أو النسق الفرعي له بناء يتحلل إلى عناصر بنيوية يطلق عليها الأدوار، ولكل دور وظيفة، وهذه الوظائف مكتملة بعضها لبعض، ذلك أنّ التكامل يكون بين البنى والوظائف."⁴ ومن أهم روادها: هربرت سبنسر، روبرت ميرتن، تالكوت بارسنز، هانز كيرث، سي. رايت ملز، ...

- ركزت النظرية البنيوية الوظيفية على عدّة مبادئ أهمّها:

¹ - Ibid, p 327.

² - د. عامر مصباح، علم الاجتماع الرواد والنظريات، دار الأمة، الجزائر، ط1، 2010، ص ص315، 316.

³ - نفس المرجع، ص317.

⁴ - احسان محمد الحسن، رواد الفكر الاجتماعي، دار الحكمة، بغداد، العراق، 1991، ص448.

- 1- المجتمع والجماعة أو المؤسسة يمكن تحليلها تحليلاً بنوياً وظيفياً إلى أجزاء وعناصر أولية...
 - 2- إنّ الأجزاء التي تحلل إليها المؤسسة أو المجتمع أو الظاهرة الاجتماعية إنّما هي أجزاء متكاملة..
 - 3- إنّ كلّ جزء من أجزاء المؤسسة أو النسق له وظائف بنوية نابعة من طبيعة الجزء. وهذه الوظائف مختلفة نتيجة اختلاف الأجزاء أو الوحدات التركيبية...
 - 4- الوظائف التي تؤديها الجماعة أو المؤسسة أو يؤديها المجتمع إنّما تشبع حاجات الأفراد المنتمين أو حاجات المؤسسات الأخرى، والحاجات التي تشبعها المؤسسات قد تكون حاجات أساسية أو حاجات اجتماعية أو حاجات روحية.
 - 5- الوظائف التي تؤديها المؤسسة أو الجماعة قد تكون وظائف ظاهرة أو كامنة أو وظائف وظائف بناءة أو وظائف هدامة...
 - 6- وجود نظام قيمى أو معيارى تسيّر البنى الهيكلية للمجتمع أو المؤسسة في مجاله...¹
- ويمكن تعريف البناء بأنّه مجموعة من العلاقات تقوم بين الوحدات. "الحياة الاجتماعية في أيّ مجتمع تعتمد على الأداء الوظيفي للبناء الاجتماعي، إذ تكون وظيفة أي نشاط متكرّر".²
- "إنّ البناء الاجتماعي يتألف من وحدات تمثّل الأشخاص أو مجموعة الزمر الاجتماعية التي تتكوّن من مجموعة من الأشخاص. وأنّ دراسة أي بناء اجتماعي تحدّد بالأساس في مجموعة العلاقات والروابط الاجتماعية بين الأشخاص أو الزمر الاجتماعية".³
- وقد حدّد تالكوت بارسونز (1902-1979) مجموعة من الأنساق الفرعية المكوّنة للمجتمع تعمل على مواجهة الضّرورات أو المتطلّبات أو اللّزوميّات الوظيفيّة وهي:
1. التّكيف Adaptation ويضطلع بها النسق الاقتصادي الفرعي.
 2. تحقيق الهدف Gaol Attainment ويقوم بها النسق السّياسي الفرعي.
 3. التّكامل Integration ويعمل على تحقيق الروابط الاجتماعية القائمة.
 4. المحافظة على النّمط Latency and Pattern Maintenance أوخفض التّوتر Tension

¹ - د. احسان محمد الحسن، النّظريات الاجتماعية المتقدّمة (دراسة تحليليّة في النّظريات الاجتماعية المعاصرة)، ط3، دار وائل، عمان، الأردن، 2015، ص ص56، 57.

² - د. شحاتة صيام، النّظرية الاجتماعية (من المرحلة الكلاسيكية إلى مابعد الحداثة)، دار مصر العربية، مصر، ط1، 2009، ص 54.

³ - نفس المرجع، ص 55.

Management ويكون من نصيب المؤسسات الثقافية ومؤسسات التنشئة الاجتماعية.¹

"وفي هذا السياق يحدّد راد كليف براون ثلاثة جوانب أساسية في كلّ نسق:

1. البناء الاجتماعي.

2. مجموعة العادات الاجتماعية

3. الأساليب الخاصة في التفكير والمشاعر والعادات والعلاقات الاجتماعية التي تؤلّف البناء الاجتماعي.²

يتشكّل المجتمع الجزائري من مجموعة أنساق منها: النسق السياسي، النسق الاقتصادي، النسق الديني، النسق التربوي، النسق الثقافي ... إذ قمنا بدراسة النسق الثقافي والاجتماعي والتعرف مدى التأثير والتأثر الذي يحدث على مستوى باقي الأنساق بحكم ارتباطها فيما بينها، بالنظر للوظائف المتداخلة بين مختلف الأنساق لتلبية حاجات الأفراد المنتمين إلى الجماعات أو المؤسسات داخل هذه الأنساق.

ويستعمل مفهوم النسق الاجتماعي: "لوصف جملة أفعال ونظم اجتماعية تعمل في إطار علاقات وظيفية متبادلة التأثير، وتتنظر بعض الاتجاهات الوظيفية للمجتمع كنسق"³ عالج المفكر بن نبي مفهوم الثقافة، بعناصرها والتي تمثل النسق الثقافي، بمختلف مركباتها وتداخل تأثيرها على البناء الثقافي والاجتماعي ككل.

كما وظّفت البنيوية الوظيفية في فهم منظور مالك بن نبي لعلاقة التغيير الاجتماعي بالتغيير الثقافي، فالتغيير الاجتماعي لا يكون إلا في جماعات ومؤسسات المجتمع الجزائري ومدى تأثيرها في بنائه الثقافي، وتأثير ذلك في بروز الأزمة الثقافية.

10/ صعوبات الدراسة:

- 1- ضبط الموضوع بطريقة سوسيولوجية تسمح بمعالجة الفكر البنوي في إطار علم الاجتماع.
- 2- تحديد المتغيرات المراد دراستها لتجنب الوقوع في تكرار ما سبق معالجته.
- 3- إخراج أفكار مالك بن نبي من الطابع الأدبي والفلسفي والتربوي الذي عولجت فيه سابقا وإعطائها الطابع السوسيولوجي.
- 4- تمييز المفاهيم السوسيولوجية عن المفاهيم الأدبية الفلسفية الاقتصادية والسياسية عند المفكر

¹ - نفس المرجع، ص 58.

² - نفس المرجع، ص 51.

³ - د. عبد المجيد لبصير، مرجع سابق، ص 443.

مالك بن نبي لتداخلها وترابطها لغويًا ووظيفيًا.

5- حصر الأفكار السوسيولوجية لمالك بن نبي بسبب توزع وانتشار فكره وتحليلاته السوسيولوجية في العديد من كتبه وضرورة الاطلاع عليها لأخذ نظرة عامة في موضوع الثقافة، المرض الاجتماعي، التغيير الاجتماعي، الأفكار، الحضارة، الدين، التاريخ،

الفصل الثاني :

حياة مالك بن نبي

والبيئة التي عاش فيها

تمهيد:

إنّ الظروف المحيطة بتنشئة الإنسان الاجتماعية وبمنهج حياته تعكس هامشا كبيرا من سمات شخصية ونمط تفكيره وطريقة تفاعله مع الآخرين، والتي تسمى العوامل المؤثرة، ويمكن تمييزها إلى: عوامل وراثية حيث يرث الإنسان صفات وراثية عن آبائه تتحدّد بتمازج الجينات الوراثية، وعوامل مكتسبة: حيث يكتسب الإنسان صفات من بيئته الاجتماعية.

فالعوامل الوراثية والعوامل البيئية تتشارك وتتفاعل في تحديد صفات الفرد، وتساهم في مستوى نضجه، وأنماط سلوكه ونمط تفكيره ومدى تفاعله مع محيطه.

ولمعرفة شخصية مالك بن نبي وفهم أفكاره لابدّ من معرفة طبيعة تنشئته الاجتماعية وظروف حياته "فالإنسان ابن بيئته" لهذا ارتأينا قبل التّطرق إلى المقاربة السّوسولوجية للمجتمع الجزائري عند مالك بن نبي معرفة سيرورة ومراحل حياته وأثرها في إنتاجه الفكري، من خلال تنشئته الأسرية، مراحل تعليمه وتأثيرات محيطه وكذا أسفاره وأخيرا أطلاعاته وقراءاته المتعدّدة.

ففي المبحث الأول: ركّزنا على حياة مالك بن نبي ورحلاته فقدّمنا في المطلب الأول نبذة تاريخية عن حياته، وفي المطلب الثاني تعرّفنا على رحلاته إلى كلّ من: فرنسا، مصر ثمّ العودة إلى الجزائر.

أمّا في المبحث الثاني فعرّجنا على المنابع والخصائص الفكرية عنده إذ خصّصنا المطلب الأول للمنابع الفكرية من تأثير البيئة الأسرية والمحيط الاجتماعي إلى قراءاته المتنوّعة من الكتب والمؤلّفات إلى الصّحف والمجلّات، إلى تأثير تكوينه العلمي، وكذا الشّخصيات الوطنية والدّولية. وفي المطلب الثاني تطرّقنا إلى الخصائص الفكرية لمالك بن نبي بيّنا فيه اتّجاهه الفكري وذكرنا إنتاجه الفكري، وكذا بعض الدّراسات عن فكره.

في حين جاء المبحث الثالث حول سمات البيئة التي عاش فيها مالك بن نبي فوضّحنا في المطلب الأول البيئة السّياسية والاقتصادية أثناء الفترة الاستعمارية، وفي المطلب الثاني البيئة الاجتماعية والثّقافية أثناء الفترة الاستعمارية، وأخيرا في المطلب الثالث تعرّضنا لأوضاع الجزائر بُعيد الاستقلال (بعد سنة 1962).

المبحث الأول: حياة مالك بن نبي ورحلاته

المطلب الأول: نبذة تاريخية عن حياته:

هو من أعلام الفكر الإسلامي العربي في القرن العشرين، شهدت فترة ميلاده وحياته أحداثًا تاريخية كبرى مسّت الجزائر والدّول العربيّة وحتّى + الدّولية، إذ أعقب سقوط الخلافة العثمانية احتلال الجزائر وتونس والمغرب، ممّا أفرز ظهور حركات جهاديّة تحرّرية أو دعوات إصلاحية، إضافة إلى قيام الحربين العالميتين، الأولى من 1914-1919، والثّانية من 1939-1945، كما عاش آثارهما على الشّعوب والأمم، وكذا الأزمة الاقتصادية العالميّة عام 1929.

- كان مولد المفكّر مالك بن نبي رحمه الله في شهر ذي القعدة 1323هـ الموافق لـ 01 يناير (JANVIER) 1905 بمدينة قسنطينة في الشّرق الجزائري، وهو ابن الحاج بن عمر بن الخضر بن مصطفى بن نبي في أسرة متديّنة ومحافظة حيث فتح عينيه على تحولات حوله في قسنطينة مسّت حتّى أسرته.

- "في عام 1910 عُيّن والده عمر بن نبي في وظيفة خوجة (كاتب مترجم) كمساعد مسلم لدى الإدارة الفرنسيّة في البلدية المختلطة لتبسّة.¹ حيث انتقل مالك صحبة أسرته إليها "وهناك بدأ يتردّد على الكتاب لحفظ القرآن، ويواصل دراسته في المدرسة الابتدائية، وبعد حصوله على الشهادة الابتدائية انتقل إلى الدّراسة في المدرسة الإعداديّة التي تخرّج فيها بتفوق ممّا أهّله للحصول على منحة لإكمال دراسته في المرحلة الثّانوية في مدينة قسنطينة.² يقرّ بذلك مالك بن نبي "وبذلك فقد حصلت في الشهادة الابتدائية على درجة جيّد، ... ومع ذلك فقد نجحت في امتحان المنح الذي كان له أكثر من معنى عند طفل من أبناء المستعمرات لا يستطيع أهله أن يرسلوه إلى (الليسيه) فمع هذه المنحة أستطيع متابعة دروسي في المرحلة التّكميليّة في قسنطينة.³

- تعدّ السّنة الدّراسيّة 1920-1921 سنة التحاقه بالمدرسة التّكنولوجيّة بقسنطينة، وكذلك بداية لمرحلة جديدة في حياته، ذات زخم علمي وثقافي وسياسي ووطني.... أثرى فيها معارفه بالاطّلاع والاحتكاك وعقد اللّقاءات والانضمام لمجالس العلم والثّقافة والسياسة، فبالموازاة مع دروسه في

¹ - Bennabi Malek, Mondialisation choisis par Ammara Abderrahmane, Dar el hadhara, Alger, Algerie, 2004, p3.

² - نورة خالد السّعد، التّغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي (دراسة في بناء النّظرية الاجتماعية)، الدار السعودية، جدة، السعودية، 1414هـ / 1997م، ص 25.

³ - مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، دار الفكر المعاصر، دمشق، سوريا، ط4، 1425هـ / 2004، ص 42.

المدرسة الثانوية تلقى دروسا في اللغة العربية فتعلّم الصّرف والنحو وحفظ الشعر، على يد الشيخ عبد المجيد الذي غرس فيه حاسة النقد الاجتماعي، وكذا تأثره بالسيد مارتان (MARTIN) الذي كان ينمي فيه ذوق القراءة وفن الكتابة.

"في هذه المرحلة أيضا بدأت تتبلور أفكار مالك وتتحد رؤيته السياسية والاجتماعية وقد تأثر فيها بالمناخ الثقافي العام الذي كان يسود منطقة الشرق الجزائري أو عمالة قسنطينة كما كانت تسمى أيام الاحتلال حيث شاع فيها روح الإصلاح والثقافة العربية، والاتصال بالشرق الإسلامي وحيث كان الشيخ عبد الحميد بن باديس يقوم بمهمته الإصلاحية، بالإضافة إلى ما اكتسبه من الصحف بمختلف اتجاهاتها كالشهاب والإقدام والإنسانية.¹ في السنوات التي سبقت 1925، الشاب مالك بن نبي تجول في الشوارع الأوربية بمدينة قسنطينة أين منازل الأثرياء التي كانت تخطف بصره.²

- تخرج مالك بن نبي عام 1925 بعد سنوات من الدراسة في الثانوي، وفي نفسه توق إلى فرنسا مع زميله "قاواو" بغية فتح باب لهما على العالم عكس أبواب الجزائر الموصدة في وجه أحلامهما وطموحتهما، فسافرا معا في صيف ذات السنة بحرا في سفينة من سكيكدة إلى عناية فمرسليا، أين يضطر مالك لبيع معطفه كي يستطيعا السفر إلى ليون ثم باريس بحثا عن عمل لكن بدون جدوى، ولما لم يحتملا برد باريس القارص، ولم يكن بجعبتهما مالا يقتاتان به طعاما يسدان به جوعهما ويدفئان به جوفهما، أرسل مالك إلى عائلته: أرسلوا دراهم للعودة معترفا "لم أعرف من باريس غير أنّ الأرضة الفارغة والممتلئة من معمل نيكولا (NIKOLAS) ومن بعيد كنت أرى برج إيفل وعليه اسم (CITROEN) بحروف مضيئة... عدت إلى الجزائر حاملا معي السؤال: ما العمل؟ ذلك السؤال الذي دفعني إلى المغامرة البائسة التي عشتها مع قاواو.³ وبعد عودته إلى تبسة تمّ تعيينه سنة 1927 عدلا في محكمة آفلو بالأغواط بالغرب الجزائري، وبعد عام في 1928 انتقل إلى محكمة شاتودان (Château d'un humel) شلغوم العيد حاليا "أين استقال على إثر خلاف مع الكاتب الفرنسي للمحكمة المدنية.⁴

- ليدخل في مشروع تجاري مع زوج أخته انتهى بالخسران وخيبة أمل، ومما ألمه أكثر كون شريكه يعيل أسرة وأولاد، فيتجدد مشروع السفر إلى الخارج، هذه المرة بتزكية من والده رغبة منهما

¹ - نورة خالد السعد، مرجع سابق، ص25.

² - Guy Perville, **Les étudiants algériens de l'université française 1880-1962**, préface de Mohamed Harbi, Casbah Édition, Alger, 1997, p255.

³ - مالك بن نبي، **مذكرات شاهد للقرن**، مرجع سابق، ص156

⁴ - Benamara Abderrahmane, op cit, p03

بالانضمام إلى مدرسة اللغات الشرقية، ليتسنى له بعد سنة التسجيل في كلية الحقوق، فاستقى مرة ثانية الباخرة من عنابة إلى مرسيليا، ومن هناك إلى باريس بالقطار، وحينما نزل في محطة ليون الفرنسية ذات يوم من شهر سبتمبر عام 1930 معلنا عن نفسه "لا أعود هذه المرة إلى وراء مثلما عدت المرة الأخيرة بعد النكسة التي أصابتنني مع رفيقي قاواو في صيف 1925".¹

المطلب الثاني: رحلاته

أولا : رحلة مالك بن نبي إلى فرنسا

- لقد كانت هذه الرحلة ذات طابع دراسي علمي، طمح فيها مالك بن نبي للدراسة بمعهد الدراسات الشرقية في باريس آملا في التخرج محاميا، فهيأ نفسه لامتحان الدخول واستعد له ثم اجتازه بكل ثقة في النجاح غير أنه سرد لنا حادثة علمه بالنتيجة المخيبة للأمال والمقررة مسبقا بقوله "لقد طلبني مدير المعهد وفي هدوء مكتبه الوقور شرع يشعري بعدم الجدوى من الإصرار في الدخول لمعهد، فكان الموقف يجلي نظري بكل وضوح هذه الحقيقة، إن الدخول لمعهد الدراسات الشرقية لا يخضع بالنسبة لمسلم - لمقياس علمي وإنما لمقياس سياسي. ونزلت كلمات المدير على طموحي نزول سكين المقصلة على عنق المعدم ... وفي ذلك اليوم لم يتحطم فقط أمني بل شعرت أن حلم والدتي ووالدي تحطم أيضا على صخرة الإرادة المقررة في خفاء لدى الدوائر".² الاستعمارية في فرنسا مثلما في الجزائر، ليضطر لتعديل أهدافه والالتحاق بمدرسة اللاسلكي القريبة من مدرسة اللغات الشرقية، ليتخرج منها كمساعد مهندس سنة 1936.

"بباريس احتك أكثر بجمعية الشباب المسيحيين بشارع تريفيز (TREVISE) في المقاطعة الإدارية التاسعة أين ألقى أول محاضرة له في ديسمبر 1931 تحت عنوان لماذا نحن مسلمون؟ أصبح للوسط الطلابي المسلم نيابة الرئاسة لجمعية الطلاب المسلمين لشمال إفريقيا".³

- وانغمس في الدراسة والحياة الفكرية وخلال نفس السنة 1931م تزوج بشابة فرنسية أسلمت وسمت نفسها خديجة، حيث هيأت له أسباب الراحة وساعدته على مواصلة دراسته ووفرت له الجو الملائم للبحث والتعمق الفكري. كما التقى في تلك الفترة بصديقه "حمودة بن الساعي" الذي أثر فيه أيما تأثير.

¹ - مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، مرجع سابق، ص 203.

² - نفس المرجع، ص 217.

³ - Benamara Abderrahmane, op cit,p3

- حاول مالك بعد سنة 1935 السفر بحثاً عن العمل إلى بلدان عديدة بدءاً بالمملكة العربية السعودية، مصر، أفغانستان، ألبانيا،... لكنّ سوء الحظّ كان يتبعه دوماً ولم يوفّق في الحصول على أيّ عمل.

- وحتّى رجوعه إلى فرنسا كانت له محاولات لمزاولة بعض الأعمال غير أنّ السلطات الفرنسيّة حالت دون ذلك لاعتبارات سياسيّة بسبب نشاطاته وأفكاره ومحاضراته المعادية للاستعمار، كما طالت حتى أسرته بتبسة فهذا والده الذي لم يعد لمنصب عمله "منذ فقدّه على إثر محاضرتي الأولى بباريس في شهر كانون الأول (ديسمبر) عام 1931¹. فعاد إلى مدينة بتبسة بالجزائر فتضيق سبل العيش فيها أيضاً، لينفتح له بصيص من الأمل على يدّ السيّد حشيشي مختار "في سنة 1938 واحد من أصدقائه التبسيّين وضعه في اتّصال مع جمعية العمّال المهاجرين إلى مارسيليا.² "التي كانت تبحث عن شخص يتكفّل بتعليم هذه الشريحة والقيام بمختلف الأنشطة الثقافيّة بتوجيه من المركز الثقافيّ الذي أسسه المؤتمر الإسلاميّ الجزائري. فيقول مالك عن حالته سنة 1939 "وشعرت أنّه لم يبق لي بتبسة ناقة ولا جمل. فقرّرت العودة إلى فرنسا مع زوجي، ويوم 22 أيلول (سبتمبر) عام 1939، تسلّقت سلّم الباخرة بميناء عنّابة مع زوجي... وكان معنا خالدي في طريق عودته إلى جامعة تولوز"³

- وفي باريس يتولّى مالك بن نبي إدارة المركز الثقافيّ للمؤتمر الإسلاميّ الجزائري فاتّسعت نشاطاته ونجاحاته "دفع بالسلطات الإداريّة الفرنسيّة إلى غلق المركز الثقافيّ خاصّة أنّ بن نبي دعا بصفته مديراً مؤتمر قوى اليسار المعبأة ضدّ ألمانيا إثر أزمة تشيكوسلوفاكيا"⁴ "وفي جوان 1939 بن نبي ينضمّ إلى حزب الشعب الجزائري بقيادة مصالي الحاج"⁵ "في سنة 1940 بعد إعلان مسابقة سفارة اليابان بباريس، بن نبي يشارك بدراسة عن الإسلام واليابان.

ظروف الحياة الصّعبة لبن نبي زادت سوء أثناء الحرب العالميّة لأنّ المساعدة الماليّة الضئيلة التي كان يتلقّاها من أبيه لم تعد تصل له بعد القطيعة التامّة للعلاقات بين الجزائر وفرنسا بعد 08

¹ - مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، مرجع سابق، ص 426.

² - Benamara Abderrahmane, op cit, p4

³ - مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، مرجع سابق، ص 428

⁴ - Benamara Abderrahmane, op cit, p

⁵ - Ibid, p 4.

نوفمبر 1942، فاضطرّ لقبول عمل بألمانيا أين كان يحرّر مؤلّفه الأوّل: الظّاهرة القرآنيّة حيث أتلّف المخطوط على إثر قصف جويّ فأعاد كتابته من ذاكرته ونشره سنة 1946 بالجزائر¹

- ".... بداية من 1946 بن نبي بدأ حياة كاتب ونشر عام 1947 رواية "لبّيك" التي تروي قصّة حجّ رجل فقير، وفي عام 1948 ألّف دراسته شروط النّهضة."

- في 1948 بدأ في مساعدة الصّحافة الإسلاميّة في تلك المرحلة "الجمهورية الجزائريّة" للاتّحاد الديمقراطيّ للبيان الجزائريّ بقيادة فرحات عباس ثمّ الشّاب المسلم لجمعية الأمّة بقيادة الشّيخ البشير الإبراهيمي هذه المساعدة تستمرّ إلى غاية 1955.

- سنة 1954 نشر بباريس كتابه وجهة العالم الإسلامي (Vocation de l'Islam) الذي أهداه له والذي كان طيلة حياته أعظم صديق له ورفيق الكفاح "إلى أخي الدّكتور أ.خالدي" وفي 1956 دعي إلى الهند لتقديم كتابه الفكرة الأفرو-آسيوية فغادر فرنسا رفقة صديقه الدائم أوّل وأكبر خبير زراعي جزائري صلاح بن السّاعي، لكنّ الرّحلة انتهت بالقاهرة أين قرّر بن نبي المكوث²

ثانيا : رحلة مالك بن نبي إلى مصر

- في مصر اتّصل المفكّر مالك بن نبي بمجموعة من المفكرين والمثّقين والجامعيّين فدارت بينهم مناقشات عديدة أثّرت في فكرهم وتحليلاتهم لمشكلات الحضارة في العالم الإسلاميّ كان مسكنه في الدّقي خلال العدوان الثلاثي على مصر سنة 1956 سيشاركه فيه ناصر إبراهيم صالح ومحمّد صبحي الصّالح وعمر كامل مسقاوي وعبد الرّحيم طريف وحسين صالح وعبد السّلام الهزّاس³. في مصر بدأ اتّصال مالك بن نبي بالعالم العربي الإسلامي، وأصبح له فيها أصدقاء وتلاميذ، وسبّب قدومه كما يقول ليضع نفسه تحت تصرّف الثّورة الجزائريّة، وكان يرغب أن يخدم في جبهة القتال بصفته ممرضا ليتمكن من الكتابة عن تاريخ الثّورة الجزائريّة عن طريق المشاهدة فتقدّم في الأوّل من سبتمبر 1956 بطلب التّطوع كممرّض عسكري ومؤرّخ للثّورة في الوحدات القتاليّة لجيش التّحرير الوطني، ولم يتلقّ أيّ ردّ، فساهم بوسائله الخاصّة للتّعريف بكفاح الشّعب الجزائريّ الذي نشر سنة 1957 بالعربيّة والفرنسيّة والألمانيّة مدوّنته "نجدة الجزائر" الذي كشف فيه التّعذيب والمجازر التي مورسا على الشّعب الجزائري.

¹ - Ibid, p 5.

² - Ibid, p6.

³ - عبد اللّطيف عبادة، فقه التّغيير في فكر مالك بن نبي، عالم الأفكار، الجزائر، ط1، 2006، ص25.

- كما أنّه كان يرغب في نشر كتابه الفكرة الآسيوية وقد عيّنته الحكومة المصرية مستشارا في المؤتمر الإسلامي واستمرّ عضوا في المؤتمر الذي أصبح فيما بعد يطلق عليه مجمع البحوث الإسلامية.¹ واشتهر فيها بصيت بن نبي "في مصر أثنى مالك اللغة العربية، كما عمل على ترجمة مؤلفاته إلى اللغة العربية ونشرها، وكان يعقد حلقة علمية واحدة مفتوحة لجميع الطلبة في منزله بالقاهرة، وقد كان لهذه الحلقة العلمية التي يتم فيها مناقشة مؤلفاته وشرح أفكاره تأثير كبير على كثير من الطلبة العرب والمسلمين الذين كانوا يتلقون تعليمهم في القاهرة، إذ أنّ المناقشات والتحليلات الدقيقة لمشكلات العالم الإسلامي كانت توقظ أذهان العديد من الطلبة وتوضّح لهم الحقائق، وكانت معظم الموضوعات تناقش حول مشكلات الحضارة"²

-ويشهد العويسي على أهمية هذه الفترة التي قضاها بن نبي في مصر "وتعتبر فترة وجود مالك بن نبي في مصر من أغنى مراحل عطائه الفكري إذ ألّف فيها العديد من كتبه بالإضافة إلى ترجمة البعض الآخر من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية"³ حيث كتب مالك بعض كتبه باللغة العربية، وترجم البعض الآخر مجموعة من المترجمين منهم عبد الصبور شاهين، ومروان قنواطي، والطبيب الشريف وعمر مسقاوي الذي كلّفه مالك بن نبي بعد ذلك بإيداع جميع حقوقه المنشورة وله صلاحية نشرها، وظلّت جميع مؤلفات مالك بن نبي تصدر تحت إطار ندوة مالك بن نبي"⁴

وبرز المفكر مالك بن نبي على مستوى الحياة الفكرية في مصر والعالم العربي من خلال محاضراته ومناقشاته ولقاءاته مع المفكرين والمتقّفين وحتى السياسيين المصريين والعرب. وأثناء إقامته في مصر قام بزيارة سوريا ولبنان وألقى فيها عددا من المحاضرات في منتدياتها ومجالسها الثقافية والفكرية "وفي جولة أخرى قام بزيارة المملكة العربية السعودية، الكويت وليبيا، وبقي في مصر يحاضر ويناقش ويؤلف إلى عام 1383هـ-1963م بحيث عاد إلى الجزائر.. وكان مالك قد تزوّج أثناء إقامته في القاهرة بـسيّدة جزائرية أنجبت له ثلاث بنات هن: نعمة، إيمان، رحمة.⁵ بالإضافة إلى أنّه "نشر العديد من الدراسات مثل: فكرة الكمنويلث الإسلامي والصراع الفكري."⁶

¹ - العويسي بن حمد عبد الله، مالك بن نبي حياته وفكره، مؤسسة الممتاز للطباعة والتّجليد، الرياض، السعودية، ط1، 1994، ص125.

² - نورة خالد السّعد، مرجع سابق، ص28

³ - نفس المرجع، نفس الصفحة.

⁴ - نفس المرجع، ص51.

⁵ - نفس المرجع، ص58.

⁶ - Benamara Abderrahmane, op cit, p4.

ثالثا : عودة مالك بن نبي إلى الجزائر

- عاد المفكر مالك بن نبي إلى الجزائر بعد فترة طويلة من الغياب "في سنة 1963 بعد استقلال الوطن، رجع إلى الجزائر العاصمة حيث طلب منه الرئيس المنتخب بن بلة فتح مركز توجيه ثقافي بعدما سئم انتظار التصريح الإداري انتهى به الأمر إلى فتحه بمنزله مواصلا العمل الذي بدأه بالقاهرة وكذا بتكوين أجيال من الطلبة حول المشاكل الصعبة للثقافة والحضارة ملماً بجذور الصراع الفكري (الإيديولوجي).¹

ويصف عمّار طالبي تلك الفترة بقوله: "واصل مالك الكفاح في جبهة الفكر، وميدان الكلمة، وما لبث أن أصبح منزله منتدى للتوجيه، ومجالس لإيقاظ العقل من مرقده، وبعث التفكير من ركوده، فأم منتداه الشباب الجامعي من مختلف الكليات وخاصة كليات العلوم والطب والهندسة، فأحرى بمجالسه أن توسم بمجالس التفكير، وأولى بمنزله أن يدعى ببيت الحكمة.²

"في سنة 1964 تم تعيينه في منصب مدير التعليم العالي -كل ذلك مواصلا عمله الثقافي بنشر "آفاق جزائرية" والجزء الأول لمذكراته- الذي تركه متفرغا بمساعدة مدعمة من الصحافة الجزائرية خاصة الثورة الإفريقية الذي كان ينشر بها تقريبا أسبوعيا إلى غاية 1968 مقالات La portée doctrinale.³

- لقد بثّ المفكر مالك بن نبي حركة فكرية إسلامية في أوساط الطلبة والمولوعين بالحضارة الإسلامية "إنّ الجلسات التثقيفية التي كان يلقي فيها دروسه في بيته سرعان ما تحولت إلى نواد لتبادل الأفكار والطرحات جلبت عددا متزايدا من الطلبة والطالبات المتعطشين للعلم.⁴

- وقد مارس نشاطه في التأليف وإقامة الندوات، وكان القاسم المشترك لكتاباته في مرحلة ما بعد الاستقلال هي مشكلات الاستقلال، ليتفرغ للعمل الفكري بعد استقالته من منصب المدير العام للتعليم العالي سنة 1387هـ-1967م وتنظيم الندوات الفكرية كما تم فتح أول مسجد طلابي في جامعة الجزائر وأسهم أيضا في وضع أولى اللبّات لسلسلة ملتقيات التعرف على الفكر الإسلامي "وكان المرشد الأول لملتقيات الفكر الإسلامي من سنة 1968 إلى غاية 1970.⁵

¹ - Ibid, p6.

² - العويسي بن حمد عبد الله، مرجع سابق، نقلا عن مجلة الثقافة الجزائرية، العدد 18، 1973، ص11.

³ - Benamara Abderrahmane ,op cit, p4.

⁴ - مسعود بوجنون، الحركة الإسلامية الجزائرية (سنوات المجد والشؤم)، تر:عزيزي عبد السلام، دار مدني، البليدة، الجزائر، 2002، ص31.

⁵ - Benamara Abderrahman, op cit, p 6.

- سرعان ما ظهرت ثمرة هذه الجلسات والملتقيات شبابا متحمسين زرع فيهم فكرا إسلامياً تألقوا على المستوى الوطني والدولي "عبد الحميد بن شيكو أحد أول الجزائريين الحائزين على شهادة الدكتوراه في الفيزياء النووية بالولايات المتحدة، عبد الوهاب حمودة الأمين العام السابق لوزارة الشؤون الدينية وأحد أبرز الوجوه المهمة بتلك الملتقيات الفكرية الإسلامية التي كانت الجزائر تنظمها إلى غاية سنة 1988، تيجاني بوجلخة الأستاذ المتألق في علوم الرياضيات مؤسس رابطة الدعوة في سنة 1989، عمار طالبي العميد السابق للجامعة الإسلامية لمدينة قسنطينة".¹ وأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر وكذا نور الدين بوكروح الوزير السابق.

- "وفي تلك الفترة وأثناء عمله الرسمي وبعده، قام بعدد من الزيارات لدول عربية ومسلمة وأوروبية وآسيوية. وفي عام 1392هـ - 1972م أدى فريضة الحج وفي طريق عودته توقف في دمشق وحاضر فيها وحملت هاتان المحاضرتان عنوان دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين وكأنما هاتان المحاضرتان هما وصيته الأخيرة ويذكر لنا مالك بن نبي هذه الرحلة من سنة 1972م في مقدمة كتابه مجالس دمشق "إنني حججت هاته السنة مع صغرى بناتي، رحمة، لم يتجاوز عمرها الثمانية، ومع والدتها، ثم بعد الحج، ورحلة دامت شهراً ونصف شهر بالسعودية وصلنا إلى بيروت في طريق عودتنا. ولكن الفرصة المتاحة كانت تراودني أن أطلع (رحمة) على بعض معالم الحضارة الإسلامية بدمشق، فقررت السفر إليها لأقضي فيها يومين أو ثلاثة، وإذا بدمشق تمسكني بكرم أهلها وحسن لقائهم، ثلاثة أشهر كاملة قضيتها في حوار مستمر مع شبابها المتعطش إلى الأفكار".²

- "في عام 1393 هـ - 1973م وأثناء رحلته إلى مدينة الأغواط في الجزائر حيث كان يلقي بعض المحاضرات هناك اشتد به المرض وكان قد أصيب بسرطان في البروستات سرى إلى الدماغ عن طريق العمود الفقري فسافر من أجل ذلك إلى باريس للعلاج فأجريت له عملية جراحية واسترد بعدها صحته نوعاً ما لمدة عشرين يوماً، ثم اشتد عليه المرض، فنصح الطبيب المعالج بأن يعود إلى بلاده، فعادوا به إلى الجزائر، وبعد ثمانية أيام توفي رحمه الله في يوم الأربعاء 04 شوال 1393هـ - 31 أكتوبر 1973.³ بعدما عاش فترة من الإقصاء والنهميش الجسدي والفكري إلى غاية وفاته "في هذه الأثناء كان فكر بن نبي هو الذي يمثل دعامة المعارضة العقلية الأكثر

¹ - مسعود بوجنون، مرجع سابق، ص31.

² - مالك بن نبي، مجالس دمشق، مرجع سابق، (المقدمة).

³ - نورة خالد السعد، مرجع سابق، ص29.

صلابة للإيديولوجية الماركسيّة التي كانت في أوجّ ازدهارها على مستوى الجامعات الجزائرية لسنوات السبعينات.¹

المبحث الثاني: المنابع والخصائص الفكرية لمالك بن نبي ودراسات عن فكره

المطلب الأول: المنابع الفكرية

- لاشكّ أنّ للمؤثرات الثقافيّة أو الاجتماعيّة أو السياسيّة أو الاقتصاديّة أو الأعمال الفكرية أكبر الإسهام في تكوين البناء الفكري ونموّه وتطوّره، ونفس الشيء لمالك بن نبي ذلك أنّ البنية الفكرية والمفهوماتيّة لم تنطلق من فراغ أو عدم لذا لا بدّ من معرفة إطاره الثقافي والاجتماعي المرجعي ومعرفة منابعه الفكرية التي ساهمت في بلورة رؤى ونظريات تفرّد بها مالك بن نبي.

- إنّ الوقائع التي ضمّنها مالك بن نبي في مؤلفاته وبالأخصّ: مذكرات شاهد للقرن: القسم الأول: الطّفّل 1905-1930 والقسم الثاني: الطّالِب 1930-1939 تعكس لنا مختلف المواقف التي تعرّض لها أوعايشها ومدى تأثيرها في مسيرته الحيّاتيّة (في الأسرة، الدّراسة، العمل....)

- وقد شهدت المرحلة الثّانويّة من الدّراسة بداية التّبلورات الأولى لفكره والتي تتفرّع إلى اتّجاهين:

- الارتباط بالإسلام وتراثه - الانفتاح على الحضارة الغربيّة وعلومها

أولا : تأثير البيئة الأسريّة

ينتمي المفكّر مالك بن نبي إلى عائلة محافظة ومتديّنة مسّها الفقر -كباقي الأسر الجزائرية- في فترة الاحتلال الفرنسي، فهو يتذكّرها ويقول عنها: "كنت في السادسة أو السابعة من عمري، وكان وضع عائلتي قد ساء ماديا، فجدي لأبي باع كلّ ما تبقى بحوزته من أملاك العائلة، وهاجر الجزائر المستعمرة ليلجأ إلى طرابلس الغرب، فقد هاجر مع الموجة الأولى من الهجرة التي اجتاحت حوالي عام 1908 مدنا كثيرة كقسنطينة وتلمسان، تعبيرا عن رفض أهالي البلاد معايشة للاستعمار".² "إلا أنّ والدي لم يرافقه في هجرته لأنّ أمّي كانت تتمسّك بالبقاء قرب أهلها، الذين استقرّوا في تبسة منذ حوالي نصف القرن. ولما كان جديّ الذي هاجر برفقة شقيق له وابن له هو عمّي، قد حمل معه كل ما تمكّن من حمله، فقد بقي والدي ردحا من الزّمن في تبسة دون مورد يعيش منه ودون عمل لقد كانت هذه الفترة من حياة عائلتي شديدة العسر"³ وفي هذا الوسط الجديد

¹ - مسعود بوجنون، مرجع سابق، ص30.

² - مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، مرجع سابق، ص16.

³ - نفس المرجع، ص18.

في عائلة مفرطة في الفقر أخذت أتعرف إلى جدتي لأُمِّي، وسمعت الكثير من أقاصيصها وحكاياتها التي كانت محور العمل الصالح.... وكانت هذه الأقاصيص الورعة تعمل على تكويني دون أن أدري. فمنها عرفت أن الإحسان في مرتبة عليا من الخلق الإسلامي¹

- وعلى الرغم من صغر سنّه إلّا أنّه لاحظ الفارق بين الحياة القسنطينية والتبسية "فبانقالي من قسنطينة إلى تبسة، وجددتني في إطار جديد أمام عناصر ومؤثرات تختلف من سابق نشأتي. في تبسة تختلف وسائل اللعب عنها في قسنطينة، فأطفال مدينتي الأولى قسنطينة أكثر رفاهية وبالتالي فقد كانت لعبهم أكثر أناقة ورقة... في تبسة كانت اللعب تعتمد على المزيد من القسوة والصلابة المتأثرة بالتقاليد المحلية".² وقد أرسلته أسرته إلى المدرسة الفرنسية التي تبدأ دروسها على الساعة الثامنة صباحا، وسجلته في مدرسة القرآن التي يدرس فيها قبل المواعيد النظامية للمدرسة الفرنسية، غير أن غيابها تكرر في مدرسة القرآن مما كان يعرضه، للعقاب من طرف والده ومعلم القرآن، لينقطع نهائيا عنها، ثم يلتحق بقسنطينة للعيش عند زوجة عمّه مما أتاح له ذلك التعرف على جده العائد من طرابلس الغرب بعد احتلالها من الايطاليين والذي أصبح يقوده معه إلى الزاوية العيساوية وحضور حلقاتها باعتباره أحد أركانها ومن مؤيدي الشيخ بن مهانة أحد رواد رجال الإصلاح، وبسبب دلع زوجة عمّه المفرط له تكاثرت تصرفاته السيئة، فأرجعه والده إلى تبسة لإتمام تعليمه الابتدائي والرجوع مرة أخرى لقسنطينة بعد حصوله على منحة دراسية حيث تكفل عمّه بإحاقه بالمدرسة الثانوية، ليزور عائلته بتبسة في العطلة الصيفية، وباعتباره الولد الوحيد بين أختين فقد كانت له مكانة خاصة في العائلة وخاصة لدى والدته "والتي قال عنها: كانت والدتي حنونا جداً، تُولي صحتي كل الاهتمام دون أن تشعرني بذلك".³ كما كان هناك شخص آخر له عظيم الأثر في حياته الدراسية والفكرية والثقافية هي السيدة خديجة زوجته الفرنسية المرأة ذات الذوق الجمالي والفني الرّاق. "ولم تكن امرأة تبذع في بيتها مثل خديجة وتتقن اتقانها، من ناحية النظافة والتّجميل، كان ترتيب الأشياء، ميزة لها على وجه الخصوص"⁴ وعندما يتحدّث عن حماته "فإنني أقول أن ابنتها لو ولدت كذلك، لكانت فتانا ماهرا في فنّ التّجميل وربما تفوقه بما تصنع بيدها من آيات من

¹ - نفس المرجع، ص 19.

² - نفس المرجع، ص 22.

³ - نفس المرجع، ص 264.

⁴ - نفس المرجع، ص 283.

الدُّوق ببعض خشب وبعض قماش مزركش من نوع الكريتون الرخيص جدًا¹ فيصف زوجته بمهندس تجميل تارة ونجار وغراس تارة أخرى، رغم قتر العيش فمالك يتعجب من حكمة خديجة في تسيير ميزانية المنزل الضئيلة "وكانت زوجتي تصنع المعجزات في الاقتصاد سائر الأيام لتحقق تلك المأدبة الأسبوعية".²

والتي يحضرانها صديقيه: حمودة بن الساعي، صالح بن الساعي للنقاش كل مساء يوم جمعة. وكانت المرأة والزوجة التي وفرت له الجو الملائم للدراسة أثناء دراسته في مدرسة الكهرباء والميكانيك وبعدها خلال فترة بحثه المستمر عن العمل، إذ يصفها في مذكراته "كانت خديجة في مثل هذا الظرف صوت العقل المتزن".³

ثانيا : تأثير المحيط الاجتماعي

- لقد كان المحيط المدرسي في الكتاب وفي المدرسة الفرنسية في المرحلة الإعدادية بدايات الاحتكاك بالعالم الخارجي لمالك بن نبي أمثال المعلمين "مادم بيل" والآنسة (رافي rafi) ليلتقي في مدرسة سي الجبلي التكميلية بقسنطينة بـ(مسيو مارتن Monsieur MARTIN) وكان هذا المعلم يثري تلاميذه بالمفردات ويطلع في نفوسهم الذوق في الكتابة... لقد طبع في نفسي هذا الأستاذ تذوق القراءة، ففي مساء كل سبت كان يعير الكتب للتلاميذ، وقد أتاح لي ذلك أن أقرأ كل كتب جول فيرن (Jules Verre) وبعض من روايات (الزءاء والسيف).⁴ وكانت رغبة أسرته أن يكون عدلا في الشرع الإسلامي فاضطر في قسنطينة إلى تسجيل نفسه مع زميله في دروس الشيخ عبد المجيد الذي يكون التلاميذ الذين يرغبون أن يكونوا عدلا. "في هذه السنة 1920 تلقيت مع الشيخ عبد المجيد أول أسس الثقافة العربية، لقد تعلمت تصاريف الأفعال والتّمييز بينها وحفظت شيئا من الشعر".⁵ "وكان هذا الشيخ يعطي دروسه في النحو كل صباح على الساعة السابعة في المسجد...، كان يجلس داخل المحراب ونتلق نحن من حوله".⁶ وقد كان الشيخ عبد المجيد يحلّ يحلّ في دروسه بعض نظراته في انحراف المجتمع وتجاوزات الإدارة، وقد أدرك ذلك في نفوسنا

¹ - نفس المرجع، ص 273.

² - نفس المرجع، ص 251.

³ - نفس المرجع، ص 349.

⁴ - نفس المرجع، ص 48.

⁵ - نفس المرجع، ص 51.

⁶ - مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، مرجع سابق، ص 47

تأييدا وحماسة.¹ يعترف مالك بفضل أستاذه فيقول: "هذا الشيخ من ناحية ومسيو مارتن (Martin) من ناحية أخرى كونا في عقلي خطين حددا فيما بعد ميولي الفكرية".² وتأثر كذلك بأساتذته الفرنسيين "ومن جهتي أنا فقد كان الأستاذ بوبرتي (Boubreiter) قد فتح لي آفاقا جديدة ولم يكن ذلك بفضل دروسه المقررة علينا كتاريخ الأزمنة القديمة والأدب الفرنسي. وإن تكن هذه قد تركت أثرا لا ينكر. إنما بفضل توجيهاته فيما نقرأ من كتب".³ كما كان لدروس الشيخ مولود بن موهوب في التوحيد وسيرة النبي ودروس الشيخ بن العابد في الفقه تذكيرا دينيا قويا له.

- دون أن ننسى احتكاكه بزملاء الدراسة الثانوية الذين كانت لهم قراءات مشتركة خاصة: صالح بن حلماية وقاواو، وحضوره للنادي الأدبي للمقهى القريب من الثانوية "كان صالوننا الأدبي في مقهى بوعربيط يزودنا بفرص كثيرة من المشاركة في الحديث حول الأدب العربي. لقد اكتشفت بهاءه القديم وإمكاناته الحاضرة، وقد استطعت بفضل الشروح حول النصوص أن أقدر وأفهم العبقرية الشعرية للجاهلية وأولئك الشعراء في بني أمية والعباس. وقد استرعى اهتمامي امرؤ القيس، ولذ لي استماع الشنفرى، واسترسل لي عنتر في أحلام البطولات. أم الفرزدق والأخطل وأبونواس فقد مارس كل منهم إغراءه في نفسي".⁴

- وفي مقهى بن يمينه لاحظ "لقد بدأت الآن عناصر جديدة تختلط مع الطلبة المدرسين وتلاميذ الشيخ بن باديس".⁵ أين شعر بالانقسام الإيديولوجي. "وعلى الرغم من التيارات الفكرية والإيديولوجية التي كانت سائدة في قسنطينة أثناء دراسة مالك فيها والتي يمكن تصنيفها إلى تيار مدرسي، وتيار إصلاح، وتيار صوفي طريقي".⁶ إلا أن مالك كان أقرب إلى التيار الإصلاحي الذي كان يدعو إليه الشيخ عبد الحميد بن باديس، ويشير عبد اللطيف عبادة إلى "أن أكبر عامل أثر في مالك بن نبي وفي مؤلفاته هي الحركة الإصلاحية بمفهومها العام سواء عند صالح بن مهنا أو عند بن الموهوب تلميذ المجاوي أو عند بن باديس وجمعية العلماء، ولقد تمكن ابن نبي مع بعض رفاقه من نقل هذه الفكرة الإصلاحية لم يجمع فيه الحس النقدي الذي سيبقى سلاحه إلى أن

¹ - نفس المرجع، ص 66

² - نفس المرجع، ص 47.

³ - نفس المرجع، ص 65.

⁴ - نفس المرجع، ص 68

⁵ - نفس المرجع، ص 107

⁶ - نورة خالد السعد، مرجع سابق، ص 32.

يلحق بجوار ربه، فالعبرة بالفكرة لا بمن يحملها لأن من يحملها إنسان معرض للخطأ والانحراف. وعلى هذا الأساس تعامل مع الحركة الإصلاحية في تبسة.¹

- وتعرّف في قسنطينة على بعض تلامذة الشّيخ بن باديس في لقاءات ثقافية ودينية متميزة رغم اعترافه بافتقاره للمرونة "كنت أحب المناقشة خاصة إذا كان الموضوع علمياً ودينياً. وكنا نتردد أحياناً على إحدى البعثات التبشيرية الإنجيلية ان تناقش في بعض الموضوعات. وهناك تعرّفت لأول مرة على الإنجيل. كان النقاش يدور حول ألوهية السيّد المسيح ... وهناك أيضاً تعرّفت على بعض تلامذة الشّيخ بن باديس الذين جاؤوا أيضاً ليدافعوا عن الإسلام.² ومن أعضاء هذه الحركة الإصلاحية في الجزائر: الشّيخ العقبي، العربي التبسي، توفيق المدني....

- كما كان مالك يحضر للقاءات نادي التّرقّي في العاصمة الذي شهد "إعلان اعتناق إيتيان دينيه الإسلام في حفلة خاصة أقيمت بضعة أشهر بنادي التّرقّي.³

- وأيضاً "كان متتبّعاً للحركة التّنويرية في المشرق عن طريق شيوخه وعن طريق الكتب والمطبوعات والمجالات.⁴

"وأثناء وجوده في باريس كان الحيّ اللاتيني يموج بالعديد من التّيارات الفكرية والمذاهب. إلّا أنّ مالك كان يدعو إلى الإسلام وكان متأثراً بدعوة الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب التي كانت تحوي العناصر المؤدّية إلى إنقاذ العالم من انحطاطه. والقارئ لفكر مالك عمق إيمانه وقوة عقيدته واستقامة منهجه السلوكي والفكري.⁵

- وقد احتكّ بجماعة الوحدة المسيحية التي تكوّنت من شبّان باريسيين وتأثّر بها من جانب تمسّكها بالقيم الروحية دون كلل.⁶ التي اعتبرها بن نبي كجمهورية مصغّرة نشيطة تقوم بفعاليات ثقافية متعدّدة في قاعة محاضرات إضافية والتي منحته الانسجام في الوسط الباريسي الجديد "لأنّها كانت تغذّي في نفسي الجانب الروحي، وتعرض على فكري اهتمامات وموضوعات أخرى، كنت في جوّها الخاص أعقد الصّلة تلقائياً بين القيم الاجتماعية والتّكنية. وبدأت فعلاً تدور بيني وبينهم

¹ - عبد اللّطيف عبادة، مرجع سابق، ص 28

² - مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، مرجع سابق، ص 73.

³ - نفس المرجع، ص 266

⁴ - عبد اللّطيف عبادة، مرجع سابق، ص 28.

⁵ - نورة خالد السعد، مرجع سابق، ص 32.

⁶ - عبد اللطيف عبادة، مرجع سابق، ص 20.

محاورات تدخل موضوعات جديدة في جوّ (الوحدة) وتساؤلات جديدة عند رفاقي.¹ كما أسّس مع مجموعة الطلبة المغاربة جمعية الوحدة المغربية والذي أطلق عليه زعيم الوحدة المغربية، كانت ممثلة من محمد الفاسي، بلفريج والطوريس من مراكش، بن ميلاد، بلهوان وصالح بن يوسف من تونس، ومالك بن نبي وصالح الساعي من الجزائر وآخرون. وبالموازاة تمّ تشكيل جمعية الوحدة العربية الممثلة من محمد الفاسي بلفريج والطوريس من مراكش وبن ميلاد من تونس ومالك بن نبي من الجزائر وفريد زين الدين وبعض مواطنيه من سوريا ولبنان.

ثالثا : قراءات مالك بن نبي

1. الكتب والمؤلفات:

- لقد تعددت قراءات المفكر مالك بن نبي وتنوّعت بحكم حبه الكبير وشغفه بالكتاب والمطالعة، فقرأ كتباً من نتاج الحضارة الغربية والحضارة العربية الإسلامية وحتى العالمية (الصين - الهند..)
- وكانت الفترة التي قضاها في المدرسة الثانوية أهم فترة انفتحت فيها شهيته على القراءة والاطلاع عن الإنتاج الأدبي والتي استقطبت اهتماماته "في هذا الوقت بدأت على ما أعتقد أقرأ المؤلفات، لقد قرأت بيير لوتي (Pierre Loti) وكلود فارير (Claude Farrère) وقد قرأت (L'Azyade) وفاقدات السعادة (Les désenchantées) و (l'homme qu'on assassina) الرجل الذي اغتال.²
- "في الواقع لقد قرأت هذه السنة (التلميذ Le disciple) لبيار بورجي وهذه القصة. فتحت أمامي عالم النفس الذي أتاح لعقل فني كعقلي أن يتخلّى عن شيء من أوهامه وسذاجته.³
- وكان آخر هذه المؤثرات كتابان عثرت عليهما في مكتبة النجاح أعدّهما الينابيع البعيدة المحددة لاتجاهي الفكري. أعني بذلك كتاب (الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق) لأحمد رضا و(رسالة التوحيد) للشيخ محمد عبده. وقد تولّى الشيخ مصطفى عبد الرزاق ومستشرق فرنسي ترجمته للفرنسية.⁴ ويقول عنهما أيضا "انا مدين لهما على كل حال بذلك التحول في فكري منذ تلك الفترة. لقد رسم لي كتاب أحمد رضا مزودا بالشواهد الكثيرة بهاء المجتمع الإسلامي في ذروة حضارته.... أمّا كتاب محمد عبده ... فقد أعطاني مسندا للحكم على فقره المحزن اليوم.⁵

1 - مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، مرجع سابق، ص 222.

2 - نفس المرجع، ص 64.

3 - نفس المرجع، ص 66.

4 - نفس المرجع، نفس الصفحة.

5 - نفس المرجع، ص 64.

- كما أخذت مالك الجاذبية نحو تراث الشرق فيقول: "لقد بدأ الشرق القديم منه والحديث يستهويني بأمجاده ومآسيه"¹ فتعرّف على شعراء المدرسة الحديثة أمثال حافظ إبراهيم والرّصافي وشعراء المهجر كجبران خليل جبران وإيليا أبو ماضي ثم يعترف أيضا: "دون إهمال مؤلفات المنفلوطي: النظرات، العبرات" كانت هذه الكتب تصحّ مزاجي، ذلك الحنين إلى الشرق تركه في نفسي كتب فارير ولوتي (Farrère, Loti) وحتّى لامارتين أو شاتوبريان، فعرفت تاريخ الشرق وواقعه وأدركت بذلك ظروفه البائسة الحاضرة. هذه القراءات شكّلت بالنسبة لي قوة أخرى من التّنبه في المجال الفكري."² وقد أقرّ مالك بن نبي أنّ هذه القراءات قد أشغلته عن دروسه لكثرتها "كنت أقرأ كثيرا حتى قصص (الزّداء والسيف). وكان ميشال زيفاكو يستأثر اهتمامي، وقد قرأت سلسلته حول أسيرة (باردييال Pardailans) كنت أستسلم للتأمّلات واضعا نفسي أمام بعض التّساؤلات"³

- كما اكتشف في تلك الفترة ايزابيل ابرهاردت (Ysabelle Ebrhardt) في كتابها في ظلال الإسلام الدّافئة (A l'ombre chaude de l'islam) الذي قرأه مرارًا، والمؤلف اوجين يونغ (Eugène Yung) في كتابه الإسلام بين الحوت والدّب (L'Islam entre la baleine et l'ours)، والسيد أمير علي في كتابه روح الإسلام (Spirit of Islam) كما قرأ كتاب دراسات التّاريخ لأرنولد توينبي والمؤلف الضّخم (تدهور الحضارة الغربية) لإزوالد شبنجلر وكارل ماركس (رأس المال) إضافة إلى مؤلفات نيتشه وكانط وديكارت.....

- لقد أراد المفكّر مالك بن نبي اكتشاف أسباب قوة الغرب فقرأ مؤلفاتهم واطّلع على أفكارهم ومذاهبهم وإيديولوجياتهم، وأراد معرفة أسباب تفهقر الحضارة الإسلاميّة فتتّبّع تاريخها وقرأ مؤلفات علمائها ومفكرّيها: مثل ابن خلدون، الشّيخ عبد الحميد بن باديس، محمّد إقبال

2. الصّحف والمجلّات:

- لقد تفتح فكر مالك بن نبي على الإيديولوجيات والأفكار والاتّجاهات والمذاهب في الجزائر والدّول العربيّة والإسلاميّة والعالم من خلال اطلاعه على مختلف الصّحف الّتي يجدها أمامه، لما كان له من نهم صحفي أولّها صحيفة النّجاح الّتي كان يأتي بها لعمّه يونس من صديقه له في

¹ - نفس المرجع، نفس الصفحة.

² - نفس المرجع، ص 66.

³ - نفس المرجع، ص 68.

المرحلة التكميلية من تعليمه "ففي قسنطينة تأسست جريدة ناطقة بالعربية تدعى (النجاح)، أنشأها قبل عام شاب قسنطيني (سامي إسماعيل) عاد من الزيتونة في تونس بشرف العلم".¹

- فتعرّف على صحيفة الإقدام التي كان يصدرها الأمير خالد وصحيفة الرأية (L'étendard) التي كان يصدرها دندان، وجريدة الزهرة، والعصر الجديد، صحيفة (الشؤون العامة لقسنطينة Dépêche de Constantine) ليجد نفسه "ومنذ تلك اللحظة أصبحت قارئاً مثابراً لسائر الصحف التي أشتريها من كشك المرحوم جدّي. ثم اخترت بين قراءتي السياسية صحيفة شيوعية الإنسانية L'humanité كانت تروي أكثر ظمئي الوطني".²

لينتقل فيها بين مقالات كاشان (Cachin) وقايان كوتوريه (Vaillant Couturier) وصحيفة الكفاح الاجتماعي (La lutte sociale) ومجلة الأخبار الأدبية (Nouvelle Litteraire) ومجلة كونفيرانسيا (Conferencia) التي اكتشف فيها الشاعر التركي رابندرانت طاغور "لقد كان لذلك الأدب القادم من بعيد أثرٌ في نفسي، إذ أضاف أبعاداً جديدة في عالمي الفكري. فرابليه وفكتور هوجو وامرؤ القيس وحافظ إبراهيم هؤلاء أعطوا عالمي الفكري أبعاد اللغة الفرنسية والعربية، أما اكتشافني لطاغور فقد أضاف بعداً ثالثاً ذلك هو الفيدا Les vedas... فالعبرية لاتولد فقط على ضفاف السين Seine أوصفاف التاميز Tamise....إنما هذا الشاعر حرّني من إفريقيّتي بعض الشيء وأطلق ذهني من قيود فرضها الاستعمار".³ كما كان مع زملائه الطلبة من المقتنين المداومين أسبوعياً على مجلتي الإقدام والجمهوري (Le républicain)، فالإقدام وضعت في فكري الحدود السياسية الدقيقة... فكانت مجلة الإقدام تفصح رجعية الإدارة المستعمرة وسوء استغلالها للسلطة"⁴

وكان أيضاً يقرأ دائماً صحيفة أوجين يونغ، وصحيفة الشهاب الذي كان سابقاً لإدخال عددها الأول إلى منطقة أفلو بالأغواط أين كان يعمل. ويخبرنا مالك أيضاً "كنت أقرأ أيضاً أعداد العصر الجديد التي عادت الإدارة فسمحت بإصدارها. "وكنت أغترف منها ذلك الغذاء الروحي الذي يروي تعطشي لمعرفة أنباء العالم الإسلامي...ومن حين إلى آخر كنت أقرأ جريدة صوت المساكين La voix des humbles، وجريدة الأمة العربية التي كان يصدرها شكيب أرسلان، كما كانت تصله إلى

¹ - نفس المرجع، ص 52.

² - نفس المرجع، ص 89.

³ - نفس المرجع، ص 91.

⁴ - نفس المرجع، ص 93

باريس الصحافة الجزائرية وهي: الدفاع لـ: أمين العمودي، الوفاق لـ د. بن جلول، والوت الأهلي للزناطي ومجلة المعلمين الجزائريين.

رابعا : تأثير التكوين العلمي التطبيقي:

- "وكما كان لقراءات مالك الغزيرة المتنوعة أثر في تفكيره فإن دراسته للعلوم التطبيقية في فرنسا أثرت أيضا في كتاباته فأصبحت دقيقة الأفكار، محدّدة الألفاظ والصيغ وافية المعاني والدلالات، إذ أنه كان يحلّل كلّ موضوع يدرسه إلى عناصره الأولى ثم يعود فيركّب العناصر من جديد، وكان كثير الاستخدام للصيغ والمعادلات الرياضية في توضيحه لبعض القضايا الفكرية والاجتماعية، وقد أحدث هذا اللون الجديد من التقويم الفكري نقلة في أسلوب تثقيف القارئ العربي، كما كان لمالك قاموسه الخاص في تعريف بعض الظواهر أو تحليلها.¹

خامسا : الشخصيات الوطنية والدولية:

- حمودة بن الساعي: "من الذي كان لهم تأثير كبير وعميق في بناء مالك النفسي والفكري صديقه حمودة بن الساعي منذ أن تعرّف عليه في قسنطينة أثناء دراسة مالك في (مدرسة الدّروس المتممة) وخلال إقامتها في باريس، إذ كان حمودة بن الساعي يحضّر لرسالته حول الإمام الغزالي في جامعة السوربون، فأخذ مالك معه إلى عالمه الفكري بحكم تخصصه في العلوم الإسلامية واهتمامه شخصيا بالإصلاح، وكان لمناقشاتهما مساء كلّ جمعة في منزل مالك أثر عميق في بلورة شخصية مالك إذ أنّ محتوى تلك المناقشات لم تقتصر على بعد واحد بل كانت تشمل موضوعات مختلفة علمية وسياسية ودينية واجتماعية² منها منهج الغزالي في التجديد، أفكار زكي مبارك حول ذلك المنهج، كتاب ماسنيون عن الحلاج، ونيشيه واسبينوزا..... الخ، وبالطبع كانت المناقشات تشمل الحركات الوطنية في الجزائر والحركة الإصلاحية، وكان مالك يطلق صفة (معلمي) على صديقه حمودة بن الساعي تقديرا لدوره الكبير في تكوينه الفكري، وتشجيعه له لكتابة أول مقال بعنوان خطاب مفتوح للضمير العالمي، وعلى إلقاء محاضراته: لماذا نحن مسلمون؟ وكان مالك يحضر معه المحاضرات المفتوحة في جامعة السوربون والتي كان يقدمها كبار الأساتذة في مختلف الموضوعات. كما أنّ مالك مدين لصاحبه ابن الساعي يتحوّل اتّجاهه إلى كاتب متخصص في شؤون العالم الإسلامي، بالإضافة إلى شدّ انتباهه إلى الفلسفة والتاريخ والاجتماع بشكل أعمق³

¹ - د. نورة خالد السعد، مرجع سابق، ص33.

² - نفس المرجع، نفس الصفحة.

³ - نفس المرجع، نفس الصفحة.

"وأعجبه فيه ثقافته العربيّة والإسلاميّة الواسعة وإتقانه الاستشهاد بالآيات القرآنية في الظروف الاجتماعيّة المستجدة للمجتمع الإسلامي"¹

- **الدكتور: عبد العزيز خالدي وابن باديس:** يعترف بن نبي لعبد العزيز خالدي بإنقاذه من النّزعة اليساريّة، وتنمية الحس العلمي له، بينما كان معجبا بابن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين آنذاك أكثر من كل المصلحين في العالم الإسلامي، لأنّ ابن باديس استطاع أن يمسّ جوهر المشكلة التي كان يعيش فيها الشعب الجزائري إبّان الاستعمار بسبب شيوع المذلة والتكاسل في محاربة العدو إلى ضرورة تغيير النفس كما يأمر بذلك القرآن الكريم.

- **الأمير خالد وشكيب أرسلان وعبد الكريم الخطّاب:** "كان لثورة الرّيف بقيادة عبد الكريم الخطّابي أثرها العظيم على مالك بن نبي ولذلك كان يلوم الجزائريين لأنّهم لم يثوروا على فرنسا عن قيام الحرب العالمية الثّانية، وتأثّر بحركة الأمير خالد، وكانت جريدة الاقدام تنشر ردّه على مورينو رئيس بلدية قسنطينة. وقد أعجب مالك بن نبي بتفوّق الأمير خالد في هذه المناظرة على خصمه الذي كان ينشر مقالاته في جريدة الريبوبليكان بقسنطينة. وساهم ابن نبي مع مصالي وآخرون في بعث نجم شمال إفريقيا، غير أنّه لم يرض بحبّ الظهور الذي كان يغمر مصالي حاج وبحبه المفرط للرّعاية. كما كان معجب شكيب أرسلان وساهم بإيعاز منه وبمشاركة أعضاء آخرين في إنشاء جمعية الوحدة العربيّة بفرنسا."²

- **حسن البنا: 1906-1948:** هو مؤسس جماعة الإخوان في مصر، ويلقّب بشهيد العلماء، تأثّر بن نبي بتتظيره الإسلامي ودعوته الإصلاحية "ولعلّ هذا الانجذاب نحو شخصيّة الإمام الشّهديد حسن البنا هو الذي دفعه إلى استبعاد جدوى العمل السّياسي الانقلابي وإلى تفضيل العمل على إعداد النّاس باتّجاه تحويل الشّروط الواقعية لإحداث التّغييرات الاجتماعيّة ومحو التّخلف العام وعودة شبكة العلاقات الاجتماعيّة إلى فعاليتها."³ غير أنّه انتقد الانحرافات التي وقع فيها الاصطلاحيون "عندما عدّوا عن مشروعهم الاجتماعي لصالح العمل السّياسي الذي أغرقه في بحر المهارات الكلاميّة والخطب الرّنّانة وموجة المطالبة بالحقوق مع إغفال أداء الواجبات"⁴

¹ - نفس المرجع، ص30.

² - عبد اللّطيف عبادة، مرجع سابق، ص29.

³ - نفس المرجع، ص43

⁴ - نفس المرجع، نفس الصفحة.

- **محمد إقبال:** تأثر مالك بن نبي بمفهوم القومية الإسلامية لدى المفكر الباكستاني محمد إقبال من خلال دراسة ومقارنة هذا الأخير لتاريخ المسلمين وجوهر الفكر الإسلامي، كما انتقده في بعض أفكاره "إقبال يرى إذن مسافة بين النظرية والتاريخ، وبين الفكرة والسلوك"¹، كما أن له نظرة خاصة اتجاه الثقافة عامة والثقافة الغربية خاصة "إن إقبال استطاع بلا شك تصفية الأفكار الميتة المشحونة في نفسه عن طريق الوراثة الاجتماعية، حتى أن موقفه من مشكلة الثقافة تغير كلياً.... حيث لا نجده قد امتص من الثقافة الغربية عناصرها القاتلة، بل امتص منها عناصرها الحية المحيية"²

- **المهاتما غاندي:** أعجب مالك بن نبي بفكر غاندي والذي حافظ على وحدة الثقافة في الهند، وصاحب فكرة الساتياجراهه أو طريق الحقيقة، إذ استخدم سلاح الصدق، الإخلاص، الوضوح في نضاله ضد الاستعمار البريطاني. وقد أهداه فصلاً كاملاً في كتابه (في مهب المعركة) بعنوان "تحية إلى داعية اللاعنف".

هذا وقد التقى مالك بن نبي بالعديد من قادة الشعوب والرؤساء في محافل دولية مختلفة كالرئيس جمال عبد الناصر، الرئيس الصيني ماوتسي تونغ، والرئيس نهرو.....

المطلب الثاني: الخصائص الفكرية

أولاً : الاتجاه الفكري:

لا يمكن عزل فكر مالك بن نبي عن الظروف والوقائع التي عاشها آنذاك اقتصادياً، سياسياً، اجتماعياً وثقافياً والتي ساهمت في بلورة اتجاه فكري مستمد من القرآن والسنة وإنتاج الحركات الإصلاحية "كان مالك يتابع الدور التربوي الإصلاحي الذي كانت تقوم به جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وقد زار الشيخ عبد الحميد بن باديس وناقش معه بعض القضايا حول وضع الريف الجزائري... وقد أسهم مالك بأفكاره وكتاباتاته في نشر مبادئ البرنامج الإصلاحي وتابع تطوراتها وانعكاساته على الجماهير الإسلامية"³

- لقد أمعن المفكر مالك بن نبي في البحث عن مشكلات التخلف المزمنة، "متجاوزاً الظواهر السطحية إلى الجذور المتغلغلة في الأعماق، وباحثاً عن السنن والقوانين الكفيلة بتحول الشعوب من الكلاله والعجز إلى القدرة والفعالية. "إن خط مالك الفكري التزم نسفاً محدداً وتكاملاً مع

¹ - مالك بن نبي، الفكرة الإفريقية الآسيوية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط4، 1427هـ/2006م، ص228.

² - مالك بن نبي، في مهب المعركة (إرهاصات الثورة)، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط7، 2006م، ص134.

³ - نورة خالد السعد، مرجع سابق. ص36.

الانعطافات التاريخية ، التي كان من الممكن أن تسبب له الاضطراب والتشتت، ولكنه تجاوز هذه الإشكالية بقوة عقيدته ورؤيته الشاملة لمشكلات العالم الإسلامي، فقد كان يرفض المنطق الذري، أي تجزئ مشكلة التخلف والانحطاط التي يعاني منها المجتمع العربي الإسلامي ومن هنا كان تميزه عن بقية المفكرين الإسلاميين¹، فنظرة المفكر مالك بن نبي إلى المجتمع الإسلامي "نظرة تاريخية تطورية حركية شاملة، وليست دراسة سكونية جزئية مقتصرة على مرحلة معينة من مراحل حركته التاريخية"².

اتجه مسار مالك بن نبي الفكري إلى البحث عن أسباب التخلف في العالم الإسلامي، وكيفية الخروج من مأزق التخلف هذا، "كما أنه حاول أن يخرج بالخطاب الإسلامي من مرحلة الدفاع عن الإسلام إلى مرحلة النظر العلمي الموضوعي الموجه بقيم الإسلام وعقيدته، لإيجاد الحلول العلمية لهذا الكم الهائل من مخلفات عهد ما بعد الموحدين"³.

- وكان يلح كذلك على الصرامة الأخلاقية والفعالية بغية تحقيق النهضة "ومحاربة ذهاني السهولة والاستحالة واستعمال كل ما في الوسع من أجل مواجهة الفقر والمرض والجهل، بالرغم من قلة ذات اليد وتغليب كفة الواجبات والإنتاج على كفة الحقوق والاستهلاك"⁴

ثانيا : الإنتاج الفكري:

- إن الإنتاج الفكري لمالك بن نبي مرتبط بالظروف السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية التي عايشها أو عايش إفرانها في الجزائر في الوطن العربي والإسلامي، في فرنسا، في أوروبا وفي العالم مثل: الاستعمار الأوربي، الثورات التحريرية، الحربين العالميتين الأولى والثانية، الأزمة الاقتصادية، مؤتمر دول عدم الانحياز (باندونغ).... إلخ ومن هذه المؤلفات ما ألفه بالفرنسية والآخر بالعربية ومنه ما ترجم، ومنه ما نشر ومنه ما يزال مخطوطا ينتظر النشر، وهذه المؤلفات هي:

جدول رقم : 1 مؤلفات مالك بن نبي.

الرقم	عنوان الكتاب	تاريخ الإصدار	مكان الإصدار
01	الظاهرة القرآنية (عربي - فرنسي)	1365هـ-1946م	الجزائر

¹ - نفس المرجع، ص37.

² - نفس المرجع، ص38.

³ - د. عمار طالبي، "فكر مالك بن نبي والمجتمع الإسلامي المعاصر" حولية كلية الشريعة، جامعة قطر، قطر، العدد9، 1991، ص451.

⁴ - عبد اللطيف عبادة، مرجع سابق، ص6.

02	لَبَّيْكَ (رواية) فرنسي	1366هـ-1947م	الجزائر
03	شروط النهضة (عربية - فرنسي)	1367هـ-1948م	الجزائر
04	وجهة العالم الإسلامي (عربي - فرنسي)	1373هـ-1954م	باريس
05	الفكرة الأفروآسيوية (عربي - فرنسي)	1375هـ-1956م	القاهرة
06	النّجدة الشعب الجزائري يباد (عربي - فرنسي)	1376هـ-1957م	القاهرة
07	مشكلة الثقافة (عربي)	1378هـ-1959م	القاهرة
08	حديث في البناء الجديد (عربي)	1379هـ-1960م	بيروت
09	الصّراع الفكري في البلاد المستعمرة (عربي)	1379هـ-1960م	القاهرة
10	الصّعوبات علامة النّمو في المجتمع العربي	1379هـ-1960م	القاهرة
11	الاستعمار يلجأ إلى الاغتيال بوسائل العلم	1379هـ-1960م	القاهرة
12	فكرة كمنويلث إسلامي (عربية - فرنسي)	1379هـ-1960م	القاهرة
13	تأمّلات في المجتمع العربي (عربي)	1380هـ-1961م	القاهرة
14	في مهبّ المعركة (إرهاصات الثورة) عربي	1380هـ-1961م	القاهرة
15	ميلاد مجتمع (عربي)	1381هـ-1962م	القاهرة
16	آفاق جزائريّة (عربي - فرنسي)	1383هـ-1964م	الجزائر
17	مذكّرات شاهد للقرن (القسم الأول: الطفل) عربي-فرنسي	1384هـ-1965م	الجزائر
18	الإسلام والديمقراطيّة (عربي - فرنسي)	1387هـ-1968م	الجزائر
19	إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث (عربي-فرنسي)	1389هـ-1969م	القاهرة
20	مذكّرات شاهد للقرن (القسم الثاني: الطّالب) عربي	1390هـ-1970م	بيروت
21	مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي (عربي - فرنسي)	1391هـ-1972م	القاهرة
22	المسلم في عالم الاقتصاد (عربي - فرنسي)	1392هـ-1972م	بيروت
23	معنى المرحلة (فرنسي)	1392هـ-1972م	الجزائر
24	دور المسلم ورسالته في الثّلاث الأخير من القرن العشرين (عربي)	1397هـ-1977م	دمشق
25	بين الرّشاد والتّنبّه (عربي)	1398هـ-1978م	دمشق
26	من أجل التّغيير (عربي - فرنسي)	1408هـ-1989م	الجزائر
27	مجالس دمشق (محاضرات أُلقيت بين 1971-1972) عربي	1426هـ-2005م	دمشق

- هذا إضافة إلى مجموعة من المؤلفات المخطوطة التي لم تطبع بعد منها:

- خطاب مفتوح لخرتشاف وايزنهاور

- مولد مجتمع إسلامي

- مجالس تفكير

- مذكرات شاهد للقرن (القسم الثالث)

- العلاقات الاجتماعية وأثر الدين فيها

- نموذج لمنهج ثوري (باللغة الفرنسية) كتاب حول (المشكلة اليهودية)

- العفن، كتبه في آخر حياته (بالفرنسية)

"وابتداء من عام 1968 أصبح يشارك باستمرار في ملتقيات الفكر الإسلامي التي كان ينظمها ويعقدها الوزير المرحوم "مولود قاسم نايت بلقاسم" كل سنة. وكانت بمثابة أعراس فكرية يحضرها علماء ومفكرون من القارات الخمس للمحاضرة والنقاش وإثراء الفكر والحضارة العربية الإسلامية، وداوم على هذا الحال حتى توفي يوم 31 أكتوبر 1973م¹

المطلب الثالث: دراسات عن فكر مالك بن نبي

1- د.نورة خالد السعد، التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي (دراسة في بناء النظرية الاجتماعية)، الدار السعودية، السعودية ط1، 1997.²

وهي رسالة دكتوراه (منشورة) في علم الاجتماع من جامعة الملك بن عبد العزيز بجدة.

- انطلقت الباحثة من إشكالية أنه مع تعدد نظريات التغيير الاجتماعي الغربية إلا أنها غالبا لا تصلح للتطبيق على مجتمعاتنا العربية والإسلامية لأنها وليدة ظروف تاريخية واجتماعية وفكرية خاصة بها، لذا انتقلت الباحثة لدراسة التغيير الاجتماعي من منظور مالك بن نبي كمفكر وعالم اجتماع عربي لاستخلاص نظرية عربية في التغيير الاجتماعي، جاءت الدراسة مقسمة إلى ستة (06) فصول، اهتمت الباحثة في الفصل الأول بالظروف السياسية والاقتصادية والثقافية في الفترة التي عاشها بن نبي من سنة 1905 إلى 1973 أي قبل وبعد الاستقلال وكذا بمصادره الفكرية، وفي الفصل الثاني: عرفت الباحثة النظرية الاجتماعية وكذا أهدافها وخصائصها وعناصرها البنائية وتطبيقاتها المختلفة في علم الاجتماع، أما الفصل الثالث: تعرضت إلى نظريات

¹ - د.يحي بوعزيز، بعض جوانب العظمة في شخصية المفكر الجزائري مالك بن نبي، أعمال الملتقى الدولي مالك بن نبي 1905-1973 فكره وأعماله، ط2، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، 2006، ص44.

² - د.نورة خالد السعد، مرجع سابق

الدّورة الحضارية عند كل من ابن خلدون - أوزوالد شبنجلر - أرنولد توينبي - وبيتريم سوروكين، في حين عالجت الباحثة في الفصل الرابع: نظرية التّغيير الاجتماعي عند بن نبي من حيث: المفاهيم - الأساس - القانون - النّطاق - الهدف والشّروط - والقائم بالتّغيير الاجتماعي، وقارنت في الفصل الخامس بين نظرية التّغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي بنظريات الدّورة الحضارية عند ابن خلدون - أوزوالد شبنجلر - أرنولد توينبي - بيتريم سوروكين وماكس فيبر. وأخيرا قيّمت الباحثة في الفصل السادس نظرية التّغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي من حيث المناخ الفكري - المقوّمات التاريخية لنظرية التّغيير الاجتماعي عند مالك - المفاهيم التي فسّر بها مالك بن نبي نظرية التّغيير الاجتماعي ثمّ استعرضت أهم معالم نظريته في التّغيير الاجتماعي، واعتمدت الباحثة على المنهج التحليلي من خلال تحليلها للبنية المفاهيمية في فكر بن نبي، إضافة إلى المنهج المقارن في مقارناتها بين نظرية الدّورة الحضارية والتّغيير الاجتماعي عند بن نبي وغيره من المنظرين.

- لقد أقرّت الباحثة في دراستها باستحداث بن نبي مصطلحات جديدة في قاموس علم الاجتماع مثل التّكديس، القابلية للاستعمار، الأفكار القاتلة والأفكار الميته... مع حرصه على تحديد المصطلحات والمفاهيم في دراسته للتّغيير الاجتماعي، وتميّز نظريته في التّغيير الاجتماعي بالدّور الرئيسي للذين ودخوله في الجدلية النفسية الاجتماعية بين الفرد والمجتمع في الدّورة الحضارية، وكذا تأكّده على قابلية الواقع الاجتماعي للتّغيير والتّطور، وعلى الدّور الوظيفي للإنسان ودعوته للتّغيير الدّاتي وتغيير واقعه الاجتماعي، وأهمّ مااستنتجته الباحثة هو:

* من حيث الشّكل: آراء مالك ترقى إلى مستوى النّظرية في علم الاجتماع خاصّة "الاتّجاهات الاجتماعية العامّة"

* من حيث الجوهر: نظريته لا تختلف عن سائر النّظريات الدّورية للتّغيير الاجتماعي.

* من حيث المنهج :

- اتّباع مالك بن نبي المنهج العلمي باستخدام الاستقراء التاريخي للقضايا الاجتماعية (من الجزء على الكل) واستخدام الاستنباط من أجل التّفسير والتّنبؤ المستقبلي .
- استخدام مفاهيم التحليل النفسي والتحليل التاريخي للظواهر الاجتماعية.
- قابلية مفاهيم النّظرية للقياس كونها تتّجه إلى الواقع الملموس وإمكانية اختبار القضايا النّظرية.
- وحدة أفكار مالك وتناسقها وحيويّتها ومعاناتها ومراعاتها لخصوصيّة الأمّة.

2- حمودة سعدي، مكانة الأفكار في الفلسفة الاجتماعية عند مالك بن نبي (رسالة ماجستير

فلسفة)، جامعة الجزائر، 1984-1985.¹

- تمثّلت إشكالية البحث في مكانة الأفكار عند مالك بن نبي وهي محاولة البحث عن أوجه الجدلية الحضارية الواقعية التي تمكّنا من تحقيق وعد الله الحق "إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ" مبوباً دراسته إلى ثلاثة أبواب هي:

-الباب الأول: إشكاليات مشروعية الفلسفة العربية المعاصرة

- الباب الثاني: الثورة الثقافية والصراع الفكري.

- الباب الثالث: مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي.

- تناول الباحث الإشكالية الأساسية في الفلسفة العربية ومحاولة ضبط مفهوم الفكر لتأسيس مشروعية الفلسفة العربية المعاصرة في دراسة الإنسان وتحديد أزمته الحضارية، وكذا ضبط مشروعية المعاصرة للإجابة على إشكالية استقلال الفلسفة العربية المعاصرة عن المذاهب والتيارات والاتجاهات والفلسفات للأعرابية، ثمّ قام بتحليل ركائز فكر مالك بن نبي وتوضيح الإطار العام لنشأته، وفي الأخيرتين أنّ مشكلات العالم العربي المعاصر تتمثّل في المشكلة الحضارية.

- منهجياً: استخدم الباحث التحليل منهجاً رئيسياً في البحث عن أسباب تمكّنا من الإقلاع الحضاري معتمداً فيه على الواقعية الموضوعية والمنطقية لأنّه تناول المجتمع العربي في كياناته المادية وبنياته العضوية، وفي تراكيبه الفكرية بوصفها كائنات حيّة، كما تناول المسائل الاجتماعية في بنياته اللامادية في جوانبها الأخلاقية والجمالية والدينية وقام بإعادة تركيبها عن طريق التنظيم والربط المنطقي، كما اتّبع المنهج المقارن لتحديد أوجه التشابه والاختلاف والتداخل بين المفاهيم ووجهات النظر.

- وتوصّل الباحث إلى أنّ:

أ- الفلسفة الاجتماعية لمالك بن نبي هي محاولة تعبّر عن ذاتية وأصالته، يعبرّ فيها عن معاناة اجتماعية حقيقية تمخّضت عن فلسفة ترتبط بدنامية المجتمع وسيره في التاريخ متمحورة في مشكلة الإنسان، مشكلة التراب ومشكلة الوقت، أو هي بكلمة أدقّ مشكلة الأفكار وفعاليتها في المجتمع، فلبّ الفلسفة الاجتماعية عند مالك بن نبي هي ظاهرة التخلف، فالى أيّ العوامل يمكن إرجاعها؟ أهى في العوامل المادية (أدوات وأشياء الحضارة)؟ أم هي فقر الأفكار التي تنتج هذه

¹ - حمودة سعدي، مكانة الأفكار في الفلسفة الاجتماعية عند مالك بن نبي (رسالة ماجستير فلسفة)، جامعة الجزائر، 1984-1985.

- الأشياء؟ أم الأمر متعلق بالإنسان صانع الحضارة والتاريخ والأفكار؟
- ب- تناول مالك بن نبي للنهضة الحديثة وتحليله لها تحليلًا علميًا نقديًا ودرستها دراسة اجتماعية تكتسي طابعًا موضوعيًا.
- ج- إلزام بن نبي بمنهج واقعي في فلسفته الاجتماعية واتخاذها من المجتمع واقعا متعينًا وتاريخيًا اجتماعيًا منطلقًا لبحثه وتأمله.
- د- اتخاذ مالك بن نبي تجربة الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية شواهد موضوعية لفهم فلسفته الحضارية والتاريخية والنفسية.
- 3 - سعيد الهادي، الفكر الديني الحديث مالك بن نبي، وهي دراسة أكاديمية مقدمة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع تخصص علم الاجتماع الديني معهد علم الاجتماع، جامعة بن يوسف بن خدة، 2008/2007.¹
- تكمّن الأهمية العلمية لهذه الدراسة في معرفة كيفية تكوين الوعي الديني لدى الأفراد والجماعات عن طريق طرح الفكرة الدينية وتحديد دورها في تكوين المجتمع وأخذها لشخصية مالك بن نبي كأحد رواد التنظير الإسلامي وقد انطلقت هذه الدراسة للبحث في صحة الفرضيات التالية:
- تبلور فكر الخطاب الديني المعاصر، كما عند مالك بن نبي في الجانب السياسي الاديولوجي أكثر في الجانب الديني العقائدي أو المعاملاتي.
- مجهود مالك بن نبي في إثبات أهمية الفكرة الدينية لم يأخذ بعين الاعتبار كلّ جدليات وإشكاليات هذه الفكرة.
- جاءت الدراسة مقسّمة إلى ثلاث فصول:
- الفصل الأول: مدخل منهجي
- الفصل الثاني: جدليات وإشكاليات الفكر الديني
- الفصل الثالث: مقارنة لفهم الفكرة عند مالك بن نبي
- وقد عمد الباحث إلى اختيار خمسة مؤلفات لبن نبي عن طريق عينة قصدية معتمدة على منهج تحليل المحتوى للكتب الآتية: ميلاد المجتمع - دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين - شروط النهضة - كمنولث إسلامي الظاهرة القرآنية - وجهة العالم الإسلامي .
- ومن نتائج المهمة التي توصلت إليها الدراسة هي:

¹ - سعيد الهادي، الفكر الديني الحديث مالك بن نبي، وهي دراسة أكاديمية مقدمة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع تخصص علم الاجتماع الديني معهد علم الاجتماع، جامعة بن يوسف بن خدة، 2008/2007.

- ينتمي الفكر الديني لدى بن نبي إلى مستوى الثاني القائم على تجسيد الفكرة الدينية على أرض الواقع كحركة التغير السياسي والفكري والثقافي.
- إغفال مفهوم الوساطة الدينية وبخاصة البشرية المتمثلة في رجل الدين يستغل معرفته الدينية لأغراض غير شرعية.
- اعتماد بن نبي على تحليلاته التاريخية وإهمال العناصر الجغرافية، العرقية والنفسية وغيرها.
- ميل خطاب بن نبي في الكثير من تفصيلاته المعالجة الإيديولوجية دون العلمية
- تركيز بن نبي في تحليلاته على التوظيف السلبي للفكرة الدينية عن طريق الطقوس والمراسيم والعادات والتقاليد الاجتماعية.

4- محمد بغدادي باي، التربية والحضارة (بحث في مفهوم التربية وطبيعتها بالحضارة في

تصور مالك بن نبي)، عالم الأفكار، 2006.¹

انطلق الباحث من إشكالية أنّ نوع التربية يختلف باختلاف طبيعة ثقافة المجتمعات ونظمها الاجتماعية، فالتربية بالمفهوم العام هي وسيلة فعالة في نقل التراث إلى الأجيال اللاحقة، لي طرح سؤالاً عاماً هو: ما حقيقة التربية؟ أي عامل تغيير أم عامل ثبات واستقرار؟ متفرعاً إلى التساؤلات التالية:

- ما هي أطروحة مالك بن نبي في التربية؟ - متى تكون التربية عامل تغيير ولماذا؟

متى تكون عامل استقرار ولماذا؟ - وما مدلول التغيير والاستقرار عند مالك بن نبي؟

- جاء البحث مفصلاً في خمسة (05) فصول هي :

الفصل الأول: الظاهرة الحضارية في تصور مالك بن نبي أسبابه ومكوناتها.

الفصل الثاني: مجتمع ما بعد الحضارة وسماته.

الفصل الثالث: التغيير والتربية في منظور مالك بن نبي.

الفصل الرابع: معاني التربية ومفهومها عند مالك بن نبي.

الفصل الخامس: موقع "التربية البنوية" في خارطة الفكر التربوي الحديث

- انطلاقاً من أنّ مالك بن نبي عني بمشكلات التغيير، إمكانياته وشروطه بغية القضاء على التخلف ومخلفاته، حاول الباحث التركيز على كيفية تناول مالك بن نبي لإمكانية التغيير هذه ولشروطه في إطار التصور العام للحضارة.

¹ - محمد بغدادي باي، التربية والحضارة (بحث في مفهوم التربية وطبيعتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي)، عالم الأفكار، 2006.

- منهجيًا: اعتمد الباحث على منهج العرض التحليلي لمجمل أفكار مالك بن نبي في التربية وكذا المنهج التحليلي الاستنباطي في استخراج مختلف معاني ودلالات التربية لديه، حيث قام الباحث بمسح شامل لأعمال مالك بن نبي الفكرية وتجميعها في وحدات خاصة تمثل مقومات التربية عنده.

- في الفصل الأول ناقش الباحث الظاهرة الحضارية عند مالك بن نبي باعتبارها ظاهرة إنسانية يمكن أن تحظى بها مختلف الشعوب والأمم على تعدد وتنوع ثقافتها، وفي الفصل الثاني: درس مجتمع ما بعد الحضارة عند بن نبي، وهو مجتمع أتم فيه دورته الحضارية، وبالتالي تم استبعاده عن حركة التاريخ الفاعلة، فدخل في حالة مرضية مثقلة بمخلفات ومورثات الماضي وترسباته، وفي الفصل الثالث: بحث في علاقة التغيير بالتربية باعتبارها تربية الإنسان بما يحقق التغيير، أما في الفصل الرابع: فحاول الباحث التعرف على أنواع التربويات المعبرة عن الأهداف التربوية بحيث أصبح كل هدف تقريباً يتعلّق بنوع معين من التربية وأخيراً في الفصل الخامس قارن الباحث التربية البنوية بالاتجاهات الحديثة في مفهوم التربية.

- النتائج: توصل الباحث إلى ما يلي :

- استعمال مصطلح الحضارة عند مالك بن نبي يختلف عن استعمال الأنثروبولوجيين والذي ضيق مجال توظيفه فيما يتعلّق "بنوع راق من الحياة"

- سمات مجتمع ما بعد الحضارة تنقسم إلى: فردية-اجتماعية وثقافية، وهي سمات متداخلة تتفاعل فيما بينها سلباً بحيث يصعب بيان السبب فيها من النتيجة.

- الجهود التغييرية التربوية للإنسان يجب أن تشعره بالمشاكل الحقيقية وعلاقاتها المتفاعلة، وكذا تعليمه وتدريبه على أسلوب التفكير المنطقي للربط بين الأسباب ومسبباتها.

- مفهوم التربية عند مالك بن نبي يدلّ على عملية تثقيف متواصلة وهي عملية نفسية تقوم عناصر ثقافة المجتمع وترتيبها.

- التصور التربوي للثقافة عند مالك بن نبي تصوّر واقعي يعبر عن مشكلات التخلف، ويشكّل إطاراً من المفاهيم المتسقة متناسبة والأهداف التثقيفية للمجتمع ممّا يرقّيها إلى مستوى النظرية.

5- سليمان ملوكي، إشكالية الثقافة والسياسة عند مالك بن نبي، وهي دراسة أكاديمية مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة كلية العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة الجزائر،

2010/2009¹.

تكمّن الأهميّة العلميّة لهذه الدّراسة في معرفة كيفيّة تكوين الوعي الدّيني لدى الأفراد والجماعات عن طريق طرح الفكرة الدّينيّة وتحديد دورها في تكوين المجتمع واختياره شخصيّة مالك بن نبي كأحد رواد التّنظير الإسلامي وقد انطلقت هذه الدّراسة للبحث في صحة الفرضيّات التّاليّة: تهدف الدّراسة إلى التّمييز بين التّقاليد الحيّة والتّقاليد المرضيّة ومحاولة ضبط العلاقة بين السياسة والتّقاليد، وإلى بيان موضعهما في المشروع الحضاري الذي قدّمه مالك بن نبي إلى الأُمّة الإسلاميّة، وإلى العالم الثّالث عامّة وإلى الوضع الخاص لجزء من هذه الأُمّة، ويعني به الدّولة الجزائريّة الفتيّة والمستقلّة، حاول فيها الباحث تقييم وضعها الفكري والتّقافي والسياسي، وبعد أن قضت قرابة نصف قرن مازالت تتخبّط في مشاكل ثقافيّة واجتماعيّة ومشاكل هويّة وحضاريّة واقتصاديّة.

كما تهدف الدّراسة إلى تصحيح وتعديل مفهوم التّقاليد من جديد خاصّة في الظروف الحاليّة. ومعرفة موضع ثقافتنا.

جاءت الدّراسة مقسّمة إلى أربع فصول:

الفصل الأول: حياته، دراسته، ظروف عصره، آثاره.

الفصل الثّاني: التّقاليد، خصائصها، مشكلاتها والقابلية للاستعمار.

الفصل الثّالث: السياسة، الأخلاق والديمقراطية.

الفصل الرابع: جدلية التّقاليد والسياسة ودور النخبة السياسيّة والاصلاحية في عملية التّغيير.

ومن النّتائج المهمّة التي توصّلت إليها الدّراسة هي:

- يقدّم مالك بن نبي البدائل الاستراتيجية التي تصبّ في تغيير الانسان وإصلاح العالم التّقافي لديه وتوجيه الطّاقة الكامنة نحو الهدف المنشود.

- من خلال تناول مالك بن نبي للحركة الإصلاحية تتّضح مميّزات مشروعه ومقترحاته للتّجاوز نحو أفق فكري أنسب. فيظهر لنا الفرق بين المشروع الحضاري الإسلامي والمشروع الإصلاحي.

- لفهم موضوع معين من خلال مشروع ابن نبي يستوجب ذلك الاستقراء الكلّي للمشروع، ف"مشكلات الحضارة" يحمل الدّلالات العميقة لمفهوم "المشروع" المتمثّلة في تحديد أسس النّظرية

¹ - سليمان ملوكي، إشكاليّة التّقاليد والسياسة عند مالك بن نبي، وهي دراسة أكاديمية مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة كلية العلوم الاجتماعيّة والانسانية، جامعة الجزائر، 2010/2009.

- والآليات التطبيقية المبنية على دراسات الواقع وشروطه ومكوناته ومتطلباته ومقتضياته.
- إشكالية السياسة والثقافة لا تكمن في النظام السياسي لبلد ما بقدر ماهي متعلقة بالإنسان الصانع للعملية السياسية، فجوهر السياسة يتمثل في الثقافة وذلك من حيث الأمر التالية:
 - طرح نظرية في الثقافة وفق: المبدأ الأخلاقي، المنطق العملي، الذوق الجمالي، الصناعة.
 - التحرر من مخلفات مجتمع (مابعد التّحضر) التي تحدّ من فاعلية الإنسان.
 - العناية بالبناء الروحي أي معايشة الإيمان باعتباره شرطاً دافعاً للحضارة.
 - التفكير المنهجي أو توجيه الثقافة توجيهها سليماً في إطار اتّصالها بالعمل وتوجيه رأس المال.
 - بناء الدولة يكون ببناء الإنسان من حيث القيم: القيم، الحق، الواجب، العمل، الحرية والعدل.
- تجدد الإشارة إلى وجود الكثير من المهتمين بفكر مالك بن نبي منهم من تتلمذ على يده، ومنهم من اطلع على مؤلفاته، فقدّموا العديد من الدراسات الأكاديمية والمؤلفات، وكذا تنظيم العديد من الملتقيات حول فكر مالك بن نبي، في الجامعات الجزائرية أو العربية أو الإسلامية تكشف عن بعد نظر هذا المفكر وتحليلاته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية....

المبحث الثالث: سمات البيئة التي عاش فيها مالك بن نبي

المطلب الأول: البيئة السياسية والاقتصادية أثناء الفترة الاستعمارية

أولاً : البيئة السياسية أثناء الفترة الاستعمارية

- ولد مالك بن نبي في الفترة الاستعمارية الفرنسية للجزائر ابتداء من 05 جويلية 1830م، حيث اعتبرتها السلطة الفرنسية مقاطعة تابعة لها، فاستعملت كافة الأساليب لاستمرار بقائها، وكانت سياستها الاستعمارية قائمة على تمزيق الوحدة الوطنية للشعب الجزائري "سياسة فرق تسد"، تنصير الجزائريين وطمس الشخصية الوطنية وإلغاء الهوية العربية الإسلامية وتهميش وإلغاء اللغة العربية.
- وإن كان الاحتلال الفرنسي قد التزم أيام الاحتلال باحترام حرية الديانة وحماية المساجد، إلا أنه قد هدم بعضها وحولت بعضها إلى كنائس وتم إبعاد ونفي الطبقة المثقفة والمتعلمة من قضاة ورجال الدين (أنمة وعلماء)، ومصادرة الممتلكات الخاصة واستمرت فرنسا تمارس سياستها الاستعمارية على مدى السنوات التالية : فجاء دستور 1263هـ/1848م الذي ينص على أن بلاد الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا ثم في شهر محرم 1286هـ/ماي 1869م سنت قانون تقسيم أرض الجزائر إلى قسمين: مدني وعسكري وفي عام 1285هـ/1870م استصدر النائب الفرنسي اليهودي (أودلف كريميو) مرسوم منح يهود الجزائر الجنسية الفرنسية باعتبارهم مواطنين فرنسيين. وكان هذا

القانون سببا في فتح باب التقدم لليهود في مجال الاقتصاد والثراء، والتحكم في رقاب الجزائريين، مزاحمة الفرنسيين أنفسهم والمستوطنين من غيرهم.

بالإضافة إلى ذلك أصدرت مرسوما آخر في 1306هـ/1889م فتحت به باب التجنس العام للأجانب وغايتها أن تكثر نسبة الأجانب لجعل الجزائر فرنسية.¹

- إنَّ المخطَّط الاستعماري الفرنسي الهادف إلى الحفاظ على السيطرة على الجزائر والمكوث فيها أطول مدّة، ألزم عليها انتهاج سياسات استعمارية عديدة أهمّها سياسة الإفقار والتّجويع، سياسة الفرنسة، سياسة التّنصير، سياسة التّجهيل.

- أمّا من جانب الشعب الجزائري فقد كانت الحركة الوطنية نشيطة قبل الحرب العالمية، وازدادت نشاطا أثناءها وبعدها رغم تعسّف السّلطات الاستعمارية وإلقائها بالعناصر المعارضة في السّجون والمنافي ويتمثّل نشاطها في مظهرين:

- المظهر السّياسي: يتجلّى في تكوين الأحزاب والنّقابات وخوض المعارك الانتخابية ورفع العرائض وقيادة المظاهرات والإضرابات وإسماع مطالب البلاد إلى الرّأي العام الفرنسي والعالمي عن طريق الصّحف والندوات واللّجوء إلى المحافل الدّولية كالجامعة العربيّة وهيئة الأمم المتّحدة.

- مظهر الكفاح المسلّح: وهو طابع ثوري مسلّح عن طريق الاغتيالات وتنظيم العمليات الفدائية وإلقاء المتفجّرات وتكوين العصابات المسلّحة ومقاطعة الأجهزة الاستعمارية، إلى أن تمّ الإعلان عن انطلاق الحرب التّحريرية في الجزائر بقيادة جبهة التّحرير الوطني في 01 نوفمبر 1954م.

ثانيا : البيئة الاقتصادية أثناء الفترة الاستعمارية:

- ركّزت السّياسة الاقتصاديّة الاستعماريّة على إخضاع الاقتصاد الجزائري لخدمة الاقتصاد الفرنسي فقامت بنهب الثّروات الجزائريّة واستخدامها في مصانعها وتسهيل امتلاك المزارع والأراضي الزراعيّة الخصبة للمستوطنين واليهود، وذلك تنفيذا لمختلف سياستها السابقة الذّكر ومنها:

1- سياسة التّفقير:

- عمدت إلى إخضاع الجزائريين للسّلطة الفرنسيّة وسلبهم ممتلكاتهم والاستحواذ على مصادر الثّروة الوطنية ومست هذه السّياسة مختلف الميادين:

* الميدان الزراعي: اغتصاب الأراضي الزراعيّة من ملاكها ونقل ملكيّاتها للمستوطنين خاصّة الخصبة منها، وفرض ضرائب باهظة، فانتشر الفقر والبطالة والجوع أو ما يسمّى سياسة التّجويع

¹ - نورة خالد السّعد، مرجع سابق، ص11.

بعد فقد الجزائريين لمصادر رزقهم وعيشهم وسلب حيواناتهم ومواشيهم مما دفع بهم إلى النزوح إلى المدن الكبرى بحثا عن العمل أو الهجرة إلى المناطق الداخلية والجبالية بعدما باعوا كل ممتلكاتهم وأملأوا عائلاتهم، أو الهجرة إلى فرنسا وهذه الأخيرة وقرت أيدي عاملة رخيصة للصناعة والزراعة في فرنسا خاصة في الحقول والمناجم.

* الميدان الصناعي: سعت فرنسا إلى محاربة التصنيع في الجزائر لتظل سوقا مفتوحة للصناعة الفرنسية، وما قامت به هي صناعات غذائية صغيرة وصناعة الخمور، في حين استولت على المواد الخام في الجزائر خاصة بعد اكتشاف البترول وبأثمان زهيدة ونقلها للتصنيع في فرنسا.

* الميدان التجاري: استولى المستوطنون بدعم من البنوك وشركات الاحتكار على التجارة الخارجية والداخلية، وأصبحت الجزائر سوقا رئيسية للتجارة الفرنسية وتسويق منتجاتها وبرزت الطائفة اليهودية في ميدان التجارة بفضل فوائدها الربوية على القروض التي تمنحها للجزائريين الذين كانوا يعانون من التلوث الأسود: الفقر، الأمية، المرض...

ويصف بن نبي فترة الحرب العالمية الثانية ودخول تركيا إلى جانب ألمانيا وفرنسا وأثرها الاقتصادي في الجزائر "لقد لفّ الغلاء الحياة في المدينة فهدم طبقة قديمة تعيش على موارد الأرض والحرف التقليدية، ورفع على أنقاضها بفضل المضاربة طبقة من الأثرياء الجدد تعيش على التجارة، لقد آذن ذلك العصر بأفول نجم العائلات القديمة القسنطينية، وأضحى الخط الاقتصادي الجديد يفرض تحولا في العقلية وفي مظاهر الحياة"¹

المطلب الثاني: البيئة الاجتماعية والثقافية والدينية أثناء الفترة الاستعمارية:

أولا : البيئة الاجتماعية أثناء الفترة الاستعمارية:

يصف المفكر مالك بن نبي تلك الفترة: "لقد رأيت النور في سنة 1905، أي في زمن خطأ فيه المجتمع الجديد أولى الخطوات. فأنا أنتمي إذن إلى الجيل السيء الذي يختم طور التحلل الذي ألمّ بالحضارة الإسلامية ويأذن لعصر جديد يختلط فيه نوعان من "العفن": الاستعمار والقبلية للاستعمار، ولكنه عصر تنبثق منه، هنا وهناك، مؤشرات وبواكير نظام جديد لا يزال الغموض يلفّه. غير أنّ هذا النظام يصطدم حتما، عبر تناقض عنيف، بكل ما يسعى للحفاظ على استمرار الوضع السائد سواء بحكم العادة كما هو الحال الاستعمار. وإذا تجسّد في شخص، فإنّ هذا الأخير سيقع حتما في مواجهة القابليين للاستعمار وأسيادهم الذين حولهم إلى "أهالي" سكان المستعمرات

¹ - مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، مرجع سابق، ص 34.

(Indigènes) أي إلى مخلوقات باهتة، فاترة وهجينة، لاهي بنساء ولارجال، لأخلاق لها وتبدو أدوات قذرة في تناول الاستعمار، كل هذا ليخضعها لهيمنتها... وهناك نوعان من الأهالي: نوع الخونة الواضحين، من أمثال الدكتور بن جلول وهو صنف يقتات من أموال الاستعمار ومن ازدراء الشعب، ثم صنف "الخونة المترفين" الذين يعيشون من أموال الشعب باستغلال جهله.

وعلى الجملة فإن الطبقة الأولى أقل احتقارا، أو أقل خطورة لأنّ خيانتها جلية ظاهرة.¹ سعت الإدارة الفرنسية إلى التأثير السلبي في البنية الاجتماعية وإحداث تغيير جذري في التركيبة الاجتماعية "بالإضافة إلى دورها التخريبي في تمزيق البيئة الاجتماعية للجزائريين وإثارة الخلاف بين عناصر المجتمع الجزائري العرب والبربر، ومحاولة إقناعهم أنّهم من سلالة أوروبية وأنّ لهم لغة خاصة لا ينبغي التفریط فيها ومنعهم من تعلّم اللغة العربية، كما كانت ترمي إلى تكوين جماعات منفصلة عن مقومات الشخصية الإسلامية العربية".²

حاربت فرنسا الدين الاسلامي في الجزائر وتغيير الثقافة الجزائرية ونشر الامية "لقد قامت فرنسا بمحاربة الهوية الوطنية في الجزائر في الميادين الثقافية والدينية والاجتماعية، ففي المجال الاجتماعي قامت بمصادرة الأملاك، حجز الأوقاف، القضاء على النخب والبرجوازية الوطنية، سن قانون الأهالي، إنشاء الحالة المدنية وطمس معالم المدن الجزائرية..."³ "قمذ ثورة الأمير عبد القادر عمل المحتل على القضاء على النخبة المحلية متمثلة في البرجوازية الحضرية والارستقراطية فضعت الانتلجانسيا وبقي الإسلام هو الحصن الأخير والمنيع لديناميكية المقاومة الرافعة لشعار الأصالة والهوية".⁴

ثانيا : البيئة الثقافية والدينية أثناء الفترة الاستعمارية:

"في هذه الفترة انتشرت البدع والخرافات وكانت الحياة الاجتماعية والدينية في تدهور وخمود وسيطرت الطرق الصوفية حيث بلغ عدد الزوايا في الجزائر 349 زاوية".¹

¹ - مالك بن نبي، العفن-مذكرات (1932-1940)، تر: نور الدين خندودي، ج1، دار الأمة، الجزائر، ط1، 2007، ص13.

² - نورة خالد السعد، مرجع سابق، ص17.

³ - مجيد مسعودي، سياسة فرنسا الممنهجة في القضاء على مقومات الهوية الوطنية في الجزائر، مجلة دراسات حول الجزائر والعالم، مركز البحوث والدراسات حول الجزائر والعالم، الدويرة، الجزائر، العدد 5، 2017، ص 10.

⁴ - مجيد مسعودي، نفس المرجع، ص 12.

فقد ضرب التعليم ضربة قاضية على إثر مصادرة الأوقاف (الأحباس)، فأغلقت المدارس وتوقفت حلقات الدروس الحرة في المساجد، وهاجر العلماء ونهبت المكتبات. وانشغل الباقون من المتعلمين بحفظ الرمح وخافوا من الكتابة، بينما التحق بعضهم بالمقاومة التي تولاها عبد القادر بن محي الدين في غرب البلاد والحاج أحمد في شرقها.

ومنذ الاحتلال، وظّف الفرنسيون بعض الجزائريين في مختلف المجالات الدينية والديوانية والترجمة والصحافة (وهي فن جديد عليهم). فنشأ عندئذ أدب مختلف عن سابقه فكرا وروحا وأسلوبا، متأثرا بالمخالطات الاجتماعية والتأثيرات اللغوية والفكرية الفرنسية. ولم يظهر ذلك فجأة وإنما أخذ يتطور مع الأيام ويتسع مع الحاجة. فقد وظّف الفرنسيون بعض رجال الدين في الإمامة والإفتاء والقضاء كما وظّفوا آخرين في التدريس والترجمة، وعينوا محررين ومصححين في الصحافة التي أنشأوها. وقد أصبح هؤلاء ينشؤون الرسائل الإدارية والمقالات الصحفية ويلقون الخطب الوعظية في الجمعة والأعياد على الطريقة الجديدة المعينة لهم من الإدارة الفرنسية.²

كما حاولت الإدارة الفرنسية من منع من تعلم اللغة العربية، وحاربت مقومات الشخصية الإسلامية العربية وطمس الهوية الجزائرية العربية الإسلامية.

"أما في المجال الديني والثقافي، وقد استهدف المحتل كل ماله علاقة بتاريخ ولغة ودين الجزائريين: محاربة القضاء الإسلامي، التنصير، نشر التعليم الفرنسي، تحطيم وتشويه التاريخ الوطني، توجيه الجغرافيا.³

إنّ دراسة اللغة العربية ولهجاتها كانت قائمة عند الفرنسيين منذ بداية الاحتلال، على حاجاتهم إلى فهم الشعب الجزائري وتوفير وسيلة الاتصال به والتجارة معه ومع غيره. أما دراسة البربرية ولهجاتها فقد جاءت فيما يبدو، نتيجة لما سمّي بالسياسة الفرنسية البربرية، وهي السياسة التي قامت على تبعيد السكان عن بعضهم وتقسيمهم إلى بربر وعرب، وأقلية وأغلبية، لكي تظل الكلمة الفصل للفرنسيين أنفسهم.⁴ وخدمة لسياسة التجهيل فقد عمدت إلى جعل التعليم إجبارياً على أبناء الجالية الأوروبية في الجزائر، وبالمقابل حرمان الجزائريين من ذلك بل وإلغاء تعليم اللغة العربية والمبادئ الإسلامية، وقد كان هناك نظامان للتعليم الابتدائي أحدهما إجبارياً خاصاً بأبناء

¹ - الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ج4، ص344.

² - د. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، ج8، عالم المعرفة، الجزائر، ص9، ص10.

³ - مجيد مسعودي، مرجع سابق، ص10.

⁴ - د. أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص30.

الأوربيين، والآخر غير إجباري خاصا بأبناء الأهالي (Indigènes)، كما سعت إلى فرض فرنسة التعليم والإدارة الحكومية والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية وأسماء المدن والقرى، والذوق العام والثقافة، كما عمدت إلى إحياء العصبية العنصرية وفرض الجنسية الفرنسية.

- كما هدفت السلطة الفرنسية إلى تطبيق سياسة التنصير في الجزائر التي تمتد جذورها إلى تاريخ الحملة الاستعمارية حيث رافقها ستة عشر قسيسا، ومنذ قرار 1830/12/07 أصبحت بموجبه جميع الأوقاف الإسلامية تابعة لمصلحة أملاك الدولة. وقامت بهدم المساجد وتحويلها إلى كنائس بأمر من السلطات الفرنسية ونفي العلماء وإخضاع القضاء الإسلامي للقضاء الفرنسي.

- هذا وقد أثرت عملية التهجير على البنى الاجتماعية والثقافية السائدة، "هذه الهجرة رافقتها تحولات اجتماعية كانت تتم تدريجيا في محيط مدينة قسنطينة، التي مازالت تحافظ على المظاهر في الإطار الاستعماري، إلا أن نظمها التقليدية وعاداتها قد بدأ يعتريها التغيير: الاحتفالات، والزواج، ومراسم الدفن، والأعياد، واجتماعات الرقية وطرد الجن، وحلقات الذكر عند الحنصالة والرحمانية والتيجانية، وخاصة العيسوية"¹ وكلما تدنت الأوضاع الاقتصادية زاد التحلل الاجتماعي. وقد مس التحول كافة العادات الأخلاقية والاجتماعية وبنسب متفاوتة، فتكون بنسبة كبيرة في المدن الكبرى كتلمسان، قسنطينة، وتقل في المدن الصغرى والأرياف "أما على الصعيد الاجتماعي فقد كان تدهور الإطار التقليدي أبلغ إلى الوضع. فبعض النقابات المهنية كنقابة النساجين كانت قد اختفت منذ بعيد، فيما ظلت أخرى تقاوم"²

وهذه العملية أو السياسية الثنائية يطلق عليها بيار بورديو الغرس الثقافي (Acculturation) من جهة والتفقير الثقافي (Déculturation) من ناحية أخرى. فالغرس الثقافي يتمثل حسب في الاتصال بين المجتمعين الفرنسي المستعمر والجزائري المستعمر وما ينتج عنه من تقاطعات ثقافية تقوم بنتاج نمط ثقافي مميز، أما التفجير الثقافي، فيعمل المحتل عن طريق عمل متعمد وممنهج على التحطيم العنيف للبنى الاقتصادية للمجتمع التقليدي، وهو مآدى إلى خلخلة الجماعات الاجتماعية وإضعاف التقاليد الثقافية.³

¹ - مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، مرجع سابق، ص ص 16-17.

² - نفس المرجع، ص 17.

³ - Pierre Bourdieu et Abdelmalek Sayed, Le déracinement, les éditions de Minuit, Paris, 1964, pp 30-31.

المطلب الثالث: أوضاع الجزائر بُعيدَ الاستقلال

- كان هدف ثورة نوفمبر الخالدة تحقيق الاستقلال الوطني الشامل والسيادة على التراب الوطني أرضاً وثروات، وإقامة دولة جزائرية عصرية متطورة وديمقراطية اجتماعية في إطار المبادئ والقيم العربية الإسلامية، بعدما عانى الشعب الجزائري (أثناء الاحتلال) شتى أنواع الاستعباد والاستغلال والإبادة خلال مائة واثنان وثلاثون (132) سنة من الاحتلال.

وقد اعتمدت الجمهورية الجزائرية عقب الاستقلال إلى أولويات واهتمامات مستعجلة في كافة النواحي:

- الفصل في طبيعة النظام السياسي بإقرار نموذج الحزب الواحد وهو حزب جبهة التحرير الوطني (FLN)
- التخلص من قيود اتفاقيات إيفيان، فشرعت في تأميم أراضي المعمرين 1963 وإقامة بنك مركزي قام بصك عملة وطنية هي الدينار سنة 1963 (Dinar)
- بناء اقتصاد وطني حديث وفق النهج الاشتراكي، فأنشأت شركات عمومية كشركة سوناطراك (SONATRACH) سنة 1963، ومزارع مسيرة ذاتيا (قانون مارس 1963، من أراضي المعمرين الفارين إلى فرنسا، وكأراضي مهجورة من مالكها الأجانب الفارين)
- التكفل بضحايا حرب التحرير من أبناء الشهداء وأراملهم ومعطوبي الحرب وإعادة إدماج المجاهدين وتنظيم عودة اللاجئين من تونس والمغرب خاصة.
- العمل على تحسين مستوى معيشة المواطنين عن طريق توفير العمل، السكن والمرافق العامة والمنشآت الصحية...
- محاربة الأمية عن طريق تطبيق مبدأ إجبارية ومجانية التعليم.
- إعادة الاعتبار للثقافة واللغة الوطنية وذلك بالاستعانة بالإطارات الفنية العربية المتعاونة كالأساتذة العرب: من العراق وسوريا وفلسطين والأردن.... الخ

خلاصة الفصل

لاشكَّ أنَّ مسيرة المفكر مالك بن نبي كانت حافلة بالأحداث التاريخية، السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والدينية التي طبعت بيئته الصغيرة في تبسة ثم في قسنطينة وبعدها محيطه الأوسع في الجزائر أثناء فترة الاحتلال الفرنسي، وبعد الاستقلال، وانتشار النزعة التحريرية في البلدان المستعمرة في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وحتى الأحداث الدولية وبخاصة الحرب العالمية الثانية وبعدها فترة الحرب الباردة بين الاتحاد السوفياتي زعيم الاشتراكية والولايات المتحدة الأمريكية زعيم الرأسمالية.

لقد أثرت هذه الأحداث في تنشئته الاجتماعية في أسرته، وعلى طبيعة فكره بعد ذلك، كما أنَّ قراءاته الواسعة من الصحف والمجلات والكتب والمؤلفات، تأثر بمناهج مؤلفيها وفكرهم أمثال ابن خلدون، توينبي، شبنجلر... بل ويشير إليهم في جلِّ مؤلفاته، وتواجهه في اللقاءات والمحاضرات والدروس التي كان يحضرها وسَّعت من أفكاره وصارت نظريته للوقائع نظرة تحليلية نقدية.

بالإضافة إلى التقائه بالكثير من الشخصيات ومن مختلف الدول قد أثر فيه أيما تأثير، جعلت منه إنسانا محاورا يناقش ويحلل المسائل السياسية والاقتصادية والفكرية والدينية والثقافية بقدر عال من الحياد والإقناع، ولم يمنعه تخصصه التقني أن يظل حبيس المسائل التقنية بل وظَّفه في تحليلاته الكثيرة، ولم تمنعه ديانتها الإسلامية من أن يطلع على الكتب السماوية الأخرى ويستنبط ما يخدم عقيدته وأمته الإسلامية، فنظر لفكرة كمنويلث إسلامي، وشروط النهضة، ومشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، وحاول إيجاد مكانة للمسلم في عالم الاقتصاد وبيّن دوره في التلّث الأخير من القرن العشرين و...

إنَّ تمسك مالك بن نبي بالعقيدة الإسلامية وإيمانه الراسخ بمبادئها جعل تأثيرها فيه كبيرا، فبملاحظاته للمجتمعات الإسلامية والتدبّر في سلبياتها، توصّل أنّه لكي تحقّق هذه المجتمعات الإقلاع الحضاري لابدّ من الرجوع إلى مبادئ الدين الإسلامي.

الفصل الثالث :

الثقافة ودلالاتها

عند مالك بن نبي

تمهيد

تعدّ الثقافة من أكثر المفاهيم انتشارا وتداولاً، ولاتخلو المجتمعات عبر التاريخ منها، ويشتمل مفهوم الثقافة مجموع ما يتلقاه الفرد من بيئته من مختلف القيم والعادات والأعمال واللغة والأخلاق.... وماتوصّل له من منتجات وأدوات تسهّل حياته.

وقد تناول مالك بن نبي مفهوم الثقافة في العديد من محاضراته ومؤلفاته بل وخصّص له كتاباً بعنوان "مشكلة الثقافة" لهذا ارتأينا أن نعالج ونحلّل هذا المفهوم لدى بن نبي، معدّدين مركّباتها، دلالاتها ووظائفها، محاولين تقديم صفحة عن الثقافة ودلالاتها عند مالك بن نبي في هذا الفصل، يحوي على أربعة مباحث تتمثّل في:

خصّصنا المبحث الأول إلى ماهية الثقافة تطرّقنا فيه إلى:

مفهوم الثقافة وأهمّيتها، خصائص الثقافة، الشّكل البنائي للثقافة (السّمة الثقافية، المركّب الثقافي، الدّائرة الثقافية، النّمودج الثقافي)

وحصرنا في المبحث الثّاني: العناصر البنائية للثقافة (العناصر اللامادية والمادية للثقافة)، أنواع الثقافة وأهمّ النظريّات المفسّرة لها، ضمّ مايلى:

أنواع الثقافة، إضافة إلى أهمّ النظريّات المفسّرة للثقافة عند: ابن خلدون، مالفيسكي، لنتن، سمنر. أمّا في المبحث الثّالث عالجنا مسألة الثقافة عند مالك بن نبي: فبيّنا مفهومها، وعدّنا مركّباتها ودلالاتها وحصرنا وظائفها عند مالك بن نبي.

أخيراً في المبحث الرّابع عرضنا مشكلات الثقافة عند مالك بن نبي؛ بيّنا فيه:

الأزمة الثقافيّة وأزمة المفهوميّة، مشكلة الأفكار وأزمة الثقافة واللّغة، تعايش الثقافات والثّقافة في اتّجاه العالميّة وماضدّ الثّقافة.

المبحث الأول: ماهية الثقافة

المطلب الأول: مفهوم الثقافة وأهميتها

أولاً: تعريف الثقافة:

نظراً لأهمية مفهوم الثقافة كمفهوم أساسي في هذه الدراسة، سنورد أهم تعريفاتها:

1. **التعريف اللغوي:** جاء في القاموس اللغوي "لسان العرب" لابن منظور أن لفظ الثقافة في اللغة

العربية مشتق من الفعل ثقّف الرجل الشيء أي بمعنى ظفر به وحصل عليه.¹

2. التعريف الاصطلاحي:

تعريف إدوارد تايلور (Edward. Burnett. Taylor) "هي ذلك الكل المركّب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكلّ القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع"²

تعريف روجيه بيرستد (Roger.Biersted) "ذلك المركّب الذي يتألف من كلّ مانفكر فيه أو نقوم بعمله أو نمتلكه كأعضاء في مجتمع."³

تعريف كلاكهون (Kluckhohn) "كلّ أساليب الحياة التي أنتجها الإنسان خلال التاريخ الظاهرة والكامنة، الرشيّدة وغير الرشيّدة والتي توجد في وقت معيّن بوصفها موجّهات للسلوك"⁴

تعريف غي روشي (Guy Rocher)

مجموعة مترابطة من طرق التفكير والشعور والتصرف ذات الطابع الرسمي إلى حدّ ما، والتي يتمّ تعلّمها ومشاركتها من قبل مجموعة من الناس، وتخدم بطريقة موضوعيّة ورمزيّة على حدّ سواء، لتشكيل هؤلاء الأشخاص في جماعة خاصّة ومتميّزة.⁵

تعريف كوفيرون Kovairon "تشمل القيم الماديّة واللاماديّة التي يخلقها الإنسان في سياق تطوره الاجتماعي وتجربته التاريخيّة، وهي تعبّر عن مستوى التّقدم التكنولوجي والإنتاج الفكري والمادي

¹ - ابن منظور، **لسان العرب**، دار إحياء التراث العربي، ج1، ط3، بيروت، لبنان، 1999، ص112.

² - د. عبد المجيد لبصير، مرجع سابق، ص 173.

³ - نفس المرجع، ص173.

⁴ - نفس المرجع، ص172.

⁵ - Guy Rocher, **Introduction à la Sociologie générale**, édition Hurtubise HMH Itée, Montréal, Canada, 1992, 3ème édition, p 104.

والتعليم والعلم والأدب والفن الذي وصل إليه المجتمع في مرحلة معينة من مراحل نموّه الاجتماعي والاقتصادي.¹

تعريف د.قاسمي ناصر: مجموع ما أوجده الإنسان في بيئته المادية والمعنوية والتي تتفاعل فيما بينها وبين أفراد المجتمع فتؤثر في أفعالهم وسلوكهم وعلاقاتهم، وتنظيم عمليات الاتصال والتبادل فيما بينهم، ومن ذلك التكنولوجيا والأدوات المستعملة والعمران والعادات والتقاليد والقيم الاجتماعية، والفنون والمعارف والأخلاق وغيرها.²

ثانياً: أهمية الثقافة:

- توجد العديد من الأسباب التي تجعل الثقافة مهمة، فيما يأتي ذكر لها:
- الأجداد: تعدّ الثقافة مصدراً مهماً للحصول على معلومات تتعلق بالأجداد والتاريخ، وكأنّها بوابة تساعدنا على الوصول إلى تاريخ أسلافنا والتعرّف عليه، ومعرفة التقاليد الثقافية التي كانت سائدة وقتهم، فالثقافة قادرة على تخليد الأمور.
 - فهم الذات: تساعد دراسة الثقافة السائدة في المجتمع الذي ينتمي إليه الفرد على التعرف على نفسه بصورة أفضل من خلال معرفة أصله وتاريخه بصورة واضحة، وبما يعزّز كرامة الفرد، واحترامه لذاته، وشعوره بالفخر بانتمائه إلى تلك الثقافة.
 - معرفة تطوّر الفرد: يساعد التعمق بدراسة الثقافة على إلقاء نظرة على العصور القديمة، والتعرّف على الثقافات الأخرى، وتوضيح مراحل التطوّر التي مرّ بها الإنسان.
 - القيم الأخلاقية: تمتلك كلّ ثقافة مجموعة من القيم والمعتقدات والمعارف الخاصة بها، والتي تساعد على إنشاء مجتمع أفضل. لذا فإنّ اتباع ثقافة ما يغرس تلك القيم الثقافية في الشخص، ويجعل منه شخصاً مسؤولاً وقادراً على التفاعل مع مجتمعه ومع الآخرين.
 - الانضباط: تشتمل كلّ ثقافة على مجموعة من القواعد والقوانين الخاصة بها، والتي يؤديّ اتباعها إلى الحصول على سلوك سليم ومنضبط، فقد وضعت كلّ قاعدة في الثقافة لسبب ما، لذا من المهمّ تقيدها بشكل صحيح وعدم إهمال التقاليد الثقافية السائدة.
 - المعرفة: توفرّ دراسة جميع جوانب الثقافة التي ينتمي إليها الفرد معرفة عميقة له عن ماضيه، فيصبح هذا الفرد أكثر دراية ووعياً به، إذ أنّ كلّ شيء تمّ شرحه في التاريخ.

¹ - د. نور الدين حروش، إدارة الموارد البشرية، دار الأمة، الجزائر، 2011، ص ص 178، 179.

² - ناصر قاسمي، مصطلحات أساسية في علم اجتماع الإعلام والاتصال، ديوان المطبوعات والجامعية، الجزائر، 2017، ص 101.

- التّعاطف: تهدف التقاليد الثقافية ضمن أيّ ثقافة إلى انتشار السلام بين سكان الأرض، فهي تعلّم الناس كيفية التعايش مع الثقافات الأخرى السائدة في جميع أنحاء العالم، واحترام الجميع والتّعاطف معهم حتّى يسود السلام والأمان. فهم معنى الحياة: تساعد دراسة الثقافة على فهم المعنى الحقيقي للحياة التي نعيشها، فهم كافّة مراحلها، فالثقافة توجّه الأشخاص نحو الطريق الصحيح الذي ينبغي اتّباعه في كلّ مرحلة تحتاج إلى تصرّف مختلف من قبل الشخص.
- حماية الأجيال المقبلة: يمكن حماية الأجيال القادمة من الابتعاد عن ثقافتهم من خلال نقل التقاليد الثقافية القيّمة التي تركها الأجداد والتي تتميز بالخبرة إليهم، لجعل حياتهم أسهل.
- المسؤولية: يساعد انتماء الشخص لثقافته ومجتمعه والتزامه بمافيه من عادات وتقاليد، وقوانين، وغيرها على أن يكون شخصاً مسؤولاً اتّجاه نفسه واتّجاه مجتمعه.¹

المطلب الثاني: خصائص الثقافة:

"تتشترك الثقافات على اختلاف أنواعها بصفات أساسية هامة أبرزها مايلي:

1- الثقافة نتاج اجتماعي انساني: لوجود للثقافة دون مجتمع إنساني ولوجود للمجتمع الإنساني

دون ثقافة ما، فهما ظاهرتان متماسكتان أشدّ التماسك ويشبههما كريبر (Kroeber) بأنّهما كسطحي الورقة في تلاصقهما - فإذا محونا من أيّ مجتمع إنساني ثقافته فإنّنا بذلك نكون قد سلخنا عنه بشريّته.

والثقافة تنشأ عن الحياة الاجتماعية البشريّة وهي من اختراع واكتشاف الإنسان والثقافة تشمل جميع نواحي التراث الاجتماعي البشري أوكلّ مايميّز الحياة الاجتماعية عند الإنسان، عن الحياة الاجتماعية عند باقي الحيوانات. فالثقافة بدأت من الفترة التي بدأ فيها الإنسان يستخدم عقله في سبيل الوصول إلى حياة أفضل أي أنّها نشأت كنتيجة مباشرة لصراع العقل الإنساني مع الطّبيعة ومحاولة التّحكم في الظروف المحيطة به.

والثقافة اجتماعية بمعنى أنّ الأفراد الذين يعيشون في جماعات أو مجتمعات منظّمة يشتركون في ثقافة معيّنة وهي التي يميلون إلى أداء الأفعال بالطريقة نفسها تقريبا... فالعادات التي يشترك فيها أعضاء الجماعة بعضهم مع بعض هي التي تكوّن ثقافة تلك الجماعة "فالعادات

¹ - أحمد مصطفى أبو زيد، دراسات في الانسان والمجتمع والثقافة، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، 1995. بتصرف.

الجمعية" أو العادات المشتركة في جماعة اجتماعية بغض النظر عن نوعية تلك الجماعة التي قد تكون الأسرة أو القرية أو الطبقة أو القبيلة هي التي تكون الثقافة أو الثقافة الفرعية.¹ الثقافة هي أفكار يخترعها العقل البشري وينفذها الإنسان بأعضائه وبغيرها من الأدوات والآلات التي يصنعها.² ولهذا فالثقافة تخص الإنسان فقط.

والثقافة اجتماعية: (العموميات - البدائل - الخصوصيات): تُدرّس الثقافة في الجماعات والمجتمعات، وذلك لأنها عادات المجتمعات وليست عادات الأفراد.³

2- الثقافة مكتسبة: تتكوّن الثقافة من العادات التي يكتسبها كلّ فرد خلال خبرة حياته بعد الميلاد. وتتضمّن الثقافة توقّعات الجماعة التي يتعلّمها الفرد خلال عملية التّنشئة الاجتماعية، كما أنّه عن طريق هذه العملية أيضاً، يكتسب عموميات السلوك التي تشكّل الثقافة. ويكتسب الأفراد الثقافة من خلال صلاتهم وعلاقاتهم بالآخرين. وتشير عملية التّعلّم أو الاكتساب إلى تكرار أساليب السلوك الاجتماعي المشتركة بين أعضاء جماعة اجتماعية معينة.⁴

- يكتسب الإنسان الثقافة من مجتمعه منذ مولده عن طريق الخبرة الشخصية، وبما أنّ كلّ مجتمع انساني يتميّز بثقافة معينة محدّدة بزمان ومكان معينين، فإنّ الإنسان يكتسب ثقافة المجتمع الذي يعيش فيه منذ الصّغر، ولا تؤثر العوامل الفسيولوجية والصلالية في تلك العملية أي عملية التّنشئة الثقافية.⁵

3- الثقافة انتقالية وتراكمية: تنتقل الثقافة من جيل إلى جيل على شكل عادات وتقاليد ونظم، وأفكار ومعارف يتوارثها الخلف عن السلف عن طريق المخلفات المادية والرموز اللغوية، كما أنّها تنتقل من وسط اجتماعي إلى وسط اجتماعي آخر وبهذا المعنى فإنّها تراكمية (Cumulative). فالإنسان يستطيع أن يبني على أساس منجزات الجيل السابق أو الأجيال السابقة فهو ليس بحاجة إلى أن يبدأ دائماً من جديد في كلّ جديد. وتختلف الطّريقة التي تتراكم بها خاصّة ثقافية معينة كاللغة مثلاً، عن الطّريقة التي تتراكم بها خاصّة أو سمة ثقافية أخرى كالتيكنولوجيا على سبيل المثال.

¹ - د. سامية حسن الساعاتي، الثقافة والشخصية (بحث في علم الاجتماع الثقافي)، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1983، ص ص 73، 74.

² - د. عاطف وصفي، الأنثروبولوجيا الثقافية، دار المعارف، مصر، ط1، 1975، ص 78.

³ - نفس المرجع، ص 81.

⁴ - د. سامية حسن الساعاتي، مرجع سابق، ص 74.

⁵ - د. عاطف وصفي، مرجع سابق، ص 78.

وفي عملية الانتقال الثقافي نجد أنّ انتظامات السلوك (regularities of behavior) تشمل وجودا مستقلا عن شخص بذاته أو جماعة بعينها.¹

4- الثقافة مثالية: ينظر إلى العادات الاجتماعية التي تكوّن الثقافة على أنّها تمثل نماذج مثالية ينبغي على أعضاء الجماعة أو المجتمع أن يحتلّوها، أو يمثلّوها، ويتكيّفوا معها. وقد يكون هناك تفاوت ملحوظا بين النموذج والواقع، ولكن أهميّة وجود النموذج أو المثال تبقى موجودة ومعروفة. فمعظم الناس يظهرون -بدرجة ملحوظة- وعيا بمعاييرهم الثقافية الخاصة بهم، وقدرة على التمييز بينها وبين العادات الفردية الخالصة وبسهولة في إدراكها وتفهمها والحديث عنها بالتفصيل ويتضمّن ذلك معرفة بالمواقف التي يعدّ فيها النموذج أو المعيار الثقافي المعين ملائما، والجزاء المتوقعة إذا لم يتوافق الفرد مع هذه النماذج والمعايير، وهذه الخاصة من خصائص الثقافة تميزها عن العادات الفردية التي لاتحملها أية مضمونات مثالية أو نموذجية.²

5- الثقافة إشباعية: تشبع الثقافة، دائما، وبالضرورة، الحاجات البيولوجية الأولية وكذلك الحاجات الثانوية المشتقة منها أيضا لذلك يقال أنّ للثقافة خاصّة إشباعية. والجوع والعطش مثالان على الحاجات البيولوجية، أمّا الحاجات الثانوية المشتقة فيمكن أن نطلق عليها الحاجات الاجتماعية الثقافية (socio-cultural) لأنّها تظهر وتنشأ من خلال التفاعل الجمعي وتنتقل بالطريقة نفسها مثل الحاجة إلى الزواج على سبيل المثال.

إنّ مكونات الثقافة تبقى فقط إذا ما كانت تمدّ أفراد المجتمع بحدّ أدنى من الإشباع أو بتوازن مناسب تتفوّق فيه اللذة على الألم.

ويترتب على كون الثقافة إشباعية، مسلمة أخرى، وهي وجود تشابهات ثقافية واسعة المدى بين الثقافات، ناتجة عن الحقيقة القائلة بأنّ الدوافع الإنسانية الأساسية، المتماثلة عالميا، تتطلّب أشكالا متماثلة من الإشباع، ويبدو أنّ اقتراح "ويسلر" Wissler بوجود ما يطلق عليه النموذج الثقافي العالمي قد انبنى على هذه المسلمة.³

6- الثقافة تكيفية: إنّ الثقافة تتغيّر. وتتميّز عملية التغير الثقافي بأنّها عملية تكيفية، يمكن مقارنتها على وجه ما، بالتطور في عالم الكائنات الحيّة، ولكنّها تأخذ مجرى آخر. وتميل الثقافات -خلال فترات زمنية معيّنة إلى التكيف مع البيئة الجغرافية فالناس ينبغي أن يكونوا

¹ - د. الساعاتي، مرجع سابق، ص 76.

² - نفس المرجع، ص 76.

³ - نفس المرجع، ص 77.

قادرين على أن يأكلوا ويلبسوا ويسكنوا وذلك بالتكيف لما حولهم، وهذا لا يعني أن البيئة تحدّد اتجاه الثقافة وإنما يعني أن على الثقافة أن تتكيف للضرورات الجغرافية إن كان لها أن تبقى. وتتكيف الثقافات أيضا عن طريق الاستعارة والتنظيم وذلك بالنسبة للبيئة الاجتماعية للشعوب المجاورة. وتتكيف الثقافات لنفسها كذلك بمعنى أن تتكيف للتغيرات المختلفة التي تطرأ على مظاهرها بسرعات مختلفة.

- وأخيرا فإنّ الثقافات عليها أن تتكيف للمتطلبات البيولوجية والسيكولوجية للكائن الإنساني، وعندما تتغيّر ظروف الحياة فإنّ الأشكال التقليدية تتوقّف عن مدّ الإنسان بحدّ أدنى للإشباع. وعلى ذلك فإنّها تستبعد، وتظهر حاجات جديدة وتظهر تكيّفات ثقافية جديدة لها. وهذا ما ماتوصّل له "أوبلر Opler" الذي يرى بناء على دراسته لاباش (Pache) أن الأشكال الثقافية المختلفة قد تمثّل تكيّفات لمشكلات متشابهة، كما أن العكس صحيح أيضا بمعنى أن الأشكال الثقافية المتشابهة قد تمثّل تكيّفات لمشكلات مختلفة.¹

7- الثقافة تكاملية: يظهر التّكامل الثقافي في المجتمعات البسيطة، والمجتمعات المنعزلة، حيث يندر وجود عناصر خارجية في ثقافات تلك المجتمعات كما أنّ العناصر الأصلية لا تتغيّر بسرعة أمّا في ثقافات المجتمعات المركّبة غير المتجانسة فالتّكامل لا يظهر بشكل واضح، وحيث نجد أنّ عناصرها الأصلية تتغيّر باستمرار.

8- الثقافة انتقائية: ذلك لأنّ انتقال الثقافة من جيل إلى جيل وتوارثها يختلف عن نقل وتوارث الصفات الجسميّة والحيويّة في الكائنات الحيّة، الذي يتمّ طبقا لنظام ثابت ودقيق، وأنّ انتقال الثقافة لا يتمّ بمثل هذا التّحديد، وإنما يتمّ غالبا بطريقة واعية وانتقائية.²

9- الثقافة متغيرة: تتغيّر الثقافة بما تضيفه إليها الأجيال الجديدة من خبرات وأدوات وقيم، وأنماط سلوك، أو بالعكس بما تستبعده وتحذفه من بعض الأساليب أو الأفكار أو الأدوات التي تعدّ تتفق مع ظروف حياتها الجديدة. وتبدأ عملية التّغير أولا في العناصر الماديّة للثقافة ويبدو التّغير فيها بسرعة بعكس العناصر المعنويّة فإنّها تتبّع في تغيّرها العناصر الماديّة ببطء شديد. لأنّ النّاس يكونون أقلّ مقاومة للتّغير وأكثر قبولا لها وإقبالا لها في النّوع الأوّل لأنّها لا ترتبط بالعواطف الإنسانية بينما تغيّر العناصر المعنويّة للثقافة فهو أكثر عرضة للمقاومة والمعارضة

¹ - نفس المرجع، ص 78 ومايليها بتصرف.

² - د. علي عبد الرزاق جلي، دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1984، ص 74.

الشديدة من طرفهم. لأنها تمسّ عواطف الناس، مشاعرهم ومعتقداتهم ولذا تشتدّ مقاومتهم لتغييرها. "إذ يستلزم التّغير في هذه الحال تغيير العواطف والمُشاعر والإحساسات عندهم وهذا أمر عسير وشاقّ على النّفس البشريّة".¹

10- الثقافة متغيرة ومتّصلة: تتغيّر ثقافات المجتمعات من وقت إلى آخر، ولكن تختلف درجة وأسلوب وفحوى التّغير من ثقافة إلى أخرى. والثّقافة في تغيّرها لا تتمثّل في حلقات منفصلة الأجزاء، وإنّما يتمّ هذا التّغير في التّراث الثّقافي المتّصل الأجزاء، فالتّراث الثّقافي كلّ مترابط ومتّصل على مرّ الزّمان في المجتمع الواحد، وينتقل من جيل إلى جيل عن طريق التّعلم المقصود وغير المقصود، ويتراكم ذلك التّراث بمرور الزّمن ويحافظ أعضاء كلّ جيل على التّراث الثّقافي الموروث من الآباء.²

11- الثقافة أفكار وأعمال: يقوم الإنسان في كلّ مجتمع بإنشاء علاقات مع ثلاثة عوالم: العالم المادي والعالم الاجتماعي والعالم الفكري والرمزي. فقد حوّل الإنسان العناصر الماديّة الموجودة في الطّبيعة إلى أعمال انسانيّة بعد أن أثر فيها، فكلّ عمل انساني لا يمكن أن يتمّ، ما لم تسبقه فكرة وإرادة التّنفيذ، وهكذا لاتخرج العناصر الماديّة للثقافة عن كونها أفكار مجسّدة في أعمال. أمّا العالم الاجتماعي فيشتمل على النّظم الاجتماعيّة التي تحدد علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، فتوجد النّظم الاقتصاديّة من تعاون وملكيّة خاصّة وملكيّة مشاعة وما إلى ذلك، وكذلك توجد النّظم السّياسيّة التي تحدّد ظاهرة السّلطة والقوّة في المجتمع وعلاقة الحاكم بالمحكومين، وهناك النّظم العائليّة والعادات والتّقاليد، وإذا حلّلنا تلك العلاقات الاجتماعيّة نجد أنّها ترجع في النّهاية إلى تصرّفات انسانيّة وأفكار أي إلى أعمال وأفكار.

وفي علاقة الإنسان بعالم الأفكار المجردة والرموز نجد نظامًا ثقافيّة تحدّد تلك العلاقة بطابع معيّن في كلّ مجتمع انساني، ومن أمثلة تلك النّظم: اللّغة والعقائد والقيم إلّا أنّها لاتخلو من أعمال.³

12- الثقافة كلّ أو نسيج متداخل: لاتتكوّن الثقافة من مجموعة من الأعمال والأفكار المنعزلة عن بعضها البعض وإنّما تتكوّن من كلّ متداخل العناصر والقطاعات بسبب التّداخل والتّساند بين أجزاء الثقافة.

¹ - د. سامية حسن الساعاتي، مرجع سابق، ص 83.

² - د. عاطف وصفي، مرجع سابق، ص ص 89، 90.

³ - نفس المرجع، ص 81.

يقوم الانثروبولوجي بدراسة وصفية للعناصر والنظم الثقافية الخاصة بالمجتمع موضوع الدراسة، وبعد ذلك يحلّل تلك النظم بغرض تحديد التداخل الوظيفي بينها والتوصل في النهاية إلى تحديد ثقافة ذلك المجتمع ككلّ أو كبناء متكامل الأجزاء.¹

13- الثقافة متنوعة المضمون ومتشابهة الشكل: إنّ الثقافات متنوعة ومختلفة في مضمونها وفحوى نظمها، ولكن إذا نظرنا إلى الإطار الخارجي أو الشكلي لتلك النظم نلاحظ تشابها واضحا في جميع الثقافات مهما اختلفت في سلم النمو والتقدم الثقافي ومهما اختلفت الأسس المستخدمة في قياس تلك الثقافات وتصنيفها، ففي كلّ ثقافة نجد القطاعات الثلاثة سابقة الذكر وهي القطاع المادي والقطاع الاجتماعي والقطاع الفكري والرمزي، وفي كلّ ثقافة نجد نظاما ثقافيا متشابهة، وهنا لانقارن بين مضمون تلك النظم من مركّبات وعناصر ثقافية متشابهة وإنّما نهتمّ بالإطار الخارجي.²

المطلب الثالث: الشكل البنائي للثقافة.

يتميّز الباحثون بوجه عام في تصوّرهم لبناء الثقافة من حيث الشكل بين ما يعرف باسم السمة، وهل تمثّل أصغر وحدة يمكن تحديدها، وبين ما يعرف باسم المركّب الذي يضمّ ويؤلّف بين مجموعة من السمات، وعندما تتخذ اتجاها محددا، وتطبع الثقافة بشكل مميز لها، يظهر هناك ما يعرف باسم النموذج، ثم تتكوّن ما يعرف باسم الدائرة الثقافية من خلال توزيع نماذج ثقافية متشابهة وظهورها في منطقة جغرافية معينة.

أولا : السمة الثقافية: CULTURAL TRAIT

"تمثّل السمة الثقافية أصغر وحدة يمكن تحديدها في ثقافة ما، تلك التي تبدو بسيطة للوهلة الأولى، ومع ذلك قد تواجه الباحث صعوبة التعرف عليها، ذلك لأنّ الثقافة في مجموعها أو في أي جانب منها، تتداخل فيما بينها وتتكامل إلى درجة يصعب معها أن نعرف متى نعتبر إحدى السمات كأصغر وحدة يمكن تحديدها".

والواقع أنّ مفهوم السمة الثقافية قد ساعد كثيرا في دراسة الثقافة، لأنّه يعتبر الثقافة بمثابة ظاهرة لها شكل محدّد، ويتطلّب تحليل أشكال الثقافة الافتراض بأنّ هذا الشكل يكتسب طابعا بنائيا. لقد حاول العديد من علماء الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع في دراساتهم للثقافة ضرورة ملاحظة السمات التي يتركّب منها بناء الثقافة من خلال مجموعة من الافتراضات والتصورات.

¹ - نفس المرجع، ص 80.

² - نفس المرجع، ص 87.

فلقد استفاد "تايلور" من هذه التصورات في تحليل ثقافات مختلفة، ومستفيدا من مبدأ الترابط بين السمات الثقافية في محاولته فهم عملية تطور النظم. واستعان "بواس" Bouas في دراسته لقبايل الهنود وأساطيرهم بفكرة السمات وتقسيم الأساطير إلى سمات ووحدات صغيرة، ومحاولة إعادة ترتيبها على نحو يساعد على وصف الثقافة وصفا منظما ومنهجيا.¹

إن السمة الثقافية: هي أبسط العناصر الثقافية التي تبدو في النواحي المادية أو المعنوية كالفنية أو اللغوية أو الاجتماعية، فالمسمار والقلم وغطاء الرأس، سمات مادية أم السمات المعنوية فقد تكون كلمة أو إشارة أو فكرة أو ممارسة دينية.²

ثانياً: المركب الثقافي CULTURAL COMPLEX :

إن العناصر الفرعية للثقافة تتكون بدورها من روابط متشابكة وعندما تركز الصلات بين العناصر الفرعية للثقافة على سمة ثقافية بعينها يطلق عليها عندئذ المركب الثقافي.³

- وعندما تتحد مجموعة من السمات الثقافية معا فإنها تسهم في تشكيل وحدة ثقافية أكبر تعرف باسم المركب الثقافي.⁴

ثالثاً: الدائرة الثقافية: CULTURAL CYRCL

إن الثقافة باعتبارها تكتسب بالتعلم فإن كل فرد باستطاعته عندما يتعرض لتأثير أنواع من التفكير والعمل مختلفة عن تلك التي تعود عليها أن يكتسب ويستعير أي سمة ثقافية من غير ثقافته، وتكون الفرصة متاحة أمام الشعوب المتجاورة لكي تقتبس عن بعضها الآخر أكبر من الفرص المتاحة أمام الشعوب البعيدة عن بعضها. وعندما ننظر إلى مجموعة من الثقافات على هذا النحو، وبشكل موضوعي، نلاحظ أنها تؤلف مجموعات متجانسة إلى حدّ يساعد على تحديد وتوزيع مناطق ثقافية على خريطة هذه الشعوب، بحيث يمكن أن نطلق على المنطقة التي تضم مجموعة ثقافات متشابهة باسم "دائرة ثقافية"⁵

فمفهوم الدائرة الثقافية، يعد بمثابة أداة تعين الباحث على تنظيم معلوماته وإجراء الوصف الملائم لمجموعة من الثقافات في قارة بأكملها أو في جزيرة ما، وهذا يعني أن مفهوم الدائرة الثقافية ليس

¹ - د. علي عبد الرزاق جليبي، مرجع سابق، ص 83.

² - د سامية حسن الساعاتي، مرجع سابق، ص 97.

³ - نفس المرجع، نفس الصفحة.

⁴ - علي عبد الرزاق جليبي، مرجع سابق، ص 83.

⁵ - نفس المرجع، ص ص 84، 85.

لها وجودا ثقافياً في ثقافات الشعوب المدروسة، وإنما هي من تأليف الباحث ولا توجد إلا في ذهنه...ينبغي عند دراسة هذ الشعوب باستخدام مفهوم الدائرة الثقافية التأكيد على جوانب الشبه والاختلاف العامة بين الثقافات وإهمال التفاصيل الجزئية التي يعتقد الناس أنها ترتبط بثقافة ما.¹

رابعا: النموذج الثقافي: CULTURAL PATTERN

تتحد السمات الثقافية مع بعضها الآخر بفضل ما بينها من علاقات داخلية، بحيث تشكل كلا وظيفياً ودينامياً يعرف اصطلاحاً باسم النموذج الثقافي. ذلك الذي يشكل الوحدة الأساسية في كل ثقافة، يساعدنا النموذج الثقافي على فهم العوامل التي تجعل السلوك الجمعي يتصف بالانتظام والاضطراد، ذلك لأنه لولا ميل الثقافة إلى تكوين نماذج ثقافية لاستحال انتظام السلوك الاجتماعي وجاء سلوك الأفراد عشوائياً تغلب عليه الفوضى طبقاً لدوافعهم البيولوجية والغريزية واستحال بالتالي وجود المجتمع المنظم. كما أن الفرد يندر أن يكتسب سمات فردية منعزلة بل إنه يكتسب أنماطاً ثقافية وممارسات منظمة، لذلك كان السلوك الانساني سلوكاً نموذجياً أو نمطياً أو يتبع نماذج معينة، وأن الذي ينتقل عبر الأجيال ويكتسب كأساليب حياة عن طريق التعليم- هو النماذج ولذلك كانت النماذج تمثل الوحدات الأساسية في الثقافة والمجتمع المنظم.²

لا توجد السمات الثقافية في حالة عزلة بعضها عن بعض، بل إنها تتحد مع غيرها من السمات مكونة علاقات داخلية دينامية. ويطلق على هذا المجموع أو الجشطالت (Gestalt) من العلاقات الوظيفية الدينامية بين عناصر الثقافة وسماتها اصطلاح النموذج الثقافي.

ويعد النموذج الثقافي وليس السمة الفردية هي الوحدة الفردية الأساسية للثقافة فالفرد نادراً ما يكتسب سمات فردية منعزلة بل إنه يكتسب توقعات ثقافته وممارستها في شكل نماذج ثقافية.³

المبحث الثاني: مركبات وأنواع الثقافة وأهم النظريات المفسرة لها.

المطلب الأول: مركبات الثقافة (العناصر البنائية)

أولاً : العناصر المادية للثقافة

1- اللغة: يعرفها د. حسام الدين فياض: بأنها نسق من الإشارات والرموز، تشكل أداة من أدوات المعرفة، وتعتبر اللغة أهم وسائل التفاهم والاحتكاك بين أفراد المجتمع في جميع ميادين

¹ - نفس المرجع، ص 86.

² - نفس المرجع، ص 87.

³ - د. سامية حسن الساعاتي، مرجع سابق، ص 98.

الحياة. وبدون اللغة يتعذر نشاط الناس المعرفي. وترتبط اللغة بالتفكير ارتباطاً وثيقاً وأفكار الإنسان تصاغ دوماً في قالب لغوي، أي في حال تفكيره الباطن.¹

يتفق الأنثروبولوجيون وعلماء الاجتماع على أنّ ذلك الجانب من الثقافة التي يغلب عليه طابع الأفكار والرموز والعواطف، يشتمل على نسق اللغة والفن والأفعال الإنسانية والطرائق الشعبية والعرف والنظم الاجتماعية والمعتقدات والقيم والرموز والطقوس والأسطورة، والذين والسحر والعلم إن وجد، وتدلّ الأدوات البسيطة التي خلفها الإنسان منذ آلاف السنين على أنّه قد عرف الكلام منذ اللحظة نفسها التي بنى فيها ثقافته البسيطة، وإنّ وجود أدوات أكثر عدداً وتنوعاً وتعقيداً عبر التاريخ، يدلّ على أنّ هذا التطور كان مستحيلاً بدون توفر لغة الكلام، وأنّه لا يمكن أن تنقل خبرة صنع تلك الأدوات من فرد لفرد ومن جماعة لأخرى ومن جيل لجيل إلّا عن طريق الكلام، الذي يعبر بدقة عمّا يجول في أذهانهم من أفكار، وبناء على ذلك يصدق قول بعض العلماء بأنّ اللغة قد بدأت عندما بدأت الثقافة وأخذت تنمو بصورة مستمرة منذ تلك اللحظة. كما أنّ هذا التنوع بين اللغات الحيّة حالياً يثبت أنّ اللغة قديمة جدّاً، خاصّة وأنّ الدراسات اللغويّة قد أكّدت أنّ اللغات تتغيّر ببطء إذا قورنت بالأنساق والنظم الثقافيّة الأخرى. وتقوم كلّ لغة على نظام واضح ومحدّد من الأصوات الواضحة، بحيث يسهل التمييز بين كلّ صوت عن الآخر، وتتكوّن الكلمات عن طريق الجمع بين تلك الأصوات، وتتجمّع الكلمات في جمل وفق قواعد محدّدة، وهذا النظام متوافر في كلّ لغة سواء أكانت لغة مجتمع بدائي أو مجتمع متقدّم. وتمتلك كلّ لغة العدد الكافي من المفردات اللازم لسدّ حاجات الأفراد، وتزيد عدد مفردات لغات المجتمعات المتقدّمة عن المجتمعات البدائية، لأنّ هذا العدد للمفردات يرتبط بالمستوى الثقافي للمجتمع، ويزيد عدد المفردات نتيجة لتعقّد العلاقات الاجتماعيّة وزيادة درجة التخصص والمخترعات، التي يحتاج التعبير عنها إلى مفردات جديدة. ولهذا فإنّ عدد المفردات لا يعتمد على طبيعة اللغة بقدر ما يعتمد على عناصر ثقافيّة أخرى. كما تتمتع جميع اللغات بنظام واضح للقواعد، ونعني بها تلك التنظيمات التي تسير عليها الأصوات في تجمعها في صورة كلمات وجمل، سواء أكانت هذه اللغة خاصّة بقبائل أبسط الجماعات البدائية أو أكثر المجتمعات تقدّماً.² وتتنحصر وظيفة اللغة في اعتبارها وسيلة للاتصال والتعاون بين أفراد مجتمع

¹ - د. حسام الدين فياض، الثقافة واللغة، مجلة نحو علم اجتماع تنويري، 2017، ص 10.

² - علي عبد الرزاق جليبي، مرجع سابق، ص ص 89، 90.

ما، فعن طريقها يستطيع الفرد نقل خبرته ومهارته للآخرين وأن ينسق بين خبراته وخبرات وأعمال غيره.

وتسهم اللغة في تسهيل العمل الجماعي وتنظيمه، لأن اللغة تتطلب عدّة عناصر مجتمعة، وهي عناصر لا توجد إلاّ عند الانسان، منها العقل والفكر الذي يصنف الأشياء والأفكار والعلاقات إلى مجموعات متشابهة ثم يقوم بعملية اضعاء الرموز الصوتية على كلّ مجموعة. وثانيها جهاز الكلام ويتكوّن من الجهاز التنفسي واللسان والفم والمخ بشرط أن تكون تلك الأجهزة بصورتها الموجودة عند الانسان، ويضاف إلى تلك العناصر المعيشة في مجتمع انساني لأنّ الانسان لابدّ من أسرته ومجتمعه، وإذا عاش وحيدا منعزلا فلا يخرج إلاّ أصواتا وصرخات متنوعة. ولا توجد هذه العناصر مجتمعة إلاّ عند الانسان. بل إنّ العنصرين الأول والثاني، مثل العقل وجهاز الكلام لا يوجدان إلاّ عند الانسان، ومن هنا اعتبر الانسان حيوانا ناطقا، واعتبر النطق صفة جوهرية تميّزه عن باقي الحيوانات.¹

2- الفن: يعتبره الانثروبولوجيون نسقا ثقافيا لا تخلو أية ثقافة منه، كما أنّ مفهومه وعناصره تختلف من ثقافة إلى أخرى، لاختلاف القيم الجمالية من مجتمع لآخر كذلك، وقد قسّمته المعاجم ودوائر المعارف إلى فنون عملية وفنون جمالية. إذ تشير الفنون العملية إلى الحرفة أو الصناعة أو النشاط الانتاجي. أمّا الفنون الجميلة فهي كلّ انتاج للجمال يحقّق في أعمال محددة مثل الرسومات والتماثيل والرّقصات والموسيقى. ولا بدّ أن تتّصف تلك الأعمال بالجمال وفق القواعد التي يحددها المجتمع لتلك القيمة، ويرتبط الإعجاب بالعمل الفني بالمشاعر، وكذلك يعبر الفنان عن عواطفه وإحساساته المرهفة وخيالاته عن طريق الأعمال الفنية، التي هي في النهاية تمثّل رموزا على تلك العواطف والإحساسات والأفكار.²

3- الأفعال الإنسانية: ينظر إلى كلّ تغيير في الكائن الانساني خلال فترة محدّدة أنّه فعلا انسانيّا، "يجمع الباحثون في علم الاجتماع على أنّ الأفعال الانسانية تعدّ بمثابة وحدات الملاحظة الأساسية في الدّراسة العلميّة للإنسان والثقافة لأنّها الوحدات الأولى للسلوك، والمكانيزمات الأساسيّة التي يمكن بواسطتها أن يتكيّف الكائن مع بيئته. ويمكن أن تقدّم تسهيلات لتوافق الفرد مع بيئته، وتزيد من فرصة البقاء."³

¹ - نفس المرجع، ص 91.

² - نفس المرجع، ص 92.

³ - نفس المرجع، ص 93.

4- الطرائق الشعبية (الطرق الشعبية - عادات اجتماعية FOLKWAYS)

مصطلح الطرق الشعبية هو ترجمة حرفية للفظ الإنجليزي Folkways الذي استخدمه عالم الاجتماع الأمريكي "سمنر" (1840-1910) في مستهل القرن العشرين لوصف عادات وتصرفات جماعية شعبية، وهي عادات نمت وتطورت تدريجياً في جماعة اجتماعية محلية عن طريق التقليد والتكرار إلى أن صارت عادات يتبعها الأفراد والجماعات في الحياة العادية اليومية، وهي عادات تأصلت في الحياة الاجتماعية وتتعلمها الأجيال ويأتيها الأفراد بطريقة تلقائية والفرد الذي لا يتبعها أو يخرج عنها، تدمه الجماعة وتستهنه وتزدرية. بعض هذه العادات تنمو وتتطور وتصبح معتقدات أخلاقية Mores، وتأخذ صفة العرف.¹

نمت وتطورت تدريجياً إضافة إلى الأفعال الإنسانية نجد العادات أو الطرائق الشعبية باعتبارها ميكانيزمات كبرى تنظم التفاعل الإنساني والتأثيرات المتبادلة التي يمارسها الناس كل على الآخر في سبيل الحفاظ على المجتمع والثقافة.²

5- العرف: (COUTUME/CUSTOM)

هو ماتعارف عليه جماعة من الناس في معاملة بعضهم البعض وفي سلوكهم وتصرفاتهم كجماعة، وهو متأصل في النفوس ويتوارثه الخلف عن السلف، أو هو قانون الجماعة غير المكتوب. ويعرف بعض الباحثين العرف بأنه "ما استقرت النفوس عليه بشهادة العقول وتلقته الطبائع بالقبول". والعرف مصدر من مصادر الدستور والتشريع في بعض البلدان.³

وهو الطرق العامة المشتركة التي ينظر إليها على أنها أكثر صدقا وسلامة من العادات الشعبية، ويسهم في أن يعطي وثوقا للفرد ويفرض عقابا صارما في حالة الاعتداء عليه، لأن المجتمع ينظر إلى الاعتداء على العرف على أنه مصدر خطر على الآخرين. ومن وظائف العرف أنه يحدد الصواب والخطأ، ويعين ما يمكن وصفه بأنه خلقي أو غير خلقي، والعرف يتميز ببطء شديد، يعكس العادات الشعبية التي تتغير على نحو أسرع وتسهم العادات الشعبية والعرف كمكانيزمات كافية لحفظ النظام في المجتمعات البدائية، ويندر التفكير في مخالفتها.⁴

¹ - د. عبد المجيد لبصير، مرجع سابق، ص 278.

² - علي عبد الرزاق جلبي، مرجع سابق، ص 93

³ - د. عبد المجيد لبصير، مرجع سابق، ص 289.

⁴ - علي عبد الرزاق جلبي، مرجع سابق، ص 94.

6- القانون والنظم الاجتماعية:

أ- القانون:

هو "مجموعة القواعد التي تنظم الروابط الاجتماعية، والتي تقسّر الدولة الناس على اتباعها ولو بالقوة عند الاقتضاء".¹

ويعرّف: "هو مجموعة قواعد السلوك العامة الملزمة للأفراد في المجتمع، والتي تُنظّم العلاقات والروابط، وبنات كفالة احترامها من خلال الجزاء الذي توقعه السلطة العامة على من يخالفها".²

ب- النظم الاجتماعية: SOCIAL INSTITUTIONS

جاءت تعريف كثيرة للنظم الاجتماعية منها:

تعريف كاردينر (Kardiner) بأنها الوسائل التي تؤثر بها الجماعة على الأفراد أي القواعد التي بمقتضاها تسير الجماعة الفرد وفق النماذج التي تراها.

تعريف جورج ميد (G. Mead) فيقول "إنّ النظم ليست إلا نماذج منظّمة للسلوك توجه أعمالنا ومواقفنا"

تعريف لمبردج (Lumbridge) بأنها ليست في الغالب إلا التنظيم الرسمي أو الشكلي للنماذج الاجتماعية.

وقريب من هذا عرفها هوريو (Hauriou) الفرنسي من أنّ "النظام الاجتماعي ليس إلا فكرة أو مشروعاً لعمل، يتحقّق ويستمر في وسط اجتماعي منتجا نتائج قانونية.

تعريف دور كايم (Durkheim) و موس (Mauss) وفوكونيه (Fukone) : النظم بأنها جميع طرق التفكير والعمل القائمة قبل الفرد والتي ليس عليه إلا الخضوع لها. وهذه الطرق تنتقل إلى الفرد عادة عن طريق التعليم.³

ويعرفها هرتزler (J.O.Hertzler) كليات ثقافية أساسية منظّمة وهادفة، تتكوّن لاشعورياً أو عن قصد، لتشبع رغبات الأفراد وحاجاتهم الاجتماعية المرتبطة بالتعامل الناجح بين مجموعة من الناس.

¹ - عبد الرزاق أحمد السنهاوري، علم أصول القانون، مطبعة فتح الله الياس وأولاده، مصر، 1936، ص4.

² - د. محمد حسين منصور، المدخل إلى القانون (القاعدة القانونية)، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، لبنان،

ط1، 2010، ص7

³ - د. سامية حسن الساعاتي، مرجع سابق، ص104.

- وتتكوّن من قوانين وقواعد ومثل عليا مدوّنة وغير مدوّنة ومن الأدوات اللاّزمة والوسائل التّنظيميّة والرّمزيّة والماديّة. وتحقّق نفسها، اجتماعيّاً، في الممارسات الموحّدة المقنّنة والمرعيّات، وفرديّاً في الاتّجاهات والسّلوّك التّعويدي للأفراد. ويقوم الرّأي العام على دعمها وتنفيذها بصفة رسميّة وغير رسميّة عن طريق الهيئات الخاصّة التي ترعاها.¹

هناك نظم اجتماعيّة رئيسيّة تعتبر المقوّمات الأساسيّة لأيّ ثقافة، بدائيّة كانت أو متمدّنة، وتتشعّب هذه النّظم إلى ما يأتي:

أ- "النّظم الأسريّة: وهي ماتّصل بالأسرة من حيث تكوينها ونطاقها ووظائفها وعلاقة أفرادها بعضهم ببعض، وأنواع الحقوق والواجبات بينهم ومحور القرابة وطقوس الزّواج والطلاق والحضانة والكفالة وشؤون الميراث.

ب- النّظم التّربويّة: وهي ماتّصل بتنشئة الأطفال ونقل التّراث الثقافي من جيل إلى جيل ووضع أسباب ومناهج إعداد الفرد وتنشئته ليمتثل نظم المجتمع ويتكيّف وفق أساليبه في التّفكير والعمل.

ت- النّظم الدّينيّة: وهي بالنّماذج الدّينيّة والسّحريّة ومايتعلّق بها من فكرة الأفراد عن الخالق والمخلوق والصّلة بين العالم الذي يعيش فيه الإنسان وعالم الغيب وكذا فكرتهم عن الرّوح والنّفس والأساطير الدّينيّة... إلخ.

ث- النّظم الأخلاقيّة: وهي مجموعة العادات والتّقاليد المرعية والمفاهيم الخُلقيّة وتشمل العرف السائد والأساطير والأمثلة السّائرة والعادات المتّبعة في الأعياد وحفلات الزّواج والميلاد والتّعميد والختان Circumcision وغير ذلك من العادات المتعلّقة بالتّرفيه وقضاء أوقات الفراغ.

ج- النّظم الجماليّة والفنيّة: وهي ماتّعلّق بمعايير الفن والدّوق والجمال عند القوم. وتتمثّل في النّقش والرّسم والرّقص والموسيقى والأدب وما إلى ذلك من أنواع الفنون الجميلة.

ح- النّظم اللّغويّة: وهي ماتّعلّق بنماذج النّفاهم والاتّصال بين أفراد المجتمع والتّعبير عمّا يجول في خواطرهم كالحركات والإشارات واللّغة والكتابة وغيرها، من الوسائل المستخدمة لنقل المعاني والأفكار من شخص لآخر.

خ- النّظم الاقتصاديّة: وهي ماتّصل بالقواعد التي يسير عليها المجتمع في شؤون انتاجه وتبادل وتوزيع ثرواته واستهلاك منتجاته وتشريعات عمّاله.... إلخ

¹ - د. سامية حسن السّاعاتي، نفس المرجع، نفس الصفحة.

د- النّظم القانونيّة: وهي مانتّصل بالقواعد والقوانين التي يلتزمها المجتمع في تحديد معاملات الأفراد بعضهم مع بعض في الأمور المدنيّة والتّجاريّة وفي توقيع الجزاءات وتفسير المسؤوليّات والتّشريعات.

ذ- النّظم السياسيّة: وهي مانتّصل بتنظيم شؤون الحكم وأساسه وتقسيم السّلطات، وتنظيم علاقة الهيئة الحاكمة بالفرد والمجتمعات الأخرى....¹ الخ

هـ- النّظم الثقافيّة: يرى عاطف وصفي أنّ النّظم الثقافيّة قد اخترعها الإنسان لإشباع حاجات فطريّة، فمثلا نظام جمع الطّعام أو نظام الصّيد أو نظام الرّعي أو الرّزاعة، كلّ تلك الأنظمة من شأنها اشباع الدّافع الفطري وهو الشّعور بالجوع وجانبه النّزوعي والمتمثّل في البحث عن الطّعام. اخترع الانسان تلك الأنظمة التي هي في مجموعها أفكار وأعمال معيّنة بغرض اشباع حاجاته الفطريّة، وهكذا فإنّ الأنظمة الثقافيّة من اختراع الانسان. وتنتقل من فرد إلى آخر، ومن جيل إلى جيل عن طريق التّعلم سواء كان مقصودًا أو غير مقصود، ويطلق على مجموع النّظم الثقافيّة التي تتراكم من جيل إلى جيل اصطلاح التّراث الثقافيّ (Cultural hiritage) وتختلف المجتمعات الانسانية في تراثها الثقافيّ من حيث الكمّ أو الكيف أو هما معا.²

- يمكن تقسيم النّظم الثقافيّة على أساس مدى شمولها إلى ثلاثة أنواع:

العموميّات: وهي النّظم الثقافيّة التي يتبعها كلّ أفراد المجتمع، ومن أمثلة ذلك اللّغة في المجتمعات البدائيّة خاصّة، فإنّه يندر أن يعرف أحد من أفراد القبيلة لغة غير لغة قبيلته، ونقدّم مثلا آخر من الثقافات المتمدينة وهو قانون العقوبات الخاصّ بمنع القتل والسّرقة والاغتصاب ومعاقبة المخالف، ومن الأمثلة التي نجدها في المجتمعات البدائيّة والمتمدينة نظام المحارم الذي يمنع الزواج من أقارب معينين وخاصة الأصول والفروع.

البدائل: وهي مجموعة من النّظم الثقافيّة التي تطبّق في موقف معيّن وللغرد الحرّية في اختيار أحدها وترك الباقي...³

الخصوصيّات: يشتمل كلّ مجتمع على تقسيمات فرعيّة في داخله، وتزداد تلك النّقسيمات كلّما تقدّمت ثقافته وزادت درجة التّخصّص بين أعضائه، وتتميّز كل جماعة بنظم وعناصر ثقافيّة خاصة بها، ولا توجد في كثير من الأحيان عند غيرها....

¹ - نفس المرجع، ص ص 105، 106.

² - د. عاطف وصفي، مرجع سابق، ص 79.

³ - نفس المرجع، ص ص 81، 82.

تمثّل الخصوصيّات جانباً كبيراً من ثقافات المجتمعات المتمدّنة، وهي في الحقيقة عوامل مفرقة، إذ عن طريقها يصبح لكلّ جماعة طابع خاص، وعلى طرف النقيض نلاحظ أنّ العموميّات والبدائل تلعب دوراً هاماً في تماسك المجتمع وترابطه وذلك لشمول تطبيقاتها، تتميز الثقافات البدائيّة بكثرة العموميّات ولذلك نجد أنّ سلوك أعضائها لا يختلف كثيراً من فرد إلى آخر، وكذلك تتميز القبائل البدائيّة بتماسكها وتضامن أعضائها....¹

7-المعتقدات والقيم:

أ - **المعتقدات:** يحتاج الإنسان إلى تصوّرات أساسيّة للعالم والإنسان والجماعة والسلوك، تساعده على التكيّف والتّوافق مع بيئته، وتقوم الثقافة بتقديم هذه التّصورات، التي تأخذ شكلاً يعرف باسم المعتقدات. ومن هنا عندما يفكر الإنسان في العالم وكيف خلق وما مصدر القوّة والسلطة فيه، وما الذي يجعل الأشياء تسير بخيره وشره، ويحاول أن يتّخذ موقفاً يساعد على الحصول على حاجاته، فيجد في هذه المعتقدات السائدة في مجتمعه ما يعينه على بناء علاقاته مع بيئته الخارجية لكي يضمن الغذاء والحماية والأمن، وكذلك لكي يتمكّن من تحديد مكانه في العالم وعن مصيره، وعلاقته بجماعته ومجتمعه، ومعرفة حقوقه وواجباته ومصالحه ومركزه، وبما ينبغي ولا ينبغي في علاقاته الإنسانية.²

ب - **القيم:** تشمل كلّ الموضوعات والظّروف والمبادئ التي أصبحت ذات معنى خلال تجربة الإنسان الطويلة.....

القيم الاجتماعيّة: "القيم هي معتقدات مصدرها الثقافة والتّفاعل الاجتماعي بين الأفراد وبين خبرات حياتية معينة"³

هي حكم يصدره المجتمع أو الجماعة على الأشياء، الأمور والسلوكات النّافعة للجماعة، ولا يتمّ إصدار هذا الحكم في فراغ ولكن في بيئة ثقافيّة اجتماعيّة تؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر في عملية إصدار هذا الحكم؛ والقيم الاجتماعيّة هي إذن قيم جماعة من النّاس في مجتمع، وإنّ هذه القيم نمت وتطوّرت في بيئة هذا الأخير، وتألّفت النفوس في السلوك

¹ - نفس المرجع، ص ص 82، 83.

² - علي عبد الرزاق جلبي، مرجع سابق، ص 95.

³ - نفس المرجع، ص 131.

الجمعي والفردى لكونها تسدّ حاجاتهم أو رغبتهم المادية أو الروحية السياسية أو الاقتصادية أو أيّ شأن آخر.¹

بينما "القيم الثقافية تهذب الحاجات الطبيعية (الفطرية الغريزية) للفرد أو تحدّد طريقة إشباعها.²

8- الطّقوس والأسطورة والرموز:

أ - الطّقوس (Rites, Rituels) عبارة عن ممارسات ومراسيم وسلوكات اجتماعية تؤدّي على نمط روتيني معيّن في حيّز زمني أو مكاني معيّن وتتضمّن معنى اجتماعي أو تعكس قيما دينية أو دنيوية أو سياسية أو شيء آخر. والطّقوس هي جزء من الثقافة وترتبط عادة بالجوانب المقدّسة في المجتمع خاصّة الدين والمعتقدات³

ب - الأسطورة : يعتبر العلماء الأسطورة معتقدات مُشبعة ومحمّلة بالقيم والمبادئ التي يعتنقها النّاس ويعيشون بها أو من أجلها. ويرتبط كلّ مجتمع بنسق من الأساطير يعبر عن الصّور الفكرية المعقّدة التي تعيّن وتحدّد في الوقت نفسه كلّ نواحي النّشاط الاجتماعي، ويقوم نسق الأساطير بوظيفة النّزول بالقيم والمعتقدات من التّجريد إلى الواقع وتمهيد الأرض التي ينبثق عنها الإيمان وتختلف الأساطير في درجاتها وأهميّتها، فهناك أساطير اجتماعية ذات نفوذ واسع النّطاق، وهناك أساطير أخرى أقلّ نفوذاً، فكلّ مدينة، ولكلّ فترة من التّاريخ، ولكلّ أمة نسقها الأسطوري الخاص، الذي يكمن داخله سرّ التّكامل الاجتماعي والاستمرار في الزّمن.⁴

ج - الرموز: تعبّر غالبا عن القيم والمعتقدات التي تدعم من حين إلى آخر عن طريق الطّقوس. ويحاول كلّ مجتمع أن ينمّي نسق قيمه ومعتقداته عن طريق شعارات متعدّدة قد يعبر الأدباء والفنّانون والممثّلون وغيرهم بطرق متعدّدة بين الكلمة المسموعة والمكتوبة والصّورة والنّمثال وتقام الحفلات والطّقوس من حين لآخر بين حين وآخر لتعميق هذه القيم والمعتقدات في مناسبات متعدّدة تمجيدا وإقرارا لها في النفوس ولهذا تعتبر الطّقوس والحفلات وسائل هامة للمحافظة على النّظام الاجتماعي.⁵

¹ - د. عبد المجيد لبصير، مرجع سابق، ص ص 258، 259.

² - نفس المرجع، ص 178.

³ - د. عبد المجيد لبصير، مرجع سابق، ص 278.

⁴ - علي عبد الرزاق جلي، مرجع سابق، ص 96.

⁵ - د. محمد عاطف غيث، علم الاجتماع: النّظرية والمنهج والموضوع، ج1، دار المعارف، 1966، ص ص 276-286.

ثانيًا: العناصر المادية للثقافة:

وتشمل كلّ ما يصنعه الانسان في حياته وكلّ ما ينتجه العمل البشري من أشياء ملموسة، وكذلك كل ما يحصل عليه الانسان عن طريق استخدام فنونه التكنولوجية.

المطلب الثاني: أنواع الثقافة: يتم تصنيف الثقافة إلى عدّة أنواع أهمّها:

- الثقافة الجامدة والثقافة المتغيرة

- الثقافة المادية والثقافة غير المادية

- الثقافة الظاهرة والثقافة الضمنية

أولاً: الثقافة الجامدة والثقافة المتغيرة:

إذا حدث التغير الثقافي في بعض المجتمعات ببطء شديد وفي نطاق ضيق فإنّه لا يدرك بسهولة وفي هذه الحالة توصف الثقافة بالاستقرار والجمود. ويرجع ذلك إلى ظروف معينة جغرافية أو اجتماعية أو فكرية تعزلها عن الاتصال بغيرها من المجتمعات، فتظلّ مكتفية بخبراتها الخاصة المحدودة وتدع بالمجتمعات الجامدة أو المتخلّفة أو البدائية.

بينما الثقافة المتغيرة فتطلق إذا حدث التغير الثقافي بسرعة وفي نطاق واسع يمسّ كثيرا من مظاهر الحياة. "وكلّما كان المجتمع مفتوحا أي على اتصال بغيره زادت سرعة التغير فيه"¹ وكذلك فإنّ وسائل الاتصال الفكري ذات أثر بالغ في تغيير الثقافات، فقد ساعدت وسائل الاتصال المكتوبة والمرئية والمسموعة على تبادل الأفكار والخبرات وتغيير الثقافات.

ثانيًا: الثقافة المادية والثقافة غير المادية:

إنّ الطبيعة التراكمية للثقافة يمكن ملاحظتها فالثقافة المادية تشمل مثلا الأدوات والمباني... بينما الثقافة غير المادية فتشمل مثلا الدين وآداب السلوك...

إنّ اصطلاح الثقافة المادية شاع استخدامه ليعني الأشياء التي تشكل جزءا من التراث الاجتماعي والتراث الاجتماعي هو جزء من بيئة الانسان بينما تشكّل الطبيعة الجزء الثاني ومن هنا تصبح الأشياء المادية من التراث الاجتماعي إضافة جديدة للبيئة.

ثالثا: الثقافة الظاهرة والثقافة الضمنية:

تعيش الثقافة في عقول أفراد المجتمع أو في نماذج عاداتهم، وتتجلّى الثقافة من خلال سلوك الأفراد حين ينشغلون في أشكال مختلفة من السلوك.

¹ - سامية حسن الساعاتي، مرجع سابق، ص 85.

وأساس تقسيم الثقافة إلى ثقافة ظاهرة وثقافة ضمنية، على أساس وجود درجات لرؤية السلوك الثقافي تتراوح ما بين الأنشطة المقتنة للأشخاص وبين دوافعهم الداخلية (والتي غالبا ماتكون لاشعورية) التي تجعلهم يسلكون سلوكا معيّنًا.¹

المطلب الثالث: أهمّ النظريات المفسّرة للثقافة:

توجد العديد من النظريات المفسّرة لمفهوم الثقافة نوجزها في أربع نظريات وهي:

1- نظرية عبد الرحمن ابن خلدون: أوضح في مقدّمته كيف أنّ دوافع الإنسان الفطرية هي أساس الظواهر الاجتماعية بل أساس الثقافة بمعناها الكامل. فابن خلدون يرى أنّ الاجتماع الإنساني ضروري للتعاون من أجل الحصول على الغذاء من جهة ولدفع عدوان الحيوان المفترس من جهة أخرى... ويذكر في ذلك: (إنّ الاجتماع الإنساني ضروريّ ويعبّر الحكماء عن هذا بقولهم: «الإنسان مدني بالطّبع»، أي لابدّ له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو معنى العمران. وبيانه: أنّ الله سبحانه- خلق الإنسان ورغبه على صورة لا يصحّ حياتها وبقاؤها إلّا بالغذاء، وهدها إلى التماسه بفطرته، وبما رغب فيه من القدرة على تحصيله. إلّا أنّ قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء، غير موفية له بمادة حياته منه. ولو فرضنا منه أقلّ ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا، فلايحصّل إلّا بعلاج كثير من: الطّحن والعجن والطّبخ. وكلّ واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتمّ إلّا بصناعات متعدّدة من حدّاد ونجّار وفاخوريّ... فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم؛ فيحصل بالتّعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف. وكذلك يحتاج كلّ واحد منهم أيضا إلى الدّفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه... وجعل الله سبحانه- للإنسان عوضا من ذلك كلّ الفكر واليد. فاليد مهية للصّنائع بخدمة الفكر؛ والصّنائع تحصّل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدّة في سائر الحيوانات للدّفاع.... ومالم يكن هذا التّعاون فلايحصّل له قوت ولاغذاء، ولا تتمّ حياته... فإذن هذا الاجتماع ضروريّ للنّوع الإنساني؛ وإلّا لم يكمل وجودهم وماأراد الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إيّاهم.²

¹ - نفس المرجع، ص 95.

² - عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1324هـ/2004م، ص ص 53، 54.

2- نظرية برونيسلاف مالينفسكي (Bronislaw. Malinowski) 1884-1942: تقوم نظرية

الثقافة عند مالينفسكي على الحاجات الأساسية والاحتمالات المختلفة لإرضائها. وهي في ذلك تتفق تماما مع نظرية "لنتن" غير أنها تبرز المفهوم الوظيفي الذي اعتنقه بشكل ظاهر. ففي رأيه أننا إذا تعرضنا لدراسة أي ثقافة بدائية كانت أو متقدمة معقدة فإننا سنجد أنفسنا مجموعة واسعة من الوسائل بعضها مادي وبعضها إنساني، وبعضها روحي. إنه لزاما على الفرد أولا وقبل كل شيء أن يشبع حاجاته العضوية البيولوجية. ولذلك فهو مضطر إلى إيجاد تنظيم، والقيام بألوان مختلفة من النشاط خاصة بالتغذية والتدفئة والإسكان والملبس والحماية من البرد والرياح وتقلبات الجو. كما أنه مضطر إلى حماية نفسه والقيام بالتنظيم اللازم الذي يضمن هذه الحماية ضد الأعداء، والأخطار الخارجية سواء من البيئة المادية أو من الحيوان أو الإنسان. كل هذه المشاكل الأساسية التي تواجه الفرد تحل له بواسطة معدات وأدوات وتنظيمات للناس في مجموعات متعاونة كما تحل له بواسطة العلم والمعرفة والقيم والخلق.

يستعين مالينفسكي في نظريته في الثقافة بمبدأ الحاجات الانسانية: إذ تحاول هذه النظرية أن تبين أن الحاجات الأساسية للفرد وإشباعها الثقافي يرتبط ارتباطاً وثيقاً باشتقاق حاجات ثقافية جديدة وأن هذه الحاجات الجديدة تفرض على الفرد والمجتمع نوعاً ثانوياً من الجبرية أو الالتزام. ويرى "مالينفسكي" أن العلاقة بين أي نشاط ثقافي وأي حاجة إنسانية أساسية كانت أو مشتقة يمكن أن نقول عنها أنها علاقة وظيفية. فالوظيفة إذن لا يمكن أن تجدد أو تعرف بأي طريقة أخرى غير إشباع حاجاته بنشاط يتعاون فيه الناس، ويستعملون الأدوات، ويستهلكون البضائع.

- ويسمى "مالينفسكي" وحدة التنظيم الإنساني "النظام الاجتماعي" ومفهوم النظام الاجتماعي عنده يتضمن الاتفاق على مجموعة من القيم التقليدية هي التي تجمع الناس بعضهم ببعض كما يتضمن أيضا أن هؤلاء الناس يرتبطون بعلاقات محددة، وبمكان معين في بيئتهم سواء أكان طبيعياً أو صناعياً.¹

3- نظرية رالف لنتن (Ralph.Linton) 1893-1953: يرى "لنتن" أن الدعامة التي تقوم

عليها دراسة الثقافة والشخصية هي "الفرد". فعلى الرغم من وثاقة العلاقة الوظيفية المتبادلة بين الفرد والثقافة والمجتمع فإنه يرى ضرورة الفصل والتفرقة بينها لغرض الدراسة والبحث. وعلى الرغم من أن الفرد أياً كان قلماً يكون ذا أهمية كبرى لبقاء المجتمع الذي يعيش فيه ولا استمرار

¹ - د. الساعاتي، نفس المرجع، ص 65.

وفاعلية الثقافة التي يسهم فيها ويتفاعل معها، فإن الفرد وحاجاته وامكانياته أساس كل الظواهر الاجتماعية والثقافية. فما المجتمعات إلا جماعات منظمة قوامها الأفراد وما الثقافات في جوهرها وأصلها إلا استجابات منظمة متكررة لأعضاء المجتمع.

فيقول (مكيفر) في كتابه المجتمع "أدرك الأنثروبولوجيون إدراكا تاما خلال دراستهم للشعوب البدائية وثقافتها، علاقة الفرد الوثيقة بالثقافة نفسها وقد أيقنوا أن أي فهم واف لشخصية الفرد أو المركب الاجتماعي أو الثقافي الذي هو جزء منه يتطلب تحليلا دقيقا للعلاقة المتبادلة بين الجزء والكل، وتوقف كل منهما على الآخر".¹

ويبني لنتن نظريته في الثقافة على مبدأ الحاجات الإنسانية: يرى لنتن أنه يمكننا افتراض أن حاجات الانسان هي دوافع السلوك الأساسية وعلى ذلك تكون المسؤولة عن تفاعل المجتمع والثقافة. وهناك نوعي من هذه الحاجات: الأولى: الحاجات الأولية وترجع مباشرة للتوترات البيولوجية كالحاجة إلى الطعام والنوم والهروب من الألم والاشباع الجنسي، الثانية: الحاجات الثانوية وتسمى بالحاجات النفسية. ومن المؤكد أن الحاجات الفسيولوجية (الأولية) أسبق من الثانوية في سلم التطور البشري. في تتساوى هذه الحاجات باعتبارها دوافع للسلوك في حياة الفرد الراشد بالمقارنة لحياة الرضيع.

والحاجات النفسية عنده: نوجز أهمها في تفسير السلوك الإنساني وهي:

✓ الحاجة إلى الاستجابة العاطفية: لعل أهم الحاجات النفسية وأبرزها وأقواها وأدومها نشاطا هي الحاجة إلى الاستجابة العاطفية (من الأفراد الآخرين) لأنها اللبنة الأساسية في صرح المجتمع والثقافة القائمة. وقد اختير اصطلاح استجابة عاطفية عن قصد، لأنه من الممكن وكثيرا ما يحدث أن يستجيب الآخرون للفرد مجرد استجابة سلوكية (خالية من العاطفة) فلا ترضي هذه الحاجة عنده.² وهذه الحاجة للاستجابة العاطفية من الآخرين-خاصة الاستجابة السارة- هي اللبنة الأساسية في صرح المجتمع لأنها تزود الفرد بالمنشآت الأساسية للسلوك الاجتماعي المقبول. ولهذا فإن الناس يخضعون لتقاليد مجتمعاتهم وعاداتها ويعملون بما يمليه عليهم العرف لرغبتهم في استجلاب رضاء الغير والانتماء إليهم.

- ويستطرد "لنتن" في الكلام عن هذه الحاجة إلى الاستجابة العاطفية فيقول أنها حاجة عالمية عامة وقوية، ويشترك فيها جميع أفراد الجنس البشري لدرجة أن كثيرا من علماء العلوم

¹ - د. سامية حسن الساعاتي، مرجع سابق، ص 58.

² - د. سامية حسن الساعاتي، مرجع سابق، ص 59.

الاجتماعية اعتبروها غريزية. فالفرد يقيم لنفسه طوال مراحل حياته استجابات عاطفية عديدة ومختلفة تتشابك تختلط في بدء حياته وتبقى وتدوم في شخصيته حتى بعد أن يكون قد اتخذ طرقه الخاصة لإرضاء هذه الحاجات مستقلاً بنفسه دون مساعدة أحد.

✓ الحاجة إلى الأمن: ويقصد بالأمن أمن الفرد في الماضي والحاضر والمستقبل، أي الأمن الطويل المدى، فلا يكفي الاطمئنان النفسي للحاضر مادام المستقبل غامضاً. فالحاجة إلى الأمن تعتمد على إدراك الفرد للزمن على أنه متصل ينساب من الماضي إلى المستقبل ويعبر الحاضر في طريقه. ولأن الأمن الحاضر لا يشبع نفوسنا تجدنا دائماً نبحث عن الطمأنينة ونتوقع الثواب في المستقبل. وهذا ما يجعلنا نتحمل بعض المتاعب الحاضرة ونأى بعيداً عن اللذات العاجلة الراهنة لنصل إلى لذة كبرى آجلة مستقبلية ولهذا الحاجة إلى الأمن أننا طویل المدى، ارتباط عميق بالآديان والشرائع السماوية وتنعكس في أشكال متعددة لأنماط السلوك الثقافي.¹

✓ الحاجة للخبرة الجديدة: ويرى "لنتن" أن هذه الحاجة أقل تسلطاً وإرغاماً وإلحاحاً على الشخص من الحاجة إلى الاستجابة العاطفية والحاجة إلى الأمن أو على الأقل فإنها قلما تلح على الفرد لإشباعها قبل أن يفرغ من إرضاء حاجاته الأخرى. وتعتبر هذه الحاجة عن نفسها عندما يمل الشخص فتدفعه إلى التخلص من الملل بمختلف أنواع السلوك التجريبي وارتداد آفاق جديدة. ولهذا الحاجة مستويات ومظاهر مختلفة كالاستطلاع، والاستكشاف والاختراع والهجرة.²

4- نظرية "وليام سمندر" (W.Sumner) (1840-1910) يرجع "سمندر" النشأة الأولى للطرق الشعبية أو العادات الاجتماعية التي تقترب في معناها كثيراً من الثقافة بل أنها لتكون المحتوى الأساسي للثقافة، إلى الحاجات الضرورية الحيوية التي تتطلب الإرضاء والإشباع.

ولما كانت العادات الاجتماعية أو الطرق الشعبية تنبثق من حاجات الناس الطبيعية الحيوية فإن العلماء يميزونها دائماً بأنها أي تتكون في داخل الجماعة بصورة غير واعية وغريزية مقصودة، ودون تأمل أو هدف منطقي، ذلك لأن أساسها المحاولة العشوائية والتجربة والخطأ في إشباع الحاجات الطبيعية. فهي تمثل ضرورة اجتماعية تلقائية وظاهرة جوهريّة لمعيشة الناس بعضهم مع بعض إذ تربط فيما بينهم في الحاضر وتلقنهم تجربة الماضي وتسهل عليهم معاملاتهم المتبادلة. وهكذا ينشأ كل منا فيجد نفسه أمام "رصيد" مدّخر من العادات التي ارتضتها جماعته واتفقت عليها. فالعادات إذن سابقة على الفرد كما أنها ليست من خلق تفكيره الهادف بل تنبثق من المحاولة والخطأ وتتمو

¹ - نفس المرجع، ص 61

² - نفس المرجع، نفس الصفحة.

مع التجربة فيسير وفقها الفرد دون وعي منه دون تفكير منطقي، إذ يرى نفسه ملزما بمراعاتها حتى يجاري ويطابق من يعيش بينهم وينسجم معهم.¹

المبحث الثالث: الثقافة عند مالك بن نبي: المفهوم، المركبات، الدلالات والوظائف

المطلب الأول: مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي:

إذا كان المحيط هو الذي يحدّد نوعيّة شخصيّة الإنسان، ويؤثّر فيها تدريجيًا بواسطة التربيّة، فإنّ النمط الثقافي السائد في المجتمع هو الرّابط أو الصّلة بين الإنسان وبيئته² ومجتمع بلا ثقافة هو مجتمع ميّت، وعليه يعرفها مالك بن نبي:

فالثقافة إذن تعرّف بصورة عمليّة على أنّها: مجموعة من الصّفات الخلقية والقيم الاجتماعية، التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لاشعوريًا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه؛ فهي على هذا التعريف المحيط الذي يشكّل فيه الفرد طباعه وشخصيته.³

فالثقافة إذن تعرّف بصورة عمليّة على أنّها: مجموعة من الصّفات الخلقية والقيم الاجتماعية، التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأس مال أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكّل فيه الفرد طباعه وشخصيته.⁴

إذن الثقافة هي تلك الكتلة نفسها بما تتضمنه من عادات متجانسة، وعقديّات متقاربة وتقاليد متكاملة، وأذواق متناسبة وعواطف متشابهة، وبعبارة جامعة: هي كلّ ما يعطي الحضارة سمتها الخاصّة ويحدّد قطبيها: بين العقلية والروحانية.⁵

وعرّفها كذلك "الثقافة هي أولاً (محيط) معيّن يتحرّك في حدوده الإنسان، فيغذي إلهامه، ويكيّف مدى صلاحيته للتأثير عن طريق التبادل، والثقافة جوّ من الألوان، والأنغام، والعادات والتقاليد والأشكال والأوزان، والحركات التي تطبع حياة الإنسان اتجاهاً وأسلوباً خاصاً يقوّي تصوّره، ويلهم عقبريته، ويغذي طاقاته الخلاقة، إنّها الرّباط العضوي بين الإنسان والإطار الذي يحوطه"⁶

¹ - نفس المرجع، ص 67.

² - د. أسعد السحمراني، مرجع سابق، ص 222.

³ - بن نبي مالك، مشكلة الثقافة، تر عبد الصّبور شاهين، دار الفكر، سوريا، ط4، 1984، ص 74.

⁴ - بن نبي مالك، شروط النهضة، تر عمر كامل مسقاوي وعبد الصّبور شاهين، دار الفكر، الجزائر وسوريا، ط4، 1987، ص 89.

⁵ - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 77.

⁶ - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص ص 102، 103.

ووصفها أنها "جو يمتص الفرد تلقائياً عناصره، من ألوان وأصوات وحركات وروائح وأفكار، يتلقاها لا بوصفها (معاني) و(مفاهيم مجردة)، ولكن بوصفها صوراً مألوفة يستأنسها منذ ولادته.¹

وعرّف الثقافة أيضاً "هي الجو العام الذي يحدّد دوافع الفرد وانفعالاته وصلاته بالناس والأشياء، فإننا نكون بهذا عرّفنا الثقافة على أنها ذلك الجو المتكوّن من عادات وتقاليده وأذواق.²

- كما يعرفها مالك بن نبي "هي الجو المشتغل على أشياء ظاهرة، مثل الأوزان والألحان والحركات، وعلى أشياء باطنة، كالأذواق والعادات والتقاليد. بمعنى أنها الجو العام الذي يطبع أسلوب الحياة في مجتمع معيّن وسلوك الفرد فيه بطابع خاص، يختلف عن الطابع الذي نجده في حياة مجتمع آخر"³

والثقافة "هي الجو المتكوّن من ألوان وألحان ونغمات وروائح وسكنات وأصواء، ومن جوانب مظلمة، إنّها هذا الجو كلّ الذي تتفتح فيه النفس، وتشعر بوجودها في إطار عام.⁴

فالفرد ابن بيئته فهي تزوده بمختلف الخصائص الثقافية والاجتماعية التي تميّزها عن باقي المجتمعات، وعليه عالم الأشخاص "يمثل الرصيد الثقافي الذي يزود الفرد منذ ولادته، بالمقاييس الذاتية التي تحدّد سلوكه، وتؤكد انتسابه إلى ثقافة معينة"⁵

"وهي تلك الكتلة نفسها بما تتضمنه من عادات متجانسة، وعقريّات متقاربة وتقاليده متكاملة، وأذواق متناسبة وعواطف متشابهة، وبعبارة جامعة: هي كلّ ما يعطي الحضارة سمتها الخاصة ويحدّد قطبيها.⁶

- ويعتبر "الثقافة نفسها كبيئة مكوّنة من الألوان والأصوات والأشكال، والحركات والأشياء الملموسة والمناظر والصور والأفكار المتشعبة في كلّ اتجاه.⁷

- ينظر مالك بن نبي إلى موضوع الثقافة من زاويتين:

1- الزاوية التاريخية: الثقافة والتاريخ عنصران متلازمان متكاملان "لا يمكن لنا أن نتصور تاريخاً بلا ثقافة، فالشعب الذي يفقد ثقافته يفقد حتماً تاريخه"¹، حيث أنّ الثقافة تشكّل مجموعة

¹ - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 90

² - بن نبي مالك، تأملات، مرجع سابق، ص 147.

³ - مالك بن نبي، نفس المرجع، ص 147.

⁴ - مالك بن نبي، محاسن دمشق، مرجع سابق، ص 106.

⁵ - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 62

⁶ - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 77.

⁷ - مالك بن نبي، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 80.

من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لاشعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه، فهي على هذا التعريف المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته²، والثقافة وظيفيًا متعلقة بحضارة المجتمع أثناء دورتها فيشبه وظيفتها تغذية حضارته "وهي من خلال هذا تحمل أفكار النخبة كما تحمل أفكار العامة، وبهذا تمنح الحضارة صفاتها الخاصة بمجتمع معين، كما أنها تحدّد قطبي الحضارة العقلي والروحي"³

2- الزاوية التربوية: حيث ينظر إليها مالك بوصفها منهاجا للتربية يتيح إعادة بناء الشخصية لتسهم بفعالية في بناء الحضارة وهي من هذه الزاوية الرابطة الأخلاقية والجمالية والعقلية والتقنية التي تربط أفراد المجتمع، حيث يقول "إنّ الثقافة هي التركيب العام لتراكيب جزئية أربعة هي: الأخلاق، والجمال، والمنطق العملي والصناعة"⁴، فإذا كانت الثقافة هي منهج تربوي كلي يتجزأ داخله العناصر الثقافية في أربعة عناصر: الأخلاق، الجمال، المنطق العملي والصناعة يقتضي أن يكون لكل عنصر منهج تربوي جزئي ضمن الخطة التربوية الكلية. واستنباطا من الآية الكريمة (لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألقت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) إنه عزيز حكيم) سورة الأنفال، الآية 63.

- فأساس كل ثقافة هو بالضرورة (تركيب) و(تأليف) لعالم الأشخاص، وهو تأليف يحدث طبقا لمنهج تربوي يأخذ صورة فلسفية أخلاقية. يؤسس مالك بن نبي تعريفه هذا للثقافة على تحليل العناصر الأساسية للعمل فكل عمل ثقافي يحتوي على المبدأ الأخلاقي، والذوق الجمالي، والمنطق العملي والصناعة، وهذه العناصر هي التي تحرك الإنسان باتجاه المجتمع بتحويله من فرد إلى شخص يسهم في انجاز شبكة العلاقات الاجتماعية⁵

- ويظهر أثر الثقافة في المجتمع من خلال فعالية أفرادها، ذلك أنّ صفة الإنسان في المجتمع المتحضّر هي الفعالية بينما في المجتمع الخارج عن الحضارة هي اللافعالية "إنّ الشيء الذي نريده من الثقافة هو أن تبسط بين الأفراد شبكة علاقات اجتماعية معينة تضمن للفرد عناية ورعاية المجتمع من جانب، ومن جانب آخر تضمن المجتمع من انحراف الفرد ونشوزه"⁶

¹ - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 76.

² - نفس المرجع، ص 74.

³ - نورة خالد السعد، مرجع سابق، ص 112.

⁴ - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 67.

⁵ - نورة خالد السعد، مرجع سابق، ص 112.

⁶ - مالك بن نبي، مجالس دمشق، مرجع سابق، ص 108.

المطلب الثاني: مركّبات الثقافة عند مالك بن نبي:

وهذه الثقافة التي تشكّل طباع الانسان، وتصبغ شخصيته بصبغة متميّزة، وتزوّد بنظرية في المعرفة، ومنهج في السلوك، ومنهجية في العمل والبناء متناغمة مع سنن الأفاق والأنفس والهداية.. وضع لها مالك بن نبي محاور كبرى إذا ما استوفيت أنت أكلها في بناء إنسان فعال، ومجتمع قادر على العطاء، وخوض معترك التدافع الحضاري بضمانات أكيدة في النجاح والتألق.¹ فالعناصر الأربعة: المبدأ الأخلاقي - المبدأ الجمالي - المنطق العملي - التقنية هي التي من خلالها تتكوّن ثقافة المجتمع حينما تصبح تاريخا. لذا فهذه العناصر هي الأساس التربوي الذي تحدّد الشروط الثلاثة التي أشرنا إليها في مرحلة الإقلاع في كلّ إنتاج حضاري. فالحضارة هي القدر النهائي للثقافة التاريخية.

وبالعودة إلى حديثه المباشر عن مفردات منظومة العالم الثقافي نجدها تتمحور حول أربعة محاور أساسية هي:

- التوجيه الأخلاقي لتكوين الصّلات الاجتماعية.
- والتوجيه الجمالي لتكوين الذّوق العام.
- والمنطق العملي لتحديد أشكال النشاط العام.
- والصّناعة أو الفنّ التطبيقي الملائم لكلّ نوع من أنواع المجتمع.²

أوّلا: التوجيه الأخلاقي:

لم يعالج بن نبي مسألة الأخلاق من الناحية الفلسفية إنّما من الناحية الاجتماعية إنّّه يقصد به "أن نحدّد (قوة التماسك) الضرورية للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية؛ هذه القوة مرتبطة في أصلها بغريزة (الحياة في جماعة) عند الفرد، ارتباطا يتيح له تكوين القبيلة والعشيرة والمدينة والأمة. والقبائل الموغلة في البداوة تستخدم هذه الغريزة لكي تتجمّع، أمّا المجتمع الذي يتجمّع لتكوين حضارة فإنّه يستخدم الغريزة نفسها، ولكنّه يهديها ويوظّفها بروح خلقي سام.³

¹ - الطيب برغوث، موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التّجديد الحضاري عند مالك بن نبي، دار الينابيع، الجزائر، ط1، 1993، ص15.

² - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص132.

³ - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص79.

- ويربط الروح الخلقى بنزول الأديان والتي تظهر عند ولادة الحضارات، وله مهمة بارزة في المجتمع: "ومهمته في المجتمع ربط الأفراد بعضهم ببعض،¹ كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ). سورة الأنفال، الآية 63.

ويحيلنا بن نبي إلى خطأ تقدير الشّباب المسلم للمدنيّة الغربيّة بالنّظر إلى منتجاتها وكأنّها نتيجة علوم وفنون وصناعات، "وننسى أنّ هذه العلوم والفنون والصّناعات ماكان لها أن توجد لولا صلات اجتماعية خاصّة لاتتصوّر هذه الصّناعات والفنون بدونها، فهي الأساس الخلقي الذي قام عليه صرح المدنيّة الغربيّة في علومه وفنونه."²

والرّوح الخلقي في الإسلام يضمن قوّة التماسك الصّورية للمجتمع الإسلاميّ موجودة بكل وضوح في الإسلام، ولكن أيّ إسلام؟ الإسلام المتحرّك في عقولنا وسلوكنا والمنبعث في صورة إسلام اجتماعي.

وقوة التماسك هذه جديرة بأن تؤلف لنا حضارتنا المنشودة، وفي أيديها ضمانا لذلك - تجربة عمرها ألف عام، وحضارة ولدت على أرض قاحلة، وسط البدو رجال الفطرة والصّحراء.³

ثانيًا: التّوجيه الجمالي:

يشير بن نبي أنّ المنظر القبيح يولد خيالا قبيحا، بينما المنظر الجميل يوّلد فكرا جميلا وخيالا جميلا، والمجتمع الذي يشمل على صور قبيحة ستظهر آثار هذه الصّور القبيحة في أفكاره وأعماله، والعكس بالعكس. "قالجمال الموجود في الإطار الذي يشتمل على ألوان وأصوات وروائح وحركات وأشكال، ويوحى للإنسان بأفكاره ويطبعها بطابعه الخاص من الدّوق الجميل أو السّماجة المستهجنة. فبالدّوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد، يجد الإنسان في نفسه نزوعا إلى الإحسان في العمل وتوخّيا للكرم من العادات.

ولاشك أن للجمال أهمية اجتماعية كبيرة، إذا ما عدّناه المنبع الذي تصدر عنه الأفكار، وتصدر عنه بواسطة تلك الأفكار أعمال الفرد في المجتمع.⁴

¹- نفس المرجع، ص 79.

² - نفس المرجع، ص 80.

³ - نفس المرجع، ص 81.

⁴ - نفس المرجع، ص 82.

ولهذا يؤكد أنّ ذوق الجمال الموجود في ثقافتنا يسمح لنا بتسخيره لحلّ مشكلاته الجزئية، والتي تكون في مجموعها جانبا من حياة الإنسان فيه.

"عندما تخبو تلك الحساسية الأخلاقية والجمالية، فإنّ مقدار فنائها يدلّ على مقدار عدم تماسك عالم الأفكار وعلى انحطاط اجتماعي بصفة عامّة".¹

ثالثا: المنطق العملي:

ويقصد به مالك بن نبي "كيفية ارتباط العمل بوسائله ومقاصده، وذلك حتّى لانستهل أو نستصعب شيئا دون مقياس، يستمدّ معايير من الوسط الاجتماعي ومايشتمل من إمكانيّات...

المنطق العملي استخراج أقصى مايمكن من الفائدة من وسائل معينة"²

لقد لاحظ مالك بن نبي أنّ سلوك الأفراد ونشاطاتهم وأعمالهم تتسم بالشلل وانعدام الفعالية على المستوى الخاص أو العام، لأنّهم لا يستطيعون استغلال الأشياء والوسائل المحيطة بهم أفضل استغلال وبأكثر فعالية في أنشطة وأعمال أخرى، بل حصروها، لايربطون وظائفها لنشاط معيّن بوظائف أخرى لأنشطة أخرى.

صار الفرد المسلم عاجزا عن استخدام امكانيّاته في سبيل الوصول إلى العلم أو الحرفة، وإن حظي بنصيب من العلم أو المال فهو عاجز عن وضع طريقة ليستغلّ علمه أو ينفق ماله. وهذا ماسمّاه باللافعالية في أعمالنا "سببها الأصيل في افتقادنا الضابط الذي يربط بين الأشياء ووسائلها وبين الأشياء وأهدافها، فسياستنا تجهل وسائلها، وثقافتنا لاتعرف مثلها العليا وفكرتنا لاتعرف التحقيق، وإن ذلك كلّ ليتكرّر في كلّ عمل نعمله وفي كلّ خطوة نخطوها".³

فالمجتمع الاسلامي ينعدم في سلوكه المنطق العملي عكس منطق الفكرة، كما أنّ له مجالا واسعا للكلام والحديث "إنّ الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة ولكن منطق العمل والحركة، وهو لايفكر ليعمل بل ليقول كلاما مجرّدان بل إنّ أكثر من ذلك يبغض أولئك الذين يفكّرون تفكيرا مؤثرا، ويقولون كلاما منطقيّا من شأنه أن يتحوّل في الحال إلى عمل ونشاط. ومن هنا يأتي عمقنا الاجتماعي، فنحن حالمون ينقصنا المنطق العملي".⁴

¹ - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص74.

² - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص85.

³ - نفس المرجع، ص 87.

⁴ - نفس المرجع، ص88.

يبين مالك بن نبي أنّ "توجيه العمل في مرحلة التكوين الاجتماعي بعامة يقوّي سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد فيما في ذلك جهد السائل والرّاعي وصاحب الحرفة والتّاجر والطّالب والعالم والمرأة والمثقّف والفلاح لكي يضع كلّ منهم في كلّ يوم لبنة جديدة في البناء".¹

- إنّ توجيه العمل يهدف إلى تكوين بيئة جديدة كما يهدف إلى تغيير وضع الانسان العامل وتحسين مستواه ورفعته إلى مصاف المجتمعات المتحضّرة: "فتوجيه العمل هو تأليف كلّ هذه الجهود لتغيير وضع الانسان وخلق بيئة جديدة من هذه البيئة يشتق العمل معناه كسب العيش لكل فرد".²

- إنّ غاية توجيه العمل هي جمع الجهود لتحويل وضعيّة الانسان وإنشاء محيط جديد له ومنه يأخذ الشغل منحى آخر وهو كسب لقمة العيش لكلّ فرد وإن كان أغلب النّاس حين نسألهم عن الغاية من العمل ربّما يتوقّفون عند كسب العيش أي نعمل لنعيش وإن كان للعمل غايات أخلاقيّة ونفسيّة أخرى كما أنّ له أهداف اجتماعيّة وحضاريّة لاتعرفها إلاّ فئة خاصّة من المجتمع وهي الفئة المثقّفة.³

رابعاً: التّوجيه الفنّي أو الصّناعة

إنّ كلّ الفنون والمهن والقدرات وتطبيقات العلوم تدخل في مفهوم الصّناعة. ومن المسلّم به أنّ الصّناعة للفرد وسيلة لكسب عيشه وربّما لبناء مجده، ولكنّها للمجتمع وسيلة للمحافظة على كيانه واستمرار نموّه؛ وأداء حرفة ما أو صناعة ما ناجحة يشترط بن نبي أمرها مهما وهو "ضرورة إنشاء مجلس للتّوجيه الفنّي، ليحلّ نظرياً وعملياً المشكلة الخطيرة للتّربيّة المهنيّة تبعاً لحاجات البلاد".⁴

فالتّوجيه الفنّي الذي يقصده بن نبي هو التّكوين الفنّي أو بالأحرى التّكوين التّطبيقي، فالمجتمع بحاجة على القيادة الفنّيّة التي أتيحت لها فرصة التّكوين النظري وما يقابله من تكوين تطبيقي، فالإمكانيّات والوسائل بحاجة إلى فنّيين لاستعمالها وصيانتها واستغلالها في شتّى الميادين، ولهذا لا بدّ من توفير مدارس متخصصة تسمح للأفراد بالتّوجيه الفنّي أو التّوجيه الصّناعي لتحسين مستوى التّحكم الفنّي أو الصّناعي.

¹ - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 107.

² - نفس المرجع، ص 108.

³ - سليمان ملوكي، مرجع سابق، ص 146.

⁴ - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 88.

- يحدّد مالك بن نبي دور توجيه العمل في مرحلة التكوين الاجتماعي على العموم أنّه "يقوّي سير الجهود الجماعيّة في اتجاه واحد فيما في ذلك جهد السائل والزّاعي وصاحب الحرفة والتّاجر والطّالب والعالم والمرأة والمثقّف والفلاح لكي يضع كلّ منهم في كلّ يوم لبنة جديدة في البناء".¹

يريد مالك بن نبي أن يؤكّد أنّ العمل سواء أكان جهداً فكريّاً أو عضليّاً يؤدّي إلى أثر نافع فهو عمل يؤدّي إلى الحضارة ولايهمّ نوع العمل مهما كان بسيطاً أو حقيراً وهذا بدليل قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "ما أكل أحد طعاماً قطّ خيراً من أن يأكل من عمل يده وأنّ نبي الله داود كان يأكل من عمل يده كما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنّه صافح يدا فوجدها خشنّة الملمس فرفعها وقال هذه اليد يحبّها الله ويرضى عنها الرسول، ولعلّ مالك بن نبي أراد في إشارته بالعمل وتأكيدّه على أهميّته مهما كان نوعه إلى توجيه النّاس خصوصاً ضدّ أفكار وتقاليدها احتقار الأعمال والحرف التي سادت المجتمعات العربيّة الإسلاميّة والتي يعود معظمها إلى بقايا جاهليّة مازالت تستيقظ أثر كلّ انهيار في البناء الإسلاميّ الأصل وأيضاً إلى بقايا نمط إقطاعي متخلف مازال يعيش في عصر غادر يصعب فيه استمرار الحياة دون النّشاط في كافّة المجالات.

إنّ توجيه العمل يهدف إلى تكوين بيئة جديدة كما يهدف إلى تغيير وضع الانسان العامل وتحسين مستواه ورفعته إلى مصاف المجتمعات المتحضّرة: "فتوجيه العمل هو تأليف كلّ هذه الجهود لتغيير وضع الانسان وخلق بيئة جديدة من هذه البيئة يشقّ العمل معناه كسب العيش لكلّ فرد".²

إنّ غاية توجيه العمل هي جمع الجهود لتحويل وضعيّة الانسان وإنشاء محيط جديد له ومنه يأخذ الشّغل منحى آخر وهو كسب لقمة العيش لكلّ فرد وإن كان أغلب النّاس حين نسألهم عن الغاية من العمل ربّما يتوقفون عند كسب العيش أي نعمل لنعيش وإن كان للعمل غايات أخلاقيّة ونفسية أخرى كما أنّ له أهداف اجتماعيّة وحضاريّة لاتعرفها إلّا فئة خاصّة من المجتمع وهي الفئة المثقّفة.³

"العمل يجب أن يقترن بتعليله الأخلاقي والاجتماعي، كما يجب أن يتّخذ شكلاً معيّناً، وأن يكون ملبّياً لبعض المقاييس الجماليّة المعينة. وهذا يمثّل شرطاً من شروط فعاليّته... وعلاوة على ذلك يجب أن يتوقّر للعمل نسقه الخاص أيضاً، وهذا لكي يلبّي معايير الفعاليّة في عالم أصبح يسيطر فيه على وجوه النّشاط (سرعة الإنتاج)....ولهذا يتعيّن أن ندخل في تحديد ثقافة ما، علاوة على

¹ - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 107.

² - نفس المرجع، ص 108.

³ - سليمان ملوكي، مرجع سابق، ص 146.

المعطى الأخلاقي والمعطى الجمالي مفهوم المنطق العملي في الوقت ذاته...وأخيرا فإن المنطق العملي ليس هو على نحو من الأنحاء إلا مدخلا للفصل الموالي من فصول الثقافة، وهو المتمثل في الفن الصياغي الذي يتعلّق بالعمل في مستوى التخصّص.¹

المطلب الثالث: دلالات الثقافة عند مالك بن نبي

- في البحث عن مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي نجده يركّز في كتابه شاهد للقرن: "فنحن عندما نطرح بالجزائر هذا السؤال: ماهي الثقافة؟ لانفكر بالدرجة الأولى في ضروب التسلية التي يمكن أن تقدّمها لنا الفنون الفلكلورية والمسرح والشعر ولكننا نفكر أولا في الحقائق المحسوسة للتخلف في البطالة والأميّة ونقص التغذية.

- ويربط مالك بن نبي الثقافة بالبيئة باعتبارها المؤثر الأساسي في السلوك معبرا: فالبيئة تعدّ إذن بمثابة الرّحم بالنسبة إلى القيم الثقافية، فالتعريف المقدم للثقافة، يقرّر ماينبغي مراعاته في المشاريع الثقافية: "وعلى هذا فإن مشروع ثقافة معيّنة، يجب أن يشمل سائر البيئة مع اعتباره للجزئية حسب علاقتها السلبية أو الإيجابية، وحسب انخراطها ضمن رصيد ثقافي فعّال، أو ضمن ركام سالب. فمشكلة الثقافة تطرح ضمن هذا المظهر المزدوج بالذات. ويستمر بالتوضيح: "إلا أننا في اهتمامنا بالمنهج الذي نعتمده لانتناولها هنا إلا ضمن مظهرها الأول الموجب تاركين المظهر الثاني السلبي لغيرنا من الباحثين أو لمناسبات أخرى.²

كما يعتقد مالك بن نبي العلاقة بين السياسة والثقافة لا لأنها علم ولكنها لكونها صناعة. "إن صناعة السياسة، تعني إلى حدّ كبير، تغيير الإطار الثقافي في اتجاه ينمي تنمية متاعمة لعبقرية أمّة، ومن هنا فصناعة السياسة تعني في آخر المطاف صناعة الثقافة. فإذا شيدنا حديقة في مدينة في الجزائر أو القاهرة أي إذا غيرنا الإطار الثقافي في أي بلد من بلدان العالم الثالث نقوم بعمل سياسي لامزيد عليه. فعلاقة الثقافة بالسياسة تمرّ حتما بالثلاثي الآتي: صناعة الثقافة التي نريدها، تصفية الثقافة الموروثة من سلبياتها (اللاتقافة) والاحتباس من مناقضات الثقافة أو مايسمى بضد الثقافة.³

كما أنّ الثقافة يجب أن تكون نابعة من أصول المجتمع الجزائري المستقل ومقوماته الأساسية، حيث أنّه لايمكن استيرادها كما نستورد المنتجات الحضارية.

¹ - مالك بن نبي، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص ص88، 89.

² - مالك بن نبي، آفاق جزائرية، تر الطيّب الشّريف، مكتبة النهضة الجزائرية، (ب.ت)، ص129.

³ - مالك بن نبي، بين الرّشاد والتّيه، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1423هـ/2002م، ص 89.

إنّ ما يدعو إليه مالك بن نبي كثقافة جزائرية تستجيب لمطالب مجتمعنا الروحية والبيولوجية تجعل منه مجتمعا متماسكا يسير بخطى ثابتة ويجد الحلول المناسبة للمشاكل المطروحة بكلّ منطق وموضوعية، وفي ذلك يؤكّد: "والجزائر مدعوة اليوم للقيام باختيارها ليس لكي تقدّم محتوى لضروب التسلية الخاصة ولكن لكي تعطي مضمونا للنشاطات الأساسية الخاصة بشعب يقف في مواجهة مشاكل حيوية وحاسمة".¹

المطلب الرابع: وظائف الثقافة عند مالك بن نبي

قد حدّد مالك بن نبي الوظائف الأساسية للثقافة والمتمثلة فيمايلي:

أولاً: انسجام الأفراد مع المجتمع: يرى مالك بن نبي: "أنّ الثقافة تمنحنا انسجام الأفراد مع المجتمع، وبذلك يتكوّن المجتمع إذا لم يكن موجودا ويقوى وتتفكّ عنه أزمته إذا كان موجودا، فالتماسك شرط كتماسك البنيان المرصوص، كلّ مواد البناء فيه على درجة واحدة من التمدد والانقباض وإلاّ تعرّض البناء إلى التفكك. والمجتمع كذلك بناء أفراد إذا كان فيه نشوز من جانب هؤلاء الأفراد فهذا معناه أنّ المجتمع معرض للتفكك. وهذا الانسجام لا يستطيع أن يقدّمه العلم ولكن تقدّمه الأخلاق. مستدلاً بذلك بالحديث النبوي الشريف: "إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق"... فالأخلاق وحدها تضمن وحدة المجتمع، وصيرورة المجتمع ووظيفة المجتمع. أي ما يتكفّله المجتمع لكلّ فرد يعيش فيه من ضمانات وأمن، رعاية، تعليم، رعاية صحية... ولا يمكن لمجتمع أن يقوم بهذا كلّه أبداً على أساس العلم فقط.

الذين هو وحده الذي يؤسّس مجتمعا، والعلم لا يستطيع تأسيس مجتمع... وبالمعنى الاجتماعي، فكلّ عقيدة تقدّم للفرد المبررات الأساسية التي تحدّد سلوكه وتطبع وظيفة المجتمع نحوه فهي عقيدة وهو دين، ... إذن الشرط الأول الذي نطلبه من الثقافة ونفترضه، عليها أن تحقّق الأساس الأخلاقي في المجتمع، لأنّ المجتمع لا يقوم على غير الأخلاق، لأنّ المعاملات الاجتماعية كلّها، حتى معاملات الجوار العادي، لاتبنى إلاّ على الأخلاق".²

ثانياً: القيم الجمالية: يرى كذلك بن نبي "إنّ الثقافة تمنحنا قيما جمالية إذ المجتمع الذي تأسّس وتكوّنت وحدته، على ما نسمّيه المبدأ الأخلاقي يتطلّب صورة ومظهرا. يتطلّب تنظيمه الشكلي من حيث ملبسه، ومعاشه وترتيب أشياء بيته، الأشياء التي تتصل بالقيم الجمالية، لذا لابدّ للثقافة أن

¹ - مالك بن نبي، آفاق جزائرية، مرجع سابق، ص 139.

² - مالك بن نبي، مجالس دمشق، مرجع سابق، ص ص 109، 110.

تمدنا بالذوق الجمالي وتتمّي فينا هذا الذوق. المطلوب من الثقافة أن تكفل لنا هذا الجانب (الذوق الجمالي) لترتيب شؤون مجتمعنا، لأنّ النشور إذا كان يحدث في المستوى الأخلاقي فهو يحدث أيضاً في المستوى الجمالي. فالقيم الجمالية قيم غيرية في جدول ثقافي، وفي سلم القيم الثقافية.¹

ثالثاً: الفعالية: يرى مالك بن نبي: "المجتمع الذي تحققت وحدته وتحقق شكله له حاجات ضرورية ويومية تتحقق بنشأة مايسمى بالفعالية. هذه الأخيرة ما تسمى بالمنطق العملي، فالمنطق العملي هو تركيب الحركات حسب نتيجتها، والوقت الذي تستغرقه هذه الحركات هو المنطق العملي. والشعوب لها مقاييسها، لكنّها لاتتقّد المنطق العملي، لأنّها تعلم أنّه إذا اختلّ المنطق العملي فهذا يؤدّي إلى العبث، ويعرض المجتمع إلى تضييع مصالحه.²

رابعاً: التقنية أو الصناعة أو العلم: وهذا هو الشرط الأخير في بناء الثقافة، منذ أن قامت الإنسانية (بتقسيم العمل) أي منذ عشرة آلاف من السنوات أو أكثر أصبحت هناك تقنية موجودة،... وتتكاثر هذه المجهودات في أداء وظيفة واحدة هي أن يقوم المجتمع الذي يتكوّن على الأساس الأخلاقي ويتمتع بذوق جمالي، ويسلك المسالك التي يهيمن عليها المنطق العملي، ليسدّ حاجاته اليومية،...³

المبحث الرابع: مشكلات الثقافة عند مالك بن نبي

المطلب الأول: الأزمة الثقافية وأزمة المفهومية

أولاً: الأزمة الثقافية:

يربط بن نبي الأزمة الثقافية بتحديد الوظيفة الاجتماعية لها باعتبارها محتوى اجتماعياً ينظم سلوك الإنسان من خلال التربية المنهجية الأصلية المحررة للطاقات الحيوية التي كانت معطلة بفعل الضغط الاجتماعي، أو حينما يفقد الفرد حقه في النقد بفعل أسباب سياسية أو اجتماعية أو ثقافية. فالأزمة الثقافية والأزمة السياسية (السلطوية) كأنهما أزمة واحدة.⁴

¹ - نفس المرجع، ص ص 110، 111.

² - نفس المرجع، ص 111.

³ - نفس المرجع، ص ص 111، 112.

⁴ - د. خليل أحمد خليل، د. محمد علي الكيسي، العلاقة بين المثقف والسلطة، ط1، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2001، ص 37.

وتنشأ الأزمة الثقافية أيضا من خلال تعدّد تركيب العناصر الثقافية في منهج تربوي جاد وذلك بوصف هذه العناصر محقّقة جواً يمتص الفرد أثره بشكل تلقائي من ألوان وروائح وأفكار يتلقاها الفرد داخل المجتمع بوصفها صوّراً مألوفة لا بوصفها مفاهيم مجردة لا أثر لها.

فالأزمة الثقافية تتولّد إذا تمّ اعتبار العلم على أنّه ثقافة.¹

لقد حدّد بن نبي معنى الثقافة بوصفها (جواً) يمتص الفرد تلقائياً عناصره، من ألوان وأصوات وحركات وروائح وأفكار، يتلقاها لا بوصفها (معاني) و(مفاهيم مجردة)، ولكن بوصفها صورا مألوفة يستأنسها منذ مهده. ثمّ تذوب هذه العناصر في كيان المجتمع لتطبع أسلوب حياته، وفي كيان الفرد لتطبع سلوكه مع تفاعل مستمر بين هذا الأسلوب وهذا الأسلوب، في صورة التزام مزدوج بين الفرد والمجتمع، التزاما لايسمح معه هذا لذاك بأيّ نشوز في السلوك، ولذاك لهذا بأيّ انحراف في الأسلوب؛ إذ يتدخل في الحالة الأولى مايسمى بالضّغط الاجتماعي، وفي الثانية كلّ مواقف الفرد التي تعبّر عن استنكاره، سواء بما نسميه اليوم النّقد² أو مايشير إليه الحديث: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى عليه وآله وسلم يقول: **من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.** (رواه مسلم)³ يجب مالک بن نبي عن تساؤله في كتابه مشكلة الثقافة: ماذا نعني بـ(الأزمة الثقافية)؟ فكّلما عمل المجتمع واجبه في السّهر على سلوك الأفراد-بدعوى الحرّية، أو أيّة دعوة أخرى- وزال الضّغط الاجتماعي، انطلقت الطّاقة الحيويّة من قيودها، سواء أكانت هذه القيود مفروضة على أساس ديني أو أساس دستوري، فدمّرت كلّ مايقوم على تلك الأسس سواء كانت دينية أو علمانية، أي أنّها تدمّر كلّ البناء الاجتماعي.

- فالأزمة الثقافية تنمو وتنمو معها أيضا نتائجها، من الحدّ الذي يمكن تداركه بالتّعديل البسيط إلى الحدّ الذي يصبح فيه التّعديل مستحيلا، أو لايمكن إلا بثورة ثقافية عارمة تكون في الحقيقة بمثابة انطلاقة جديدة للحياة الاجتماعيّة من نقطة الصّفر.⁴

وتعيش المجتمعات التي تمرّ بالأزمات الثقافية إحدى الحالتين: إمّا استسلام للواقع وإعطاء فرصة لدفعة جديدة لحركيّتها أو مايسمى بالثّورة الثقافية. "وبين هاتين الحالتين، بين الاستسلام التّام

¹ - مالك بن نبي، **مجالس دمشق**، مرجع سابق، ص 112.

² - مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**، مرجع سابق، ص 90

³ - يحيى بن شرف الدّين النّووي، **شرح الأربعين النّووية**، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1982، ص 77.

⁴ - مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**، مرجع سابق، ص ص 90، 91.

لـ(الواقع) وبين الثورة العنيفة على أيّ (واقع) لا يستساغ، درجات من الخنوع والتّوقع والهروب من المسؤولية، هي بالضبط درجات الأزمة الثقافيّة التي يتخبّط فيها المجتمع. فأيّ اخفاق يسجّله مجتمع في إحدى محاولاته إنّما هو التعبير الصادق على درجة أزمته الثقافيّة.¹

نتائج الأزمة الثقافيّة: إنّ الأزمة الثقافيّة تكون في ذروتها بالنسبة إلى الفرد إذا ما قدرنا أنّه حرم منذ البداية ممّا أسميناه (الجو) الثقافيّ.

فماذا يحصل للفرد في هذه الحالة، أي إذا عزل عن المجتمع عزلاً كاملاً، فلم تتكوّن لديه أية صلة اجتماعيّة، حتى صلة الكلام أي تبليغ الآخرين ما نريده بالصوت؟²

"أمّا في مستوى المجتمع الذي يعيش أزمة ثقافيّة فإنّنا نستطيع حصر العديد من الملاحظات، وكيفنا لذلك أن نرى بالعين المجردة ما يدور في حياته الاقتصاديّة والسّياسيّة، ولكن تكفي ملاحظة واحدة لما فيها من العبرة. إنّنا لو وضعنا سلماً للقيم الثقافيّة، جنباً إلى جنب مع السلم الاجتماعيّ، لقرّنا مبدئياً أنّ السّلمين يتّجهان في الاتجاه نفسه من الأسفل إلى الأعلى، أي أنّ المراكز الاجتماعيّة تكون تلقائيّاً موزّعة حسب الدّرجات الثقافيّة..

وهذه حقيقة نمارسها في حياة كلّ مجتمع ولو كان يواجه بعض الأزمة الثقافيّة، على شرط أنّها لم تبلغ درجة (الارّجوع).

أمّا في المجتمع الذي بلغ هذه الدّرجة فإنّ السّلمين ينعكسان، الواحد بالنسبة للآخر انعكاساً تصبح معه القاعدة الشّعبيّة على الأقلّ بمحافظتها على الأخلاق أثريّ ثقافيّاً من قيادتها..

وهذه فيما أعتقد أشنع صورة للأزمة الثقافيّة التي لاتحلّ بمجتمع ما إلّا صيرته عاجزاً عن حلّ مشكلاته داخل حدوده، وعن مواجهة مشكلات الجوار على حدوده، وبصورة أعمّ لا يستطيع التّعايش دون عقد نفسيّة تعرض شخصيّته للتلف أو كرامته للمهانة، بينما أصبح التّعايش ضرورة حتميّة في عالم تهيم فيه التّكنولوجيا التي فرضت على كلّ مجتمع وجود الآخرين.³

ثانياً: أزمة المفهوميّة:

تزداد مشكلة الثقافة من حيث المفهوميّة صعوبة باختلاف الأيديولوجيّة السّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة للأمم والشّعوب عبر تاريخ الإنسان أو بفلسفته كما هو مفهومها في الغرب الرأسمالي بخلاف الفهم أو الوظيفة التي تأخذها الثقافة عند الاشتراكية أو الماركسيّين، ونعني بذلك الفهم

¹ - نفس المرجع، ص 92.

² - نفس المرجع، نفس الصفحة.

³ - نفس المرجع، ص 93، 94.

الشّامل وعلاقته بالمجتمع أوبما يعرف بفلسفة المجتمع أي سيادة الصّراع بين الطّبقات الاجتماعيّة المختلفة.

وتزداد مشكلة الثقافة وضوحا وصعوبة من حيث المفهوميّة وذلك من خلال ارتباطها بعالم الأفكار. فالأفكار داخل المجتمع العربي والإسلامي هي جد فقيرة بل أحيانا تظهر في المجال السياسي والاقتصادي على شكل موانع كابحة تتوافق من وجهة نظر علم الاجتماع من الخصائص النفسيّة الاجتماعيّة التي يتميّز بها العالم الإسلامي في الوقت الحاضر.¹

ويذهب مالك بن نبي إلى أنّ المجتمع الإسلامي في هذه المرحلة يدفع ثمن خيانة نماذجهِ المثاليّة فالأفكار المخدولة والأفكار المستوردة أخذت تنتقم بشراسة. وهو يعبر عن ألمه وأساه حين يرى المسلم يتمزّق إلى شطرين، مسلم يمارس عبادته داخل المسجد، ولكنّه عندما يخرج منه يصبح غارقا في عالم آخر.

- وترجع الأسباب الرئيسيّة للأزمة الثقافيّة: زوال الالتزام بين الفرد والمجتمع أوفقدان الفرد حقّه في النّقد أي واجب تغيير المنكر، وعليه تؤدّي الأزمة الثقافيّة دائما إلى ماسماه بن نبي بأفول الحضارة. يشير مالك بن نبي إلى أنّه حتّى يمكن أن تتأسّس المفاهيم والآراء في عالم الأفكار المتماusk ولا تبقى مجسّدة في عالم الأشخاص ليستخدما الاستعمار للتأثير على شؤوننا السياسيّة بناء خصائص الحقائق النفسيّة الحاليّة في بلدنا وتجنّب سياسة التّقنيت المنتهجة من قبله. وبذلك تسيير المعركة دون ردّ فتؤدّي بنا إلى هذه الأوضاع بسبب طغيان "الشيء" أو "الشخص". وبذلك تَبْسُط الأفكار سلطتها على عالما الثقافي وتستردّ تقديراتها عموما ولا يبقى الأشخاص أو الأشياء هي التي تحكم عالما الثقافي "إنّ التّعامل مع الوثن أسهل من التّعامل مع الفكرة وهذه حقيقة يعرفها الاستعمار وأتباعه جيّدا ولذلك تشنّ حروبا طاحنة على الأفكار، حتّى لاتكون لها القيادة في المجتمع ليرشد ويحصل على استقلاله الفكري."²

المطلب الثاني: مشكلة الأفكار وأزمة الثقافة واللّغة :

أولا : مشكلة الأفكار: يعطي مالك بن نبي للأفكار أهميّة في حياة مجتمع معيّن وتتجلّى في صورتين: فهي إمّا أن تؤثر بوصفها عوامل نهوض بالحياة الاجتماعيّة، وإمّا أن تؤثر على عكس ذلك بوصفها عوامل ممرضة، تجعل النّمو الاجتماعي صعبا أو مستحيلا.

¹ - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 37.

² - Messaoud Boujnoun, L'Islam et l'occident, dar el Baath, Constantine, Algerie, 1984, p85.

وهناك فضلا عن ذلك جانب آخر لأهمية الأفكار في العالم الحديث: ففي القرن التاسع عشر كانت العلاقات بين الأمم والشعوب علاقات قوّة، وكان مركز الأمة يقدّر بعدد مصانعها ومدافعها وأساطيلها البحرية ورصيدها من الذهب. ولكنّ القرن العشرين قد سجّل في هذا الصدد تطورا معلوما، هو أنّه قد أعلى من الكرة باعتبارها قيمة قوميّة ودوليّة. هذا التطور لم تشعر به كثيرا البلدان المتخلّفة، لأنّ عقدة تخلفها ذاتها قد نصبت في طريقها ضربا من الغرام السقيم بمقاييس القوّة، أي بالمقاييس القائمة على (الأشياء).¹

ثانياً: الأزمة الثقافيّة واللغة:

لمالك بن نبي ملاحظات مركّزة في موضوع ازدواجية اللغة "لم يعد في البلد الواحد نخبان فحسب وإنما مجتمعان متراكمان أحدهما يمثل البلد التقليدي والتاريخي، والثاني يريد أن يصنع تاريخه مبتدأ من الصفر. فالأفكار المطبوعة لهذا الفريق والأفكار الموضوعية للفريق الآخر لاتستطيع أن تتعايش في عالم ثقافي واحد. لقد كان المجتمعان يتحدّثان بلغتين فماكان يقال في المذيع والصّحافة وحتّى في بعض الكتب المدرسية إذ كان في استطاعته أن يعبر عن الأفكار الموضوعية عند أحد المجتمعين لم يكن له أيّ معنى بالنسبة للأفكار المطبوعة الخاصة بالمجتمع الآخر."²

المطلب الثالث: تعايش الثقافات والثقافة في اتجاه العالمية وماضد الثقافة

أولاً : تعايش الثقافات:

استعمل مالك بن نبي مفهوم التعايش بمفهوم التركيب بمعناه الواسع. "وحيث اتّجه العالم إلى إنشاء منظمة اليونسكو، كان يهدف إلى السيطرة على عملية من نوع آخر، هي إحداث تكامل بين العناصر الثقافيّة لتحقيق (تركيب) ثقافة إنسانيّة على المدى البعيد."³

"فكلّ مايرجى من الثقافات التي مثلت في باندونج، هو تعايش وأن تعمل متعاونة على طول المحور من طنجة إلى جاكرتا."⁴ كما ركّز مالك بن نبي على التّبادل في المعلومات "قد أزمع المؤتمر الأفروسيوي نشر مجموعة من الدّراسات عن الجوانب الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة في البلدان المشتركة فيه..وبقي علينا أن نعرف في أيّ الظروف يمكن لهذا التّبادل في المعلومات أن يكون الأسس الثقافيّة للفكرة الأفروسيوية، وفي أيّ الظروف يمكننا عن طريق هذا التّبادل أن نحدّد

¹ - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 14.

² - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 190.

³ - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 98.

⁴ - نفس المرجع، ص 100.

طبيعة الثقافة، وأن ننشئ عناصرها من تغيير ظروف (البقاء) لدى الشعوب الأفروآسيوية. حقاً... إنَّ التَّبادل ضروري ولكن هل هو كاف؟

وسيكون لدينا في هذا الشَّأن مقياس متمثِّل في النَّمُودَج الغربي، فعلى محور واشنطن-موسكو حتَّى طوكيو، نجد أنَّ المشكلات العلمية والعقليَّة والاجتماعيَّة متَّحدة من طرف إلى آخر، بل على الرغم من التَّوتُّر السياسي بين الطرفين فإنَّ التَّبادل الثقافي يتمُّ في نطاق علاقة حضاريَّة واحدة... فهناك ولاشكَّ علاقة مباشرة بين هذا التَّبادل وبين المنظر السَّائد من واشنطن إلى موسكو، وبالتالي بين الظُّروف الإنسانيَّة على هذا المحور. ولكن هذا التَّبادل حين يتمُّ في إطار معيَّن وفي طرف ما يعدُّ سبباً محتمَّاً قاطعاً، فإنَّه من جانب آخر أثر محتوم؛ فمن الأهميَّة بمكان أن نحاط لأنفسنا حتَّى لا تُخفي عنَّا (ظاهرة سطحية Epiphénomène) ظاهرة جوهريَّة... فالتَّبادل يصبح تقريباً غير ذي فائدة أو موضوع، عندما يخرج عن إطاره الَّذي يمنحه قيمته الاجتماعية ومغزاه الثقافي. إذن فتحديد التَّبادل الفعَّال الَّذي نتصوِّره ليساعد على تكوين ثقافة معيَّنة، يجب أن يبدأ من هذه النُّظرة العامَّة عن (المحيط) الثقافي.¹

"لكنَّ الواجب يفرض علينا أن نرعى واقعا جليَّاً وجوهريَّاً، هو أنَّ ميزانية التَّاريخ ليست رصيда من الكلام بل كتلا من النُّشاط المادي ومن الأفكار الَّتِي لها كثافة الواقع ووزنه. وهذه الميزانية المكوَّنة من صنوف النُّشاط الإيجابي هي في الحقيقة ميزانيات من القيم النُّقائيَّة تقوم على فصول النُّقافة الأربعة: منهجها الأخلاقي، وفلسفتها الجماليَّة، وفنُّها الصَّناعي، ومنطقها العملي."²

ثانياً : الثقافة في اتِّجاه العالميَّة:

"مشكلة الثقافة بالنِّسبة لعناصرها الدَّاخلية تعني تلك المشكلة الَّتِي تتَّصل بوجود مجتمع معيَّن، أمَّا بالنِّسبة لمشكلاتها الاتِّصالية، وهي تتَّصل بتعايش مجتمعين أو أكثر، متشابهين في النَّمُودَج، كنموذج إفريقي آسيوي مثلاً، وهي مشكلات تنتج على حدودهما نتيجة لاتِّصاليتهما وتواجههما. وهذا يحدِّد مجالين متميِّزين، ينبغي على الثقافة أن تواجه في كلِّ منهما مشكلات ذات طبيعة معيَّنة. فهي في أحدهما يجب أن تسجِّل أسلوب الحياة في مجتمع معيَّن وسلوك أفرادهِ، وهي في الآخر ينبغي أن تخلق إمكانيَّات اتِّصال وتعاون بين المجتمعات المختلفة. ومع ذلك فإنَّ نشاط الثقافة في المجال الأوَّل يتمُّ بصورة عادية، لأنَّ يقظة الضَّمير أمام المشكلات الدَّاخلية أو العضويَّة تتمُّ هي الأخرى بصورة تلقائيَّة. أمَّا يقظة الضَّمير أمام مشكلات الاتِّصال فقد ظلَّت غائمة زمناً طويلاً،

¹ - نفس المرجع، ص 101، 102.

² - نفس المرجع، ص 112.

ولذلك كان نشاط ثقافة معينة على حدودها أقل ظهوراً ولا يعطي ثمرة إلا في بعض الظروف التاريخية.¹

ثالثاً : ماضد الثقافة L'anti culture :

"فإذا تخلت ثقافة أو قصرت عن رفع المستوى الاجتماعي للفرد، إذا ما أخفقت في أعمالها اليومية وذلك محكمها الأخير، فإنها لن تكون ثقافة. إنها تستسقط في المعنى الأدق للكلمة في وهدة (لثقافة)، وستمتنع في هذا النطاق بقليل من الغرابة أو كثير، وقد تصطبغ بلون محلي أو توشىها مباحج الفولكلور.²

"ونقول عن (لثقافتنا) إنها ذلك المستوى الاجتماعي التاريخي، الذي لابد أن ننطلق منه لبنى ثقافة تتمتع بالأصالة والعالمية في آن معا. هذا هو الرأسمال الأولي، وفي حالتنا هذه فإن مثل هذا الرأسمال، لا يستهان به من أجل أن يوظف في إطار برنامج ثقافة.³

فهناك طهارة إفريقية الأخلاقية، وجماع حماسها للخير والجمال، ونقاء روحها وواسع عفويتها العاطفية المتعاطفة، وعميق مخزونها البكر من روحها كيما تخلق القيم الجديدة النافعة والصلبة معا. لكن الثروة الثمينة هذه معرضة للأخطار، فنحن في عالم مازال ملطخاً بخطيئة الاستعمار إزاء أولئك المشغوفين بـ(ثقافة سيطرة)، ولا يريدون أن يتيحوا للشعوب التي خرجت حديثاً من ربة الاستعمار، إمكانية تحقيق (برنامج ثقافة) ولأن يحافظوا على (لثقافتهم) بكرا لا يمسها سوء... ولا ريب أن هنالك مشاريع حقيقية لما هو ضد الثقافة، تولد تحت الأشكال والعناوين كافة، لتجهض الوسائل المصطنعة أخلاقياً وفكرياً التي ينمو في إطارها هذا الرأسمال ويزداد. لكن يضاف إلى هذا الخطر وهو يأتي من الخارج، خطر يأتي من أنفسنا... ينبغي أن ننقي مفهوم الثقافة من التراكم الأدبي، ومن كل أكاديمية ومن كل إقحام فلكلوري.⁴

لا ينف مالك بن نبي أن الطابع الفلكلوري في ثقافة مجتمع ما يضفي عليها خصوصية إقليمية جمالية غير أنه لا يمثل الثقافة بكل معناها، فالثقافة أشمل وأوسع لأن لها وظيفة اجتماعية هامة "الثقافة تستطيع أن تمنحنا اللحظات الممتعة، إذ توحى إلينا أن ننشد أحياناً مجتمعين، وأن نرقص مجتمعين، ونضحك مجتمعين، والأداء الحسن لذلك كله ظاهرة مشجعة وجمالية ينبغي عدم

¹ - نفس المرجع، ص 115.

² - نفس المرجع، ص 133.

³ - نفس المرجع، ص 136.

⁴ - نفس المرجع، ص 137.

الاستخفاف بها. ولكن دورها الأساسي أن تعلّمنا العيش المشترك والعمل المشترك، وخاصّة الكفاح المشترك. هذه وظيفتها الاجتماعية الأساسية.¹

"نهدف من باب أولى إلى بيان أنّ الثقافة العربيّة الإسلاميّة يمكنها أن تقوم به، لأنّها قد قامت به في الماضي فعلاً، عندما كانت تهدي بإشعاعها من مراكزها في القاهرة وبغداد وقرطبة موكب التّقدّم الرّوحي والعقلي للإنسانيّة. وبهذا فهي قادرة وجديرة بأن تنهض اليوم بدورها بصفتها (ثقافة كبرى) في العالم."²

¹ - نفس المرجع، ص ص 134، 135.

² - نفس المرجع، ص 140.

خلاصة الفصل:

مما تم ذكره آنفاً، توصلنا إلى أنّ الثقافة من أثقل المفاهيم التي عرّفها ونظّر لها الباحثين في العلوم الإنسانية والاجتماعية أمثال: ابن خلدون، ماليونفسكي، لينتون، سمنر)

واهتم مالك بن نبي بمفهوم الثقافة باعتبارها الجو العام للحياة الإنسانية المتكوّن من أشياء ظاهرة، من ألوان وأوزان وألحان وحركات ونغمات وروائح وسكنات...، ومن أشياء باطنة، من أذواق وعادات وتقاليده. وبالتالي تشكّل الطابع الخاص لأسلوب الحياة في مجتمع معيّن وسلوك الفرد فيه. والذي يختلف عن طابع الحياة لمجتمع آخر. وقد حدّد لها أربعة مكوّنات، ولكلّ مكوّن وظيفة اجتماعية وهي: - التّوجيه الأخلاقي لتكوين الصّلات الاجتماعية.

- والتّوجيه الجمالي لتكوين الذّوق العام.

- والمنطق العملي لتحديد أشكال النّشاط العام.

- العلم أو الصّناعة أو الفنّ النّطبيقي الملائم لكلّ نوع من أنواع المجتمع.

هذه المكوّنات تمسّ العوالم الثلاث عند بن نبي: عالم الأفكار، عالم الأشخاص، عالم الأشياء.

غير أنّ الثقافة قد تعترضها العديد من المشكلات والتي تؤثر بدورها على السّيرورة العادية للحياة الاجتماعية للأفراد؛ منها مايتعلّق بالأفكار، أو السّياسة، أو اللّغة... وكلّ مجتمع لابدّ له أن يبني عالمه الثقافي من لبنة أفكاره والتي تشتمل على أفكار مطبوعة (أصيلة) وأفكار موضوعة (المصنوعة) ويشدّد على خطر الأفكار الميّتة (التي فقدت فاعليّتها) والمميّتة (الفاقدة فاعليّتها في مجتمعها الأصلي والمستجربة لمجتمع آخر) على البناء الاجتماعي والثقافي للمجتمع. مايسمح بظهور مظاهر سلبية في هذا المجتمع تتمثّل في أعراض المرض الاجتماعي والثقافي. تمسّ تبعاتها في الجانب السّياسي والاقتصادي...

الفصل الرابع

المرض الاجتماعي

عند مالك بن نبي

تمهيد

طالما يرتبط مفهوم المرض الاجتماعي بظهور سلوكيات سلبية في المجتمع، إنه يدل على الاضطراب الذي يقع داخل الأنساق الاجتماعية، بسبب اختلال يمس البناء الاجتماعي والبناء الثقافي في المجتمع الأدوار والوظائف وأنماط العلاقات الاجتماعية والقيم والأعراف ما يؤدي إلى تغييرات سياسية، اقتصادية وتكنولوجية، ثقافية سريعة وطارئة إلى تغيير بشكل غير متناسق وغير متجانس محاولة التأقلم معها، تؤدي إلى تضيق علاقات اجتماعية كثيرة، عمداً أو بسبب ضغط هذه التغيرات.

قسّمنا هذا الفصل المعنون "المرض الاجتماعي عند مالك بن نبي إلى مبحثين: المبحث الأول: حاولنا التعرف على ماهية المرض أولاً من المنظور الطبي والاقتصادي ثانياً من المنظور السيكولوجي والسوسيولوجي.

بينما في المبحث الثاني تطرّقنا إلى ماهية المرض الاجتماعي عند مالك بن نبي فوضّحنا فيه مفهوم المرض الاجتماعي ودلالاته من خلال تفكّك العلاقات الاجتماعية، انعدام الفعالية الاجتماعية وأسبقيّة الحقّ عن الواجب.

أمّا في المبحث الثالث فعالجنا أعراض المرض الاجتماعي عند مالك بن نبي التي صنفناها إلى أعراض المرض الاجتماعي النفسي (القابلية للاستعمار، الفخر والمديح، الرومانسية) وأعراض المرض الاجتماعي الثقافي (الشّبيّة، الدّريّة، النّعال، الاضطراب الفكري والسلوكي)

وأخيراً بيّنا بعض طرق العلاج من المرض الاجتماعي.

المبحث الأول: ماهية المرض الاجتماعي

المطلب الأول: المرض من المنظور الطبي والاقتصادي

أولاً: المرض من المنظور الطبي

وعرّفها قاموس هاشات (HACHETTE): هو دراسة علمية نظامية للأمراض.

- مجموعة علامات مَرَضِيَّة التي بها تظهر الأمراض.¹

- الباتولوجيا: هو العلم الذي يسعى لفهم ودراسة أسباب وأعراض الأمراض²

- الباتولوجيا السريرية هي تطبيق المعرفة الناتجة عن معالجة المرض³

كما يشير مفهوم المرض (Illness – Maladie) إلى انحراف صحة الفرد الناشئ عن خلل في وظائف وأجهزة الجسم، ويتميز بظهور أعراض وتغيرات تشريحية مما ينبغي مجابهته بالعلاج المناسب⁴

"هي دراسة مراحل المرض بهدف فهم طبيعته وأسبابه

ويتحقق ذلك بملاحظة عينات الدّم، البول... والأنسجة المرضية المتحصّل عليها من مريض حي أوبالتشريح باستعمال أشعة إيكس (X) وتقنيات عديدة.

ثانياً: المرض من المنظور الاقتصادي (التكنولوجي، التقني)

عرّفت الباتولوجيا في قاموس شمال أمريكا للغة الفرنسية "العلم الذي يعالج كل الاضطرابات المفاجئة، إمّا في التنظيم المادي للأعضاء وإمّا في تأدية واجبهم المهني".⁵

المطلب الثاني: المرض من المنظور السيكولوجي والسوسيولوجي:

أولاً: المرض من المنظور السيكولوجي

يربط علماء النفس بين الصّحة النفسية للفرد والمرض النفسي باعتبارهما مفهومين متعاكسان أو عاملان متناسبان عكسياً فالصّحة النفسية تدلّ على أدنى مستويات المرض النفسي، في حين إذا كان المرض النفسي في أعلى مستوياته دلّ على ضعف في الصّحة النفسية، "إنّ الصّحة النفسية

¹ - **Dictionnaire de Français HACHETTE**, ENAG, 1992, p

² - **Dictionnaire Micro-Robert**, dictionnaire de français primordial, Paris, 1979, tome2, p766.

³ - **Medical dictionary**, Oxford concise, fourth edition, p489

⁴ - Dr Ahmed Zaki Badawi, **Dictionary of social welfare and development** (English, French, Arabic), Dar Alkitab Al-masi ,Cairo, 1st edition, 1987, p 133

⁵ - Luis Alexandre, **Dictionnaire Nord-Américain de la langue Française**, Belisle, Beauchemin, Quebec, Canada, 1979, p694.

والمرض النفسي يمثلان وجهي الحالات النفسية، ومن الناحية العلمية يمكن اعتبار الحياة سلسلة من الصراعات. ينجح الفرد في التغلب عليها فتكون الصحة النفسية أو يفشل فيكون المرض النفسي ومعنى ذلك أن الصحة لا يمكن فهمها إلا في ضوء المرض النفسي، ويمكن القول بأن المرض النفسي في جوهره هو إخفاق في استيعاب وتوافر وتمثل خصائص السلوك الصحي النفسي¹

وتحدد الحالات المرضية النفسية في المجموعات الآتية:

"1- أمراض الذهان (Psycosis) وهي الأمراض التي تصيب العقل أساسا بالتدهور ويغلب أن يكون لها أسباب عضوية.

2- أمراض العصاب النفسي (Neurosis) وهي أمراض لا توجد لها أسباب عضوية وتشارك فيما بينها بأعراض أهمها القلق والتوتر والاكتئاب والانقباض والأفعال القهرية وغيرها .

3- الأمراض النفس جسمية (Psycomatics) ويشترك في إنتاجها عوامل نفسية وعضوية معا.

4- الاضطرابات الانفعالية (Emotional disturbaces) وهي الناتجة عن مشاكل ترتبط بتوافق الأفراد تربوياً أو مهنيّاً أو أسريّاً أو عن مشاكل ترتبط بالنمو والحياة اليومية وغيرها .

ويُعرف المرض النفسي بوجه عام بأنه حالة من الاضطراب الوظيفي في الشخصية ذو أصل نفسي أو عصبي، يظهر في صورة أعراض انفعالية وعقلية وجسمية مختلفة، ويؤثر في سلوك الفرد فيعوق توافقه النفسي ويحول بينه وبين ممارسته حياته السوية في المجتمع الذي يعيش فيه²

والمجتمع هو البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها الشخص بمختلف مؤسساتها "وتشمل جميع الجماعات البشرية التي يعيش الإنسان في وسطها، ويتفاعل وإياها، كجماعة الأسرة والمدرسة والنادي والحي والجيرة والأصدقاء والجامعة وجماعة العمل، وفوق كل هذه الجماعات جماعة الأسرة التي تمارس تأثيراً قوياً جداً على شخصية الفرد وعلى سلوكه ونموه. كما تتضمن البيئة الاجتماعية مجموع العادات والتقاليد والمثل والأعراف والمعايير والمبادئ والقواعد والعقائد والنظم والقوانين واللغة والدين والثقافة بوجه عام، ومن ذلك التعليم والمذاهب السياسية السائدة في المجتمع الذي يعيش الإنسان في كنفه.³

¹ - د. مصطفى خليل الشراقوي، علم الصحة النفسية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ب.ت، ص ص 46،45

² - نفس المرجع، ص ص 46، 47.

³ - د. عبد الرحمن محمد العيسوي، الإرشاد والعلاج النفسي، الدار الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2006، ص...

ثانيًا: **المرض من المنظور السوسيولوجي:** باتولوجيا اجتماعية، دراسة الأمراض الاجتماعية هي دراسة التفكك الاجتماعي وعدم التكيف والتعرف على الأسباب المؤدية إلى ذلك كالفاقة والبطالة والمرض والإجرام والطلاق والنبغاء. ومن خلال هذا المدخل ينظر إلى المشكلات الاجتماعية كما لو كانت أمراضا كتلك التي تصيب الجسم. وقد يقصد بهذا الاصطلاح دراسة الفروق الموجودة بين الطبقات الاجتماعية ومدى تأثرها بالأمراض والوفيات.¹

المبحث الثاني: المرض الاجتماعي عند مالك بن نبي

المطلب الأول: ماهية المرض الاجتماعي ودلالاته عند مالك بن نبي

أولاً: مفهوم المرض الاجتماعي عند مالك بن نبي

- يتحوّل دور عالم الاجتماع عند مالك بن نبي إلى دور الطبيب الاجتماعي، ذلك الطبيب الذي يكمن دوره في البحث عن أسباب وأعراض الأمراض الاجتماعية وكيفية معالجتها، إذن دوره عملي (Opérationnel) لا يكتفي بالوصف بل بتقديم الحلول. وقد انشغل مالك بن نبي بأمراض المجتمع الإسلامي ومحاولة تشخيصها تشخيصا سوسيولوجيا معتبرا أنّ حالة وجود العالم الإسلامي خارج التاريخ كأن لم يكن له هدف، واستسلم للألم والمرض حتّى صارت جزءا من كيانه "فلم يلبث أن خرج من سباته العميق ولديه الشّعور بالألم بهذه الصّحة الخافتة تبدأ بالنسبة للعالم الإسلامي حقبة تاريخية جديدة يطلق عليها النهضة... إنّ من الواجب أن نضع نصب أعيننا (المرض) بالمصطلح الطبي لكي تكون لدينا عنه فكرة سليمة، فإنّ الحديث عن المرض أو الشّعور به لا يعني بداهة (الدّواء)"²

- **تعريف المرض الاجتماعي:** يظهر في المجتمع "في هيئة انفصالات في شبكته الاجتماعية... فلقد يبدو المجتمع في ظاهره ميسوراّ نامياّ، بينما شبكة علاقاته مريضة، ويتجلّى هذا المرض الاجتماعي في العلاقات بين الأفراد... عندما يختفي (الشخص) أو خاصة عندما يسترد (الفرد) استقلاله وسلطته في داخل الجسد الاجتماعي"³

انتقد مالك بن نبي ذاتية المصلحين (رجال سياسة أو رجال دين) عند تشخيصهم لواقع المجتمع لأنّ كلّ مصلح قد وصف الوضع الرّاهن تبعا لرأيه أو مزاجه أو مهنته. فجمال الدّين الأفغاني رأى أنّ

¹ - Dr Ahmed Zaki Badawi, ibid, p 241.

² - مالك بن نبي، **شروط النهضة**، مرجع سابق، ص44.

³ - مالك بن نبي، مرجع سابق، ص43.

المشكلة السياسية تحلّ بوسائل سياسيّة، والشيخ محمد عبده رأى أنّ المشكلة لا تحلّ إلا بإصلاح العقيدة والوعظ "على حين أنّ كلّ هذا التشخيص لا يتناول في الحقيقة المرض بل يتحدث عن أعراضه".¹ فمشكلة هؤلاء المصلحين ركزوا جهودهم في كيفية معالجة أعراض المرض، متجاهلين حقيقة المرض ذاته فحالهم مثل حال الطّبيب الذي يهتم بمعالجة مريض بالسّل الجرثومي بهيجان الحمى، دون مكافحة الجراثيم. والمريض يريد منذ 50 عاما أن يبرأ من آلام كثيرة: الاستعمار، الأمية، الكساح العقلي... ولا يعرف حقيقة مرضه ولم يحاول معرفته، وإنّما شعر بألم فسارع بالجري نحو الصّيدلي وفي الواقع هناك طريقتين عند بن نبي للحدّ من هذه الحالة المرضيّة، إمّا القضاء على المرض وإمّا إعدام المريض.

ويتساءل مالك بن نبي عن مبتغى دخول المريض غير المدرك لطبيعة مرضه بالتّحديد الصّيدلية: هل ذهب بمحض الصدفة لكي يقضي على المرض، أو هل يقضي على نفسه؟ ويسقط مالك بن نبي هذه الواقعة على حالة العالم الإسلامي ليؤكّد: "هذا شأن العالم الإسلامي كأنّه دخل إلى صيدلية الحضارة الغربيّة طالبا الشّفاء، ولكنّ من أي مرض؟ وبأي دواء؟ وبديهي أنّنا لا نعرف شيئا عن مدّة علاج كهذا، ولكنّ الحالة التي تطرد هكذا تحت أنظارنا منذ نصف قرن، له دلالة اجتماعية يجب أن تكون موضع تأمل وتحليل. وفي الوقت الذي نقوم فيه بهذا التّحليل يمكننا أيضا أن نفهم التّعديل الذي ينبغي أن يضاف إليها. فيجوز لنا أن نطلق على هذه الحقبة أنّها (بادة حضارة)، أو بلغة علم الإلهيات (مرحلة إرهاب)، وجّه فيها العالم الإسلامي جهوده الاجتماعية هادفا إلى تحصيل حضارة".²

ثم يلقي نظرة على الوصفة الطّبيّة التي يتبعها "العالم الإسلامي يتعاطى هنا (حبة) ضد الجهل، ويأخذ هناك (قرصا) ضد الاستعمار، وفي مكان قصي يتناول (عقارا) كي يشفى من الفقر، فهو يبني هنا مدرسة، ويطالب هنالك باستقلاله، وينشئ في بقعة قاصية مصنعا، ولكن حين نبحت حالته عن كذب لن نلمح شبح البرء، أي أنّنا لن نجد حضارة".³ لقد ذهب مالك بن نبي الى ضرورة تشخيص المرض الاجتماعي مثل المرض الفيزيولوجي، وأكّد أن له أسباب وأعراض وطريقة علاج مثل المرض الفيزيولوجي العضوي. "ومن المعلوم منذ اكتشاف باستور (Pasteur) بفرنسا وكيخ (Kekh) بألمانيا، أنّ الأمراض المعديّة تنتقل بين الأفراد بواسطة كائنات أولية هي الجراثيم. ولكن

¹ - نفس المرجع، ص 45.

² - نفس المرجع، ص 46.

³ - نفس المرجع، نفس الصفحة.

التاريخ الموهل في القدم يخبرنا أنّ هناك نوعاً آخر من الأمراض تصيب النظم والبناء والحياة داخل المجتمع، وتنتقل عدواها في هذه الحالة من جيل إلى جيل. ويفضي عرض هذه المشكلة الجديدة إلى طرح سؤال:

- ما هو العامل الذي ينتقل عن طريقه هذا المرض الاجتماعي؟

- إذا واصلنا سيرنا في هذه المقارنة، فسنلجأ إلى اتباع أساليب الطب في تشخيص الأمراض في دراسته للقصور الوظيفي الفسيولوجي وربما يجب ابتكار فصل خاص بتشخيص الأمراض الاجتماعية يعنى بمظاهر القصور التي تؤثر على الأنظمة الاجتماعية والمؤسسات العامة، كما يهتم الطب بدراسة الأمراض العضوية. ومع ذلك لا ينبغي أن نواصل هذا التشبيه حتى النهاية لكي لا نصل إلى التجسيم كما يفعل فلاسفة العصور القديمة، ويمكننا أن نسأل عما إذا كان أصل المرض الذي يصيب المؤسسات العامة ويقضي عليها ينشأ مباشرة داخل المؤسسة أو ينتقل إليها بنوع من الامتصاص (Osmose) مبتدئاً من بؤرة العدوى.¹

ثانياً : آلية انتقال الأمراض الاجتماعية:

- ويرى مالك بن نبي "أنّ هناك شكلاً آخر من أشكال العدوى، هو ذلك الذي ينقل الأمراض الاجتماعية من جيل إلى جيل، الأمر الذي يضطرنا تبعاً لطبيعة المشكلة ذاتها أن نقرر أنّ هناك أيضاً أنواعاً من الجراثيم الناقلة للأمراض الاجتماعية، هذه الجراثيم الخاصة أفكاراً معدية، أفكار تهدم كيان المجتمعات وتعوق نموها.²

- مرّ المجتمع الجزائري بظروف تاريخية وسياسية واقتصادية واجتماعية ساهمت في ظهور أمراض اجتماعية واستمرار عدواه عبر الأجيال، فالجماعة التي أصيبت بالمرض صارت ناقلة له عمودياً وأفقياً للجماعات الأخرى وللأجيال الأخرى بالتداول وبديل من محاربته صار التقن في ابتكار وإيجاد أوجه أخرى له، من ذلك ما نشاهده في الخصوصيات الاجتماعية الموجودة في مجتمعات معينة والتي كانت محدودة في إطار جغرافي معين فبحكم النزوح الذي تشهده المدن عمّت هذه الخصوصيات وفرضت بحكم العادة وهذا إلى ما ذهب إليه ابن خلدون في قضية الأعراب كذلك ما يعيشه الشباب والفئة المثقفة من حالة تهميش واغتراب وهذا ما يفسره ارتفاع حالات الإدمان والانتحار والهجرة السرية والاضطرابات السلوكية والعنف السلوكي واللفظي وحالات

¹ - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر محمد عبد العظيم علي، منشورات ANEP، الجزائر، 2005، ص ص113، 114.

² - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص14.

المرض النفسي الناجم عن الضغوط اليومية مما سبب أيضا أمراض فيزيولوجية منها المؤقتة ومنها المزمنة كارتفاع ضغط الدم والسكري والأورام الخبيثة. ومما نعيشه اليوم أنّ الفرد الأممي لم يعد يخجل بأميته وعدم علمه بالشّيء بل صار يفاخر ويتحدّى المتعلّم بل صار يشارك في المواعيد السياسية والانتخابية ويتدخّل في تسيير أمور العامة بقرارات ارتجالية تحكمها أمواله وأموال من وراءه، وما ينجّر عنه من سوء للتسيير وهدر لأموال عامة سببها التّظاهر بالعلم بالشّيء إنّّه التّعالم، ثمّ لا يتوان أصحاب الأموال من دخول الهيئات والمؤسسات الإدارية وإقناع الآخر بالاستعداد بدفع ما يلزم من أجل قضاء حاجته وهذا ما دعم البيروقراطية وانتشار الرّشوة، في حين نجد فئات أخرى إذا ماتحتت فهي تفاخر بما صنعت أجيالها السّابقة وحب الاقتداء بها والتحسر على انقضاء تلك الأيّام.

ثالثا : دلالات المرض الاجتماعي عند مالك بن نبي

1/ تفكّك العلاقات الاجتماعية: شبّه مجموعة العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع بالشّبكة أو ماسماها بشبكة العلاقات الاجتماعية إذ ربط تطوّر أيّ مجتمع بتطوّر هذه العلاقات بالكمّ والكيف "وهكذا الأمر دائما، فإذا ما تطوّر مجتمع ما على أية صورة، فإنّ هذا التطوّر مسجّل كما وكيفا في شبكة علاقاته".¹ وعندما تضعف فعالية هذه الشّبكة "فذلك أمارة على أنّ المجتمع ... حينئذ لا يبق منه غير ذكرى مدفونة في كتب التاريخ".²

وهذا ما أطلق عليه حالة التّحلل والتّمزق ويستدلّ بذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: يوشك أن تداعى الأمم عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: لا، بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السّيل ولينزعنّ الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم، وليقذفنّ في قلوبكم الوهن، قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدّنيا وكراهية الموت. رواه

- ويعمّم مالك بن نبي ذلك على الإمبراطوريات والحضارات عبر التاريخ "ومع ذلك فقبل أن يتحلّل المجتمع كلّيا يحتلّ المرض جسده الاجتماعي في هيئة انفصالات في شبكته الاجتماعية للأسباب التي ذكرناها كمّا وكيفا. وهذه الحالة قد تستمرّ قليلا أو كثيرا قبل أن تبلغ نهايتها في صورة انحلال تامّ، وتلك هي مرحلة التّحلل البطيء الذي يسري الجسد الاجتماعي".³

¹ - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع (شبكة العلاقات الاجتماعية)، مرجع سابق، ص 42.

² - نفس المرجع، نفس الصفحة.

³ - نفس المرجع، ص 43.

- وفق منظور مالك بن نبي فأساس التحلل الاجتماعي يعود إلى شبكة العلاقات الاجتماعية "بيد أن جميع أسباب هذا التحلل كامنة في شبكة العلاقات، فلقد يبدو المجتمع في ظاهره ميسورا ناميا، بينما شبكة علاقاته مريضة، ويتجلى هذا المرض الاجتماعي في العلاقات بين الأفراد، وأكبر دليل على وجوده يتمثل فيما يصيب (الأنا) عند الفرد من تضخم ينتهي إلى تحلل الجسد الاجتماعي لصالح الفردية عندما يخفي (الشخص) أو خاصة عندما يسترد الفرد استقلاله وسلطته في داخل الجسد الاجتماعي نتيجة ذلك أن طرح المجتمع الإسلامي مشكلة الاستعمار وأهمل مشكلة القابلية للاستعمار التي هي سبب وجوده.¹" ويشير إلى تجليات الأزمة الاجتماعية في اهتراء شبكة العلاقات الاجتماعية التي تشكل الشرط الموضوعي الأساسي لفعالية أداء المجتمع²

ويشير الدكتور عبود العسكري إلى ما ذهب إليه مالك بن نبي "إن حالة اليأس والإحباط وتفتت العلاقات الاجتماعية التي تصيب الأمة هي التي سببت انهيار الحضارة ومن يسعى إلى الإقلاع الحضاري ثانية، لابد من تغيير نفسيته المهزومة أولا إلى نفسية إنسان حضاري يملك في جنباته رسالة ومشروعا لانقاذ الآخرين، لكن لابد من أن ينقد نفسه أولا من خلال الآية القرآنية التي هي سنة من سنن الله الكبرى في التغيير على مستوى الآفاق والأنفس. إذ قال الله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ" الرعد، الآية 11

- ويعقد مالك بن نبي الصلة بين تفكك العلاقات الاجتماعية والاختلالات والتناقضات التي تمس مجموعة الأفكار لدى أي مجتمع "إن كل روابط الأفكار فيما بينها أو فيما بينها وبين عالمي الأشخاص والأشياء لابد أن ينتج عنه اضطراب في الحياة الاجتماعية، والسبب الأصلي في ذلك كله هو انفصام الأفكار عن نماذجها المثالية. فعندما تختفي من نفوسنا أفكارنا المطبوعة، وتصبح أفكارنا الموضوعية لا شكل لها ولا نسق ولا نفع، نكون قد دخلنا مرحلة تموت فيها الأفكار، وتصبح العقول فيها خاوية، واللغات عاجزة، ويعود المجتمع إلى الطفولة، وتظهر في هذا المجتمع ظواهر غريبة يستند إليها ليتمكن من تعويض قصوره في الأفكار ببدائل، لا تغني عن عدم تماسك الأفكار شيئا، فتعلو نبرات الصوت كي يعوّض النقص في البرهان، كما يفعل الأطفال، وتسود البلاغة الثقيلة المتكلفة في الأدب، ويتضخم استعمال أدوات التفضيل، والتشدد بالنعوت الضخمة، وتطغى

¹ - د.عمار طالبي، "فكر مالك بن نبي والمجتمع الإسلامي المعاصر"، مجلة حولية، كلية: الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، العدد 09، 1991، ص ص 466،465.

² - الطيب برغوث، محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، دار قرطبة، ط2، 1425هـ-2004 م، ص 60.

العواطف والفخامة، وحشو الكلام والغموض ويؤدي عدم تماسك الأفكار وتخلخل العلاقات المنطقية إلى كل أنواع اللبس في العقول فتصبح عاجزة عن التمييز في السياسة بين الأسباب ومسبباتها¹

2/ انعدام الفعالية الاجتماعية

- تجدر الإشارة مسبقاً إلى مفهوم الفعالية الاجتماعية عند مالك بن نبي "والتي تظهر مع المرحلة التي يكون الفرد خلالها في أحسن ظروفه، أعني الظروف التي يكون فيها نظام أفعاله المنعكسة في أقصى فاعليته الاجتماعية، وتكون طاقته الحيوية أيضاً في أتم حالات تنظيمها. هذا هو العصر الذهبي بالنسبة إلى أي مجتمع، لا من أجل أنه يبلغ آنئذ أوج ازدهاره، وإنما لأنه يتمتع بميزتين: فقواه جميعاً في حركة، وهذه الحركة دائمة صاعدة، وهذه هي المرحلة الديناميكية التي يدان فيها كل اتجاه نحو التّعاس أو السكون، وهو ما حدث في تاريخ المجتمع الإسلامي الناشئ في قصة الثلاثة الذين خالفوا المشورة".² "إنّ الحديث عن الإنسان هو حديث ينطوي على البعدين معا: الفردي والاجتماعي، ومن هنا كانت طبيعة العلاقة السلبية التي تربط الإنسان كفرد بالدين، وبالعامل وبالأشياء، وبالأفكار التي تُعبّر عن واقع اجتماعي عام مشحون أصيبت شبكة علاقاته بالتحلل واللافعالية".³

لقد اهتم كثيراً مالك بن نبي بتمييز الإنسان من حيث أنّه فرد يتمتع بشخصية وأخلاق تميّزه عن غيره من جهة، ومن جهة أخرى من حيث أنّه شخص اجتماعي يعيش داخل المجتمع يكتسب ثقافته، عاداته، تقاليده، لغته" لما كان من غير الممكن للإنسان في بعده الفردي، أن يعيش بمعزل عن المجتمع وكان المجتمع لا تتشكل أسسه إلا بالتّجمع الإنساني وتفاعل أفراد في محيط جغرافي معين، فإنّ ما يظهر هن الفرد من شخصية مسؤولة ومواقف أخلاقية، أو من سلوك قدرتي (fataliste) تساهلي (laxiste) وذاتي غير مسؤول ينفذ إلى الحياة الاجتماعية، وإنما ما ينتشر في المجتمع من نظام وانضباط، أو من فوضى وتيه، كلّ هذا يلقي صداه لدى الفرد، فالفرد والمجتمع لا ينفصلان عن بعضهما فهما يتبادلان عناصر التأثير والتأثر".⁴

"ويمكن تحليل هذه العلاقة الوطيدة بين الفرد والمجتمع، بأن فقدان الدين لوظيفته الاشتراكية التكيفية بالنسبة لانعكاسات الإنسان أدّى في ذات الوقت إلى تحلل شبكة العلاقات الاجتماعية،

¹ - د. عمار طالبي، مرجع سابق، ص ص 465-466.

² - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع (شبكة العلاقات الاجتماعية)، مرجع سابق، ص ص 76، 77.

³ - محمد بغدادي باي، مرجع سابق، ص 109.

⁴ - نفس المرجع، ص 108

والى انعدام تلك الشروط التي كان يتولّد عنها العمل المشترك المنسجم والهادف الذي من شأنه أن يضمن للمجتمع استمرار سيره والإبقاء على حركته التاريخية. وعليه كلما زادت غلبة النزعة الذاتية على النزعة الاجتماعية زاد تحلّل العلاقات ونقصت الفعالية وزاد النزوع نحو الفردية.¹

"والنزوع نحو الفردانية يدلّ على تخليّ الإنسان التّكليف الديني (الأخلاقي) المنوط به كفرد، ويدلّ تحلّل شبكة العلاقات الاجتماعية وغياب الفعالية والعمل المشترك على تخليّ المجتمع عن المسؤولية التاريخية المعهودة إليه."²

- ويلفت مالك بن نبي نظرنا إلى جهاز قياس الفعالية في المجتمع، والذي سمّاه بروح المبادرة "فيجب أن لا ننسى أنّ روح المبادرة وهو القياس الوحيد لفعالية الفرد."³

ما أراد مالك بن نبي أن يبيّنه عن انعدام الفعالية هو أنّ المجتمع في فترات انحلاله وتراجع حضارته، تتلاشى بداخل الفرد وحتى في حياته اليومية روح المبادرة والتّقدم ومجابهة المشاكل والعراقيل فهو خاضع خامل يعيش الرّوتين وعدم الاكتراث بالغير وهذا ما يشاهد على المجتمع فانغلاق الفرد على ذاته وانغلاق الأسر على ذاتها وكذا عدم الاكتراث بما يحصل داخل المجتمع من آفات وظواهر ضف إلى ذلك النزعة الفردانية والأنانية جعلت اللّحمة الاجتماعية تنفّقت وانتشرت الجهوية والقبلية وأصبح يتكوّن المجتمع من جماعات لا تربط بينهم إلاّ الهوية. بمعنى تخلخل في الأدوار والوظائف داخل المؤسسات الاجتماعية.

وتراجع التضامن والتكافل الاجتماعي وبدل تحسين الأوضاع ومعالجة الأمور وتقصي الحقائق وإيجاد الحلول الذي يستوجب على كلّ فئات المجتمع وكلّ واحد من منصب عمله ومكانه من السياسيين والاقتصاديين والسّوسولوجيين وعلماء النّفس ورجال الدّين والأئمة إلى الفرد البسيط.

إنّ انعدام الفعالية الاجتماعية في المجتمع مرتبطة بمدى تأثير الفكرة في الواقع، إذ أنّ المجتمع الجزائري يحمل بعض الأفكار لامتتّ بصلة للواقع كاللّجوء للسّحر والشّعوذة والقيام بالطّقوس اعتقاداً أنّها تطرد العين والحسد، كما نلمس انعدام الفعالية الاجتماعية من الثّغرة الموجودة بين الأثرياء والفقراء، ذلك أنّهم إذا كانوا يلتقون كلّ جمعة في المساجد، ودعوة الإمام لهم بمساعدة الفقراء ودفع الزّكاة الواجبة، والوقوف بجانب المحتاج والتفريغ عليه الكُرب والمصائب ومساعدة المريض وكفالة الأيتام غير أنّه بعد الخروج من المسجد يبقى الكلام حبيس جدران، ويهمّ كلّ واحد

¹ - نفس المرجع، ص ص 109-110.

² - نفس المرجع، ص 110.

³ - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 73.

في قضاء مآربه، ناهيك عن عدم وجود ترابط عضوي بين مايتوصّل إليه العلم في كافّة المجالات واستثماره في الحياة الاجتماعية، بما يحقّق تحسين الأوضاع وتطويرها.

3/ المطالبة بالحقّ قبل أداء الواجب (أسبقية الحقّ عن الواجب)

"إنّ العلاقة الاقتصادية والاجتماعية مبنية في الشيوعية ومثلها في بقية المذاهب المادية العلمانية- على مبدأ مطالبة الفرد لحقه بينما هي في الإسلام مبنية على مبدأ قيام كل فرد بواجبه. إنّ الحق في هذه الحالة هو ما يأخذه الفرد من المجتمع وهو عمل سلبي.

أمّا الواجب فهو ما يقدّمه إلى المجتمع وهو عمل إيجابي التّحريك الاجتماعي يكون في الشيوعية لطبقات معينة (عمال، فلاحين،...) بينما هو في الإسلام للنّفوس الخيرة وللعلماء، أعني العلماء على اختلافهم الملمّين بجوانب الحياة الروحية والمادية معا. الحديث الشّريف يقول: اليد العليا خير من اليد السفلى. إنّ هذا الحديث يبرز لنا حقيقتين اثنتين: أولاها: أنّ الواجب أهمّ من الحق، وثانيها أنّ الإنتاج أشرف من الاستهلاك. ويذهب مالك بن نبي إلى أنّ "العلاقات المبنية على مفهوم الحقّ تستلزم المطالبة أي المناضلة بنية الأخذ والوصول إلى الحقوق، ولذلك فهي تنتهي بالصّراع، فالحقد فالزّوال السّريع. في حين أنّ العلاقات المبنية على مفهوم الواجب تستلزم الأداء أي العطاء، فهي تنتهي بالوئام، فالحب فالخلود...¹

فلنسا بحاجة إلى نظرية تهتمّ "بالحق على حدة" أو "بالواجب على حدة"، فإنّ الواقع الاجتماعي لايفصلهما، بل يقرنهما، ويربط بينهما في صورة منطقية أساسية، هي التي تسيّر ركب التّاريخ.

- ومع ذلك فينبغي ألاّ يغيب عن نظرنا أنّ الواجب يجب أن يتفوّق على الحقّ في كلّ تطوّر صاعد، إذ يتحمّ أن يكون لدينا دائما محصول وافر، أو بلغة الاقتصاد السياسي "فائض قيمة" هذا الواجب الفائض هو أمانة التّقدم الخلقي والماديّ في كلّ مجتمع يشقّ طريقه إلى المجد. وبناء على ذلك يمكننا القول: أنّ كلّ سياسة تقوم على طلب "الحقوق" ليست إلّا ضربا من الهرج والفوضى، أوهي كما عبّرنا من قبل "يد" عمر الحياة الأميبية في الحقل الفكري، وتلك هي "البوليتيكا" بالمعنى الشّعبي للكلمة.

والحق أنّ العلاقة بين الحقّ والواجب هي علاقة تكوينية تفسّر لنا نشأة الحق ذاته، تلك التي لا يمكن أن نتصوّرها منفصلة عن الواجب، وهو يعدّ في الواقع "أول عمل قام به الإنسان في التّاريخ" فالسياسة التي لا تحدث الشّعب عن واجباته، وتكتفي بأن تضرب له على نغمة حقوقه ليست

¹ - ابراهيم عاصي، الحقيقة والمآل (آخر حوار مع مالك بن نبي)، عالم الأفكار، الجزائر، ب.ت، ص28.

سياسة وإنّما (خرافة)، أو هي تلصص في الظلام، وليس من مهمتنا أن نعلم الشعب كلمات وشعارات بل أن نعلمه مناهجا وفنونا"¹.

سيكون على مجتمع ما بعد الموحدين أن يخفف من نزوعه إلى المطالبة بالحقوق، لكي يفرغ من استخدام الإنسان والتراب والوقت استخداما فنيا لاستحداث تشكيل اجتماعي، ينتج عن تلقاء ذاته "الحق" وذلك بمقتضى الاقتران الوثيق بينه وبين الواجب، فرسم سياسة معينة معناه إعداد الشروط النفسية والمادية للتاريخ، أعني إعداد الإنسان لصنع التاريخ."²

"فنحن ندرك الآن شيئا فشيئا، أنّ واجبنا هو أن نبذل جهودا ضخاما في جميع الميادين، وأن نقوم بكثير من الواجبات لكي نصل إلى حقوقنا، التي تصبح حينئذ مشروعة.

- فهذه إذا هي نهاية ذهان السهولة، نهاية ما كنّا نطالب به بوصفه (حقاً) من حقوقنا، لقد فهمنا أخيرا أنّ المحرث لا يوضع أمام الثور، وأنّه لا يتحرّك بفضل الخطابة الرنانة الطائفة، أو الحماسة الوطنية الدافقة."³

- ...لأنّ كلّ جهد ثمرته في الميدان الاجتماعي، ومتى تجمّعت الثمرات بصورة إيجابية، وجدنا أنّ أداء الواجب أعظم أثرا من المطالبة "بالحق" وبذلك تتكوّن لنا نفسية اجتماعية،"⁴

فالعلاقة بين الحق والواجب من أساسيات التطور الاجتماعي، وكلاهما ملازم للآخر عكس مايعتقده العامة "الشعب هو الذي يخلق ميثاقه ونظامه الاجتماعي والسياسي الجديد عندما يغير مافي نفسه، فالحق مثله مثل الاستهلاك فهو في هذا المنظور يأخذ اتجاها سلبيا في حين أنّ الواجب هو كل مايوفّره المجتمع لأفراده فاتّجاهه إيجابي"⁵ فتظهر في شكل عملية أخذ وعطاء وهكذا يؤدّي القيام بالواجبات إلى كسب الحقوق"⁶

ومن الجميل حقاً أن يحصل المرء على حقوقه التي يطالب بها، ولكنّ من المؤسف حقاً أن نقلب نظام القيام فنقدم الحقوق على الواجبات. فذلك يزيد من نسبة التخليط والقلق والفوضى في حياتنا، لأنّه يضاعف خطوات البوليتيكا الخاطئة."⁷

¹ - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الجزائر، 1984، ص ص 143.

² - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 144.

³ - مالك بن نبي، نفس المرجع، ص 148.

⁴ - نفس المرجع، نفس الصفحة.

⁵ - قادة بحيري، محطّات اقتصادية من فكر مالك بن نبي، دار الغرب، وهران، الجزائر، 2005، ص 117.

⁶ - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 158.

⁷ - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 117.

فالعلاقة بين الحق والواجب هي التي ترسي القواعد الأساسية لجميع ميادين التطور في المجتمع والمعروف في العالم الإسلامي أنّ الفرد يطالب بحقوقه ويؤدي بعد ذلك واجباته "يعود هذا المرض الذي أصاب الفرد في محور طنجة-جاكرتا إلى جهود النهضة التي قامت في نهاية القرن التاسع عشر وإلى منتصف القرن العشرين فقد اتجهت هذه المجهودات إلى المطالبة بالحقوق بدل القيام بالواجبات فحركة النهضة في الجزائر اتجهت بالمطالبة بالاستقلال من دون أن تغيّر الإنسان وتوعيّه بواجباته الأساسية فلقد غاب عن الأذهان الحق ملازم للواجب، وأنّ الشعب هو الذي يخلق ميثاقه ونظامه الاجتماعي والسياسي الجديد عندما يغيّر ما في نفسه".¹ في حين هذه الفكرة مفقودة في العالم المتطور لأنّ الأفراد هناك يؤدّون واجباتهم ثمّ يطالبون بحقوقهم طبقاً لما تمليه عليهم ثقافتهم وسلوكهم.

- إن كان مفهوم المطالبة بالحقوق قبل أداء الواجبات في العالم الإسلامي ترجع جذوره إلى مرحلة الكفاح السياسي ضد الاستعمار وبروز الحركات الإصلاحية التي كانت تدعو الناس إلى المظاهرات والتّديّات، وبعد حصول هذه البلدان على استقلالها ظلّت هذه الدّهنيات راسخة بل وتمّ تشريبها لأجيال لاحقة، بل صار الشّباب حالياً ينتظرون من الآخرين تحقيق طلباتهم وحاجاتهم وتلبية رغباتهم المادية والمعنوية واعتبارها من حقوقهم غير القابلة للتنازل في حين أنّهم لا يقدّمون ما يطلب منهم. إنّما يعلّقون إخفاقاتهم إلى أوليائهم أو المدرسة أو الشركات أو الدولة، ويتذرّعون بها وصارت الحرقة آخر صور هذه الإخفاقات والبحث عن أفق أفضل.

المطلب الثاني: أعراض المرض الاجتماعي عند مالك بن نبي

أولاً: أعراض المرض النفسي-الاجتماعي

1- القابلية للاستعمار

انتقد مالك بن نبي المجتمع الجزائري من خلال ما لاحظته من أعراض المرض الاجتماعي وعلى رأسها القابلية للاستعمار "لذا يرى أنّه من الضروري محاولة معرفة الجانب الكامن من باطن الفرد والذي ينبعث منه، حتّى يجعله يقبل من نفسه تلك الحالة التي رسمها له الاستعمار، وحدّد له فيها حركاته وأفكاره وحياته بصفة عامّة وهذا هو معامل القابلية للاستعمار".² فيسرد بن نبي عدّة مظاهر للقابلية للاستعمار "إنّ المستعمر يريد منا بطالة يحصل من ورائها يدا عاملة بثمن بخس

¹ - قادة بحيري، مرجع سابق، ص 117.

² - قاسم أحمد الشيخ بلحاج، نظرية الحضارة عند المفكر مالك بن نبي، منشورات التّبيين، الجاحظية، الجزائر،

1998، ص 20.

فيجد منا متقاعدين، بينما الأعمال الجديّة تترقّب منّا الهمة والنشاط. وهو يريد منا جهلة يستغلّهم فيجدنا نقاوم ذلك الجهد البسيط المبذول عندنا ضد الأميّة وهو جهد (جمعية العلماء). وهو يريد منا انحطاطا في الأخلاق كي تشيع الرذيلة بيننا، تلك الرذيلة التي في نفسية رجل (القلة)، فيجدنا أسرع إلى محاربة الفضيلة، التي يحاول نشرها العلماء في بلادنا. وهو يريد تشتيت مجتمعا وتفريق أفراده شيعا وأحزابا، حتّى يحلّ بهم الفشل في الناحية الأدبيّة، كما هو فاشلون من الناحية الاجتماعيّة، فيجدنا مُتفرّقين بالسياسات الانتخابيّة، التي نصرف في سبيلها ما لدينا من مال وحكمة. وهو يريد منا أن نكون قطيعا محتقرا، يسلم نفسه للأوساخ والمخازي فيجدنا ناشطين لتلبية دعوته.¹ وقد زواج بن نبي بين معاملين: المعامل الاستعماري ومعامل القابليّة للاستعمار.

فالمعامل الاستعماري يؤثّر لتضييق نشاط الحياة في البلاد المستعمرة، حتّى تكون مصبوبة في قالب ضيق، يهيئه الاستعمار في كلّ جزئياته خوفا من أن تتيح الحياة المطلقة لمواهب الإنسان أن تأخذ مجراها الطبيعي إلى التّبوغ والعبريّة.²

فينتج عن هذين المعاملين معاناة الفرد بينهما "وبذلك تكون العلة مزدوجة، فكلما شعرنا بداء المعامل الاستعماري الذي يعترينا من الخارج فإننا نرى في الوقت نفسه معاملا باطنيا يستجيب للمعامل الخارجي ويحطّ من كرامتنا بأيدينا."³ "هذه الحال التي نحن عليها متوقّفة علينا أولا، فنجد الاستعمار يستغلّ هذا الاستعداد الموجود في أنفسنا لخدمته، سواء شعرنا بذلك أم لم نشعر.

وقد قال أحد المصلحين "اخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم."⁴ وهذا ما سمّاه مالك بن نبي بالسلطة الخفيّة على توجيه الطّاقة الاجتماعيّة عندنا، ومن ثمّة نشرع في تبديدها وتشتيتها على أيدينا. "إن الاستعمار لا يتصرّف في طاقتنا الاجتماعيّة إلاّ لأنه درس أوضاعنا النفسيّة دراسة عميقة، وأدرك منها موطن الضّعف، فسخرنا لما يريد كصواريخ موجّهة، يصيب لها من يشاء فنحن لانتصوّر إلى أي حدّ يحتال لكي يجعل منّا أبواقا يتحدّث فيها وأقلاما يكتب بها، إنّه يسخرنا وأقلامنا لأغراضه، يسخرنا له بعلمه وجهلنا. والحقّ أنّنا لم ندرس بعد الاستعمار دراسة علميّة كما

¹ - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 157.

² - نفس المرجع، ص 156.

³ - نفس المرجع، ص 157.

⁴ - قاسم أحمد الشيخ بلحاج، مرجع سابق، ص 21.

درسنا هو، حتى أصبح يتصرّف في بعض مواقفنا الوطنيّة وحَتَّى الدّينيّة من حيث نشعر أو لانشعر.¹

"إنّ المرض الحقيقي لم يكن الاستعمار القادم إلينا من خارج استعدادنا لاستقباله، بل هو في مكّونات ذلك الاستعداد، والدّليل على ذلك بسيط يقدّمه لنا الواقع المؤلم اليوم، وهو أنّ الاستعمار غادر هذه المساحة من الأوطان، ولكن هل نحن نشعر أنّ الأوضاع الاجتماعيّة أو الخلقيّة أو الثّقافيّة أو الإنسانيّة قد تغيّرت بطريقة جوهريّة؟"²

إنّ الاستعمار يسعى أولاً إلى أن يجعل من الفرد خائناً ضد المجتمع الذي يعيش فيه فإن لم يستطع فإنّه يحاول أن يحقّق خيانة هذا المجتمع وهذا على يد بعض الأشرار.³

وهذا ما يتعرّض له بشدّة المثقّف الوطني فإنّ المستعمر (بكسر الميم) يحاربه أولاً بالإغراء والإغواء لكي يحوّله إلى عميل له، يروج له بضائعه وأفكاره، وإذا فشل في ذلك فإنّه ينتقل إلى أسلوب ثان هو تأليب الشعب عليه، وإثارة الإشاعات حوله عبر بعض الأبواق المأجورة، بتصويره أنّه ضدّ أهداف مجتمعه⁴

- وإذا كان مفهوم القابليّة للاستعمار هو مفهوم تاريخي أكثر لارتباط كلمة الاستعمار بحقب تاريخيّة تميّزت بالامتداد والتّوسع الأوروبي في قارة إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينيّة وإنشاء المستعمرات فهو مرتبط كذلك بالحركات التّحرّرية التي وقعت في دول العالم الثّالث واستقلال شعوبها، هذا المفهوم يدلّ أيضاً على الحالة النفسيّة والدّهنية لإنسان ما بعد الموحّدين.

- وقد أورد الكاتب نور الدّين خندودي إيضاحاً توكيدياً في هذا الشّأن "إنّ القابليّة للاستعمار باعتبارها عاملاً مكبّل لكلّ جهد اجتماعي، توضّح عدم تأهيل الإنسان المسلم لتشييد حضارة، فهي تشكّل أمامه سدا يمنعه من دخول التّاريخ الذي أقصي منه منذ سقوط دولة الموحّدين، إنّ هذه القابليّة هي التي طبعت على نفسيّة الفرد اللاّفعاليّة، وحدّدت السّمة العامّة للسلوكات والثّقافة والأفكار في المجتمع، إنّها تشبه المرض الذي يعرض جسم الإنسان إلى أخبث الأمراض فكلّ الأمارات البارزة التي تجعل المجتمع في وضعية سابقة على الاستعمار (استعمار) توجد هنا

¹ - مالك بن نبي، شروط النّهضة، مرجع سابق، ص 159.

² - مالك بن نبي، مجالس دمشق، مرجع سابق، ص 52.

³ - مالك بن نبي، الصّراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط3، 1988، ص 125.

⁴ - د. أسعد السّحمراني، مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً، دار النّفائس، بيروت، لبنان، ط2، 1986/1406، ص

مجتمعة. وباختصار، فإنّ القابليّة للاستعمار هي التي قدّمت الشّعوب المغلوبة على أمرها غنيمة سهلة للاستعمار.¹

"وإذا كانت المجتمعات العربيّة والإسلاميّة قد ألّقت حقا بالكيان الاستعماري خارج أراضيها، فإنّ روح الاستعمار لم ترح عقول أفرادها ولا نفسيّاتهم ولا ثقافتهم، لأنّ داء القابليّة للاستعمار لم يمكنها من استئصال جذوره (الاستعمار) عندها. فهي هو الاستعمار يعود إليها اليوم في شكله المقنع الجديد ليتحكّم في مصيرها إيديولوجيّاً، وسياسيّاً، واقتصاديّاً، وثقافياً"²

- فالمقصود بالقابلية للاستعمار هو حالة الخضوع والخنوع للطرف الأقوى وإن كان الاستعمار الحقيقي هو الذي احتلّ الشّعوب بأسلحته ودبابته بينما صار اليوم الاستعمار يحتلّ الشّعوب تحت غطاء اقتصادي أو سياسي أو ثقافي فتباينت من الإيديولوجيّات والتّوجهات والأنظمة وزادت التّبعيّة لسياسات الدّول واقتصاديّاتها وثقافاتهما، واليوم صار لمفهوم العولمة جزء من هذه التّبعيّة والقابليّة للاستعمار.

2- الفخر والمديح

- إنّ استخدام نزعة المديح وأدب الفخر والتّمجيد كوسيلة للتّغلب على مُركّب النّقص الذي اعتارنا إزاء سلطان الثّقافة الغربيّة واضح إنّهما وسيلة للتّخدير والتّسليّة تعزل الفكر والضّмир عن الشّعور بالمتاعب الحقيقيّة.³، إذ يصاب المجتمع بهذا العرض المرضي -حسب يعتبر مالك بن نبي- عندما تصبح هذه النزعة "كآليّة دفاعيّة تحرّكها عقدة الدّونيّة ضدّ ثقافة الآخر المهيمن".⁴ ويتجاوز الفخر والمديح الحدود الموضوعيّة الاعتداليّة خاصّة في طبقة المثقّفين "إنّ النّخبة المثقّفة في مجتمع ما بعد الموحدين، كما يرى بن نبي قد أصيبت بهذا المرض العضال الذي أفقدها فعاليّتها وأبعدها عن مواجهة المشاكل الحقيقة واستدراك مواطن النّقص والقصور فيها بكلّ نزاهة وموضوعيّة"⁵ ذلك أنّها ذهبت إلى التّنقيب في مآثر السّلف دون محاولة إصلاح ومعالجة سلبيّات المجتمع الآنيّة وظواهره المرضيّة فيقول: "حين اتّجهت الثّقافة إلى امتداح الماضي أصبحت ثقافة أثرية ولا يتّجه العمل الفكري فيها إلى الأمام، بل ينتكس إلى الوراء وكان هذا الاتّجاه النّاكص

1 - محمد بغدادي باي، مرجع سابق، ص 127، نقلا عن نور الدين خندودي، ص 127.

2 - نفس المرجع، ص 128.

3 - عبادة عبد اللّطيف، فقه التّغيير في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 84.

4 - بغدادي محمد باي، مرجع سابق، ص 116.

5 - نفس المرجع، نفس الصفحة.

المسرف سببا في انطباع التّعليم كلّ بطابع دارس لا يتّفق ومقتضيات الحاضر والمستقبل، وبذلك أصيبت الأفكار بظاهرة التّشبيث بالماضي، كأثما قد أصبحت متنقّسا له¹، "في هذا المنظور كان بن نبي يرى بأنّ المغالاة في مدح الماضي الزّاهر، والفخر بالأُمجاد الّتي طواها الزّمان هي عبارة عن عمليّة تسليّة للفكر وتخدير للضمير تبعدهما عن الشّعور بالمتاعب الحقيقيّة، كما تُعبّر في نفس الوقت عن الضّعف الفكري، والإفلاس الأخلاقي، والشّلل الحركي في مجابهة الحاضر".²

وبُيّن مالك بن نبي "أنّ حرفة الثّقافة ونزعة المديح تتّصفان بالتركيز على البديع، وتلك وسيلة رشيقة مناسبة تخفي مواضع النّقص والاختلال، فتجمل الأخطاء، وتستتر العجز بستار من البلاغة المزعومة"³ ويؤيّد بن نبي ما أطلق عليه "جب" عقدة التّسامي الّتي يراها بن نبي وليدة نزعة المديح "واليوم تحدث الظّاهرة نفسها في الثّقافة الإسلاميّة التقليديّة، في صورة مقاومة لضغط الأفكار الغربيّة، فعمل الشّيخ عبده في ميدان العقيدة في أقصاه (نزعة المديح) اقتضاها هذا التّسامي"⁴ - وأنّ نزعة المديح والفخر هي صورة من صور الاهتمام بالتنميق اللغوي والتّعالي والأناية والنّمق لذوي المناصب والجاه، بالتركيز على الصّور البيانية والمحسنات البديعية وهي وسيلة لتمويه الحقائق وإخفاء العيوب والنّقائص والتّستر على مواقف العجز.

من أهمّ المظاهر الّتي ميز المجتمع الجزائري التّمسك والتّفاخر بمآثر السّلف. كما نرى ذلك من خلال تملق المرؤوس لرئيسه ويمتدّ إلى ذوي الجاه والنّفوذ والمعارف السّياسية والعلاقات مع ذوي المعارف والسّلطة على مستوى الدّوائر الثّقافية والسّياسية والماليّة والإداريّة بغية نيل مصالح وغايات شخصيّة. والنّخبة المثقّفة أكثر الطّبقات الّتي تستغلّ المناسبات وخاصّة الانتخابيّة الّتي تستعمل هذا الأسلوب لتهرب من واقعها وإخفاقاتها.

3- الرومانسية

- لقد عدّد مالك بن نبي الرّومانسية من بين السّمات المرضيّة في ثقافة مجتمع ما بعد الموحدين والّتي جعل مردها الخيال وطغيان الخرافة وألوان البديع والصّور البيانية في الأعمال

¹ - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 60.

² - بغداداي محمد باي، مرجع سابق، ص 117.

³ - نفس المرجع، ص 60.

⁴ - نفس المرجع، ص 55.

الفكرية فأحدث قطيعة بين الواقع المعاش والمشاكل التي يواجهها أفراد هذا المجتمع، "وهو الأمر الذي يبطل دور الثقافة الايجابية ويفقدها فاعليتها في الفرد وبناء المجتمع".¹

- ويؤكد بن نبي "أنّ النزوع الشعري القائم على النواحي الجمالية والبديعية ما هو إلا وسيلة تخفي مواضع النقص والاختلال وهو نزوع يعانق نزعة المديح والحرفية التي تتعاون على ستر مواطن العجز بأردية من البلاغة ولاشك أنّ تخلص الثقافة من نزعة الخيال معناه طرحها في مواجهة الواقع ومشاكله بعيدا عن الخرافية والجبرية والرومانسية، وإتباع السبل الواقعية والعلمية، والصيغ العملية المناسبة".²

- وانتشار النزعة الرومانسية في الثقافة العربية وسيطرتها عليها، إنّما يعود في العمق عند بن نبي إلى عجز هذه الثقافة عن مواجهة الواقع ومستحدثاته. وعلى هذا الأساس يرى بن نبي بأنّ الرومانسية في الثقافة هي عبارة عن وسيلة تخفي مواطن النقص والاختلال فيها، وخير ما يستشهد به بن نبي في هذا المقام قصّة ألف ليلة وليلة عبر الأجيال، الذي يعرب، في نظر بن نبي، على حالة اللامبالاة السلبية في الجوّ الخلفي والاجتماعي لمجتمع ما بعد المؤّحدين. هذا علاوة على أنّ شيوع هذه السمة السلبية في ثقافة هذا المجتمع يزيد في مضاعفتها وتعميقها، فينجم عن ذلك مخلفات سلبية تظهر آثارها على مستوى الفرد والمجتمع معا، إذ يسلب الوعي، ويضعف الشعور بالمسؤولية.³

ثانياً : أعراض المرض الاجتماعي -الثقافي :

1- الشبيبة والتكديس :

يطرح مالك بن نبي مشكلة الثقافة من الوجهة الديناميكية، وتستند إلى العلاقات الداخلية بين مقاييس العمل الثابتة بين العوالم الثلاث: عالم الأشياء، عالم الأشخاص، عالم الأفكار "وقد يحدث في لحظة تاريخية ما اختلال في التوازن بين أحد هذه العوالم، يعكس حالة إفراط أو تفريط في جانب على حساب جانب آخر، وهو ما يفقد الحضارة حركيتها المنتظمة المتوازنة، ورغم أنّ كلّ مجتمع متخلف -أنّ حركة النهضة لم يخطّط لها بشكل دقيق بسبب غياب التحليل والنقد

¹ - علي القرشي، التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي (من منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم)، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، مصر، ط1، 1989، ص 176.

² - عبادة عبد اللطيف، فقه التغيير، مرجع سابق، ص85، نقلا عن وجهة العالم الإسلامي، وآفاق جزائرية.

³ - محمد بغدادي باي، مرجع سابق، ص ص 115، 116.

اللازمين، إذ اكتفى رجاله التمجيد والمدح، وهو ما أدى إلى ضياع الجهود وتبديد الطاقات، لعدم التماسك في الأفكار أو طغيان الأشياء أو طغيان الأشخاص.¹

"يعمد مالك بن نبي إلى توظيف معطيات علم النفس التربوي في مراحل تدرّج نمو إدراك الطفل، حيث بدأ أولاً بإدراك عالم الأشياء حيث يبدأ في تمييز أنه الجسماني، حين يبدأ في تأمل يديه واللعبة التي يمسكها... ثم يبدأ في إدراك عالم الأشخاص بالتعرف على أبيه وأمه.....ولما يزداد نموّه يبدأ في إدراك عالم الأفكار يضع قدميه في محيطه الثقافي، ممّا ينعكس على شخصيته وحتى مظاهره الجسدية... أمّا في مرحلة الشيخوخة فتعكس الآية حتى يعود قافلاً من عالم الأفكار إلى عالم الأشخاص إلى عالم الأشياء، وهذا حسب ما يراه من ضعفا معاني قوله تعالى: "اللّٰهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ. سورة الروم، الآية 54.

وهذه العوالم تتسحب على المجتمع أيضاً، رغم تشابكها لتعقد عالمها الثقافي... إذ أنّ التّخلف الاجتماعي مقروناً دائماً بنقص في عالم الأفكار، ويمكن أن يقابل هذه المراحل الثلاث التاريخية التي مرّ بها المجتمع الإسلامي: مرحلة ما قبل التّحضّر - مرحلة التّحضّر - مرحلة ما بعد التّحضّر. مرحلة ما قبل التّحضّر: وهي مرحلة المجتمع الجاهلي حيث الفقر في عالم الأفكار، إذ لا يعدو كلّ زاده منه بعض القصائد والخطب فهو عموماً مجتمع الشّيء.

- مرحلة التّحضّر: حيث يتكوّن المجتمع الإسلامي بظهور الفكرة الدينية وبزوغ إشعاع الرّوح... فقد تَمَثَّلَ عالم الأشخاص الفكرة وتفاعلوها معها فاضعوا عالم الأشياء، حيث مزجت بين الإنسان، التّراب والزّمن، فتوسعت دائرة هذه العوالم الثلاث في مرحلة استقرار ذهبي في العصرين الأمويّ ثمّ العبّاسي.

- مرحلة ما بعد التّحضّر: تبدأ بعد عصر الموحّدين (تبدأ حوالي عام 667 هـ) حيث تتضاءل دفعة الرّوح وسلطة العقل لصالح سلطة الغريزة، ممّا يردّد بالمجتمع إلى عالم الأشخاص ثمّ عالم الأشياء... وهي مرحلة ما زالت مستمرة، حيث المجتمع في تقهقر مستمرّ.²

- تبرز ظاهرة التّكديس عندما مالك بن نبي كإحدى سمات مجتمع خرج من حضارته، فانهصر تفكيره في عالم الأشياء، فأخذ في استيرادها وجمعها ضناً أنّه بذلك يضع حضارة، في حين أنّ

¹ - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ط4، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1413-1984، ص 145.*

² - بشير قلاتي، ظاهرة التّكديس عند مالك بن نبي، مجلة "مجلة"، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإنسانية (دورية أكاديمية متخصصة)، العدد 10، سبتمبر 2001، ص 209.

الحضارة هي التي تلد منتجاتها لا العكس، فهي أولاً وقبل كل شيء بناء وهندسة وليست جمعا وركاما ولا جرم كان الفكر الإسلامي عاجزا عن إدراك حقيقة الظواهر فلم يكن يرى منها سوى قشرتها، وأصبح عاجزا عن فهم القرآن فاكتفى باستظهاره، حتى إذا انهالت منتجات الحضارة الأوربية على بلاده اكتفى بمعرفة فائدتها إجمالا دون أن يفكر في نقدها، وإذا كانت الأشياء قابلة للاستعمال، فإن قيم هذه الأشياء قابلة للمناقشة، ومن ثم وجدنا المسلم لا يكثر بمعرفة كيف تم إبداع هذه الأشياء قابلة بل قنع بمعرفة طرق الحصول عليها.¹

- فليس من الواجب لكي ننشئ حضارة أن نشترى كل منتجاتها فإن هذا يعكس القضية التي سبق أن قررناها، وهو يقود في النهاية إلى عملية مستحيلة كمّا وكيفا.

فمن ناحية الكيف تنتج الاستحالة من أنّ أي حضارة لا يمكن أن تباع جملة واحدة الأشياء التي تنتجها ومشتملات هذه الأشياء، أي أنّها لا يمكن أن تباعنا روحها وأفكارها وثرواتها الذاتية وأذواقها، هذا الحشد من الأفكار والمعاني التي لا تلمسها الأنامل، والتي توجد في الكتب أو في المؤسسات ولكن بدونها تصبح كل الأشياء التي تباعنا إياها فارغة دون روح وبغير هدف.

ومن ناحية الكم: لن تكون الاستحالة أقل، فليس من الممكن أن نتخيل العدد الهائل من الأشياء التي نشترىها، ولا أن نجد رأس المال الذي ندفعه فيها، ولئن سلّمنا بإمكان هذا فإنه سيؤدي قطعاً إلى الاستحالة المزدوجة، فينتهي بنا الأمر إلى ما أسمّيه الحضارة الشّئيّة، إلى جانب أنّه يؤدي إلى تكديس هذه الأشياء الحضارية.²

ولا يزال العالم الإسلامي يعمل منذ نصف قرن على جمع أكوام من منتجات الحضارة أكثر من أن يهدف إلى بناء حضارة. وقد توصّل مالك بن نبي إلى الصّيغة التحليليّة لكلّ ناتج حضاري وهي:

$$\text{ناتج حضاري} = \text{إنسان} + \text{تراب} + \text{وقت}^3$$

"وتحت هذا الشكل تشير الصّيغة إلى أنّ مشكلة الحضارة تتحلّل إلى ثلاث مشكلات أوليّة: مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت فلكي نقيم بناء حضارة لا يكون ذلك بأن تُكّس المنتجات، وإنّما بأن نحل هذه المشكلات الثلاث من أساسها."⁴

¹ - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 65.

² - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 48.

³ - نفس المرجع، ص 49.

⁴ - نفس المرجع، ص 50.

وان كانت لظاهرة التّكديس والشّينيّة مظهر وبعد اقتصادي لكنّها في العمق ذات بعد ثقافي، أي هي قضية ثقافيّة تتعلّق بمشكلة حضارة ولابدّ من معالجتها بما سمّاه بن نبي بـ "الاستثمار الاجتماعي" بدلا من "الاستثمار المالي" فقط وذلك بتوجيه الثقافة داخل الدّورة التاريخيّة "ولا يتمّ ذلك إلّا بتوجيه الثقافة أي بحلّ مشكلة الإنسان وتحقيق شروط انسجامه مع التّاريخ، وعلى هذا الأساس تطرح مشكلة التّمنية، ولذا نراه يؤكّد على أنّ التّمنية لا تشتري من الخارج من الخارج، لتعلّقها بقيم أخلاقية واجتماعية لا يمكن استيرادها.... وعلى المجتمع أن يلدّها.

- إنّ كافة مظاهر الأزمة الاقتصادية (ومنها أزمة البطالة) لا تعني عند مالك بن نبي في ظروف المجتمع الإسلامي- إلّا أزمة العقول المعطّلة، فالمشكلة في ثقافتنا، في جهاز تفكيرنا الّتي اختلت موازينه بحلول الشّيء أو الشّخص محلّ الفكرة، وعلينا تصحيح الوضع برّدّه إلى نصابه، وهو ما يحتاج منا إلى وضع برنامج تربوي لتحقيق التّجدد النّفسي الدّاخلي.¹

إنّ "عالم الأشياء في تحديد بن نبي، عالم قائم بذاته، له تأثيره البين على حياة النّاس، ويعبر عالم الأشياء على جملة الوسائل والمعدّات المادّيّة (الإمكانيّات) الّتي يستخدمها أو يبتكرها الإنسان لتلبية حاجياته، وتذليل الصّعوبات الّتي تحول دون تحقيقه لمراميه في الحياة"²

وعليه فعلاقة الإنسان بالأشياء هي علاقة إنتاج واستهلاك، غير أنّ نزعة الشّينيّة "تتمثّل في الولع بالأشياء وتكديسها عوض الرّقي إلى عالم الأفكار لصنعها".³

"لا تعدو ظاهرة التّكديس أن تكون إفرازا طبيعيا للشّينيّة في التّفكير (التّحول من الفكرة المجرّدة إلى الفكرة المجرّدة أي تقدير الأمور تقديرا كميا... ونلاحظ مظاهره في أنحاء مجتمعا، في أبسط المظاهر، من ذلك أن رئيس مصلحة ما يتّخذ في مكتبه (أو مقصورته) أربعة أجهزة تكييف... بل إنّ الأمر تطوّر عندنا إلى عجز فكري حتّى فقدنا القدرة على تصوّر الأشياء دون لمسها، فعالم أفكارنا أضحى لا يمثّل بناء منسجما بل مجرد تكديس من الأفكار، حيث فقدنا بعد الفكرة".⁴

- ونتيجة لهذه الشّينيّة صار المسلم في مرحلة ما بعد الموحّدين في حالة اللّهث الدّائم والمتواصل عن الشّيء وتكديسه "وأولى هذه الحقائق المُرّة اعتماد المسلم اليوم على الاستهلاك دون الإنتاج. والأمر من ذلك هو أنّ استهلاكه هذا لا يتقيّد بحدود الحاجة ولا يقف عند مجال معيّن، بل إنّّه يعمّ

¹ - بشير قلاتي، "ظاهرة التّكديس عند مالك بن نبي"، مرجع سابق، ص 207.

² - محمد بغدادى باي، مرجع سابق، ص 103.

³ - عبد اللّطيف عبادة، مرجع سابق، ص 85.

⁴ - مالك بن نبي، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 126-127.

مجالات الحياة كلّها حتى الزراعيّة منها، ويتجاوزها إلى أشياء غير ضروريّة، والتي غالبا ما تتنافى وقيم المجتمع الثقافيّة والأخلاقيّة، تتجاوزها إلى الكميّات والموضوعة التي أصبحت تتخذ كمقياس يدلّ على تحضر صاحبه، كشراء السيّدات لمعاطف الفرو في بلد حار، واقتناء السيّارات الفخمة.¹ وهذه الظاهرة لا تتوقّف عند حدود مرحلة تاريخيّة، إذ أنّها تنتهي إلى نوع من الإدمان الاجتماعي باعتبار الرّغبة النفسيّة الجامحة في الاقتناء التي تدفع إلى مزيد من الاقتناء بما يسميه البعض بالطاعون الاجتماعي. لما تؤدّي إليه من عدوى... وبذلك يظهر التّكديس.²

وما يلاحظ الآن في مجتمعاتنا هو أنّ ظاهرة التّكديس أدّت إلى التّمذّن لا إلى الحضارة، فالتمذّن يمكن صناعته في لحظة معيّنة من الزّمن كارتداء الأشخاص ملابس عصريّة غربيّة واقتناء أدوات وآلات أنتجتها الحضارة الغربيّة والسّكن في مساكن ذات طابع عصري واتباع أسلوب معيشي عصري في الأكل والشّرب واتباع الموضوعة الغربيّة حتّى وإن كانت تخالف الدّين والأعراف والتّقاليد.... بينما مازالوا يحملون أفكارا عقيمة لا تحرّك المجتمع وعقلا ضيّقا لا يستطيع الإبداع والاختراع والتّغيير الجذري لواقع متداعي يحتاج لأفكار وسواعد لا إلى نقود لاقتناء المادّيات.

2- الجدليّة والتّبرير

"يعتبر الميل نحو الجدل هو الطّابع الطّاغي على الأعمال الأدبيّة والعلميّة في عصر الانحطاط وعصر النّهضة فالمتجادلون لا يبحثون عن حقائق وإنّما عن براهين ولا يستمع المجادل إلى محدثه بل يغرقه في طوفان من الكلام كما أنّ المثقّف يهتّم بالدّفاع عن المجتمع وتبريره عوض تحويله، ودون أي اهتمام بالتّخطيط الاجتماعي.³

"ويقصد بالجدال الكلام الكثير السّفسطائي الذي لا يقود لشيء ذي قيمة يحتاج إليه هذا المجتمع كي ينهض. ويقصد بالتّبرير محاولة البحث المضني عن الحجج والبراهين لغرض إفحام الغير وإثبات حقائق إسلاميّة لا حاجة بها غالبا، والتي لا تفيد في تغيير الواقع المتردّي في شيء⁴ ويصنّفها مالك بن نبي أيضا من الآليات الدّفاعيّة التي تميّز ثقافة مجتمع ما بعد الموحّدين وخاصّة النّخبة العربيّة المثقّفة باختلاف توجّهاتها الإيديولوجيّة التي تحيدهم عن بذل الجهود العمليّة لتطبيق مذهب دقيق للنّهضة ومنهاج منسجم والبحث عن الشّروط الموضوعية للتّغيير.

¹ - محمد بغداداي باي، مرجع سابق، ص 104.

² - نفس المرجع، نقلا عن محمود محد سفر، دراسة في البناء الحضاري، ص 205.

³ - عبادة عبد اللّطيف، فقه التّغيير في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 84.

⁴ - بغداداي محمد باي، مرجع سابق، ص 118.

"هذا ما سجّله مالك بن نبي من مآخذ على كتابات كلّ من جمال الدّين الأفغاني ضدّ رينان، وأحمد رضا في مؤلّفه "الإفلاس الأخلاقي للسياسة الغربيّة في الشّرق" والكواكبي في كتابه "أمّ القرى" الخ كلّ هذه الكتابات ومثيلاتها تمثّل، بالنّسبة لمالك بن نبي، وسائل دفاعيّة لا تخلو من أساليب الجدل والتّبرير... إنّ شيوع مثل هذه الأساليب في أوساط النّخبة المثقّفة قد حال دون تحقيق لمشروع نهضوي ثقافي فعلي، على الرّغم من الجهود المبذولة في هذا السّبيل"¹

وقد ساهمت النّزعة الجدليّة في المجتمع في تعطيل عجلة العمل الثّقافي وتطوّره إلى عمل منظّم مخطّط مصمّم في إطار اتّجاه مذهبي في التّغيير الاجتماعي.

"وعلم الكلام يمجّد الجدل وتبادل الآراء، وهو في الوقت ذاته يشوّه المشكلة الإسلاميّة ويفسد طبيعتها، حين يغيّر المبدأ السّلفي في عقول المصلحين أنفسهم."²

3- اللفظيّة :

- تعبير اللفظية يدلّ على استخدام الألفاظ الأدبيّة الرّنانة، وعلى الثّروة في الحديث وذلك على حساب الكلمة الدّالة المُعبّرة التي تربط الفكرة، التي تترجمها الألفاظ اللّغويّة بالواقع العملي وبالسّلوّك. هذه الظّاهرة المرضية هي السّمة التي يراها مالك بن نبي "تطبع ثقافة مجتمع ما بعد الموحّدين اليوم لدرجة أفرغت معها الكلمات من مضامينها وصيرت اللّغة أداة وهميّة لا عبر عن شيء مرسوم المعالم. وقد كانت لهذه الظّاهرة اللفظيّة نتائج مباشرة، إذ أصبحت أحكام الإنسان على الأشياء أحكامًا سطحيّة أضعفت قدرته على التّقدير الصّحيح للأمر."³

ويحدّد مالك بن نبي أعراض هذا الدّاء فيما يلي:

"- إجادة الكلام والهيّام بالألفاظ.

- اتّسام التّربية التقليديّة بالطّابع الكلامي الأدبي.

- وجود فجوة بين الكلام والعمل.

- ثقافتنا استعبدتها الألفاظ فلم تعد تُعبّر عن اهتمام بالعمل بل عن مجرّد الشّهوة إلى الكلام.

- إنّ استبداد الألفاظ والصّيغ يخلع على أيّ تفسير للنّهضة طابعًا سطحيًا.

- المثل الأعلى منذ عصر الانحطاط هو أن يكون الإنسان بحر علم مع الافتقار لدوره الاجتماعي.

¹ - نفس المرجع، ص ص 118-119.

² - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 55.

³ - بغداداي محمد باي، مرجع سابق، ص 112-113.

-إفراز الكلمات من مضامينها بحيث لا تنبئ عن عمل ونشاط، وتصير مجرد ألفاظ مرصوفة يفقد بذلك الكلام قدسيته وعلاقته الجدلية مع الفكر والعمل.¹

ويورد مالك بن نبي في هذا الصدد أمثلة متعدّدة عاينها شخصياً في مختلف المؤسسات الإعلامية والدينية والتعليمية المتواجدة بالمجتمع. فعلى صعيد الصحافة مثلاً، فقد لاحظ بأنها تغالي في تمجيد القادة والزعماء بما يفوق طبيعة البشر، كأنّ نطلق على أحدهم جملة من الألقاب والمواصفات في آن واحد: المجاهد، الكريم، العظيم، الجليل، الزعيم،... إلخ أمّا على مستوى المؤسسات التعليمية، فلطالما طغى جانب الحقائق النظرية المكتسبة من الكتب على الجانب التطبيقي، وهذا حتّى في المواد الطبيعية المتعلقة بالتجريب المتوقّرة أدواتها، كدراسة تراكيب الأدوية مثلاً حيث لاحظ بن نبي بأنّ المحاضر كان يجهد نفسه وصف إحدى النباتات من الكتاب ولم يكلف نفسه عناء قطف النبتة الموجودة خلف النافذة ليقدّم صورة حيّة عن الموضوع الذي هو في صدد شرحه لطلّابه.

- وفيما يخصّ الدين لاحظ مالك بن نبي أنّه إلى جانب بعد الفقه عن المشكلات الواقعية وانكبابه على حالات خيالية محضة كالبحت في جنس الملائكة، أو التوضؤ من وطء البهيمة فهناك دروس التفسير أيضاً انحصرت غرضها في الكلام من أجل الكلام، وذلك من خلال السعي إلى تأكيد الموضوع الذي يدور حوله الدرس بما وجد من أحاديث نبوية وهذا على حساب الحقائق الحية. فكان الشّيخ المشتهي للكلام يمطر المستمع السّليبي بعبارات براقة وألفاظ ساحرة لا تمتّ للحياة العملية بصلة.

- وعليه، فقد ظلّ الهدف الأسمى من العلم هو بلوغ بحر العلم وإجادة استعمال مثل هذه الكلمات المنمقة والجمال الرّثانة. وهكذا فقد العلم دوره الاجتماعي الفاعل.

وقد ذهب علي القرشي في مؤلّفه التّغير الاجتماعي عند مالك بن نبي إلى أنّ ثقافة المجتمع ساهمت في استفحال داء اللفظية من خلال مختلف القنوات الإعلامية التعليمية والدينية التي تلقّن "النّاس مفاهيم ومعايير دون أن تتحوّل مدلولاتها إلى أنماط سلوكية".²

4 - الدّريّة:

"إنّها نزوع الفرد إلى تجزئة المشكلة واعتبار الوقائع والأحداث مجزأة على أنّها مجرد أكوام لاتتطوي على قانون أوننتيجة عامّة إنّها تشبه قفزة برغوث من تفصيل إلى تفصيل بحيث لا تسمح أن ترى

¹ - عبادة عبد اللطيف، فقه التّغير في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق ص ص 83-84.

² - علي القرشي، مرجع سابق، ص 176.

في مجموعة من التفاصيل المعطاة وضعاً يبرز بالتّحديد مشكلة مرحلة من الاطّراد الثّوري. أنّها لا تسلك سبيل التّكامل، بانتهاج التّركيب المتآلف.¹

- وعليه "تتعلّق الذّرية بالحالة الذّهنية للإنسان، وهي تعني عدم القدرة على إدراك الأشياء والأحداث في صورة كلّية شاملة تربط بينها صلات -فيتمّ تناولها، على هذا الأساس، كوحداث مجزأة ومنفصلة عن بعضها البعض، بعيداً عن وجود أيّة علاقات تجمعها. الأمر الذي يصبح معه إصدار أي حكم صحيح على الواقع مستحيلاً، إذ تحوّل الذّرية عندئذ بين العقل وبين تتبّع الفكرة في حركتها المنطقية. وقد أصبحت هذه السّمة، كما لاحظ بن نبي، تميّز الواقع الثقافي الرّاهن للعالم الإسلامي، حيث أصبح عقل المسلم اليوم لا يرى من المشاكل إلّا تلك التي يستطيع لمسها فقط.² كما "تمثّل الذّرية معياراً ذا قيمة من حيث الدّراسة المتعلّقة بعلم الاجتماع للبلدان الإسلامية الرّاهنة، فهي تفسّر لنا عدداً من مشاكلها، خاصّة نزعة التّكديس، كما لو كان البناء يمثّل مرادفاً لتكديس المُعدّات والأشياء؟

وحتّى عالم أفكارنا لا يمثّل بناية ولكن مجرد كدس من الأفكار. فالذّرية أعني صعوبة أو استحالة إقامة بنية عقلية، إنما تمثّل الانعكاس البسيط لافتقار عالمنا النّفسي لبعد معيّن هو: بعد الفكرة"³ وهذا ما برّره بن نبي بقوله "إنّ طريقتنا في الفهم، تعدّ أحياناً، طريقة لمسية، بدل أن تكون عقلية"⁴ هذه السّمة تطبع تفكير المجتمع الجزائريّ الذي يجده مالك يفقد خاصيّة بناء الفكرة البعيدة الأهداف بل تطغى عليه الشّيئية بدل انتاج أفكار تنتج الأشياء، لعجزه عن تفعيل الأفكار ذات بُعد مستقبلي.

5- التّعالم

أشار مالك بن نبي أنّ ثقافة المجتمع العربي الإسلامي في فترات نهضتنا فريسة للحشو هذا الأخير الذي نتج عن عدم محاولتنا تصفية عاداتنا وحياتنا ممّا يشوبها من عوامل الانحطاط، كما أشرنا سابقاً أنّ ثقافة نهضتنا لم تنتج سوى حرفيين منبثين في صفوف شعب أمّي⁵ هذه الوضعية التي أعطت لنا رجل القلّة الذي "لم ير في مشكلتها إلّا حاجاته ومطامعه، دون أن يرى فيها العنصر الرّئيسي لما في نفسه كساد، وعليه فإنّه لم ير في الثقافة إلّا المظهر التّافه، فهي عنده

¹ - عبادة عبد اللّطيف، فقه التّغيير في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 86.

² - بغدادي باي محمد، مرجع سابق، ص ص 120-121.

³ - مالك بن نبي، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 127.

⁴ - نفس المرجع، ص 126.

⁵ - بغدادي باي محمد، مرجع سابق، ص ص 121، 122.

طريقة ليصبح شخصية بارزة، وإن زاد فعلم يجلب رزقاً. ونتيجة هذا التحريف لمعنى الثقافة متجسدة في ذات ما نسميه المتعالم أو المتعاقل.¹ وهذا ما حمل مالك بن نبي إلى تشخيص داء اجتماعي خطير "والحقيقة أننا قبل خمسين عاماً كنا نعرف مرضاً واحداً يمكن علاجه، هو الجهل والأمية، ولكننا اليوم أصبحنا نرى مرضاً جديداً مستعصياً هو التّعالم"²

- التّعالم مصطلح يطلقه بن نبي على النخبة في المجتمعين العربي والإسلامي، وهو عنده صفة مرضية تعني الحرفية في الثقافة، وادّعاء العلم والمعرفة، ويرجع مالك بن نبي بروز هذا الصنف من المتعالمين أو المتعاقلين، أو كما يسميهم بالفرنسيّة (les intellectromanes) إلى ثقافة النهضة العربية التي لم تنتج سوى حرفيين منبثين في صفوف شعب أمي، حملة اللافتات العلمية. وهؤلاء المتعالمون، كما يصفهم بن نبي، لم يُتقنوا العلم ليصيروا ضميراً فعّالاً، بل لجعلوه آلة للعيش، وسلماً يصعدون به إلى منصّة البرلمان.

ومن هذه المعاينة تأتى لمالك بن نبي اعتبار ظاهرة التّعالم هذه مرضاً عضالاً يستعصي علاجه، لأنّه علم زائف لا ينتفع به، وهو بهذا المعنى جهل خطير ليس كجهل الأميين القابل للعلاج. - وهذا النوع من الجهل لأدهى وأمر من الجهل المطلق لأنّه جهل حجرته الحروف الأبجدية، فيصبح الفرد حبيس الحروف والكلمات لا المعاني فلا يسعى إلى التحليل والنقد والربط والاستنتاج. - وحسب بن نبي، فإنّ ظاهرة التّعالم هذه ينجر عنها فقدان المجتمع لحاسة النقد والتّقدّم في العلم، هذه الحاسة التي تمثلها النخبة، المتعلّمة حقاً، بأفكارها الفعّالة وعلمها النافع الذي يرتبط بالضمير الحي - لتتردّى إلى حاسة أفقيّة زاحفة راقدة، تتركس الإبقاء على وضعيّة المجتمع المنهقرة.

6 - الاضطراب الفكري والسلوكي:

إنّ الثقافة الغربيّة أوقعت مجتمعنا في حالات من الاضطراب الفكري والسلوكي جعلنا ممزّقين بين الأفكار الميّنة والموروثة والأفكار القاتلة المستوردة فعوض أن نصفي تلك وننفي هاته لإيجاد صيغة تخدم منهجية التعبير تجدنا في حيرة من أمرنا أصبحت مرضية. وبهذه الطّريقة يفسّر بن نبي اضطراب إقبال أمام مشكلة المرأة في عصرنا³، يقول بن نبي متحدّثاً عن إقبال "لم يكن اضطراب فكره إلّا صدّى لذلك الاضطراب العام الذي يسود التّفكير الإسلامي بعد قرابة نصف قرن من الإصلاح ومحاولة التّكيف مع الأسلوب الغربي. فشكل النهضة الإسلاميّة الزّاهن هو خليط من

¹ - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 91.

² - بغدادى باي محمد، مرجع سابق، ص 122.

³ - عبادة عبد اللّطيف، فقه التّغيير في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق، ص ص 85-86.

الأذواق، ومن المحاولات، ومن التذبذب، ومن مواقف التدين أيضا فهي في الواقع قد اختارت الطريق الذي يقضي لها ما تريد من "أشياء" و "حاجات" دون أن تبحث عن الأفكار والوسائل.¹

- فالاضطراب الفكري والسلوكي عنده هو عدم الثبات أو الاستقرار على فكرة أو موقف بل الانتقال منه إلى نقيضه بدون أسباب أو مبررات، وإن كانت يعاب ذلك على فئة الشباب إلا أنها انتشرت بين كل الأوساط والفئات والشرائح الاجتماعية.

- هذا التقاطب المزدوج يردّه بن نبي إلى اتصال المسلم المعاصر بالحضارة الغربية المهيمنة، وإلى موقفه غير المحدّد منها: فهو إمّا متشبّث بترائه القديم كلياً، واعتباره الوسيلة الوحيدة للخلاص، وأمّا منسلخ عنه ومتعلق بالثقافة الغربية وما أنتجت، واتخاذها مقياساً لا يبدل عنه للتقدّم. هذان الموقفان المتعارضان في المجتمع الواحد يعبران عن حالة اضطراب أخلاقي وانشطار سلوكي، وعن لا تناغم ثقافي في هذا المجتمع، ويرجع بن نبي سبب ذلك إلى غياب الوعي بعمق المشكلة وخطورتها، مشكلة التعصّب للماضي والاستعارة الحرفية لثقافة الغالب، وإلى عدم القدرة على النقد والتحليل والتّركيب والتّكييف²، "خلاصة القول أنّ المجتمع الإسلامي من نصف قرن (مطلع القرن العشرين)... اقتبس من أشياء الغرب دون أدنى مقياس أونقد، يحمله على ذلك أحيانا نوع من الإكراه وغالبا كثير من السّدج وفراغ العقل، وكلّ ما يسوده من اختلاط وفوضى في الميادين الفكرية والخلقية أو في ميادين السياسة إنّما هو نتيجة ذلك الاختلاط من الأفكار الميئة تلك البقايا غير المصفاة، ومن الأفكار المستعارة تلك التي يتعاضم خطرها كلّما انفصلت عن إطارها التاريخي والعقلي في أوربا.³

المطلب الثالث: طرق العلاج من المرض الاجتماعي عند مالك بن نبي:

- الحقيقة أنّنا نواجه فقدان المبررات في مجتمعنا، وقد بدأت الحديث عنها ربّما قبل أوانه لكنّ لأبأس، المبررات التي تخضع سلوك الفرد لمصلحة الجماعة، وللصالح العام، أي الإدارة (نحن).

- فإذا فقدت هذه المبررات فهذا معناه أنّ الصّلات الاجتماعية التي يقوم عليها المجتمع إمّا ضعيفة أو مفقودة، لأنّ مجموعة أفراد، وإن كانت تتعايش في مدينة أو بلد واحد، لا يعني أنّها تكون مجتمعا، فالمجتمع تكونه وظيفة، وهو يؤدّي وظيفة، والأفراد فيه ينسجمون مع وظيفة المجتمع، فإذا ما اختلّت وظيفة المجتمع اختلّت علاقة الأفراد في المجتمع، وهذا معناه أنّ المجتمع

¹ - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 78.

² - بغدادي باي محمد، مرجع سابق، ص 123.

³ - عبادة عبد اللطيف، فقه التّغيير في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 86.

مفقود، أو أنّ المجتمع نفسه معطل عن القيام بوظيفة. إذن مجموعة من البشر لا تكون مجتمعا، ومن ثمّ علينا إذن أن نقول: إنّ الشيء الذي نريده من الثقافة هو أن تبسط بين الأفراد شبكة علاقات اجتماعية معينة تضمن للفرد عناية ورعاية المجتمع من جانب، ومن جانب آخر تضمن المجتمع من انحراف الفرد ونشوزه.

فالشّيء الأول الذي ننتظر من الثقافة أن تقدّمه هو:

أولاً: أن تمنحنا الثقافة انسجام الأفراد مع المجتمع، وبذلك يتكوّن المجتمع إذا لم يكن موجودا، ويقوّى، وتتفكّ عنه أزمته إذا كان موجودا. فالتماسك شرط كتماسك البنيان المرصوص، كل مواد البناء فيه على درجة واحدة من التمدد والانقباض في الحرّ والقرّ وإلاّ تعرّض البناء للتفكك. والمجتمع كذلك بناء أفراد، إذا كان فيه نشوز من جانب هؤلاء الأفراد مع المجتمع كذلك بناء أفراد، إذا كان فيه نشوز من جانب هؤلاء الأفراد فهذا معناه أنّ المجتمع معرض للتفكك.

وهذا الشرط، شرط انسجام الأفراد مع المجتمع، لا يمكن أن يقدّمه العلم، ولكن تقدّمه الأخلاق وفي بلادنا يقدّمه الإسلام، والإسلام وحده، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ.¹

وهذا ليس كلاما أدبيا، إنّهُ ضرورة من ضرورات الحياة، ضرورات تشملها الرسالة، لأنّه ضرورة كبرى، فلقد جاء الإسلام لتأسيس مجتمع، وكان لزاما أن يبنى هذا المجتمع على مكارم الأخلاق. فالأخلاق وحدها تضمن وحدة المجتمع، وصيرورة المجتمع، ووظيفة المجتمع. أي ما يتكفّله المجتمع لكلّ فرد يعيش فيه من ضمانات، وأمن ورعاية، وتعليم، ورعاية صحية... الخ، ولا يمكن لمجتمع أن يقوم بهذا كلّهُ أبدا على أساس العلم فقط.

الدين وحده الذي يستطيع أن يؤسّس مجتمعا، والعلم لا يستطيع تأسيس مجتمع، وإذا قيل لنا: أنّ بعض المجتمعات تأسست على غير الدين، فهذا يعني أنّ المعارض يحمل كلمة الدين ما لم نحملها نحن، إذ أنّنا نضع لها معنى آخر، فبالنسبة إلينا نحن المسلمين نضع فيها معنى الهداية هداية الله لخلقه، ولكن بالمعنى الاجتماعي فكلّ عقيدة تقدّم للفرد المبررات الأساسية التي تحدّد سلوكه وتطبع وظيفة المجتمع نحوه، فهي عقيدة، وهو دين...، وإنّما نجيب على هذا "لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ" سورة الكافرون الآية 5.

¹ - مالك بن نبي، مجالس دمشق، مرجع سابق، ص 108-109.

مما لاشك فيه أن الدين يضع للمجتمع مكارم الأخلاق، وما على الثقافة إلا أن تُتَبَّنَهَا وتُنشِئها بين كل أفراد المجتمع في معاملاتهم الاجتماعية، "فالمهم أن الشرط الأول الذي نطلبه من الثقافة ونفترضه، عليها أن تحقق الأساس الأخلاقي في المجتمع، لأن المجتمع لا يقوم على غير الأخلاق، لأن المعاملات الاجتماعية كلها، حتى معاملات الجوار العادي لا تبنى إلا على الأخلاق.¹

ثانياً: أن تمنحنا الثقافة قيما جمالية، إذ المجتمع الذي تأسس على ما نسميه المبدأ الأخلاقي، وتكونت وحدته على أساس أخلاقي، يتطلب صورة ومظهراً. يتطلب تنظيمه الشكلي من حيث ملبسه، ومعاشه وترتيب أشياء بيته. الأشياء التي تتصل بالقيم الجمالية، لذا لابد للثقافة أن تمدنا بالذوق الجمالي، وتنمي فينا هذا الذوق.

ويجب علينا ألا نعتقد أن الإسلام قد أهمل أو زهد في هذا الجانب، لأننا نرى القرآن الكريم عندما يذكر الجمال والبغال يقول: "وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ" سورة النحل 06.

فكلمة الجمال ليست نفعية. الركوب مصلحي، فعندما تركب البغال والحمير نقضي مصالحنا، ولكن القرآن يبرر قيمة أخرى غير المصلحة، القيمة الجمالية يظهرها للحياة.

إذن نحن نطلب من الثقافة أن تكفل لنا هذا الجانب (الذوق الجمالي) لترتيب شؤون مجتمعنا، لأن التشويز إذا كان يحدث في المستوى الأخلاقي فهو يحدث أيضاً في المستوى الجمالي.

والشريعة الإسلامية قد تحدثت عن تشريع لهذا، فالطلاق والزواج مثلاً في كل منهما آداب، فهناك حالات يكون عليها الرجل أو تكون عليها المرأة (حالات جمالية وليست أخلاقية) ينشأ فيها طلب الطلاق، سواء بطلب من الزوج أو الأنثى، وهذه أمور معروفة في الشريعة.²

ثالثاً: الفعالية، فالمجتمع الذي تحققت وحدته وتحقق شكله، له حاجات ضرورية، ويومية تتحقق بنشأة ما نسميه قبل: المنطق العملي، وهذا مصطلح أعرف به منذ ربع قرن، المنطق العملي، هو ما يسمّى في مجال الصناعة (تaylorية).

فالمنطق العملي هو تركيب الحركات حسب نتيجهتها، والوقت الذي تتخذه وتستغرقه التaylorية نسميها نحن المنطق العملي.

والشعوب لها مقاييسها، لكنها لا تفقد المنطق العملي، لأنها تعلم أنه إذا اختل المنطق العملي فهذا يؤدي إلى العبث، ويعرض المجتمع إلى تضییع مصالحه،... وطبعاً إضاعة الوقت.

¹ - نفس المرجع، نفس الصفحة.

² - نفس المرجع، ص 110، 111.

رابعاً: التقنية أو الصناعة أو العلم، وهذا هو الشرط الأخير في بناء الثقافة، منذ أن قامت الإنسانية بما يسمى (بتقسيم العمل) أي منذ عشرة آلاف من السنوات أو أكثر أصبحت هناك تقنية موجودة فهذا بناء، وذلك طبيب، أو أستاذ، والآخر خياط... الخ وتتكاثر هذه المجهودات في أداء وظيفة واحدة هي أن يقوم المجتمع الذي يتكوّن على الأساس الأخلاقي ويتمتع بذوق جمالي، ويسلك المسالك التي تهيم عليها المنطق العملي، أي مسالكه لسدّ حاجاته اليومية بما يتعلّمه في الجامعات. إذن فنحن حين انطلقنا منذ ربع قرن تقريباً في العهد الذي نسمّيه الحضارة العربيّة أو الحضارة الإسلاميّة، وتشبّثنا بالعلم، فنحن كأئنا استمسكنا بالربع من دورة تتضمّن أربعة أجزاء.¹

و في الأخير يرجع مالك بن نبي حدوث أزمة ثقافيّة في المجتمع العربي والجزائري إلى أنّ المجتمع تناول العلم على أنّه ثقافة، بمعنى الخلط بين المفهومين والتعامل معهما على نفس المستوى، وكأنتهما مترادفان.

خامساً: تصفيّة الإطار الاجتماعي والخلقي: ممّا علّق به من عادات وتقاليده بالية أو ما سمّاه بالأفكار القتالة، "ومن أوّل واجباتنا تصفيّة عاداتنا وتقاليدينا وإطارنا الخلقي والاجتماعي، ممّا فيه من عوامل قتالة ورمم لافائدة منها، حتّى يصفو الجوّ للعوامل الحيّة والدّاعية إلى الحياة"² أي تنقيّة موروثنا الثقافي والاجتماعي من ترسّبات مرحلة تدهور المجتمع من سلوكات ودروشة و... بغية تجديد الأوضاع والسّير في ركب النّهضة، ولا يتمّ تجديد هذه الأوضاع إلّا بطريقتين: "الأولى: سلبية تفصلنا عن رواسب الماضي. والثانية: إيجابية تصلنا بالحياة الكريمة"³

سادساً: إعادة الاعتبار لأهميّة الأفكار: إنّ الأفكار تكوّن في مجموعها جزءاً هاماً من أدوات التطور في مجتمع معيّن، كما أنّ مختلف مراحل تطوره هي في الحقيقة أشكالاً متنوعة لحركة تطوره الفكري، فإذا كانت إحدى هذه المراحل تنطبق على مايسمّى بالنّهضة، فإنّ معنى هذا أنّ المجتمع في هذه المرحلة يتمتّع بنظام رائع من الأفكار، وإنّ هذا النظام يتيح لكلّ مشكلة من مشاكله الحيويّة حلاًّ مناسباً.⁴

¹ - نفس المرجع، ص112.

² - مالك بن نبي، شروط النّهضة، مرجع سابق، ص26.

³ - نفس المرجع، نفس الصفحة.

⁴ - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص13.

خلاصة الفصل :

من كل ما سبق نجد أنّ بن نبي قد تغطّن إلى أسباب تخلف المجتمع الجزائري وفي كافة النواحي الاقتصادية، السياسية، الثقافية، الفكرية والاجتماعية، بعدما لاحظ انتشار المرض الاجتماعي بين أفراد وفي كل أنظمتهم ومؤسّساته بل وصار اليوم مستحقلاً، وقد صنّف أعراضه إلى نوعين هما:

أعراض المرض النفسي-الاجتماعي وتشمل:

• القابلية للاستعمار - الفخر والمديح - الرومانسية.

أعراض المرض الاجتماعي الثقافي (سوسيو-ثقافي) وتشمل:

• الشّينية - الجدلية والتّبرير - اللفظية - الذرية - التّعالم - الاضطراب الفكري والسلوكي.

_ ووجد أنّ هذا المرض الاجتماعي يظهر في شكل تفكّك في العلاقات الاجتماعية، انعدام الفعالية الاجتماعية، بل يتحدّد المرض الاجتماعي بصفة عامّة في تفكّك شبكة العلاقات الاجتماعية باعتبارها الرّابط الأساسي بين كل الأفراد فتظهر الاختلالات والانقسامات التي تفقد المجتمع اللّحمة والاتّحاد، ومن ثمة تهتّر الفعالية الاجتماعية وتقفر المطالبة بالحقّ عن أداء الواجب.

ووجد أنّ تراجع تفعيل الدّين في حياة وسلوك الأفراد وحصره في الدّور التقليدي للإمام داخل المسجد (إمامة النّاس والخطبة) والوقوف عند الألفاظ بدل المعاني أضعف هذه العلاقات الاجتماعية وزاد من تمرّقها، ليظلّ عنده الدّين الاسلامي المركّب الأساسي بين عالم الأشخاص، عالم الأفكار وعالم الأشياء وإحداث التّغيير الاجتماعي.

أمّا المرض الثقافي مرتبط بالمرض الاجتماعي، فإذا كانت دلالات المرض الاجتماعي متمثلة في تفكّك العلاقات الاجتماعية، انعدام الفعالية وأسبقية الحقّ عن الواجب فإنّ هذه الدّلالات إذا مامت إحدى مركّبات الثقافة عند مالك بن نبي وهي: المبدأ الأخلاقي، المبدأ الجمالي، المنطق العملي، التّقنية (الصّناعة).

فانعدام فعالية الأشخاص متّصل بانعدام فعالية أفكارهم، فتظهر في طبيعة علاقاتهم الاجتماعية وأنماط سلوكهم باعتبار أنّه يضبطها الأخلاق والجمال.

الفصل الخامس:

التغيير الاجتماعي

والثقافي

محمد مالك بن نبي

تمهيد:

عرف مفهومى التّغيير الاجتماعي والثقافي اهتماما من طرف علماء الاجتماع والانثروبولوجيون، بل لديه العديد من المنظّرين، ويشير التّغيير الاجتماعي إلى ذلك التّحوّل أو انتقال الفرد أو المجتمع من حالة إلى حالة أخرى خلال فترة زمنية معيّنة ويمسّ التّغيير الاجتماعي النّظم والأنساق والأجهزة الاجتماعية. بينما يعدّ التّغيير الثقافي من بين أهمّ أنواع التّغيير حيث يمسّ عادات الأفراد وقيمهم واتّجاهاتهم.

وقد أولاه بن نبي مكانة مهمّة في تفسيره للحضارة، فكلّ عملية تغيير اجتماعي مرتبطة بالحضارة، وكلّ تغيير اجتماعي فيه جانب من التّغيير الثقافي.

- نسعى من خلال هذا الفصل والذي جاء تحت عنوان التّغيير الاجتماعي والتّغيير الثقافي عند مالك بن نبي إلى تناول إحدى أهمّ المشكلات الاجتماعية والتي ينظر إليها الكثير من الباحثين في علم الاجتماع على أنّها مقارنة قائمة بذاتها ألا وهي مقارنة التّغيير الاجتماعي وقد جاء هذا الفصل بناء على خطة هادفة.

- وقد احتوى هذا الفصل على المباحث التالية:

المبحث الأول: تناولنا فيه ماهية التّغيير الاجتماعي وأهمّ النّظريات المفسّرة له، وذلك لحصر وفهم التّغيير بكلّ دلالاته وأبعاده. وكذا معرفة أين يتموقع تنظير مالك بن نبي للتّغيير الاجتماعي ضمن مختلف النّظريات.

بينما المبحث الثاني حدّدنا فيه ماهيّة التّغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي موضحين مفهومه وتمييزه عن التّغيير الاجتماعي مبينين أهميّة التّغيير الاجتماعي معدّدين المراحل الثلاث للتّغيير الاجتماعي وهي: الرّوح -العقل -الغريزة.

كما حصرنا فيه مجالات التّغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي إذ تعدّ المجالات الثلاث: الإنسان، التّراب والزّمن لبّ نظرية هذا الأخير.

أمّا في المبحث الثالث: المعنون التّغيير الثقافي عند المفكّر مالك بن نبي عالجا فيه ماهيّة التّغيير الثقافي (مفهومه - عوامله - عوائقه) ثمّ تطرّقنا إلى مظاهر التّغيير الثقافي (التّمثيل الثقافي والتّكيف، التّكامل الثقافي، الصّراع الثقافي، الاتّصال) بعدها حدّدنا أهمّ عوامل التّغيير الاجتماعي والثقافي عند مالك بن نبي والمتمثلة في: الدّين -الحضارة -الثقافة-الايديولوجيا-شبكة العلاقات الاجتماعية. وأخيرا وضّحنا علاقة الانسان بالتّغيير الثقافي.

المبحث الأول: ماهية التّغيير الاجتماعي وأهمّ النظريات المفسّرة له.

المطلب الأول: التعريف السوسيولوجي للتّغيير الاجتماعي

- إنّ التّغيير الاجتماعي من الصّفات الأساسيّة للمجتمع الإنساني، يقع خلال فترة زمنيّة معيّنة أعلى فترات متقاربة أو متباعدة نسبياً، وهو عند البعض حالة انتقال للأفضل بينما عند آخرين حالة تراجع ونكوص.

- عرّفه عاطف غيث على أنّه "يشير إلى أوضاع جديدة تطرأ على البناء الاجتماعي، والنّظم، والعادات، وأدوات المجتمع نتيجة لتشريع أو قاعدة جديدة لضبط السلوك، أو كنتاج لتغيير إمّا في بناء فرعي معيّن أوجوانب الوجود الاجتماعي أو البيئة الطّبيعيّة أو الاجتماعيّة".¹

- ويعرّفه فريدريك معنوق: "التّغيير الاجتماعي هو مبدأ التّعديل الاجتماعي الفوري الذي يتكيّف من خلال النّظام الاجتماعي مع أي طارئ، أو أيّ جديد، بحيث يستوعب هذا الحدث ويتأقلم مباشرة معه".²

بينما يعرّفه (G.Rocher): بأنّه كلّ تحوّل ملحوظ في الزّمان يمسّ بكيفيّة غير مؤقتة البناء أو سيرا التّنظيم الاجتماعي لمجموعة معيّنة، ويوجّه مسارها التّاريخي.³

ويعتبر بارسونز أنّ التّغيير ينبع من التّحوّلات التي تحدث على مستوى النّسق القيمي الموجود في المجتمع، كما ميّز بين التّغيير الذي يحدث على مستوى البنية فيمسّ جوهر النّظام، والتّغيير في توازن النّظام الذي لا يغيّر من طبيعة النّظام الاجتماعي ولكن يسمح له بالتّكيّف مع أوضاع جديدة ويساهم في استمراريّته.⁴

ويعرّفه (لندربرج) بأنّه: ذلك التّحول الطّبيعي الذي يصيب أنماط العلاقات وأشكال السلوك السائد بين الأفراد بحيث يؤثّر في النّهاية على بناء المجتمع ووظائفه.⁵

¹ - عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، مرجع سابق، ص415.

² - Dr.Frederick Maatouk, Dictionary of sociology (English,French,Arabic) Academic, Beirut, Lebanon,1993, p303.

³ - Rocher Guy, Le changement social, édition H.M.N, Paris, 1972, p39.

⁴ - رشيد ميموني، مراد زعيمي وآخرون، علم الاجتماع من التّغريب إلى التّأصيل، دار المعرفة، الجزائر، 1996، ص172.

⁵ - محمود الكردي، التّخطيط للتنمية الاجتماعيّة، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1977، ص 10.

وفسر "بودون" حدوثه بما يلي: ينجم التغيير الاجتماعي دوماً سواء من حوادث مفاجئة، أو من تدخلات إرادية. في الحقيقة، إنّ عمليّات التغيير الأكثر تميّزاً هي من النوع الخارجي والداخلي معاً.¹

وقد اتخذت بعض العوامل الاجتماعية أسباباً محدّدة للتغيير مثل "نمو التجارة الدولية (مونتسكيو)، والتنظيم الاقتصادي للمجتمعات (ماركس)، والنظور العلمي والتقني (كونت)، أو الدين (فوستيل دي كولانج)²

كما عرّفه أحمد زكي بدوي: "كلّ تحوّل يقع في التنظيم الاجتماعي سواء في بنائه أو في وظائفه خلال فترة زمنية معيّنة، والتّغيير الاجتماعي على هذا النحو ينصب على كلّ تغيير يقع في التركيب السكاني للمجتمع، أو في بنائه الطبقي أو نظمه الاجتماعية، أو في أنماط العلاقات الاجتماعية أوفي القيم والمعايير التي تؤثر في سلوك الأفراد والتي تحدّد مكانتهم وأدوارهم في مختلف التنظيمات الاجتماعية التي ينتمون إليها.³

المطلب الثاني: أهمّ النظريّات المفسّرة للتغيير الاجتماعي أولاً : النظرية الدائرية (نظرية الدورة)

هي من أقدم نظريّات التغيير الاجتماعي المبنية على دورة الحياة والموت للكائن البشري ومحاولة إسقاطها وتطبيقها على حياة الدولة أو الحضارة باعتبار أنّ الدولة تمرّ بمراحل عمرية تبدأ بمرحلة الميلاد وتنتهي بمرحلة الموت، أو ما سماه دوب "باتجاهات التذبذب اللااتجاهي حيث تمرّ المجتمعات ارتفاعات وانخفاضات حضارية، ومراحل نمو ثمّ مراحل تدهور"⁴

- ومن روادها الذين عالجوا أسباب، مراحل وخصائص كلّ دورة تطرأ على الدّول والحضارات الإنسانية، وجعلوها ضمن نظريّات التغيير الاجتماعي هم: ابن خلدون في مؤلفه: مقدّمة ابن خلدون المعنون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، بيترى في كتابه (ثورة الحضارة) عام 1912، وأزوالد شبنجلر في كتابه (انهيار الحضارة

¹ - ر.بودون وف.بوريكو، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، تر سليم حداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1983، ص 172.

² - د. خليل أحمد خليل، المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع، دار الحداثة، بيروت، ط1، 1984، ص74.
³ - Dr A.Zaki. Badawi, Dictionary of social welfare and development, Dar Alkitab Al-masry, Cairo, Dar Alkitab Allubnani, Beirut, 1st edition, 1987, p231.

⁴ - اس.اس.دوب، التغيير الاجتماعي، تر: عبد الهادي الجوهري، د.أحمد النكلاوي، د.عواطف فيصل، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، ط1، 1998، ص 74.

الغربيّة) عام 1918، ارنولد توينبي في كتابه (دراسة التّاريخ) سنوات 1934-1939-1954،
بيتريم سوروكين في كتابه (الدّيناميكا والثّقافة) (1937-1941).

- ويرى محدّ الدّقس أنّ نظريّات الدّورة الاجتماعية تشمل على ثلاث نظريّات هي:

أ- النّظريّة الدّائريّة العامّة: الّتي ترى أنّ الثّقافة لأيّ مجتمع تمرّ في دائرة تبدأ بالميلاد وتسير
نحو النّضج والاكتمال ثمّ تتّجه إلى الشّيخوخة، ولتعود مرّة أخرى للرّقي والتّقدم، وتخلق لنفسها
ثقافة تستعيد مجدها وقوّتها.

ب- النّظريّة الدّائريّة الجزئيّة: الّتي تعنى بدراسة ظاهرة اجتماعية معيّنة في المجتمع لإثبات
أنّها تسير في اتجاه دائري، ومنتهية إلى النّقطة الّتي بدأت منها. فالملكيّة مثلاً بدأت بملكيّة القبيلة
للأراضي الزراعيّة وهي تعود الآن إلى ملكيّة الدّولة للأراضي الزراعيّة، ومشاريع الإنتاج، كما هو
سائد في المجتمعات الاشتراكيّة، ويمثّل هذا الاتّجاه المفكر شبنجلر.

ج- النّظريّة الدّائريّة اللّولبيّة: الّتي ترى أنّ الظّواهر الاجتماعية تسير على شكل دائري ولكن في
إطار لولبي بحيث لا تعود إلى النّقطة نفسها الّتي كانت قد بدأت منها، وإنّما إلى نقطة قريبة
منها. ويمثّل هذا الاتّجاه المفكر الإيطالي فيكو¹

وتشمل النّظريّة الدّائريّة للتّغيير الاجتماعي على عدّة نظريّات أهمّها:

1- نظريّة ابن خلدون: جاء في نظريّته عن الدّورة الحضاريّة "أنّ المجتمع والدّولة يمران بمراحل
معيّنة تبدأ بالميلاد وتسير إلى النّضج ثمّ تتّجه إلى الشّيخوخة، وتتّسم كلّ مرحلة بصفات معيّنة
تطبعها بطابع خاص يفرّقها عن سواها من المراحل"² فمن خلال دراسته التّحليلية للدّولة من نشأتها،
فازدهارها ثم انهيارها توصل أنّها تمرّ بعدّة أطوار ولكلّ طور خصائص وأدوار. وأكّد على تلازم
مفهومي الدّولة والعمران "فالدّولة دون العمران لا تتصوّر، والعمران دون الدّولة متعذّر"³ وقد قسّم
ابن خلدون الدّولة إلى أطوار شَبَّها بالأطوار الّتي يمرّ بها الكائن البشري "فاعتبر مرحلة النّشأة
والتّكوين في جسم الإنسان تقابلها المرحلة الأولى في الدّولة، تلك المرحلة الّتي تقوم على العصبيّة
سواء أكانت عصبيّة الدّين أم عصبيّة الدّم، كما اعتبر مرحلة النّضج والرّجولة في جسم الإنسان
مقابلة للمرحلة الثّانية في الدّولة حيث الانفراد بالمجد والسّلطان، واعتبر مرحلة الشّيخوخة والهرم في

¹ - د. محدّ الدّقس، مرجع سابق، ص 88.

² - نورة خالد السعد، مرجع سابق، ص 79.

³ - نفس المرجع، نفس الصفحة.

جسم الإنسان مقابل للمرحلة الثالثة في الدولة حيث الركون إلى السكون والدعة والاستمتاع بثمرات الملك والانغماس في الحضارة.¹

ولقد شبه أعمار الدول بأعمار الأشخاص وأن كل طور من أطوار (الميلاد والنضج والاضمحلال) يستغرق أربعين سنة، وقد يمتد عمر الدولة في حركتها الحضارية إلى مائة وعشرين سنة.²

ويقول ابن خلدون في ذلك "إلا أن الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال. والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط، فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته.³ قياساً على قوله قال الله تعالى: "حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً." سورة الأحقاف، الآية 15.

ويؤكد ابن خلدون أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص، مخصصاً لها الفصل الرابع عشر من مقدمته. وبعدها حدّد عمر الدولة بمائة وعشرين سنة قسم هذه الفترة إلى أربعة أجيال هي:

- **الجيل الأول:** جيل البداوة والخشونة والتّوحش والبسالة والاشتراك في المجد فلا تزال بذلك صورة العصبية محفوظة فيهم وحدهم، فحدّهم مرهف، وجانهم مرهوب، والناس لهم مغلوبون. وهم الجيل الذي يؤسس للدولة.

- **الجيل الثاني:** تحوّل حالهم بالملك والتّرف من البداوة إلى الحضارة ومن الشّطف إلى التّرف والخصب ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به وكسل الباقيين عن السّعي فيه، وعن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة فتتكسر صورة العصبية بعض الشيء وتؤنس منهم المهانة والخضوع...

- **الجيل الثالث:** ينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم يكن، ويفقدون حلاوة العزّة والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر، ويبلغ فيهم التّرف غايته بما انغمسوا فيه من النّعيم ونضارة العيش، وتحوّل الأمجاد لديه إلى مظاهر... وهم في أكثر الأحيان أجبن من النساء...

- **الجيل الرابع:** على يدهم تهزم الدولة وتتهار، وفي هذا الجيل ينقرض الحسب وتتلاشى العصبية تماماً، حتّى عصبية الولاء أو الرّق.

والواقع أن هذه الأجيال الأربعة ماهي إلا ثلاثة في الحقيقة، حتّى تستمرّ الدولة، أمّا الجيل الرابع فلا حياة ولا بقاء¹ وأساس الملك وقيام الدولة عنده هما العصبية والدين، فإذا كانا قويّان قويّت

¹ - نورة خالد السعد، مرجع سابق، ص 80.

² - نورة خالد السعد، مرجع سابق، ص 80.

³ - ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي

السلطان الأكبر، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1424هـ-2004م، ص 171.

الدولة وازدهرت بينما إذا تراجعاً وضعفاً ضعفت الدولة وآلت للسقوط والانهايار. فالعصبية عند ابن خلدون هي "النّعة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة"² والعصبية هي نزعة طبيعية في البشر "تؤدّي إلى الاتحاد والالتحام، بين أفراد النّسب الواحد لأنها تحملهم على التعاضد والتناصر تستلزم استماتة كل واحد منهم دون صاحبه"³ وفي فصل "أنّ الدّعوة الدّينية تزيد الدّولة في أصلها قوّة على قوّة العصبية" من المقدّمة يؤكّد أنّ "الصّبغة الدّينية تذهب بالتّنافس والتّحاسد الذين في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحقّ، كما أنّ الدّعوة الدّينية من غير عصبية لا تتمّ"⁴ ويرى ابن خلدون "أنّ التّغير يحدث ببطء بالغ في حركة المجتمعات، وملاحظة ذلك التّغير وإدراكه مقصوران على قلة قليلة من النّاس، وأنّ ظروف النّاس وطرائق معيشتهم، وأحوالهم السّياسيّة لا تبقى على وتيرة واحدة."⁵

2- نظرية جيوفاني باتيستا فيكو: Giovanni Battista Vico

يعتبر من أوائل المنظرين لتطور المجتمعات من خلال دراستها تاريخياً وفهم ما يطرأ عليها من تغيّرات، إذ يعتبر صاحب نظرية التّقدم الدّائري اللّولبي. فيشير أن التّطور الاجتماعي لا يسير في خط مستقيم، أو على شكل دورات مغلقة ينتهي فيها التّاريخ إلى نفس النّقطة التي بدأ منها، وإنّما يسير في شكل لولبي بحيث كلّ دورة تعلو الدّورة السّابقة وتكون أنصح منها ثقافياً وفق قانون النّكوص (La loi de la régression) قد صاغ قانوناً عاماً لتطوّر المجتمعات الإنسانيّة.⁶ وبعد معالجته لتاريخ تطوّر المجتمعات توصل فيكو إلى تقسيمها إلى ثلاث مراحل متعاقبة هي:

- المرحلة الدّينية: وتتميّز بالطّبيعة التّأليهيّة للأشياء، وأنّ كلّ فعل أو قول مستمدّ من الآلهة، فالحكم مستمدّ من الدّين والنّظم بتكوينها تعتمد على الدّين، وكذلك اللّغة لها مدلولات غيبية، أي أنّ حياة المجتمع في هذه المرحلة تعتمد اعتماداً كلياً على مقولات دينيّة في مجالاتها المختلفة.
- مرحلة البطولة: وتبدو في تعظيم الشّرف، والمغامرة، وظهور الارستقراطيّة السّياسيّة، والحقّ فيها للأقوى، وتتمثّل في سيادة الأسرة الأبوية الممتدة عند الرّومان حيث كان رب الأسرة مطلق الحرية في التّصرف في أعضاء أسرته، وقد ازدهرت في هذه المرحلة: الآداب والفنون والفلسفة.

¹ - نورة خالد السعد، مرجع سابق، ص ص 81-82.

² - ابن خلدون، مرجع سابق، ص 132.

³ - د. سليمان الخطيب، مرجع سابق، ص 55.

⁴ - ابن خلدون، مرجع سابق، ص ص 159، 160.

⁵ - نفس المرجع، ص 60.

⁶ - د. محمد الدّقس، مرجع سابق، ص 97.

- مرحلة الإنسانيّة: وتتميّز بالحرية السياسيّة، والمساواة، وسيادة الحقوق المدنيّة، وانتشار الأنظمة الديمقراطيّة.¹

3- نظرية ازوالد شبنجلر Oswald Spengler

- يذهب ازوالد شبنجلر إلى تشبيه الدّورة الحضاريّة للأمم بدورة الحياة للكائن البشري من طفولة وشباب ونضج ثمّ شيخوخة، من خلال دراسة وتتبع تاريخ المجتمعات في العالم.

- ويميّز شبنجلر بين ثماني حضارات كبرى، وهي: المصريّة، واليابانيّة، والهنديّة، والصينيّة، والمكسيكيّة، واليونانيّة الكلاسيكيّة، والعربيّة، والغربيّة²

- ويرى أن الحضارة تمر بمراحل دائرية في تطورها من ولادة، ونضوج وموت، تماماً كما يمرّ الإنسان بهذه المراحل، لكن بينما يمتدّ عمر الإنسان ليصل مائة سنة على أكبر تقدير³ نجده يحدّد عمر كلّ حضارة بألف عام، كما أنّ لكلّ حضارة رمزا معينا وقيما خلقيّة خاصة بها لأنّها صادرة عن روحها الخاصّة، ويرى أنه: "ليست هناك أخلاق إنسانيّة عامّة، وإنّما لكلّ حضارة طرازها في الفن، هذه الأخلاق الصادرة عنها صادقة دائماً في داخل إطار هذه الحضارة، أمّا خارج هذا الإطار فإنّها باطلة دائماً، والفلسفة كالأخلاق تابعة لروح الحضارة التي تنشأ فيها"⁴

- وتتميّز الحضارات فيما بينها "لا يمكن أن تكون ثمّة حضارتان متماثلتان كلّ التّماثل، وذلك لأنّ تاريخ كلّ حضارة هو تاريخ مستقلّ وقائم بذاته ولا يتأثّر بتاريخ أيّ حضارة غير حضارته،... كما أنّ لكلّ حضارة عناصر خاصّة بها وأخرى غريبة عنها، وأنّ هذه العناصر الخاصّة والغربيّة تحدّد النّفس الأوليّة لكلّ حضارة، ولذلك يعتقد شبنجلر بأنّه لمن المستحيل على فرد أو أفراد ينتمون إلى إحدى الحضارات أن يفهموا فهما صحيحا حضارة أخرى غير حضارتهم، وذلك بسبب العناصر الغربيّة عنهم، وهذه العناصر التي تتشكّل منها الحضارة الأخرى"⁵

- وشبّه شبنجلر المراحل الأربع للحضارة بالفصول الأربعة للسّنة مبيّناً أنّ لكلّ مرحلة خصائص ومميّزات تشبه خصائص ومميّزات كلّ فصل وما ي صاحبها من تغيّرات تطرأ على الطبيعة، وهذا ما

¹ - نفس المرجع، ص 98.

² - د.مجد الدين عمر، خيرى خمّش، علم الاجتماع: الموضوع والمنهج، دار مجدلاوي، عمان، الأردن، ط3، 2005، ص 212.

³ - نفس المرجع، ص 211.

⁴ - نورة خالد السّعد، مرجع سابق، ص 85.

⁵ - د.نورة خالد السّعد، مرجع سابق، ص ص 85، 86.

لاحظه عند دراسته للحضارات السّت (المصريّة -الهنديّة -الصّينيّة -والكلاسيكية والعربيّة، والغربيّة)

● فصل الرّبيع: الذي يعد فترة البطولة، حيث التّغني بالبطولة كما في شعر الملاحم والأساطير...

● فصل الصيف: فيتّصف بظهور القيادات المتوثّبة الطّموح، إنها فترة ظهور وازدهار دولة المدنيّة...

● فصل الخريف: ويمثّل الخريف مرحلة النّضج الكامل للينابيع الروحية الثقافيّة والبوادر الأولى للشّيوخوخة والإرهاق، وفيها الملكيات المركزة والفلسفة التي تتحدّى الدّين والقيم السّائدة باسم التّنوير...

● فصل الشّتاء: ويتمثّل الانتقال إلى الشّتاء حين يتّخذ الفن طابعاً غامضاً سرّياً، وحين تتخذ الفلسفة طابع الشّكّ واللاإرادية، ويسود في السّياسة عصر الإمبراطوريّات والاستعمار والطّغيان والسّياسيين، في الشّتاء تفقد الحضارة روحها المبدعة، وتصبح مجرد مدنيّة يتجلّى أفضل ما تقدّمه في تطبيق العلم على الصّناعة.¹

- ومن هذه المراحل نجد أنّه عندما يتراجع الدّين تطغى الفلسفة على النّفوس والعلم على الصّناعة، وتترجع العناصر الروحية والثقافيّة التي أسست لقيام الحضارة، فتنهار هذه الحضارة.

4- نظرية التّحدي والاستجابة Challenge and pesponse جون أرنولد توينبي J.ARNOLD TOYNBEE

قدّم "توينبي" تفسيراً ضخماً للحضارة يلعب فيه العامل الجغرافي دوراً أساسياً، دونه في موسوعته التاريخيّة "دراسة التّاريخ" من عشر مجلّات، ويدخل توينبي هذا العامل ضمن مذهبه الذي يدعوه (بالّتحدي Léfi)، "وهو المذهب الذي يفسر الحضارة ك(رد) معيّن يقوم به أحد الشّعوب لمواجهة ل(تحدّي) معيّن. والطّبيعة بالخصوص -أي الجغرافيا- هي التي تقوم بهذا (التّحدي)، وحسب مستوى التّحدي وفعالية (الرّد) عليه من طرف الشّعوب المواجهة به، فإنّ حضارتها تكون بين احتمالات ثلاثة: فهي إمّا أن تقوم بوثبة إلى الأمام، وإمّا تصاب بالتّوقف والجمود، وإمّا أن يلقّها الفناء بردائه"²، فالظّروف الجغرافيّة والطّبيعيّة تضطرّ الإنسان إلى التّحرك والتّفاعل والتّكيف معها. فأساس النّظريّة التّطوريّة للحضارات عنده هو التّحدي الذي تقوم به المجتمعات والجماعات اتّجاه الطّبيعة.

¹ - د. سليمان الخطيب، مرجع سابق، ص64.

² - نفس المرجع، ص72.

- ولقد قام "توينبي" بدوره بصياغة نظرية للنمو والانحلال الحضاري بشكل دائري مثل شبنجلر. فهو يرى أن الاستجابات الناجحة للتحديات تنتج عنها عناصر النمو، وتستمر الحضارات في النمو طالما استمرت أقليّاتها المختارة في استجابتها الخلافة المتكافئة مع التحديات الجديدة.¹
- وقد انطلق توينبي من مبدأ رئيسي هو أن التاريخ عبارة عن وحدات كلّ منها تشكّل مجالا للدراسة ودعا هذه الوحدات (الحضارة) وتوصل إلى إحدى وعشرين حضارة رأى أن الذي بقي منها خمس حضارات هي: الحضارة المسيحية الغربية، المسيحية الشرقية، الإسلامية، الهندية وحضارة الشرق الأقصى. أما ما عدا فقد اندثر.² وهو يعتقد أن الحضارات تظهر في زمن معيّن وفي مكان معيّن، ثم تنمو وتزدهر في ظروف معيّنة ويقود هذا النمو في النهاية إلى حالة إخفاق، يليها حالة أفول وتدهور.³
- ومن خلال نظرية التحدي "كان توينبي يرى أن الدافع الحيوي إلى نشوء الحضارات الست هو اصطراع السلالات البشرية المستوطنة مع عوامل التحدي للجغرافية"⁴
- وكلما استمرت أقليّات المجتمع في مواجهة العامل الجغرافي وتحديّه المتواصل استمرّ نمو هذه الحضارة وتبدأ عملية الانحلال الحضاري "حين تفقد هذه الأقليّات ديناميتها ولا تستطيع أن تستجيب بشكل خلاق للتحديات الجديدة. وتقوم السوابق الحضارية بتحديد مستواها فالسوابق المنبثقة من حضارات قديمة تكون بعد انحلالها أعلى مستوى من تلك التي جاءت من مجتمعات بدائية، وذلك لاختلاف إمكاناتها الكامنة من نواحي كثيرة"⁵ وفقدان الديناميكية يسبب عدم الاستجابة السليمة للتحديات وهذا ما يفسّر بداية الانحلال الحضاري الذي يؤدي إلى الانهيار والسقوط الكامل للحضارة.

ثانياً: النظرية التطورية

يمثلها أنصار الدارونية الاجتماعية "ويتّبع هؤلاء الرواد مسار التطور الاجتماعي للإنسان ويقسمونه إلى مراحل محدّدة مسجّلين صور النّقد المتزايدة التي حقّقها الإنسان"⁶ وإذا كانت قد

¹ - اس.اس.دوب، مرجع سابق، ص76.

² - نورة خالد السعد، مرجع سابق، ص 87.

³ - نفس المرجع، ص ص 87-88.

⁴ - نفس المرجع، ص88.

⁵ - اس.اس.دوب، مرجع سابق، ص76.

⁶ - اس.اس.دوب، مرجع سابق، ص ص 73، 74.

انطلقت هذه النّظرية من التّفكير الانثروبولوجي إلى أنّها سرعان ما تبنت العلوم الاجتماعية الأخرى فكرة التّتابع التّطوري.

"تقوم نظرية التّقدّم الاجتماعي في نظرتها إلى التّغير الاجتماعي على أنّه يسير في خط متصاعد"¹ أي يكون هذا التّغير باتجاه واحد ارتقائي تصاعدي "ويسير المجتمع وفق مراحل محدّدة، وكلّ مرحلة جديدة يصلها المجتمع تكون أفضل من سابقتها، فالمجتمعات في تقدّم باستمرار"² يمثّل هذا الاتجاه: جان جاك روسو، وكندرسه، وأوغست كونت (A.Compte) وسبنسر (Spencer)

1- نظرية جان جاك روسو (J.J Rousseau) (1712-1778) اشتمل كتابه "العقد الاجتماعي (Contrat –social) "أهم أفكاره عن التّقدّم الاجتماعي وضمّنه مراحل تطوّر الحياة الإنسانية. المرحلة الأولى: وهي مرحلة الحياة النّظرية التي كان الإنسان فيها خاضعا للنّظام الطّبيعي، ومتمتعا بحريّة تامّة.

المرحلة الثّانية: وهي مرحلة الملكية الفرديّة الإنتاج اليدوي في مجال الزراعة ممّا دعا الإنسان للاستقرار وتشكيل أسرة فأخذت العادات والتّقاليد الاجتماعيّة في التّبلور"³ وأخذها صفة الجبر والإلزام.

المرحلة الثّالثة: "هي مرحلة عدم المساواة، وفيها زاد التّنافس والصّراع بين الأفراد والجماعات وأصبحت السّيطرة للأقوى، وقد دعا هذا التّضارب في المصالح إلى التّفكير في التّعاقد وتكوين مجتمع سياسي خاضعا لسلطة عليا-الدّولة.

المرحلة الرابعة: وهي المرحلة التّعاقدية: لقد تمّ فيها التّعاقد بين الأفراد وقيام التّنظيم السياسي المنظم، واختيار حاكم يحكم بإرادتهم."⁴

2- نظرية أنطونيان كوندرسه (1743-1794): Antonine Comdorcet كان كتابه (شكل تاريخي لتقدّم العقل البشري) عام 1774م شرح لمسيرة تقدم البشرية من منظوره "موضّحا تقدّم الإنسان في خط مستقيم صاعد نحو الأفضل والكمال، من خلال مراحل محدّدة، ويعتقد أنّ النّقاثة والتّربية والتّعليم هي القاعدة الأساسيّة في تحقيق التّقدّم والنّهوض بالمجتمع مع الاهتمام بدراسة

¹ - د. محمد الدّقس، التّغير الاجتماعي بين النّظرية والتّطبيق، دار مجدلاوي، عمان، الأردن، ط2، 1996، ص76.

² - نفس المرجع، نفس الصفحة.

³ - نفس المرجع، ص ص 76-77.

⁴ - نفس المرجع، ص77.

المواضيع الأخلاقية والطّبيعية¹ وعمد كوندرسه إلى تقسيم تاريخ الحضارة إلى عشر مراحل هي كمايلي:

- 1- المرحلة الطّبيعية
- 2- مرحلة الرّعي واستئناس الحيوان
- 3- مرحلة الرّراعة
- 4- مرحلة الحضارة اليونانية وقد ظهرت فيها المدينة كوحدة سياسية
- 5- مرحلة الحضارة الرومانية : ظهرت فيها فكرة الإمبراطورية
- 6- مرحلة العصور الوسطى المسيحية: تبدأ من انهيار الإمبراطورية الرومانية عام 476م إلى قيام الحروب الصليبية وبين فيها حدّة الصراع بين السّلطتين (الرّمنية-الدّينية)
- 7- مرحلة الإقطاع: النصف الثّاني من العصور الوسطى
- 8- مرحلة اختراع الطّباعة: 15ق -17ق، وقد تميّزت هذه المرحلة بالنهضة الفكرية نتيجة لاختراع الطّباعة وانتشار الكتب.
- 9- مرحلة الثّورة الفرنسيّة: ويعتبرها كوندرسه عصر الحرية وإعلان حقوق الإنسان، واستحداث أساليب جديدة في الشّؤون الإنسانية والنّظم الاجتماعية.
- 10- مرحلة الآمال أو مستقبل الإنسانية: ويستدلّ عليها كوندرسه من دراسة الماضي والحاضر للإنسانية، لهذا يمكن التّنبؤ بما ستؤول إليه هذه الإنسانية، ويتحقّق تطوّر وارتقاء ذاتي للفرد وتعمّ فيها المساواة بين الأمم.²
- 3- نظرية التّقدّم الاجتماعي عند أوغست كونت (August Comte): 1857-1779:
وتفسّر نظرية كونت التّغيير الاجتماعي بأنّه محصلة النّمو الفكري للإنسان، وقد صاغها في قانون المراحل الثّلاث بأنّها الارتقاء من أساليب الفكر اللاهوتي الدّيني إلى الأسلوب الميتافيزيقي للفكر الذي يمثّله العلم الحديث³. ومن خلال دراسته للديناميكا الاجتماعية (التّغيير الاجتماعي) والستاتيكا الاجتماعية (البناء الاجتماعي) توصل إلى قانون الحالات الثّلاث (La loi des trois états يرى أنّ المجتمع يمر بالمراحل الثّلاثة:

¹ - نفس المرجع، ص 78.

² - نفس المرجع، ص ص 79-80.

³ - د. محمد علي محمد وآخرون، دراسات في التّغيير الاجتماعي، دار الكتب الجامعية، إسكندرية، مصر، ب.ت، ص48.

"1- المرحلة الدّينية الحربيّة: الّتي تعتمد في ثقافتها على الخوارق والعمليات الحربيّة في تحقيق أهدافها.

2- المرحلة الميتافيزيقية والقضائيّة: وهي مرحلة انتقال بين الأولى والثالثة.

3- المرحلة العلمية والصنّاعيّة: حيث استبدل فيها التّفكير الدّيني بالمادّي وأصبح التّنظيم الاجتماعي يعتمد فيها على الإنتاج الاقتصادي السّلمي وليس على الحروب لتحقيق أهدافها. ويتّضح من كتابات كونت أنّه يؤمن بأنّ المجتمعات تمرّ بنفس مراحل التّطور اتّجاه الكمال.¹ ويقسم أوغست كونت التّطور الارتقائي المتصاعد للإنسانية إلى قسمين:

• الحالة الاجتماعيّة

• الطّبيعة البشريّة

بالنسبة للحالة الاجتماعيّة "فهي في تحسّن مستمر، وذلك بفضل ما تستطيع كشفه من قوانين الظواهر الاجتماعيّة، فكلّما توصلنا إلى قانون علمي أمكننا بفضل ذلك السّيطرة على طائفة من الظواهر الّتي تخضع له، وبذلك يزداد تحكم الإنسان في مجمل الحياة الاجتماعيّة والطّبيعيّة، ويستطيع التنبؤ بسير الظواهر.² وأمّا من جهة الطّبيعة البشريّة فقد مسّ التّطور النّواحي: الطّبيعيّة، العقليّة والأخلاقيّة. فمن النّاحية الطّبيعيّة فإنّ تقدّم علم البيولوجيا أدّى إلى التّقدم في العلم، وهذا بدوره أدّى إلى زيادة متوسط عمر الإنسان وارتقاء مستويات الصّحة العامّة. وفي النّاحية العقليّة: زادت القدرات الخاصّة للإنسان، واتّسعت مداركه، وارتقى متوسط الذّكاء العام لدى الأفراد. ومن النّاحية الأخلاقيّة: سمت المشاركات الوجدانية، والمقاييس الجمالية والدّوقية وكذلك المعايير المتّصلة بالآداب والعلاقات العامّة.³

ثالثا: النظريّة الوظيفيّة:

"وترى الوظيفية أنّ التّغيير يحدث نتيجة لعاملين أساسيين: الأول -عوامل داخلية: أي داخل النّسق ناتجة عن الاختلافات الفردية... والثاني - عوامل خارجية: حيث تستطيع القوى الخارجيّة غرس

¹ - اس. اس. دوب، مرجع سابق، ص 71.

² - د. محمد الدّقس، مرجع سابق، ص 83.

³ - نفس المرجع، ص 84.

أفكار جديدة من خلال محاصرتها للناس، أو المنافسة مع جماعات أخرى للسيطرة على الأرض والموارد، أو أزمة الحرب"¹

1- نظرية القدرة على التكيف **Adaptive capacity** تالكوت بارسونز **Talcott Parsons** : "لقد نظر بارسونز إلى المجتمع من منظور أكثر اتساعاً هو منظور النسق الاجتماعي الذي يشتمل في داخله على أنساق اجتماعية فرعية... لكل منها أربعة وظائف أساسية هي التكيف وتحقيق الهدف والتكامل والمحافظة على النسق. وإنما في ضوء التفاعل القائم بينها وبين النسق الأكبر"² وأن هناك خصائص وسمات مشتركة بين النسق الأكبر والأنساق الفرعية إلا أن لهذه الأخيرة درجة من الاستقلال النسبي فيما بينها "ويرى بارسونز أن كل نظام يتألف من أجزاء ترتبط بعضها كنظام الأسرة المؤلف من وحدات تقوم بوظائف محددة، تؤدي في النهاية إلى تكامل النظام الكلي، فمفهوم الثبات لدى بارسونز مرادف لمفهوم التوازن المستقر، الذي يمكن أن يكون ثابتاً أو متغيراً. واستقرار النظام يأتي من توازن العلاقة بين تركيبه والعمليات التي تجري في محيطه من أجل الإبقاء على خصائص العلاقات البنوية فيه"³ فيرى "التوازن هو أعلى صورة من صور التكامل والنظام داخل النسق ولكن ذلك لا ينفي وجود اتجاهات تؤدي إلى الانحراف عن التوازن منها أولاً دخول أعضاء جدد إلى داخل النسق، ثانياً: وجود اتجاهات منحرفة، ثالثاً: سعي الأفراد لتحقيق إشباع أكبر من الإشباع الذي يسمح به النسق، رابعاً: الخلل الذي يحدث في عملية التطبيع الاجتماعي، خامساً: أوتطور النسق بدرجة تفوق درجة تقدم العنصر ثقافي والعكس.

- وينظر بارسونز إلى مظاهر عدم التكامل داخل النسق باعتبارها انحرافات عن الأطر والمعايير القائمة ومن ثمة يجب أن يواجهها النسق بعمليات ضبط تعيد التوازن. تلك العمليات التي تتمثل في عاملين أساسيين هما: التنشئة الاجتماعية والضبط الاجتماعي."⁴

- فعبر عملية التنشئة الاجتماعية التي يتلقاها الفرد، وكذا مختلف وسائل الضبط التي يخضع لها يتحقق اندماج هذا الفرد في المجتمع "فالتنشئة الاجتماعية تعمل على نقل القيم والثقافة

¹ - د. مريم أحمد مصطفى وآخرون، التغيير ودراسة المستقبل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر 2002، ص 105.

² - نفس المرجع، ص 106.

³ - د. محمد الدقس، مرجع سابق، ص 173.

⁴ - د. محمد عاطف غيث، الموقف النظري في علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1977، ص 123.

والمعتقدات والرموز السائدة في المجتمع إلى الفرد¹ فتساهم في تحقيق التكيف مع النسق الاجتماعي "ويتعزز هذا التماثل أكثر بواسطة أداة الضبط الاجتماعي التي هي بمثابة وسائل تماثل خارجية تجعل الفرد أكثر قدرة على التكيف"²

- وتحدث عملية التغيير حينما يعجز النظام عن تلبية متطلبات الوحدات فيه. أي حينما تكون المؤسسات غير قادرة على تلبية متطلبات وحداته... فتدخل متغيرات عديدة كالتغيير في القيم، وأنماط السلوك الأخرى مما يؤدي إلى إعادة البناء من جديد، أي إعادة التوازن والاستقرار إلى النظام. وفي هذا المعنى يقول بارسونز عن مبدأ التوازن المستقر: يقوم على التكامل بين المتغيرات الداخلية وبنية النسق الرئيسية مع المحافظة على الانسجام بين العناصر القابلة للتكيف والعلاقات المتغيرة بين وحدات النسق الاجتماعي³

2- نظرية التوافق التكيفي Adaptive adjustment نيل سمسler Neil Smisler: استعان بمقومات النسق الاجتماعي والتمايز البنائي في النظر إلى المشكلة على أنها تتعلق بعمليات التوافق التكيفي إذ يعمل النسق الاجتماعي على تحقيق التوافق أو التكيف بنفسه لكي تعيد بناء حالة التوازن ومن هنا يتغلب على أي شدة أوتوتر يعمل على اضطراب ميله نحو الثبات والتكامل.⁴

"وقد تنبّه سمسler إلى حقيقة اختلاف النتائج الاجتماعية لدى المجتمعات أي أنّ ناتج العمليات السابقة ليست واحدة، وإنما تختلف من ناحية إلى أخرى، ومن مجتمع إلى آخر، وهي تؤثر من ناحية عامة على البناء الاجتماعي مؤدية إلى تغييرات بنائية تبدو في المظاهر التالية:

1. التمايز البنائي: وهو يتضمن قيام وحدات اجتماعية متخصصة ومستقلة في العائلة والاقتصاد والدين والتكوين الطبقي...
2. التكامل البنائي: أي تكامل النشاطات المتميزة التي جاءت نتيجة لتقسيم العمل والتخصّص الدقيق، حيث تعود إلى التكامل بعد التجزئة، فالأجزاء ترتبط ببعضها في عملية تكاملية.

¹ - عامر مصباح، علم الاجتماع؛ الزوايد والنظريات، دار الأمة، الجزائر، 2004، ص 119.

² - نفس المرجع، نفس الصفحة.

³ - نفس المرجع، ص 174.

⁴ - د. علي عبد الرزاق جليبي، الاتجاهات الأساسية في نظرية علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، د.ت، ص 22.

3. الاضطرابات الاجتماعية: وتحدث حين ينقطع التمايز والتكامل، مثال ذلك هيستيريا الجماهير، وانتشار العنف، والحركات الدينية، والسياسة المتعصبة... وهي تعبير عن المسار غير السوي.¹ ويؤكد على أهمية دور القيم "إن نسق القيم هو المصدر الأول بالنسبة لتقييم التغيير البنائي المحتمل في المجتمع ذلك لأن نسق القيم هو الذي يوفر المعايير المتعلقة بالموافقة على الترتيبات الجديدة والتوقعات وإكسابها طابع الشرعية. وهكذا فإن نسق القيم يحدد اتجاهات ودرجات التغيير.² ويرى أن التغيير داخل الأنساق لا يكون إلا هادئاً وتدرجياً وبطيئاً وقلماً يكون سريعاً جذرياً وفجائياً "إن القيم يمكن أن تتغير غير أن تغييرها عموماً يكون بطيئاً بالمقارنة بتغيير البناء الاجتماعي."³

رابعاً: النظرية الاقتصادية:

- قامت النظرية الاقتصادية على العوامل الاقتصادية، ومدى تأثيرها على كافة نواحي الحياة الإنسانية السياسية والاجتماعية والثقافية...، وتمثلها النظرية الماركسية "وهي تتبنى مقولة الحتمية الاقتصادية (Déterminisme économique) التي ترى أن العامل الاقتصادي هو المحدد الأساسي لبناء المجتمع وتطوره، وهذا العامل يتكون أساساً من الوسائل التكنولوجية، ويحدد التنظيم الاجتماعي للإنتاج الذي يعني العلاقات التي ينبغي على الناس الدخول فيها، وتتم العلاقات المستقلة عن الإرادة الإنسانية"⁴

- وتعتبر الماركسية أن الدوافع الرئيسية للتغيير كامنة في الأبنية الاقتصادية الدنيا التي تتكون من قوى الإنتاج وعلاقاته. "وتؤدي هذه التغييرات إلى وقوع تغييرات مماثلة في البناءات العليا التي تتكون من الأنساق السياسية والقضائية والدينية. ويحاول البناء الفوقي في أول الأمر إبقاء البناء التحتي كما هو ليظل هو كما هو. بيد أن تعشي التناقضات في البناء التحتي بسبب التطورات التكنولوجية وغيرها من العوامل الأخرى لابد أن يؤدي إلى تغيير النظام ككل. وهكذا فإن النظام الاجتماعي يتغير بتغيير قوى وعلاقات الإنتاج"⁵

وتفسر المدرسة الماركسية التغيير الاجتماعي كما يلي "يقابل كل مرحلة معينة من مراحل تطور القوى المنتجة أسلوب معين في الإنتاج ونسق معين، تعمل الطبقة المسيطرة على تثبيته للعلاقات

1 - د. محمد الدقس، مرجع سابق، ص 190، 191.

2 - د. علي عبد الرزاق جلبي، الاتجاهات الأساسية في نظرية علم الاجتماع، مرجع سابق، ص 22.

3 - نفس المرجع، ص 23.

4 - د. محمد الدقس، مرجع سابق، ص 137.

5 - اس.اس.دوب، مرجع سابق، ص 78.

الطبقيّة وتدعيمه. غير أنّ التطّور المستمر في القوى المنتجة يغيّر في العلاقات بين الطبقات، وكذلك في ظروف الصّراع الدّائر بينها. وفي الوقت المناسب تصبح الطبقة التي كانت مسودة في ذلك الحين قادرة على الإطاحة بأسلوب الإنتاج القائم وينسق العلاقات الاجتماعية، وعلى إقامة نظام اجتماعي جديد¹

- وترى هذه المدرسة "أنّ تأخّر علاقات الإنتاج عن اللّحاق بتقدّم قوى الإنتاج لا يمكن أن يستمرّ طويلا، ومهما كانت الإجراءات التي تتخذها الطبقات التي تمثّل علاقات الإنتاج القديمة ويتمّ ذلك بتغيير ملكية وسائل الإنتاج، وإقامة نظام ملكيّة جديد أي إقامة علاقات جديدة للإنتاج"²، فالترابط بين العلاقات الإنتاجيّة والعلاقات الاجتماعيّة يساهم في التّغيير الاجتماعي كمايلي "إنّ العلاقة الإنتاجيّة في المجتمع تتركّز في توزيع أعضاء المجتمع من حيث العلاقة بملكيّة وسائل الإنتاج الماديّة. فعلى ضوء الملكيّة الخاصّة ينقسم المجتمع إلى طبقات مالكة وأخرى عاملة وذلك حسب الأدوار والمراكز الاجتماعيّة التي يحصلون عليها بالفعل³. وبالتالي معنى التّغيير في فكر ماركس أن يؤدّي التّغيير في البناء الاقتصادي إلى التّغيير الاجتماعي ككلّ من حيث الطبقات، والأدوار والمراكز.

"إنّ النّاس في أثناء الإنتاج الاجتماعي لحياتهم، يقيمون فيما بينهم علاقات معيّنة ضرورية، مستقلة عن إرادتهم، وتطابق علاقات الإنتاج هذه درجة معيّنة من تطور قواهم المنتجة المادية، ومن مجموع علاقات الإنتاج هذه يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع، أي الأساس الواقعي الذي يقوم عليه بناء حقوقي- قانوني- وسياسي، وتطابق أشكال معيّنة من الوعي الاجتماعي. إنّ أسلوب إنتاج الحياة المادية يشترط تفاعل الحياة الاجتماعي والسياسي والفكري بصورة عامّة. فليس إدراك النّاس هو الذي يعين معيشتهم بل على العكس من ذلك، معيشتهم الاجتماعيّة هي التي تعين إدراكهم"⁴

خامسا: النّظرية التّكنولوجيّة:

إذا كانت التّكنولوجيا تعرّف بأنّها الوسائل التّقنيّة التي يستخدمها النّاس في وقت معيّن من أجل التّكيف مع الوسط البيوفيزيقي. أي أنّها تشمل الجوانب الماديّة للثقافة"⁵

1 - د. محمد الجوهري وآخرون، مرجع سابق، ص 51.

2 - د. محمد الدّقس، مرجع سابق، ص 139.

3 - عبد الله عبد الرحمن، تطور الفكر الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، 1998، ص 285.

4 - د. محمد الدّقس، مرجع سابق، ص 140.

5 - نفس المرجع، ص 113.

فإنّ النّظرية التّكنولوجية للتّغيير الاجتماعي على العامل التّكنولوجي باعتبارها المحرّك الأساسي لأيّ تغيير في المجتمع "التأثير التكنولوجي لا يتوقّف عند إحداث الأثر الأول، بل إنّ التأثير يتتابع مؤدياً إلى آثار مصاحبه، أو مشتقة على هيئة سلسلة مترابطة الحلقات، ولهذا فإنّ للعامل التكنولوجي أثراً مهماً في التّاريخ الاجتماعي للمجتمعات ويؤدّي إلى تقدّمها".¹ إذ يرى "أنّ تطور التكنولوجيات الحديثة يؤدي إلى تكوين أشكال جديدة للعلاقات الاجتماعية، وبالتالي إلى تكوين أنماط ثقافية لم تكن موجودة من قبل، غير أنّ ازدهار وانتشار التّكنولوجيا تحدده عوامل اجتماعية وثقافية متنوعة ومعقّدة ويشهد على ذلك التّاريخ الحديث لدول العالم الثالث الذي يوضّح لنا صعوبة انتقال التكنولوجيا الحديثة، فإنّه يتعيّن على التكنولوجيا الحديثة في بعض الأحيان أنّ تكيف نفسها مع المجتمعات حتى تنتشر وتتقدّم"²

فالتكنولوجيا الناتجة عن تطوّر الاختراعات الكثيرة المختلفة الميادين تؤدّي إلى تأثيرات عديدة متواصلة وهادئة في الحياة الاجتماعية اجتماعياً اقتصادياً، ثقافياً وسياسياً وفي اتجاهات متعدّدة، لا يمكن بأيّ حال من الأحوال توقيفها أو تجنّبها أو تجميدها، وتأتي التكنولوجيا استجابة لحاجات الأفراد من أجل تحقيق أهدافهم بأقل جهد ممكن، وبأقل التكاليف. فالاكتشافات والاختراعات التّقنية تحدث تأثيرات اجتماعية، وتغييرات في العادات والسلوكات الاجتماعية وفي خريطة العلاقات الاجتماعية وتغيّر في القيم الاجتماعية.

المبحث الثاني: التّغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي

المطلب الأوّل: ماهية التّغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي

أولاً: مفهوم التّغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي: التّغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي عملية بنائية مستمرة تسعى إلى تحويل الواقع الاجتماعي المتخلف إلى تركيب حضاري متقدّم مؤكّداً أنّ "التّغيير الاجتماعي بالضرورة من صنع الأشخاص والأفكار والأشياء جميعاً ولا بدّ من توفر صلات ضرورية بين هذه العناصر كي يؤدّي التّغيير الاجتماعي وظيفته ويتحقّق الوصول بالمجتمع إلى الحضارة".³ ويقصد بالصلّات الضرورية هي شبكة العلاقات الاجتماعية التي هي نتاج تفاعل العناصر الثلاث: الأشخاص، الأفكار، الأشياء. والتفاعل العضوي التاريخي بين

¹ - د. محمد الدقس، مرجع سابق، ص 116.

² - اس. اس. دوب، مرجع سابق، ص 80.

³ - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 24.

عناصر المجتمع: الأفكار، الأشخاص، الأشياء يفرز لنا نماذج إيديولوجية من عالم الأفكار يتم تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء من أجل غاية يحددها عالم الأشخاص، والتّغيير الاجتماعي يقع في المجتمع التاريخي وهو: "المجتمع الذي عدل من خصائصه ومعالمه الذاتية الأولية وفقا لقانون التغيير، فهو مجتمع يتطور ويتحرك".¹

إنّ الحركة التي يعيشها مجتمع ما تمسّ جانبين من التّغيير: تغيير ذاتي داخلي أي تغيير نفسه، وتغيير خارجي أي تغيير ما حوله "إنّ أي عمل يؤديه مجتمع معين في طريق تغيير نفسه مشروط باكتمال شبكة علاقاته الاجتماعية بوصفها المهمة الأولى التي تحقّق له توفير الصّلات الضرورية بين عوالم الأشخاص والأفكار والأشياء، وينجز من خلالها مهمته التاريخية".² وأكد بن نبي أنّ التّغيير النفسي الذاتي للإنسان هو شرط في كلّ تغيير اجتماعي "ذلك أنّ العمل الأوّل في طريق التّغيير الاجتماعي هو العمل الذي يُغيّر الفرد من كونه (فردا) إلى أن يصبح (شخصا) وذلك عن طريق إخضاع غرائزه بعملية شرطية ليس من شأنها القضاء على هذه الغرائز ولكن تنظيمها في علاقة وظيفية وانضباطية سلوكية ضمن نطاق معين، وذلك عن طريق (الثقافة) بوصفها منهاجا تربوياً تغييرياً يبتّ في النفس روح المسؤولية".³

- والتّغيير النفسي الذاتي لا يكون اعتباطياً لأن الإنسان قبله كان خاملا متكاسلا يعيش حياة البساطة في مجتمع بدائي ساكن بمعنى عناصر الحضارة الثلاث: الإنسان، التّراب والزّمن راكدة وبدخول الفكرة الدينية السماوية، سيبدأ التّغيير النفسي الذي يحوّل الفرد إلى شخص ليصل إلى تغيير اجتماعي لأنّ الدّين مهذب ومنظم للغرائز داخل المجتمع وفق منهج تربوي ثقافي.

"التّغيير الاجتماعي بالضرورة من صنع الأشخاص والأفكار والأشياء، جميعا ولا بدّ من توفر صلات ضرورية بين هذه العناصر كي يؤدي التّغيير الاجتماعي وظيفته، ويتحقّق الوصول بالمجتمع إلى الحضارة"⁴ هذه الصّلات هي شبكة العلاقات الاجتماعية التي تنشأ بالتّفاعل بين العناصر: الأشخاص، الأشياء والأفكار

ويفسّر مالك بن نبي أهمية عالم الأفكار في التّغيير الاجتماعي كما يلي: "إنّ تنظيم المجتمع وحياته وحركته، بل فوضاه وخموده وركوده، كلّ هذه الأمور ذات علاقة وظيفية بنظام الأفكار

¹ - نورة خالد السّعد، مرجع سابق، ص 148.

² - نفس المرجع، نفس الصفحة.

³ - نفس المرجع، ص 124.

⁴ - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 24.

المنتشرة في ذلك المجتمع، فإذا ما تغير هذا النظام بطريقة أو بأخرى فإن جميع الخصائص الأخرى تتعدل في الاتجاه نفسه، إن الأفكار تُكوّن في مجموعها جزءاً هاماً من أدوات التطور في مجتمع معيّن، كما أنّ مختلف مراحل تطوره (أي المجتمع) هي في الحقيقة أشكال متنوعة لحركة تطوره الفكري فإذا ما كانت إحدى هذه المراحل تنطبق على ما يسمّى بالنهضة، فإن معنى هذا أنّ المجتمع في هذه المرحلة يتمتع بنظام رائع من الأفكار، وإنّ هذا النظام يتيح لكل مشكلة من (مشكلاته) الحيوية حلاً مناسباً.¹

- وإذا كان التغيير الاجتماعي لدى بن نبي لا يتمّ إلا من خلال تفاعل العوامل الثلاث: عالم الأشخاص، عالم الأفكار وعالم الأشياء، فلا يتمّ هذا التفاعل إلا بتدخل مُركّب الدين، فالدين هو المُركّب الكيميائي الذي يمزج العناصر الثلاث بعضها ببعض، وهو الذي ينقل المجتمع من حالته البدائية إلى الحالة التاريخية.

- ويستلهم مالك بن نبي نظريته التحليلية للمجتمع من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة إذ يعتبر نموذج المجتمع الإسلامي نموذجاً موحدًا ومتساوياً وخال من التعدد توافقا للحديث النبوي: "الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَى" (رواه البخاري) وهو الحديث الذي يعطي الصورة الدقيقة التي كان عليها المجتمع الإسلامي في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهذا التحديد الذي نضعه للمجتمع الإسلامي، لاعلاقة له بالحركة المذهبية التي قسّمته خلال التاريخ إلى مدارس أو طوائف.²

- ويفسّر مالك بن نبي هذه الحركة التاريخية في إطار المجتمع الإسلامي "بالعوامل النفسية التي حفزت القوة الروحية في هذا المجتمع، أعني شروط حركته عبر القرون والواقع أن القرآن قد وضع الضمير المسلم بين حدّين هما: الوعد والوعيد ومعنى ذلك أنّه قد وضعه في أنسب الظروف التي يتسنّى له فيها أن يجيب على تحدّ روجي في أساسه"³

- وينطبق ذلك على الآيتين الكريمتين التاليتين:

1- قال تعالى: "أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ". سورة الأعراف، الآية 99

2- وقال الله تعالى: "إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ". سورة يوسف، الآية 87.

¹ - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 13.

² - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 12.

³ - نفس المرجع، ص 24.

"وبين هذين الحدين تقف القوة الروحية متناسبة مع الجهد الفعّال الذي يبذله مجتمع يعمل طبقاً لأوامر رسالته، أعني طبقاً لغايته"¹ وهذه القوة الروحية تجعل من النفس المحرك الجوهري للتّاريخ الإنساني لأنّها مصدر الإثارة والتّوتر "وهذا ما يدفع في الواقع إلى التّركيز على أهميّة ومكانة مقولة التّوتر في البناء المجتمعي الحضاري عند مالك بن نبي، لأنّ التّوتر (الحيوي الايجابي) عندما يعتري المجتمع يتحوّل إلى طاقة فعّالة مولّدة وضامنة للقوة والنشاط، كذا مقياساً يحدّد من خلاله مدى تباين المجتمعات في فعاليتها"².

وربط مالك بن نبي بين حالة التّوتر الاجتماعي والتّغيير الاجتماعي "فكلّ طاقة اجتماعيّة تصدر حتماً من دوافع القلب، ومن مسوّغات وتوجيهات العقل ومن حركات الأعضاء...والفاعليّة تكون أقوى في الوسط الذي ينتج أقوى الدّوافع وأقوم التّوجيهات وأنشط الحركات."³

الغرض من التّغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي هو السّير في طريق الحضارة، ولا يتمّ هذا التّغيير إلّا بوجود إرادة التّغيير "إنّ بناء الحضارة هو قرار إنساني يعتمد على الإنسان والفكر...ثمّ الأشياء...وبالتّالي فصناعة الإنسان للحضارة -عندما تتوفّر لديه الإرادة والوعي - تحتاج لثلاثة عناصر أساسيّة لاغنى لواحد منها عن الآخر:

- 1- إنسان مؤهل للقيام بالدور الحضاري المطلوب معدّ نفسياً وأخلاقياً لتحمل المسؤولية، ويدخل في عنصر الإنسان الزّمان باعتبار الإنسان حقيقة زمنية ...
- 2- فكر يقود خطوات الإنسان ويلهمه ويدفعه إلى التّضحية والإيثار ...
- 3- أشياء يستطيع الإنسان أن يجد فيها الموادّ الخام الماديّة التي يبرز من خلالها فكره"⁴

ثانياً: الفرق بين التّغيير الاجتماعي والتّغير الاجتماعي عند مالك بن نبي: يميّز مالك بن نبي بين مفهومي التّغير الاجتماعي والتّغيير الاجتماعي فالتّغيير الاجتماعي ظاهرة تقدّم أونموّ يحقق بناء الحضارة وفق قانونها، يتجلّى من خلال تدخل الإنسان بالتّخطيط.

- أمّا التّغير الاجتماعي فهو ظاهرة تلقائيّة تسير بحسب القانون وتشمل التّغير نحو الأسوء أو الأفضل.¹ ولهذا فوظيفة التّغيير الاجتماعي هامة في المجتمع التّاريخي بغرض الوصول إلى

¹ - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 25.

² - موسى لحرش، مرجع سابق، ص 84.

³ - مالك بن نبي، تأمّلات، مرجع سابق، ص 38.

⁴ - د. عبد الحليم عويس، "الظاهرة الحضاريّة في القرآن والسنة" مجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والاقتناء والدّعوة والإرشاد، الرياض، السعودية، العدد 21، 1408هـ، ص 161.

الحضارة. وعليه فالتّغيير الاجتماعي هو عملية مقصودة ومخطّط لها بغية تحقيق التّطور والنّماء في مختلف مجالات الحياة في مجتمع ما. بينما التّغيير الاجتماعي هي عملية تلقائية غير مقصودة تتّجه في اتجاهين: السيء والأفضل.

والتّغيير الاجتماعي هو الذي ينادي به مالك بن نبي ونظر له رابطا حدوثه بالدّفعة الرّوحية الدّينية في نفوس الأفراد وتأثيراتها الواسعة في المحيطين الثقافي والاجتماعي.

ثالثا: أهميّة التّغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي: تتجلى أهميّة التّغيير الاجتماعي عند بن نبي في أنّه السّبيل الوحيد لدخول الإنسان في الحركة الحضارية.

والتّغيير الاجتماعي عند بن نبي هو دليل على حدث وقع في مكان معيّن وزمان معيّن بتأثير الفكرة الدّينية تنقل المجتمع من حالة طبيعية بدائية إلى حالة تاريخية حضارية.

المطلب الثاني: مراحل التّغيير الاجتماعي لدى مالك بن نبي:

سنّ مالك بن نبي قانوناً للتّغيير الاجتماعي يطابق قانون الدّورة الحضارية محدّداً بشروط نفسية زمنية خاصّة بمجتمع معيّن ووفق هذا القانون فإنّ الحضارة "تهاجر وتنتقل إلى بقعة أخرى تبحث عن شروطها، وهكذا تستمر في الهجرة وتستحيل خلالها إلى شيء آخر، بحيث تعدّ كلّ استحالة (تحويل) تركيباً خاصاً للإنسان والتّراب والوقت.² إنّ انحراف الدّورة الحضارية للأُم تمرّ بمرحلة انحراف يعتبرها مالك بن نبي نقطة انحطاط وتقهقر من خلال إسقاطه ودراسته لسيرورة المجتمع الإسلامي، فهي أول انفصال في تاريخه تبدأ انطلاقاً من معركة صفّين عام 38هـ تلك الحادثة التاريخية التي تقابل فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه- والتي حولت مجرى الخلافة الإسلامية من الشّورية إلى الوراثة، فلقد وصفها أنّها "قصمت الوحدة الشّاملة التي بناها محمد صلى الله عليه وسلم- بأمر من ربه.³ ممّا نتج عنها مقتل علي بن أبي طالب ثمّ مقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما وانقسام المسلمين أحزاباً وشيعاً.

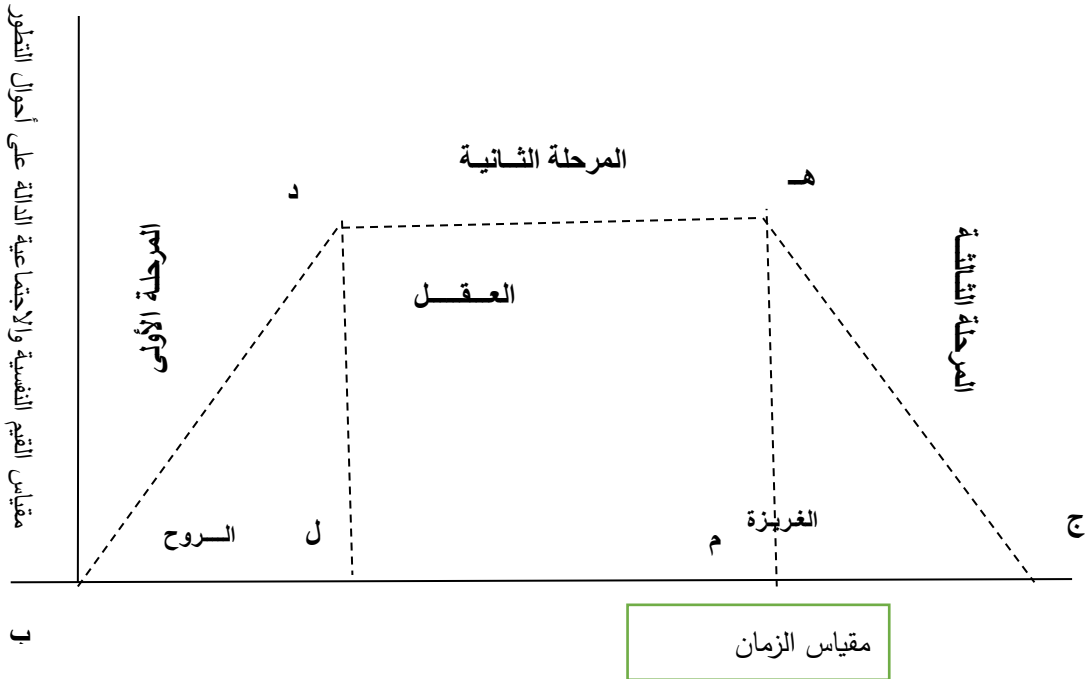
- تخضع عملية التّغيير الاجتماعي لعوامل نفسية وزمنية وتمرّ عبر ثلاث مراحل: الميلاد، الأوج والأفول تطابقها المراحل الثلاث: الرّوح، العقل الغريزة إذ يرسم مالك بن نبي صورة تخطيطية لهذا التّغيير الاجتماعي في منحنى تصاعدي انطلاقاً من الميلاد لتصل إلى الأوج لتتحرف شيء فشيئاً

¹ - نورة خالد السعد، مرجع سابق، ص 107.

² - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 27.

³ - عبد الله العويسي، مالك بن نبي، حياته وفكره، مرجع سابق، ص 315.

لتصل إلى الأفول، وتجدر الإشارة أنّ مرحلة الأوج تتوسّط مرحلتين الرّوح والغريزة وسماها بمرحلة العقل.



عام 38هـ

ابن خلدون

1- رسم بياني يوضّح التّغيير الاجتماعي عند بن نبي¹

أولاً: مرحلة الرّوح: (من نزول الوحي إلى موقعة صفين 38هـ)

- تلي مرحلة ما قبل الحضارة مباشرة مرحلة الرّوح والتي تمثّل مرحلة الفطرة، لأنّ فرد مرحلة الفطرة يكون خاضعاً لغرائزه الطّبيعية أي أنّه الإنسان الطّبيعي الفطري "والإنسان الفطري عند مالك المادّة الخامّ المستعدّة للتّغيير الاجتماعي، ذلك لأنّه يحمل في ضميره رصيّدًا أخلاقيًا وروحيًا ضخماً يؤهّله لأنّ يمارس دوره الاجتماعي"² ففي مرحلة الرّوح نجد "أنّ الفكرة الدّينية سوف تتولّى إخضاع غرائزه إلى عمليّة شرطية... وهذه العمليّة الشرّطيّة ليس من شأنها القضاء على الغرائز ولكن تتولّى تنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدّينية. فالحيويّة الحيوانيّة التي تمثّلها الغرائز بصورة محسوسة، لم تلغ ولكن انضبطت بقواعد نظام معين"³ وبالتالي يتحرّر الفرد من المقتضيات الرّوحيّة (قانون الرّوح) ويعطي مثالا عن ذلك قصة تعذيب بلال بن رباح الذي واجه

¹ - مالك بن نبي، شروط النّهضة، مرجع سابق، ص 74.

² - نورة خالد السّعد، مرجع سابق، ص 128.

³ - مالك بن نبي، شروط النّهضة، مرجع سابق، ص 75.

السّياط برفع سبابته وتكرار قولته "أحد!..أحد!..." وهو دليل صمت الغريزة، سماع صوت الرّوح لسيطرة العقيدة عليه والتي تحدث لغة الدّم واللحم.

- "في مرحلة الرّوح نجد أنّ التّغيير ينصب على الإنسان فهو العنصر الجوهرى الذي يتغيّر بالدين ويغيّر بدوره المحيط الاجتماعى، ويتحوّل من فرد يخضع لغرائزه إلى شخص يرتبط بالمجتمع بعد أن حوّله الشرارة الدّينية إلى عنصر فعّال متحرّك يشكّل مع التّراب والوقت عوامل التّغيير الاجتماعى.

يرى مالك أنّ المجتمع الإسلامى مرّ بهذه المرحلة حين بدأت عمليّة التّغيير الاجتماعى والنّفسى للمجتمع بنزول الوحي الذي أحدث أثره القويّ في إنسان ما قبل الحضارة، وبعث فيه شرارة التّغيير.¹

- ثانيا: مرحلة العقل:

جعل مالك بن نبي واقعة صقّين نقطة تحوّل وتغيّر في التّاريخ الإسلامى وانتقال المجتمع الإسلامى من مرحلة الرّوح إلى مرحلة العقل "إنّ هذه المرحلة تمتاز بأمرين هامّين:

- 1- إنّ خط الحضارة في المرحلة الأولى كان تصاعدياً أمّا في الخطّ في مرحلة العقل فهو أفقيّ.
- 2- إنّ القيادة لم تعد الفكرة الدّينية وإنّما أصبحت للعقل² فالمجتمع قد وصل إلى مرحلة الإشباع الرّوحى، وبزيادة حاجاته وتوسّع رغباته الماديّة والنّقنيّة والعلميّة والثّقافيّة وتتولّد ضرورات جديدة تدفع بالحضارة إلى الانتقال إلى طور العقل "غير أنّ هذا العقل لا يملك سيطرة الرّوح على الغرائز، وحينئذ تشرع الغرائز في التّحرر من قيودها بالتّدرّج.³ فتفقد الرّوح نفوذها ويكفّ المجتمع عن ممارسة الضّغط على الفرد، وتتناقص الفعاليّة الاجتماعيّة للفكرة الدّينية، "وطبيعيّ ألاّ تنطلق الغرائز دفعة واحدة، وإنّما تتحرّر بقدر ما يضعف سلطان الرّوح.⁴ إنّ مرحلة العقل تمثّل بالنّسبة /لمالك بن نبي مرحلة تحلّل بطيء وجزئيّ للمجتمع ونقص في الفعاليّة، ناجم عن انكماش في تأثير

¹ - نورة خالد السّعد، مرجع سابق، ص 129.

² - بناسي أحمد، مرجع سابق، ص 60.

³ - مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، مرجع سابق، ص 111.

⁴ - نفس المرجع، نفس الصفحة.

المبدأ/الروح في حياة المجتمع بصفة عامّة ونموّ في العقل، ممّا يؤديّ ذلك بصفة آليّة إلى توقّفه عن الصّعود الحضاري.¹

ويُسقط بن نبي ذلك على ما وقع في الحضارة الإسلامية: توافق مرحلة الرّوح من فترة غار حراء إلى نهاية عهد الخلافة الرّاشدة في حين يوافق انتقالها إلى مرحلة العقل "عهد المماليك (العصر الأموي والعصر العباسي) الأول "فبدل المبدأ اتّجه الأفراد إلى تقديس الأشخاص مهما كان قريبهم أو بعدهم عن المبدأ، ممّا نتج عنه بروز مذاهب واتّجاهات سياسيّة وفقهيّة متصارعة (أتباع فلان وفلان...) أثّرت بشكل نسبي على شبكة العلاقات الاجتماعيّة بحيث اعتري التمزق بعض الجوانب من خيوطها لعدم سيادة المبدأ في هذه المرحلة سيادة مطلقة.²

- ثالثاً: مرحلة الغريزة:

تلي هذه المرحلة مرحلة العقل تتدهور فيها الأوضاع الدّينيّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة والفكريّة للمجتمع "تصف هذه المرحلة بالانهيار والانحطاط ويخرج المجتمع فيها من طوره الحضاري، فعند خفوت صوت الرّوح تتطلق الغرائز لأنّ الفكرة الدّينيّة فقدت رصيدها داخل الفرد وفقد المجتمع سلطته على أفرادها"³ وهذه المرحلة سمّاها بن نبي عهد الانحطاط أو ما بعد الموحدين لأنّ سقوط دولة الموحدين، كان خطوة للوراء ففي هذا العهد عرف المجتمع الإسلامي كلّ الأمراض الاجتماعيّة السياسيّة والثقافيّة. الفقر والجهل والنزاعات بين مختلف الطوائف مع تحجّر الفكر وعقمه.⁴ - وتتميّز هذه المرحلة ببلوغ تحرّر الغرائز أوجه وتكشف الغريزة عن طورها "وهنا تنتهي الوظيفة الدّينيّة التي تصبح عاجزة عن القيام بمهمّتها تماماً في مجتمع منحل يكون قد دخل نهائياً في ليل التّاريخ وبذلك تتمّ دورة الحضارة"⁵

المطلب الثالث: مجالات التّغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي

حدّد مالك بن نبي مجالات التّغيير الاجتماعي وفق المستويات وألفئات التي يمسّها هذا التّغيير الاجتماعي وهي: الإنسان، التّراب والزّمن.

¹ - موسى لحرش، استراتيجية استئناف البناء الحضاري للعالم الإسلامي في فكر مالك بن نبي، ديوان المطبوعات الجامعية، قسنطينة، الجزائر، 2006، ص 157.

² - نفس المرجع، ص 158.

³ - نورة خالد السعد، مرجع سابق، ص 132.

⁴ - أحمد بناسي، المدخل إلى فكر مالك بن نبي، منشورات التبيين، الجاحظية، الجزائر، 2006، ص 126.

⁵ - د. عبد اللطيف عبادة، فقه التّغيير في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 163.

- الإنسان في تحوُّله من فرد إلى شخص
- التّراب في تحوُّله من الحالة الخام إلى التّكليف الفنّي والتّشريعي
- الزّمن في تحوُّله من الحالة السّائبة إلى الاستثمار الاجتماعي

- أولاً : الإنسان والتّغيير الاجتماعي

اعتبر الإنسان الحجر الأساسي في عمليّة البناء الحضاري، فالمجتمعات الحيوانيّة لا تنتج حضارة، فهي تتصرّف وفقاً لما تملّيه عليها غرائزها، وما تقتضيه حاجاتها البيولوجيّة، أمّا الإنسان فلقد كرّمه الله وفصله على سائر الكائنات الدّنيويّة، وكلفه بالأمانة العظمى.¹ قال الله تعالى "إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا" سورة الأحزاب، الآية 72

-إنّ هذا الإنسان يتكوّن من معادلتين:

● معادلة بيولوجية: هي الصّورة التي خلقه الله عزّ وجلّ عليها ولا تبديل في هذا الجانب منذ بداية الإنسان إلى نهايته على الأرض.

● معادلة اجتماعيّة: هي ما يكتسبه الفرد من مجتمعه باعتباره عضواً فيه. وهي محلّ التّغيير بحيث يختلف وضعه في التّاريخ بحسب تلك المعادلة الاجتماعيّة من حيث الفعاليّة أو عدمها.²

ويوضّح بن نبي: "ومجموع الأشخاص ليس إلّا (الإنسان) باعتباره كائناً اجتماعيّاً".³

فالفعاليّة الاجتماعيّة للإنسان تتغيّر من مرحلة إلى مرحلة أو من طور حضاري إلى آخر وفق العمليّات الاجتماعيّة التّغيريّة التي يدخل فيها، ولا يتمّ حدوث التّغيير لهذا الإنسان الذي سيمارسه في مجتمعه إلا بشرطين: الفكرة الدّينيّة وخضوع هذا الإنسان لها. واهتمّ بحركة هذا الإنسان من خلال تحوُّله من فرد إلى شخص يعمل في المجتمع البدائي إلى شخص يعمل في المجتمع التّاريخي.

ويؤكّد بمالك بن نبي إنّ الدّين عند دخوله إلى مجتمع ما فإنّه يحدث تغييراً في تركيب البناء الاجتماعي لذلك المجتمع ويحوّله من مجتمع خامل إلى مجتمع متحرّك هو المجتمع التّاريخي، والفرد في المجتمع الأوّل أي المجتمع البدائي كان يوجد وفق معادلته البيولوجيّة خاضعاً لغرائزه

¹ - بناسي احمد، مرجع سابق، ص39.

² - نورة خالد السّعد، مرجع سابق، ص 138.

³ - مالك بن نبي، القضايا الكبرى، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1991. ص56.

خامدا ساكنا عند نقطة الصّفر-في المخطّط البياني-ولكن عند دخول الدّين فإنّه يخضع إلى تغيير نفسي واجتماعي بهدف تكييفه وإعداده للقيام بدوره في المجتمع التّاريخي.¹

- والإنسان يشكّل المكوّن الأوّل للمنتوج الحضاري عند مالك بن نبي = الإنسان + التّراب + الوقت ينطلق فقه التّغيير عنده من القرآن الكريم وبخاصّة قول الله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ" سورة الرّعد، الآية 11، "أَيُّ أَنْ اللَّهَ لَا يَزِيلُ نِعْمَتَهُ عَنْ قَوْمٍ وَلَا يَسْلُبُهُمْ إِيَّاهَا إِلَّا إِذَا بَدَّلُوا أحوالهم الجميلة بأحوال قبيحة، وهذه من سنن الله الاجتماعية أنّه لا يبدّل ما يقوم من عافية ونعمة، أو أمن وعزّة إِلَّا إِذَا كَفَرُوا بِتِلْكَ النِّعَمِ وَارْتَكَبُوا الْمَعَاصِيَ".²

والإنسان حسب دورة الحضارة ثلاث أنواع :

1 - إنسان ما قبل الحضارة: هو إنسان لازال في حالته الطّبيعيّة الفطريّة، والمجتمع لايمثّل تجمع بشري فقط، يدّخر فيه الإنسان طاقة كامنة قادرة على إحداث التّغيير والثّورة والتي يعتبرها مالك بن نبي "الأساس النّفسي لبداية عمليّة التّغيير الاجتماعي لكونه مهياً بالفطرة لتحقيق ذاته اجتماعياً، ومن ثمّ يحقّق إرادته في التّاريخ فيدخل بالحضارة إلى مجالها الأوسع مجال الإنسانيّة"³

2- إنسان الحضارة: يمثّل الدّين في مرحلة الحضارة الشّارة أو المركّب الكيميائي الذي يضيف على المعادلة تأثيرها والدّفع بالمجتمع إلى الدّخول في السّيرورة التّاريخيّة بعدما كان إنسان ما قبل الحضارة خامدا وساكنا خاضعا لغرائزه "إذ من خلال شبكة العلاقات الاجتماعية تتمّ عمليّة الفرد عن طريق تنحية بعض السلوكيات، وتعزيز بعضها بما يتفق والوصول إلى مستوى التّمودج الأمثل الذي تقتضيه الفكرة الدّينية، وتتمّ هذه العمليّة المزدوجة في الطّروف العاديّة أي في حالة المجتمع المنظّم -بواسطة المدرسة- وذلك ما يسمّى بالتّربيّة، أمّا إذا كان المجتمع في طريق التّكوين فإنّ العمليّة تبدأ تلقائياً في الطّروف النّفسيّة والزّمنيّة التي تواكب ظهور المجتمع والحضارة".⁴، فتغرس فيه أخلاقيّات وجماليّات أكثر سمواً تتوافق مع المرحلة الجديدة، فالنّغير النّفسي هو الشّروط

¹ - نورة خالد السّعد، مرجع سابق، ص 139.

² - عبد اللّطيف عبادة، فقه التّغيير في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 104.

³ - د.نورة خالد السّعد، مرجع سابق، ص 140.

⁴ - نفس المرجع، ص 141.

الأساسي في كلّ ما يغيّر النفس يؤدّي إلى تغيير في المجتمع. "إنّ أعظم التّغييرات وأعمقها في النفس قد وقعت في مراحل التّاريخ مع ازدهار الفكرة الدّينيّة"¹

3- إنسان ما بعد الحضارة: سمّى مالك بن نبي إنسان ما بعد الحضارة بإنسان ما بعد الموحّدين بالنّسبة لدورة الحضارة الإسلاميّة، وهذا الإنسان يحتوي على الرّواسب من مرحلة الانحطاط تجعله مصدرا للصّعوبات في الطّريق إلى النّهضة عكس إنسان ما قبل الحضارة الذي لم يدخل الحضارة بعد، وإنسان ما بعد الحضارة هو الإنسان المسلوب الحضارة لم يعد قابلاً لإنجاز عمل محضر...، إلّا إذا تغيّر هو نفسه من جذوره الأساسيّة"²

"إنّ مجتمع ما بعد التّحضّر ليس مجرّد مجتمع لا يتحرّك من مكانه، وإنّما هو مجتمع ينتكس في خطّ سيره، أي يسير إلى الخلف بعد أن انحرف بعيداً عن طريق حضارته وانقطعت صلته بها."³ ليضيف "وفي هذا المجتمع (المجتمع المتخلف) تعود الأشياء لتفرض سيطرتها على المجتمع، الذي يتمتّع في هذه المرّة شأنه شأن كلّ مجتمع مستهلك بعالم مكتظ بعناصر الحضارة، ولكنّها خالية من الحياة والحركة الاجتماعيّة."⁴

يمكننا تحديد الفرق بين مجتمع ما قبل التّحضّر، ومجتمع ما بعد التّحضّر بواسطة تحديد المسافة التي تفصل كلا المجتمعين عن المجتمع المتحضّر هي ما نسميه (نهضة)، وأمّا النقطة التي تفصل مجتمع ما بعد التّحضّر عن المجتمع المتحضّر فهي ما نسميه أفولاً.⁵

ويميّز مالك بن نبي بين إنسان المراحل الثلاث خلال الدّورة الحضارية: فالإنسان السّابق عن الحضارة هو الرّجل البدوي المستعد للانخراط في الدّورة الحضاريّة، أمّا الإنسان ما بعد الحضارة فهو الإنسان الذي تنفّس حضارياً فهو لم يعد باستطاعته إنجاز عمل محضر⁶ إلّا إذا تغيّر هو نفسه... وهكذا فإنّ الإنسان المتنفّس حضارياً لا يستطيع الرّجوع إلى ركب الحضارة وتأسيس حضارة تحمل خ صوصيّاته الاجتماعيّة والدّينيّة والثّقافيّة والسّياسيّة إلّا إذا بدأ بتغيير نفسه وسلوكه من رواسب وسلبيّات حضارته المتنفّسة أي المنقضية أو الزّائلة.

¹ - مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، مرجع سابق، ص 80.

² - مالك بن نبي، **شروط النّهضة**، مرجع سابق، ص 78.

³ - Malek Bennabi, **Le problème des idées dans le monde musulman**, el Bay'ynate, Alger, 1990, p25.

⁴ - Ibid, p261.

⁵ - شايف عكاشة، **الصّراع الحضاري في العالم الإسلامي (مدخل تحليلي في فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي)**،

ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1998، ص 114.

⁶ - نفس المرجع، ص 115.

سلبيات إنسان مابعد الحضارة: يفقد إنسان ما بعد الحضارة المقومات التي صنع بها حضارته وانتهى به التاريخ، لقد فقد هذا الإنسان تبريره التاريخي للفعل وبالتالي أصبح الدافع النفسي للبناء معطّلاً فتستولي على قدراته للبناء الحضاري عوامل أخرى بديلة طبعت عليه سماتها حيث اتّصف هذا الإنسان الذي يطلق عليه مالك صفة (إنسان ما بعد الموحدين) ببعض ما اتّصفت به ثقافة مجتمعه فالإنسان ابن بيئته "ومن هذه الصفات الآتي:

-التّشخيص والغلو - الشّكليّة - التّقليد الأعمى - المغالطة - المادّيّة اللاشعوريّة - تضخم الذات وظهور مرض التّعالَم - الخيال وسيطرة الأوهام - المكابرة وعدم الاعتراف بالخطأ - الشّهوانيّة.
-وهذه السّمات التي يتّصف بها هذا الإنسان لا تتفصل عن بعضها فكلّ واحدة تعدّ متكاملة مع الأخرى، ومرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً، وكى نعيد هذا الإنسان إلى مرحلة الرّوح يجب أن نخلّصه من هذه السّمات.¹

- لا شك أنّ هذه السّمات السّابقة الذّكر هي أعراض المرض الاجتماعي التي عاينها بن نبي في مجتمع مابعد الموحدين، وهي التي تمّ ذكرها في الفصل السّابق، ذلك أن تلك الأعراض السّوسيونفسية والسّوسيوثقافية للمرض الاجتماعي جعلت المجتمع الإسلامي يتخبّط في مشاكل اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية ويعيش الكسل والخمول الدّخلي والتّبعية الخارجيّة في جميع النّواحي، وعلمائوه وسياسيوه ومفكّروه انصبوا على معالجة الأعراض الخارجيّة دون التّعمق في أصل المرض وهو الذات الإنسانية أو النّفس ولهذا أسس للتّغيير الاجتماعي من منطلق تغيير الذات وذلك عملاً بما جاء في القرآن والسّنّة.

- ثانياً : التّراب والتّغيير الاجتماعي

- يعتبر مالك بن نبي التّراب عنصراً من عناصر التّغيير الاجتماعي وهو كلّ شيء على الأرض وفي باطنها ويكون نطاقاً للتّغيير عندما يتحوّل من الحالة الخام التي هو عليها وفق مكوناته الطبيعية إلى الحالة الديناميكية من خلال التّكليف التّشريعي الفنّي له وما ينتج عن ذلك من استفادة قصوى تحقّق مصلحة المجتمع، وهو يرى أنّ اتّجاهات النّاس اتّجاه مشكلات البيئة محكومة بفعاليتهم وثقافتهم.²

¹ - نورة خالد السّعد، مرجع سابق، ص ص 183، 184.

² - نفس المرجع، ص 145.

والثّراب في مرحلة الخامّ يكون في حالة ثبات، وما إن تبدأ الحركة التّغييرية في المجتمع حتّى يتحوّل الثّراب إلى عنصر فعّال فالثّراب له قيمة اجتماعية وكلّما زادت الفعاليّة الاجتماعية في بلد ما زادت قيمته والعكس بالعكس، ويستشهد في ذلك باليابان "اليابان على الرّغم من ضعف تربته (مجرد جبال صخرية وجزر) استطاعت أن تتقدّم في مسيرتها الحضارية، بفضل ما قام به الإنسان الياباني من تطويع عنصر الثّراب أو تكييفه حسب الفوائد والمتطلّبات الاجتماعية، في حين ظلّت أندونيسيا تغطّ في تخلفها، على الرّغم من خصوبة أراضيها وغناها بالثّروات المعدنية والطبيعية"¹

- ليذهب مالك بن نبي أبعد من ذلك من خلال قوله إنّ الثّراب في أرض الإسلام عموما على شيء من الانحطاط، بسبب تأخّر القوم الذين يعيشون عليه.² وهذا ما لاحظته في الأردن والعراق رغم أنّ أراضيها من أخصب الأراضي، وكذلك الجزائر "والمثال واضح في بلد كالجزائر حيث أنّ الأرض الخضراء التي كانت تتوفّر عليها الكثير من مدنه (كمدينة تبسة) أصبحت مهدّدة بالزّوال، بفعل عدم إدراك الإنسان الجزائري لخطورة وعواقب زحف الرّمال الصحراوية عليها"³

- فقيمة الثّراب تزداد وتنزل وفق قيمة مالكيه، ذلك أنّه حينما تكون قيمة المجتمع -بفعل تقدّمه الحضاري- مرتفعة، تكون في المقابل للثّراب قيمة عالية، والعكس صحيح.⁴

ثالثا : الوقت والتّغيير الاجتماعي

الوقت (الزّمن) هو ثالث عنصر من عناصر الحضارة عند بن نبي، وقد أعطاه أهمية للوقت في معادلة الحضارة: الحضارة=إنسان + تراب+ وقت.

ويؤكّد على أنّ "هذه العناصر الثلاثة التي هي: الإنسان، والثّراب والزّمن، لا تمارس مفعولها ضمن حالة شتية، ولكن ضمن تركيب متآلف، يحقّق بواسطتها جميعا إرادة وقدرة المجتمع المتخصّر."⁵

وبالتّالي فمجموع الأزمنة ليس هو إلّا الزّمن الذي يتمّ تكييفه اجتماعيا حيث يحوّل زمن اجتماعي بإدماجه ضمن جميع العمليّات الصّناعية والاقتصادية أو الثّقافية باعتباره ركيزة تقوم عليها

¹ - شايف عكاشة، مرجع سابق، ص123.

² - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 139.

³ - Malek Bennabi, Les conditions de la renaissance, société d'édition et de communication, Tipaza, Algérie, 1992, pp64-65.

⁴ - د. موسى لحرش، مرجع سابق، ص131.

⁵ - مالك بن نبي، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص57.

سائر اطّرادات هذه العمليّات.¹ ليستطرد بالقول "وبتحديد فكرة الزّمن يتحدّد معنى التّأثير والإنتاج، وهو معنى الحياة الحاضرة الذي ينقصها. هذا المعنى الذي نكسبه بعد، هو مفهوم الزّمن الدّاخل في تكوين الفكرة والنّشاط، في تكوين المعاني والأشياء. فالحياة والتّاريخ الخاضعان للتّوقيت كان ومايزال يفوتنا قطارهما، فنحن في حاجة ملحة إلى توقيت دقيق، وخطوات واسعة لكي نعوض تأخّرنا.²

"إنّ الزّمن فضاء واسع، استوعب واستغرق سائر الشّعوب والأمم، فلقد رافق الإنسان منذ أن خلقه الله على وجه الأرض، فهو يفيض عنها أي الشّعوب كما يقول بن نبي: بالساعات والأيام والشهور.

فلا يوجد شعب يمارس نشاطه خارج الزّمن، وإن كان مجال شعب ضمن هذا الفضاء الواسع. ومن هنا فعن الزّمن يتحوّل عند شعب إلى ثروة أو إلى عدم عند شعب آخر.³ والسّاعات التي يقصدها مالك بن نبي هي السّاعات المقرونة بالعمل أو ساعات العمل، وفي السّاعات التي تحدث فيها انتفاضات الشّعوب. لا يقوم الوقت بالمال كما ينتفي عنه معنى العدم، إنّه يصبح جوهر الحياة الذي لا يقدر.⁴

ويضرب لنا مثالا لذلك هو المجتمع الألماني الذي أنهكته الحرب العالميّة الثّانية وما تكبّده من خسائر بشريّة وماديّة وتحطيم بنيته التّحتيّة "فكل ما كان يملكه من أدوات الإنتاج قد تحطّمت ولكنّه تجنّد للخروج من هذه الوضعية المأسويّة، ففي سنة 1949 انطلق من نقطة الصّفر ليواصل عمله بجد ومثابرة. وبعد عشر سنوات استطاع الشعب الألماني أن يقيم معرضا اقتصاديا في القاهرة سنة 1957م فكان ذلك بمثابة معجزة، فلقد فرضت الدّولة على المواطنين إضافة ساعتين من العمل لفائدة المصلحة العامّة"⁵ وهذا ما سمّي بالتّجنيد العام (Roboter arbeit) فيشير مالك بن نبي "ويمكننا أن ندرك قيمة الوقت مباشرة في عودة الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة لشعب، لم يبق لديه من الوسائل إثر الحرب الثّانية إلّا العناصر الثّلاث: الإنسان، والتّراب والزّمن"⁶

¹ - نفس المرجع، ص 56.

² - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 136.

³ - بناسي أحمد، مرجع سابق، ص 44.

⁴ - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 145.

⁵ - بناسي أحمد، مرجع سابق، ص 46.

⁶ - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 148.

- ويلجّ بن نبي على ضرورة الاعتدال في استغلال الوقت، وتوجيه هذا الاستقلال توجيهها ايجابياً. "وفي نفس الوقت الذي يؤكّد فيه على أهمية عنصر الزّمن في حركة الحضارة وصعودها، فإنّه يحذّر من الاستغراق في العمل والجهد من أجل الإنتاج، حتّى ننسى الجوانب المعنويّة والنفسية- من حياتنا كما حدث في الغرب الصناعى، وكذلك يحذّر من الاستغراق في السلبية تجاه عنصر الزّمن بحيث يغدو بغير ذي جدوى، وذلك كما يحدث في العالم الإسلامي الذي يتجاهل قيمة الزّمن أثناء النّهضة، وهذا ما يؤثّر على تنمية التّخلف الحضاري في عالمنا الإسلامي"¹ "ولاشكّ أنّه ينبغي على البلاد الإسلامية أن تعرف، كيف تقدّر في ثقافتها الحاضرة النّتائج السلبية المترتبة على المبالغة في عدم تقدير قيمة الوقت في نشاطها، ولكن من غير أن تقع في المبالغة العكسية، أي الإفراط في تقدير الوقت التي تستطيع بسهولة أن نرى اليوم نتائجها العكسية في البلاد الصناعية"²

- ويرى مالك بن نبي أنّ قيمة الوقت تتغيّر خلال الحركة التغييرية أمّا في مرحلة التّحصّر فإنّه يتحوّل من عنصر في حالته السّائبة إلى حالة أخرى من الاستثمار الاجتماعي عندما يتمّ تكييفه وتحويله من زمن اجتماعي يدمج في جميع العمليات الصناعية والاقتصادية والثقافية باعتباره ركيزة تقوم عليها سائر اطّرادات هذه العمليات.³

المبحث الثالث: التغيير الثقافي عند مالك بن نبي

المطلب الأول: ماهية التّغير الثقافي

أولاً: مفهوم التّغير الثقافي

يعرّفه "مالينوفسكي": هو تغيير في الوحدات حيث أنّ الثقافة عنده هي عبارة عن نسق وليست نمطا من السمات أو مركّبات منها، وفي أثناء التّغير تتخذ هذه الوحدات أشكالا جديدة ويكون لها وظائف جديدة استجابة للظروف الجديدة الناتجة عن الاحتكاك والاتّصال، ولهذا فإنّ الانتشار الذي يتمّ عن طريق الاتّصال هو عملية إعادة وتسليم على أسس جديدة كليّة.⁴

وقد قدّم "جورج ميردوك" تحليلا لعمليات التّغير جمع فيه بين المدخل التاريخي لدراسة التّغير الثقافي من خلال تتبّع النواتج الثقافية والأفكار والأنشطة والابتكارات، وبين المدخل الواقعي لدراسة

¹ - د. سليمان الخطيب، مرجع سابق، ص 86.

² - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 15.

³ - د. نورة خالد السعد، مرجع سابق، ص 146-147.

⁴ - د. فيروز مامي زرارقة، مرجع سابق، ص 61.

الظاهرة باعتبارها محصلة عدد من المبادئ العامة. وأوضح "ميردوك" الخصائص المميزة لعمليات التّجديد والتّقبل الاجتماعي والتّكامل، وبين أن التّغيير الذي يطرأ على سمة ثقافية واحدة يصاحبه بالضرورة تغيّر في العناصر المرتبطة به، وفي رأيه أنّ التّغيير الثقافي يسير بوجه عام في الاتجاه نحو التّوافق أو التّكيف الأفضل للبيئة الطّبيعية والاجتماعية معتقدا بأنّ مبدأ البقاء للأصلح يمكن أن ينطبق على السمات الثقافية بنفس القدر الذي ينطبق على الأنواع البيولوجية.¹

وتعرّفه الدّكتورة فيروز مامي زرارقة: "التّغيير الثقافي هو ذلك التّحول الذي يحدث على مستوى فروع الثقافة والذي يصاحبه تأثيرات مادية، أخلاقية أو علمية سواء كان إيجابيا أو سلبيا".²

ثانيا: عوامل التّغيير الثقافي:

يقصد بها مجموع المظاهر المؤثرة في إحداث التّغيير وانتقال المجتمع من حالة إلى حالة أخرى، وكذلك درجات التّغيير التي تختلف في التأثير حسب طبيعة المجتمع، ومن أهمّها:

التّغيير في البيئة الطّبيعية: ويقصد بها تدخل الإنسان في إحداث تأثير على البيئة الجغرافية المحيطة به، وإعادة تكييفها مع حاجاته المتجددة كتحويل الأراضي الصحراوية إلى أراضي زراعية واستصلاح أراضي جبلية...

التّغيير العلمي والتّكنولوجي: ويقصد به توصل المجتمع إلى مرحلة الإشباع العلمي واعتماد البحث وتجديد التّصور الفكري، أو بعبارة أخرى انتقال المجتمع من التّفكير التقليدي على التّفكير العلمي لتفسير المواقف والأحداث، ويصاحب التّغيير العلمي التّغيير التّكنولوجي في إنتاج الوسائل والأدوات التي تمكّن المجتمع من إحداث عملية التّغيير، سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى الأنظمة الاجتماعية.

التّغيير الإيديولوجي: ويقصد به انتقال المجتمع من نظام معيّن إلى آخر يحقّق من خلاله الأهداف التي وضعها لإحداث عملية التّطور والتّميّة.

التّغيير الثّوري: وهو التّغيير الذي يعني رفض المجتمع أو بعض فئاته للأوضاع القائمة في المجتمع والتّوجه نحو تغييرها جذريا، بمعنى أنّها تمسّ كلّ الفئات والنّظم الاجتماعية، فالثّورة في هذا الاتجاه ليست مجرّد غضب الثّوار على الأوضاع القديمة التي تستبدّ بمجتمعهم وعرقل تحرّكه دون انطلاقة، وإنّما الثّورة هي علم التّغيير الاجتماعي الشّامل والعميق لصنع حياة جديدة.³

¹ - نفس المرجع، 62

² - نفس المرجع، نفس الصفحة.

³ - نفس المرجع، ص 63.

ثالثاً: عوائق التّغيير الثقافي: من بين عوائق حركيّة التّغيير الثقافي:

- التّداخل بين الأجيال: ويكون برفض جيل الكبار تغيير نمط معيشتهم ونظام قيمهم ومعتقداتهم بل وإنه يحرص عليها أشدّ الحرص، واستمرار ذلك الرّفص يؤدّي حتماً إلى تخليد المجتمع إلى مورثاته تخليداً قد يكون مطلقاً، بينما في المقابل يعمل جيل الصّغار إلى إحداث تغييرات في نمط وأسلوب الحياة ونظام القيم ممّا قد ينتج عنه صراعاً بين الجيلين قد يعطل عملية التّغيير.
- الوصوليّة والحفاظ على الماضي: وربّما العمل على عودة الماضي وما قد يحمله من أفكار وأعمال تأبى الاتّصال بالآخر خوفاً من التّأثر به، وإذا ما اتّسعت رقعة الرّفص فإنّ كلّ جديد في المجتمع من تكنولوجيا وأفكار تبقى حبيسة التّصور الرّافض إلى أن تذبل وتختفي.
- العزلة الثقافيّة: يقصد بها انطواء الثقافة على ذاتها ويعود ذلك إلى عدم الاحتكاك الثقافي والاتّصال بالمجتمعات الأخرى، ويرجع إلى رغبة المجتمع في المحافظة على التّقاليد الخاصّة به والاعتزاز بها كتراث، أو قد يرجع إلى ظروف المجتمع في مرحلة زمنيّة محدّدة تجعله إمّا ينغلق على نفسه أو أن يحاصر من قبل مجتمعات أخرى.¹

المطلب الثاني: مظاهر التّغيير الثقافي

أولاً: التّمثيل الثقافي والتّكيف: Culture assimilation

"يشير مصطلح التّمثيل الثقافي إلى عمليّة التّكيف المتبادل التي من خلالها تقلّل الجماعات المختلفة ثقافيّاً بالتّدرّج اختلافاتها إلى الحدّ الذي لا تصبح معه هذه الاختلافات ذات أهميّة اجتماعيّة أو ملحوظة. والتّمثيل يعدّ مسألة درجة فمن ناحية معيّنة قد تعتنق جماعة كلّ ثقافة جماعة أخرى دون أي تعديل ملحوظ في ثقافة الجماعة الأخيرة، ومن ناحية أخرى قد تتبادل جماعتان التّأثر والتّأثير بثقافة كلّ منهما بالآخر، ممّا يترتّب عليه ظهور نمط ثالث من الثقافة يختلف تماماً عن نمط الثقافة في كلّ من الجماعتين المتفاعلتين، وبنفس الطّريقة قد يحدث مثل هذا التّفاعل بين أكثر من جماعتين، وتكون النّتيجة ظهور ثقافة مختلفة تماماً عن ثقافات الجماعات المتفاعلة جميعاً. وتكون الجماعات ذات الثقافة العالية التّكيف مع الطّروف القائمة، أكثر مقدرة على الفوز بالمركز الأكثر تأثيراً في عمليّات التّفاعل، وتطبع نتائج التّمثيل الثقافي بطابعها.

لا نستطيع أن نجد تمثيلاً كاملاً وهذه الحقيقة تستند إلى التّغيير المستمر في علاقات النّاس الاجتماعيّة واستمرار اتّصالهم بغيرهم في الزّمان والمكان... وعمليّة التّمثيل الثقافي تعتبر مجرد

¹ - نفس المرجع، ص 64.

حالة أو مرحلة من التّكيف الثقافي، يعتبر التّغيير الثقافي مظهرًا واحدًا من التّكيف الثقافي، كما يعتبر الانتشار الثقافي جزءًا من حالة التّكيف الثقافي، وفي نفس الوقت يؤلّف عاملاً ومظهرًا واحدًا فقط من عملية التّغيير.¹

ثانياً: التّكامل الثقافي:

- إنّ مقومات تكامل الثقافة تدور حول المعتقدات والأهداف والقيم، طالما كان التّكامل معناه التّوافق المتبادل بين العناصر الثقافية، وعدم وجود الصّراع والاضطراب، ووحدة المعتقدات والأفكار والاتّصال، لذلك كان التّكامل التّام أمراً يصعب تحقيقه، ولا يمكن أن تجد في الواقع ثقافة تامة التّكامل، إذن التّكامل مسألة درجة يختلف من مجتمع لآخر. ففي المجتمعات البسيطة يكون هناك اتّفاق عام على المعتقدات والقيم، ولكن في المجتمع الذي تتعدّد فيه الثقافات الفرعية لا يكون هناك اتّفاق إلّا حول عدد قليل من هذه المعتقدات والقيم، بينما يدور الصّراع أو يظهر الاختلاف، على الأقلّ حول عدد آخر منها.²

ثالثاً: الصّراع الثقافي:

قد يكون عدم الاتّفاق على عناصر الثقافة من عادات وتقاليد ومعايير وقيم أو غيرها من أنماط السلوك داخل الجماعة الواحدة، معبّراً عن الصّراع الثقافي الدّخلي، مثل ذلك الذي نشهده بين الأجيال المتباينة في المجتمع الواحد، بين جماعات الشّباب والكبار مثلاً، أو بين جماعات طبقية أو مهنية مختلفة وهكذا، وقد يكون عدم الاتّفاق على الأنماط الثقافية بين جماعات ذات ثقافات مختلفة، ويعبّر عن صراع ثقافي خارجي. ولذلك كان الاتّصال بثقافات أخرى من شأنه أن يعدّل من الميل إلى الإجماع، لأنّ الفرد سيطلع بنفسه على أنماط أخرى من الحياة قد تكون أفضل من نمطه هو عند المقارنة، ويتّضح هذا النوع من الصّراع الثقافي مثلاً بين المجتمعات المتقدّمة والمتخلّفة.³

رابعاً: الاتّصال والتّغيير الثقافي:

يكون التّغيير الثقافي النّاتج عن الاتّصال شاملاً لعمليات اكتساب الخصائص الثقافية والانتشار... واكتساب الخصائص الثقافية هي كلّ الظواهر التي تنتج عندما يدخل مجموعة من

¹ - عبد الرزّاق جلبي، دراسات في المجتمع والثقافة والشّخصية، دار النهضة العربية، بيروت، 1984، ص ص 102، 103.

² - نفس المرجع، ص ص 103، 104.

³ - نفس المرجع، ص 106.

الأفراد لهم ثقافات مختلفة. في صلات مباشرة أو مستمرة وما يترتب على ذلك من تغيرات في الأنماط الثقافية الأصلية للمجموعتين أو لواحدة منهما - وهكذا يميز بين اكتساب الخصائص الثقافية وبين التغيير الثقافي - لأن الأول عبارة عن ناحية واحدة من الثاني أي أن التغيير الثقافي يتضمن اكتساب الخصائص الثقافية بالضرورة، والتّمثيل أي هضم العناصر الجديدة على أي نحو مرحلة بين مراحل اكتساب الخصائص الثقافية شأنه في ذلك شأن الانتشار. وهكذا يكون التغيير الثقافي شاملاً لعمليات اكتساب الخصائص الثقافية والتّمثيل والانتشار. على أنه يمكن النظر إلى الانتشار باعتباره ذلك المظهر من التغيير الثقافي الذي يشمل انتقال الوسائل الفنية والاتجاهات والأفكار ووجهات النظر من شعب إلى آخر بغض النظر إذا تم ذلك عن طريق فرد واحد أو جماعة وبغض النظر إذا كان الاتصال مؤقتاً أو دائماً.

- وعلى هذا يكون التغيير الثقافي عن طريق الاتصال إما فردياً أو اجتماعياً وإما مؤقتاً أو دائماً. وبالتالي تكون عملياته المختلفة تتجه اتجاهات عامة أو خاصة بحسب الأحوال وعلى أساس طريقة الاتصال. وهذا يفترض بالضرورة وجود أفراد أو جماعات في منطقة واحدة من ثقافتين مختلفتين الأمر الذي يؤدي إلى سهولة عمليات النقل الثقافي ولا يتعين بالضرورة أن يكون الانتقال من الثقافة الأعلى إلى الثقافة الأقل بل قد يكون الانتقال في الاتجاهين.¹

التغيير الاجتماعي والثقافي: يوجد ارتباط بين مفهومي (الثقافة والمجتمع) بوصفهما من المفاهيم الأساسية في الدراسات الاجتماعية. وعلى الرغم من ذلك لا يوجد فرق بينهما إذ يشير (التغيير الاجتماعي) إلى التحول في أشكال التفاعل الاجتماعي والاتصالات الشخصية في حين أن (التغيير الثقافي) يشير إلى التغيير في أنساق وأفكار متنوعة من المعتقدات والقيم والمعايير. وهذا يعني أن التغيير الثقافي يضم (التغيير الاجتماعي) ضمن المفهوم العام لهذه الدلالات الاجتماعية والفكرية وكذلك يحدث (التغيير الاجتماعي التنظيم الاجتماعي) أي في بناء المجتمع ووظائفه وهنا يصير (التغيير الاجتماعي) جزءاً من التغيير الثقافي (الذي يشمل جميع المتغيرات التي تحدث في أي فرع من الثقافة كالفن والعلم والتكنولوجيا والتغيرات التي تحدث في التنظيم الاجتماعي وعلى هذا يكون "التغيير الاجتماعي من نتائج التغيير الثقافي").

¹ - علي عبد الرزاق جلبي، دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية، مرجع سابق، ص 107

المطلب الثالث: عوامل التّغيير الاجتماعي والثقافي عند مالك بن نبي

- لقد أولى مالك بن نبي عند حديثه عن الثّقافة بوصفها ظاهرة تخصّ أسلوب الحياة في مجتمع معيّن أو أمة معيّنة من ناحية، وكذا السلوك الاجتماعي الذي يطبع تصرّفات الفرد في ذلك المجتمع أوتلك الأمة من ناحية أخرى "عملية تنظيم الأفكار في المجتمع أهمية كبيرة وأساسية. فهي إمّا أن تكون سببا في تقدّمه المجتمعي الحضاري، أو أن تكون ذات وظيفة أخرى تؤدّي به إلى الرّكود والفوضى والتّخلف"¹

- **أولا : الدّين:** يشير بن نبي "لقد ولدت المجتمعات التي ما تنفك تسلّط حتّى هذا الحين انعكاسات حضارتها على الخارطة الجغرافية، وأعني بها الهندوسية والبوذية والموسوية والمسيحية والإسلامية من هذه الانطلاقة الرّوحية التي أقامت هياكل (براهما) و(بهوة)، ومعابد البوذية والكنائس القوطية والمساجد الإسلامية، فكلّ هذه الحضارات -المعاصرة لنا- قد شكّلت تركيبها المتألف من مهد فكرة دينية، والفكرة الدّينية هي أساس كلّ مشروع حضاري تغييري لأنّ الدّين هو الذي لديه القدرة على التّركيب بين العوالم الثّلاث: الأشخاص، الأفكار والأشياء لإحداث القفزة والدّخول في ركب الحضارة "إنّ الوظيفة الاجتماعية للدّين تتحقّق في شكل تركيب يهدف إلى تشكيل قيم تمرّ من الحالة الطّبيعية إلى وضع نفسي زمني ينطبق على مرحلة معيّنة للحضارة."² فيصبح الإنسان العضوي وحدة اجتماعية، والوقت وقتا اجتماعياّ يقدر بساعات العمل، ويصبح الثّراب من صورة لسدّ الحاجات الاجتماعية وفقا لعملية الإنتاج بدل الاستهلاك الفردي البسيط.

- وطبيعة الدّين تمسّ جانبيين:

● أ- الجانب الغيبي: المتمثّل في العلاقة بين العبد والمعبود ، وهذا الجانب هو الأصل في الحركة الاجتماعية بما يمنحه للفرد من دافعية، فالإيمان هو الذي يولد الاندفاع والحركة والتي تتجسّد في فعل اجتماعي بحيث تغدو كلّ علاقة غيبية، وقد تجسّدت في علاقة اجتماعية.

● ب- الجانب الاجتماعي: الذي هو ثمرة العلاقة في المجال الاجتماعي.³

- ولهذا يؤكّد بن نبي أنّ "الدّين حين يخلق الشّبكة الرّوحية التي تربط نفس المجتمع بالإيمان بالله، وهو يخلق بعمله هذا أيضا شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح لهذا المجتمع أن يضطلع بمهمّته الأرضية، وأن يؤدّي نشاطه المشترك، وهو بذلك يربط أهداف السّماء بضرورات الأرض."¹

¹ - موسى لحرش، مرجع سابق، ص172.

² - مالك بن نبي، آفاق جزائرية، مرجع سابق، ص66.

³ - نورة خالد السعد، مرجع سابق، ص110.

فدور الدين الاجتماعي منحصر في أنه يقوم (بتركيب) يهدف إلى تشكيل قيم، تمر من الحالة الطبيعية إلى وضع نفسي زمني، ينطبق على مرحلة معينة للحضارة، وهذا التشكيل يجعل من الإنسان العضوي وحدة اجتماعية، ويجعل من (الوقت) الذي ليس سوى مدة زمنية مقدرة (بساعات تمر) وقتاً اجتماعياً (بساعات عمل) ومن التراب الذي يقدم بصورة فردية مطلقة غذاء الإنسان في صورة استهلاك بسيط- مجالاً مجهّزاً مكيفاً تكييفاً فنياً، يسدّ حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة، تبعاً لظروف عملية الإنتاج. فالدين هو (مركب) القيم الاجتماعية، وهو يقوم بهذا الدور في حالته الناشئة، حالة انتشاره وحركته، عندما يعبر عن فكرة جماعية.²

فعند مالك بن نبي الفكرة الدينية تطبع سلوك الفرد مما يجعله مستعداً لإنجاز رسالة حضارية كما أنها تحافظ على استمراريتها "فالمجتمع لا يمكن مجابهة الصعوبات التي يواجهها بها التاريخ كمجتمع، ما لم يكن على بصيرة جلية من هدف جهوده"³

- وحقيقة الدين الفعال والمؤسس للحضارة عند بن نبي هو الدين السماوي "فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء، يكون للناس شرعاً ومنهاجاً، أو هي -على الأقل- تقوم أسسها في توجيه الناس غير معبود غيبي".⁴

ويورد بن نبي التغييرات الجذرية التي حدثت في البناء الاجتماعي عند دخول الدين للمجتمع في عدة مجالات:

1-المجال المادي: لقد أدت المبادئ الإسلامية إلى حدوث نتائج اجتماعية جديدة مستعينة بوسائلها نفسها ومواردها القديمة لأن عالم الأشياء في ذلك الوقت لم يكن في مقدوره أن يتغير بسرعة، ففي المرحلة الأولى من مراحل الحضارة لا يظهر التغيير في مجال الأشياء وإنما في مجال الأشخاص وما يمسّ مجال الأشياء إنما هو حشد الأشياء وتوظيفها في خدمة الفكرة الجديدة، ومثال على ذلك اللحظة التي وضع فيها الأنصار والمهاجرون -معا- مواردهم لمواجهة الحاجات التي تتطلبها المرحلة المقبلة الجديدة.

2-المجال الثقافي: تهيأت مقاييس كثيرة وطرق جديدة في التفكير لمواجهة الضرورات التي يقتضيها التنظيم الجديد، وتوجيه أوجه النشاط في المجتمع الناشئ¹

¹ - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 79.

² - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 32.

³ - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 79.

⁴ - نفس المرجع، ص 56.

-ويعدّ بن نبي بعض الخصوصيات الثقافية للدين الإسلامي التي برزت في مجتمع الموحدين والتي تتمايز عن سائر الخصوصيات الثقافية لأديان أخرى، ومنها الآذان، فالفتنة الإسلامية أدت بهم إلى استعمال الصوت الإنساني للدعوة للصلاة بدل استعمال الأجراس كالتي هي مستعملة في الكنائس، نظرا لشح المورد الطبيعي لصناعة الأجراس ناهيك عن مقاييس وقيم (أخلاقية وجمالية) مختلفة طبعت سلوك الأفراد في حياتهم اليومية كدخول المسجد أو السوق، عيادة المريض، زيارة المقابر...

3-المجال النفسي والأخلاقي: لاشك أن التغيير في المجال المادي والثقافي ينتج تغيير نفسي وأخلاقي، إذ تمّ إيجاد مراكز جديدة لاستقطاب الطاقة الحيوية في مجتمع الموحدين أنتجت أفكارا ومفاهيمًا ونماذجًا ثقافية جديدة وظهر هذا التوجيه الجديد للطاقة الحيوية في أخلاق وضمير الفرد الذي يعترف بزلته بغية التطهر منها، ولو بتقديم النفس ما جاء في حادثة المرأة التي أخطأت بارتكاب جريمة الزنا فأنت النبي صلى الله عليه وسلم ليقم عليها الحد.²

- ثانيا: الحضارة: تتعدّد تعريفات الحضارة عند مالك بن نبي بتعدّد الزوايا التي يتناولها منها:

- 1- من حيث الجوهر
 - 2- من حيث المبدأ القائمة عليه
 - 3- من حيث التركيب
 - 4- من حيث الوظيفة
 - 5- من حيث وحدة كيائها والصلة بين روحها ومنتوجها.³
- 1-من حيث الجوهر: عرّفها كمايلي: في جوهرها هي عبارة عن مجموعة من القيم الثقافية المحقّقة⁴، فالثقافة هي جوهر الحضارة لأن أصل كل واقع اجتماعي قيمة ثقافية تحقّقت في هذا الواقع "كل واقع اجتماعي هو في أصله قيمة ثقافية خرجت إلى حيّز التنفيذ، فجوهر الأول هو جوهر الأخرى ضرورة.⁵

¹ - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص71.

² - نفس المرجع، ص ص 72-73.

³ - نورة خالد السعد، مرجع سابق، ص107.

⁴ - Malek Bennabi, Le problème des idées dans le monde musulman, op cit, p29.

⁵ - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص104.

2- من حيث المبدأ: يعرفها بأنها: إنتاج فكرة حيّة تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التّحضر، الدّفعة التي تجعله يدخل التّاريخ، فيبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقاً للنّموذج المثالي الذي اختاره، وعلى هذا النحو تتأصل جذوره في محيط ثقافي أصيل، يتحكّم بدوره في جميع خصائصه التي تميّزه عن الثقافات الأخرى.¹

3- من حيث التّركيب: الحضارة ليست، أساساً، تكديس منتوجات حضاريّة بل هي بناء مركّب اجتماعي يشمل ثلاثة عناصر فقط، مهما كانت درجة تعقيدها كحضارة القرن العشرين²، فكّل حضارة تستلزم رأس مال أولي مكوّن من: الانسان، التّراب والوقت فهي مركّب من هذه العناصر الثلاثة الأساسيّة لابدّ أن يجمعها ويركبها العامل الأخلاقي ويفرض تماسكها، من غير هذا العامل يوشك أن تتمخّض العملية عن كومة لا شكل لها متقلّبة عاجزة عن أن تأخذ اتّجاهاً، أو تحتفظ به، أو أن تكون لها وجهة، بدلاً من أن تكون (كلّاً) محدّداً في مبناه وفيما يهدف إليه.

4- من حيث الوظيفة: فهي "إنّها جملة العوامل المعنويّة والماديّة التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكلّ عضو فيه جميع الضّمانات الاجتماعيّة اللازمة لتطوّره"³

5- من حيث الوحدة: فهي من هذا الجانب "أي مجموع منسجم من الأشياء والأفكار بصلاتها ومنافعها وألقابها الخاصّة وأماكنها المحدّدة."⁴

إنّ الحضارة عند بن نبي "هي مجموع الشّروط الأخلاقيّة والماديّة التي تتيح لمجتمع معيّن أن يقدّم لكلّ فرد من أفراده في كلّ طور من أطوار وجوده منذ الطّفولة إلى الشّيخوخة المساعدة الضّروريّة في هذا الطّور أو ذاك من أطوار نموّه."⁵ وأيضا "هي مجموعة الشّروط المعنويّة والماديّة التي تتيح لمجتمع ما أن يقدّم الضّمانات الاجتماعيّة لكلّ فرد فيه."⁶

- إنّ المعطيات النّفعيّة والضّمانات الحياتيّة هي المؤشّر على أداء الحضارة لوظيفتها وبالتالي فإنّ العمل التّغييري الحضاري هو عمليّة تأليف بين الإنسان والتّراب والزمن بواسطة الدّين الذي يتيح توجيه الإنسان ثقافيّاً بما يؤهّله لاستغلال وتوظيف طاقاته والمواد الأوليّة في الأرض،

¹ - Malek Bennabi, **Le problème des idées dans le monde musulman**, op cit, p29.

² - مالك بن نبي، **تأملات**، مرجع سابق، ص 200.

³ - مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، تر: بسام بركة وأحمد شعبو، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 2002، ص42.

⁴ - مالك بن نبي، **فكرة الإفريقية الآسيوية**، مرجع سابق، ص 134.*

⁵ - مالك بن نبي، **القضايا الكبرى**، مرجع سابق، ص43.

⁶ - مالك بن نبي، **مجالس دمشق**، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 2006، ص67.

واستغلال الزّمن عمليًا واجتماعيًا بما يؤدّي إلى الحضارة.¹ ووضع بذلك بن نبي مقياس لدراسة درجة حضارة ما "بملاحظة الطّريقة التي يتّبعها الإنسان ليتفاعل مع بيئته".²

"فالإنسان في المرحلة الحضارية البدائية يبذل الحد الأدنى من جهده بينما في المرحلة الحضارية العاملة يبذل الإنسان الحد الأقصى من جهده لتحقيق التّوافق والتّكيف مع هذه البيئة مؤرخًا كمايلي: فالانتقال من الحياة البدائية الرّاكدة إلى الحياة العاملة النّشطة، هو الذي يسجّل إذ بداية حضارة ما أو نهضة معيّنة"³

ثالثا: الثقافة: يعتبر مالك بن نبي الثقافة من أهمّ عوامل التّغيير الاجتماعي "إنّ الثقافة المربيّة من خلال دورها التّغييري في المجتمع تقوم بتحويل الفرد من كونه ذا نزعة فردية إلى شخصية اجتماعية، أي إلى ذرة حضارية قادرة على التّفاعل المُنْمِر ومنها يبدأ فعل التّغيير الاجتماعي"⁴

- التّمييز بين العلم والثّقافة: العلم والمعرفة عند مالك بن نبي مفهومان غير مترادفين لاختلاف وظيفتهما "إنّ العلم يعطي المعرفة، إنّه يعطي اللّباقة والمهارة، وفقا للمستوى الاجتماعي الذي يتمّ عليه البحث العلمي، والعلم يعطي امتلاك القيم التّقنيّة التي تولّد الأشياء.

- والثّقافة تعطي العلم، إنّها تعطي السّلوک، والغنى الدّاتي يتواجد على كلّ مستويات المجتمع، والثّقافة تعطي امتلاك القيم الإنسانيّة التي تخلق الحضارة."⁵

-الثّقافة تولّد العلم دائما، والعلم لا يولّد الثّقافة دوما، ولا يمكن استبدال أحدهما بالآخر. فالثّقافة مفهوم أعمّ وأشمل من العلم، وهذا التّمييز أساسي، أوّلا بغية وضع برنامج يهدف إلى الارتقاء بثّقافة بلد ما إلى أعلى مستوى من مستويات الحضارة، وثانيا في فهم الظّواهر الاجتماعية والسّياسيّة الهامّة.

رابعا: الايديولوجيا: استخدم بن نبي مصطلح الايديولوجيا ويعني به العنصر الذي يحقّق جمع وتحريك الطّاقات الاجتماعيّة أو تحقيق الوحدة في النّشاط الاجتماعي بواسطة إدماج النّشاط الفردي "للشّخص" الذي صاغته الثّقافة في النّشاط الاجتماعي لإقامة الحضارة."⁶

¹ - مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، مرجع سابق، ص 19. *

² - نورة خالد السّعد، مرجع سابق، ص 109.

³ - مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص 85.

⁴ - نورة خالد السّعد، مرجع سابق، ص 112.

⁵ - مالك بن نبي، **من أجل التّغيير**، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط5، 1427هـ/2006، ص 54.

⁶ - عبد الله بن حمد العويسي، مرجع سابق، ص 315.

- ويستمدّ مالك بن نبي معطيات هذا المفهوم من واقع النشاط المشترك للأفراد في المجتمع، فالعمل الجماعي يختلف بالطبع عن العمل الفردي إذ أنّ العمل الجماعي هو العمل الذي يتمّ انجازه وفق مبرّر واحد ومنهج واحد من طرف الأشخاص المشتركين في انجازه، وكذا يتمّ انجاز هذا العمل الجماعي لابدّ من الايديولوجيا بوصفها إطاراً يحرك الطّاقات الاجتماعية للأفراد من خلال توفيرها الباحث الواحد وأيضا المنهج الواحد¹، فالإيديولوجية في مجملها هي أفكار قويّة وموجّهة، تخدم مصالح عامّة وطويلة المدى، بينما إن كانت لا تتضمّن إلّا مصالح عاجلة فإنّها تمثّل سياسة قصيرة محدودة المدى، على قدر الشّعارات التي دفعتها "فالإيديولوجية تتطلّب إذن خمائر أخرى تضمن الوحدة الصّوريّة بين عمل الدّولة وعمل الفرد لإنجاز مهمّات بعيدة ترتكز على النّقة والبطولة"²

خامساً: شبكة العلاقات الاجتماعية: شبكة العلاقات الاجتماعية هي مجموع العلاقات الاجتماعية الصّوريّة النّاتجة عن الصّلات والعلاقات بين عوالم الأشخاص والأفكار والأشياء في المجتمع، وتبدأ وظيفتها في المجتمع منذ ميلاد هذا المجتمع إذ أنّها أوّل عمل تاريخي يقوم به المجتمع، وميلاده مشروط باكتمال هذه الشّبكة من العلاقات الصّوريّة والذين بوصفه علاقة روحية بين الله والإنسان هو العنصر الرّئيسي لميلاد العلاقات الاجتماعية التي تربط الإنسان بأخيه الإنسان في المجتمع.³

- لهذا عندما يربط مالك بن نبي بين شبكة العلاقات الاجتماعية والتّاريخ يجد أنّ شبكة العلاقات الاجتماعية هي العمل التّاريخي الأوّل الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده.⁴ وأبرز هذه العلاقات الاجتماعية هي علاقة الزواج فالزّواج مثلاً يعدّ علاقة اجتماعية جوهريّة، وهو من النّاحية التّاريخية يعدّ أوّل عقدة في شبكة العلاقات التي تتيح لمجتمع معيّن أن يؤدّي نشاطه المشترك⁵، ويرى أنّ المجتمع ليس مجرد تكديس للأفراد في جماعة بشرية ضمن إطار مكاني وزماني "فقبل أن تتجمّع الأفراد تكون هناك فكرة عامّة هي التي تؤلّف بين أفراد المجتمع فإذا فقدت هذه الفكرة فقدت

¹ - نفس المرجع، نفس الصفحة.

² - مالك بن نبي، بين الرّشاد والنّية، مرجع سابق، ص 84.

³ - نورة خالد السعد، مرجع سابق، ص 114.

⁴ - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 28.

⁵ - نفس المرجع، ص 52.

الصّلات بين الأفراد وتفكّك المجتمع وضاعت المصلحة التي كانت تتمثّل فيه¹، وعندما يتخلّص الإنسان في مجتمعه من أنانيّته ويحتك بالآخرين ويكون معهم علاقات اجتماعيّة يتحوّل من فرد إلى شخص، وهذا ما أكّد عليه مالك بن نبي منطلقاً من الآيات القرآنية والأحاديث النبويّة.

قال الله تعالى: (وَابْتَغْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ فِي الدُّنْيَا) سورة القصص، الآية 77 وقال الرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "الدُّنْيَا مَطْيَةُ الْآخِرَةِ"

فالحياة الاجتماعية بالنسبة للمسلم لا تتفصل فيها الحياة الدنيويّة عن الحياة الأخرويّة "إنّ العمل الأول في طريق التغيير الذي يغيّر الفرد من كونه (فرداً) Individu إلى أن يصبح (شخصاً) Personne وذلك بتغيير صفاته البدائيّة التي تربطه بالنوع إلى نزعات اجتماعيّة تربطه بالمجتمع"² - وفي مفهومه عن شبكة العلاقات الاجتماعية يرى أنّ التي تشكّل هذه الشبكة ليست "مجرد أثر ناتج عن إضافة أشخاص وأفكار وأشياء إلى المجتمع. فالواقع أنّنا حين نتحدّث عن عالم من هذه العوالم الثلاثة، فإننا نقصد إلى الحديث عن المجتمع في مرحلة من مراحل تغييره، أي في مرحلة يعد كلّ عالم منها - في ذاته - ثمرة هذا التغيير.³

- الدّين الإسلامي دين عبادات ومعاملات فالعبادة هي العلاقة الروحيّة بين العبد وربّه وأمّا المعاملات فهي العلاقة الاجتماعيّة بين العبد وأخيه. عن أبي ذرّ جندب بن جنادة وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اتَّقِ اللَّهَ حَيْنَمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ) رواه الترمذي⁴ إذ أوّل واجبات الفرد تقوى الله أينما كان، ثم علاقة الفرد بنفسه والتي تتّوجب عليه أن يضاعف من الحسنات لأنّها تطهره وتمحي سيئات أعماله، فتتضاءل وتتناقص الذنوب، وتحصل الطمأنينة النفسيّة. وثالثاً علاقة الفرد بالناس والمبنية على الأخلاق الحسنة والمعاشرة الطيّبة وذلك طبقاً للآيات الكريمة (لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) سورة آل عمران، الآية 159 (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) سورة النحل، الآية 125.

وكما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم (الدّين معاملة)، فالإسلام يدعو إلى التخلّق بالأخلاق الحسنة والفضائل الطيّبة التي تحفظ أواصر المحبة والاحترام بين النّاس، وينبذ الرذائل والفتن.

¹ - مالك بن نبي، تأملات، مرجع سابق، ص 157.

² - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 31.

³ - نفس المرجع، ص 29.

⁴ - يحيى بن شرف الدّين النووي، مرجع سابق، ص 48.

قال الله تعالى: (أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) سورة الحجرات، الآية 11 في الآية الكريمة نهى المؤمنين من السخرية واللمز والهمز والتنابز بالألقاب.

المطلب الرابع: دور الانسان في التغيير الثقافي

إنّ التغيير الاجتماعي هو بالضرورة عملية تغيير ثقافي، إذ أنّ التغيير في البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لابدّ أن يشمل التغيير في التصورات الثقافية للمجتمع. ومن هنا فإنّ عملية إعادة بناء الثقافة في المجتمع وصياغتها تربوياً إنّما هي تأكيد منهجي لعملية التغيير وتأسيس جوهري لإعادة البناء الاجتماعي.

لقد أوضح مالك بن نبي في نظريته في التغيير الاجتماعي أساس هذا التغيير ومجالاته سواء على مستوى الفرد أو المجتمع. كما أكد أنّ الوظيفة الأساسية للدين بمفهومه العام تكمن في إحداث كافة التغييرات الاجتماعية التحويلية الهامة في ثلاثية: الانسان، الزمن والتراب وما يتبعها من معطيات نفسية اجتماعية تحدث من خلالها التغييرات لتحقيق الغاية النهائية لحركة المجتمع حيث يتحقّق في النهاية في شكل الحضارة.¹

- وأساس التغيير الثقافي عند مالك بن نبي هو الدين. فالحضارات بصفاتها هدفا لأيّ تغيير اجتماعي تقوم على الدين بوصفه عاملاً أساسياً في تركيبها وإقامتها، على خلاف المذاهب المادية التي تجعل الدين عارضا في تاريخ الثقافة الإنسانية.

"على أية حال، فالثورة لاتستطيع الوصول إلى أهدافها، إذا هي لم تُغيّر الإنسان بطريقة لارجعة فيها من حيث سلوكه وأفكاره وكلماته. وإذا مانظرنا على الأمور في عمقها، فإنّ ثورة ما، لابدّ لها أن تسير طبقا للقانون الاجتماعي الذي تشير إليه الآية الكريمة: "إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم" سورة الرعد، الآية 11.

¹ - سليمان ملوكي، مرجع سابق، 2010، ص 97.

خلاصة الفصل:

التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي مسعاه إنشاء الحضارة، هو تغيير نحو النمو والبناء.

وعمد إلى تبيان مميزات هذا التغيير من خلال تحديد مجالاته الثلاث وهي الإنسان والتّراب والوقت لأنها تعكس صيغة المعادلة الحضارية عنده وهي: الإنسان والتّراب والزّمن وبتركيب من الفكرة الدينيّة.

- والمجتمع المتهالك والمتداعي لا يبالي بهذه العناصر وإنّما يحاول استجلاب الحضارة لديه من خلال منتجات حضارة أخرى لا يستطيع السّمو إليها أو من خلال استغلال أفكاره المميّنة أو استجلاب الأفكار القاتلة (المميّنة) من مجتمعات أخرى ماتت أفكارها (صارت غير فعالة اجتماعيًا).

أمّا التغيير الثقافي فيمسّ التّصورات الثقافيّة للأشخاص ويظهر في سلوكياتهم ومعاملاتهم مع الآخرين إنّه يمسّ أخلاقهم وذوقهم الجمالي ومنتجاتهم المصنوعة وأسلوب تخطيطهم وتوجيههم في الحياة، إذن البناء الاجتماعي يؤثّر في البناء الثقافي للمجتمع الجزائري لهذا اقترح المفكّر مالك بن نبي تأسيس مراكز تكوين وتوجيه تسعى لإثراء الثقافة الجزائريّة، ومهمّة هذه الأخيرة إيجاد الحلول للصّعوبات التي يواجهها المجتمع الجزائري.

البرامج الميدانية

للدّراسة

الفصل السادس:

عرض وتحليل بيانات الجداول

الخاصة بكتب العينة

تمهيد:

- في هذا الفصل قمنا بعرض وتحليل بيانات الجداول الخاصة بكتب العينة وهي على التوالي: القضايا الكبرى، تأملات، شروط النهضة، فكرة كمنوليث إسلامي، مجالس دمشق، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مشكلة الثقافة، من أجل التغيير، ميلاد مجتمع، وجهة العالم الإسلامي. معتمدين على أهم المفاهيم المرتبطة بمفهوم الثقافة، المرض الاجتماعي والتغيير الاجتماعي والثقافي، فعرضنا جداول أولية لكل كتاب يظهر فيها توزيع المفاهيم الأساسية، ثم استخرجنا منها بعض الجداول الفرعية المرتبطة بمفاهيم الثقافة، المرض الاجتماعي والتغيير الاجتماعي والثقافي وتكيفها مع محتوى كل كتاب، نظرا لتشعب المواضيع التي يعالجها بن نبي في كل كتاب من جهة، وأن بعض الكتب هي مجموع محاضرات ألقاها بن نبي في مناسبات مختلفة. مايجعل ضبط الفرضيات حسب الكتب أمرا صعبا، لهذا تم تقسيم الفصل بعرض وتحليل بيانات الجداول حسب كتب العينة بدل الفرضيات لنقوم بربط ذلك بفرضيات العينة في الفصل السابع. كما عرضنا في جدول إجمالي حوصلة توظيف المفاهيم الهامة في كتب العينة.

1- تحديد مجتمع البحث واختيار العينة

تحديد مجتمع البحث:

لمعرفة وحصر الفكر السوسيولوجي عند مالك بن نبي وللكشف عن المقاربة السوسيولوجية للمجتمع الجزائري عند مالك بن نبي وتحليلها لابدّ من الاطلاع ودراسة كلّ مؤلفاته حتّى تكون الدراسة شاملة، إذن مجتمع البحث هي كلّ مؤلفات مالك بن نبي، غير أنّه ولسعة هذه المؤلفات وتنوّعها وتشعب مواضيعها وتخصّصها، بما فيها ذات الطابع الاقتصادي، ونظرًا لضيق الوقت لانجاز هذه الدراسة، ارتأينا اختيار بعض المؤلفات لإجراء تحليل محتواها المتعلقة بالمقاربة السوسيولوجية والتي تخدم إشكاليّة البحث وفرضيّاته (الثقافة والمرض الاجتماعي والتغيير الاجتماعي والثقافي).

اختيار العينة:

عينة البحث هي عينة مقصودة مختارة من طرف الباحث لأنّها خاضعة لطبيعة الموضوع. اخترنا مجموعة من كتب مالك بن نبي هي: القضايا الكبرى، من أجل التغيير، تأملات، فكرة كمنويلث إسلامي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مشكلة الثقافة، مجالس دمشق، ميلاد مجتمع (شبكة العلاقات الاجتماعية)، شروط النهضة، وجهة العالم الإسلامي.

1- القضايا الكبرى: (LES GRANDS THEMES): من ضمن سلسلة مشكلات الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر الجزائر وسوريا، ط4، 1404هـ/1984م، يتكون من 224 صفحة من الحجم المتوسط، ذكر في بدايته وصية مالك بن نبي إلى عمر كامل مساوي بالتكفل بنشر كتبه، ثم مقدمة الكتاب، ومقدمة الطبعة الفرنسية، يشمل على ثلاث محاضرات:

مشكلة الحضارة (محاضرة أُلقيت بالّلغة الفرنسية في الجزائر العاصمة بتاريخ 1964/01/09
مشكلة الثقافة: محاضرة أُلقيت بالّلغة الفرنسية في الجزائر العاصمة بتاريخ: 1964/01/15،
وبالّلغة العربية في مدينة قسنطينة بتاريخ 1964/01/30.

مشكلة المفهومية (De l'idéologie) محاضرة أُلقيت بالّلغة الفرنسية في الجزائر العاصمة بتاريخ 1964/02/24م، ونشرت كاملة بجريدة الشعب (الفرنسية) في فيفري (شباط) سنة 1964م.
الديمقراطية في الإسلام: محاضرة أُلقيت بنادي الطلبة المغاربة سنة 1960م وقد نشرت مع مجموعة مقالات كتاب تأملات.

إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي

المسارد (مسرد الآيات القرآنية - مسرد الأحاديث النبوية - مسرد الأعلام (الأشخاص والدول والأمكنة) - مسرد المذاهب والجماعات والشعوب - مسرد المعاهدات والمؤتمرات والمنظمات - مسرد الكتب والمراجع والمصادر - مسرد الموضوعات)

وقد وظّفنا هذا الكتاب في توضيح مفاهيم الحضارة - الثقافة - المفهومية - الديمقراطية - وكذا التعرف على انتاج المستشرقين ومدى تأثيره في الفكر الإسلامي الحديث من وجهة نظر مالك بن نبي ومركباتها،...

2 - تأملات: من ضمن سلسلة مشكلات الحضارة، من الحجم المتوسط يشمل 239 صفحة، هذا الكتاب كان قد صدر قسم منه عام 1960م، تحت عنوان (حديث في البناء الجديد)، وقسمه الآخر صدر عام 1961م تحت عنوان (تأملات في المجتمع العربي) يدخل في نطاقها المجتمع العربي، كما يدخل العالم الإسلامي والعالم المتخلف في عمومهم.

- إنها حصيلة ملاحظ بال مؤلف من أحداث في الخمسينات وبداية الستينات، والمحاضرات التي نشرت تحت عنوان (حديث في البناء الجديد) جاءت حصيلة زيارة مالك بن نبي عام 1959م دمشق في طريقه لبنان.

- هذه المحاضرات المعنونة: الصعوبات بوصفها علامة نمو في المجتمع العربي، المسوّغات في المجتمع، قيم إنسانية وقيم اقتصادية، الديمقراطية في الإسلام، التضامن الإفريقي الآسيوي، الفعاليّة، الثقافة، كيف نبني مجتمعا أفضل، خواطر عن نهضتنا العربية، رسالتنا في العالم.

ثم مسارد الكتاب: مسرد الآيات القرآنية - مسرد الأحاديث النبوية - مسرد الأعلام (يشمل الأشخاص والدول والأماكن) - مسرد المذاهب والجماعات والشعوب - مسرد المعاهدات والمؤتمرات والمنظمات - مسرد المراجع والمصادر - مسرد الموضوعات.

3 - فكرة كمنويلث إسلامي: كذلك من سلسلة "مشكلات الحضارة" يحتوي على 94 صفحة، بدأ بن نبي مشروع كتابته في الخمسينات من القرن الماضي، يستمدّ الكتاب مسوّغاته من الخريطة السياسيّة والحضاريّة المنتشرة آنذاك محور واشنطن - موسكو وتبعاته من انشاء وحدات جغرافيّة سياسية بقي العالم الإسلامي خارجه.

اشتمل الكتاب على مجموعة عناوين هي: المقدمة، الخلاصة، القسم الأول: مشروع دراسة شاملة، القسم الثاني: قيمة الفكرة في المجتمع الإسلامي، القسم الثالث: وظيفة كمنويلث إسلامي، الخلاصة.

فمالك بن نبي في هذا الكتاب يرسم إطارا لمشروع يمنح العالم الإسلامي موقعا له في خريطة العالم المعاصر، ويعتبر عمر مسقاوي أنّ قضية الحضارة ومشكلاتها قد حدّد مالك بن نبي إطارها الفكري في مختلف كتبه، بينما حدّد إطارها الجغرافي في كتاب (فكرة كمنويلث إسلامي).

4 - مجالس دمشق: يشمل على 192 صفحة، هي محاضرات أُلقيت في عامي 1971-1972م، حول دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين.

كتاب يضمّ ستّ محاضرات في مشكلات الحضارة المعاصرة ودور المسلمين فيها. وهي

1- القابلية للاستعمار والحضارة- الإسلام: أشار إلى سبب تأخر المجتمع الشرقي هو تعطيل الفكر لا وجود الاستعمار.

2- الثقافة والأزمة الثقافية: بناها على فرضيتين، سوء إدراك مفهوم الثقافة، وخلل التطبيق، فبيّن وضع الثقافة في المجتمع المسلم، وأثر المجتمع في ثقافة الفرد. وفرق بين الثقافة والعلم، وما ينتظر من الثقافة أن تقدم.

3- الحقوق والواجبات: أثر فهم المجتمع لها في نمائه سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، وبيّن أن المجتمع الآخذ في الارتقاء يقدم الواجبات على الحقوق.

4- المرأة والرجل أمام واجبات واحدة في مرحلة النهضة: تحدث عن أوضاع المجتمع المسلم، ومتطلبات النهوض به وإنقاذه.

وتناولت المحاضرتان الأخيرتان، وهما النتيجة لما سبق من كلام، (دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين)، فمهد بالحديث عن أهمية أحداث القرن المشار إليه، وما يتّصف به من التّغيرات العميقة، وما حدث فيه من مخاطر مرّقت الشّباب، وأدّت إلى إفلاس الحضارة الحاليّة والأديان القائمة وانهايار الأخلاق والقداسات وافتقار الروحانيات، ومن هنا يبرز واجب المسلم الذي يحمل رسالة إنقاذ نفسه وإنقاذ العالم من الضياع. وفرق أخيرا بين الدّين والرّسالة.. وفي سبيلها طالب المسلم بأن يعرف نفسه، ويعرف الآخرين، وأن يعرفها للآخرين وأن يرتفع إلى مستوى الحضارة، وفوق مستوى الحضارة الحاليّة.

5 - مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي(1970): (Le problème des idées dans le monde musulman)

من ضمن سلسلة مشكلات الحضارة، يحتوي على 163 صفحة، من الحجم المتوسط، اعتبره بن نبي دراسة شاملة لمشكلة الأفكار في المجتمع الإسلامي، لأنّ المشكلة مشكلة أفكار، والعالم الإسلامي منذ انحطاطه مابعد عصر الموحّدين يواجه مشكلة أفكار لأمشكلة وسائل.

ألفه خلال 10 أعوام وباللغة الفرنسية وترجمه الدكتورين: بسام بركة وأحمد شعبو (أستاذي الأدب الفرنسي بالجامعة اللبنانية) تحت إشراف الأستاذ عمر مسقاوي.

جاء في سبعة عشر 17 فصلاً، مفصلة كمايلي:

الفصل الأول: الإجابتان على الفراغ الكوني. الفصل الثاني: الطفل والأفكار. الفصل الثالث: المجتمع والأفكار. الفصل الرابع: الحضارة والأفكار. الفصل الخامس: الطاقة الحيوية والأفكار. الفصل السادس: عالم الأفكار. الفصل السابع: الأفكار المطبوعة والأفكار الموضوعية. الفصل الثامن: جدلية العالم الثقافي. الفصل التاسع: جدلية الفكرة والشئ. الفصل العاشر: صراع الفكرة- الوثن. الفصل الحادي عشر: أصالة الأفكار وفعاليتها. الفصل الثاني عشر: الأفكار وديناميكا المجتمع. الفصل الثالث عشر: الأفكار والاطراد الثوري. الفصل الرابع عشر: الأفكار والسياسة. الفصل الخامس عشر: الأفكار وزدواجية اللغة. الفصل السادس عشر: الأفكار الميئة والأفكار المميئة. الفصل السابع عشر: انتقام الأفكار المخدولة

المسارد (مسرد الآيات القرآنية- مسرد الأحاديث النبوية- مسرد الأعلام (الأشخاص والدول والأمكنة)- مسرد المذاهب والجماعات والشعوب- مسرد المعاهدات والمؤتمرات والمنظمات- مسرد الكتب والمراجع والمصادر- مسرد الموضوعات)

6 - مشكلة الثقافة: من ضمن سلسلة مشكلات الحضارة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر الجزائر وسوريا، ط4، 1404هـ/1984م، يتكون من 152 صفحة من الحجم المتوسط، ذكر في بدايته وصية مالك بن نبي إلى عمر كامل مسقاوي بالتكفل بنشر كتبه، ثم تصدير واهداء وكذا مقدمتي للطبعة الأولى والطبعة الثانية، مقسم إلى:

الفصل الأول: تحليل نفسي للثقافة يشمل على عنوانين رئيسيين: أوليات- الثقافة وعلم الاجتماع. الفصل الثاني: تركيب نفسي للثقافة يشمل على العناوين الرئيسية التالية: تراكيب جزئية وتركيب عام- الحرفية في الثقافة- التوجيه الأخلاقي- الأزمة الثقافية. الفصل الثالث: تعايش الثقافات- الفصل الرابع: الثقافة في اتجاه العالمية- الفصل الخامس: ماضد الثقافة (L'anti-culture) خاتمة، ثم المسارد (مسرد الآيات- مسرد الأحاديث- مسرد الأعلام- مسرد المذاهب والجماعات والشعوب- مسرد المعاهدات والمؤتمرات والمنظمات- مسرد المراجع والمصادر- مسرد الموضوعات)

وقد وظفنا هذا الكتاب في توضيح مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي ومركباتها،.....

7 - من أجل التّغيير: من ضمن سلسلة مشكلات الحضارة، من الحجم المتوسط، يشمل 144 صفحة، احتوى على ثلاثة فصول، الفصل الأول: في البناء الاجتماعي - الفصل الثاني: في البناء الثقافي - الفصل الثالث: نحن والاستعمار

الفهرس يشمل على مسارد (مسرد الآيات القرآنية-مسرد الأعلام (الأشخاص والدّول والأمكنة)- مسرد المذاهب والجماعات والشّعوب- مسرد المعاهدات والمؤتمرات والمنظمات - مسرد الموضوعات).

8 - ميلاد مجتمع (شبكة العلاقات الاجتماعية): 1962م (Naissance d'une société)

يحتوي هذا الكتاب على 107 صفحة مقسّم إلى مقدّمة وستة عشر قسم وليست فصلاً، وتبدو على أنّها مجموعة مقالات جمعت لتكون مادّة هذا الكتاب. ومواضيع الكتاب: أوليّات، النّوع والمجتمع، الآراء المختلفة في تفسير الحركة التاريخيّة، التّاريخ والعلاقات الاجتماعيّة، طبيعة العلاقات، الثّروة الاجتماعيّة، المرض الاجتماعي، المجتمع والقيمة الأخلاقيّة، الدّين والعلاقات الاجتماعيّة، شبكة العلاقات والجغرافيا، العلاقات الاجتماعيّة وعلم النّفس، الدّفاع عن شبكة العلاقات الاجتماعيّة، الشّروط الأولى للتّربيّة الاجتماعيّة.

استعملنا هذا الكتاب في تبيان ماهية المرض الاجتماعي، وتقسيم المجتمعات، ومعرفة المؤثرات الايجابيّة والسّليبيّة فيه ونطاق هذا المرض الاجتماعي.

9 - شروط النّهضة: 1949 (Les conditions de renaissance) يتألّف من 159 صفحة من

الحجم المتوسط، مقسّم إلى مقدّمة للمؤلّف للطّبعة الفرنسيّة ثمّ مقدّمة أخرى للطّبعة العربيّة، يتألّف من بابين أحدهما قصير يحمل عنوان: الحاضر والتّاريخ والباب الثاني يحمل عنوان: المستقبل. "هذا الكتاب هو عرض للأعمال التي تمثّل الشّروط الكفيلة في اجتماعها بالخروج من الاستعمار والتّخلف وذلك حين تأخذ طريقها في تداعيات النّهضة والنّمو الاجتماعي والثقافي.¹

وظفنا هذا الكتاب في فهم التّغيير الاجتماعي مجالاته (الانسان، التّراب والزمن)، عوامله (الحضارة، الدّين، الثقافة، شبكة العلاقات الاجتماعيّة، الايديولوجيا) مراحل (مرحلة الرّوح، مرحلة العقل، مرحلة الغريزة) وأثر بعض المفاهيم في الحضارة باعتبارها تمثّل التّغيير الاجتماعي في أعلى درجاته كالتّاريخ، العلاقات الاجتماعيّة...

¹ - نفس المرجع، نفس الصفحة.

10 - وجهة العالم الإسلامي 1954: (La vocation de l'Islam) ألف هذا الكتاب باللغة الفرنسية وترجمه إلى العربية عبد الصبور شاهين وقوم له الدكتور محمد المبارك، يتألف الكتاب من 200 صفحة مقسمة إلى ستة فصول وخاتمة، في الفصل الأول يتحدث مالك بن نبي عن تاريخ المجتمع مابعد المؤخدين والاتصال بين أوروبا والعالم الإسلامي، في الفصل الثاني يتطرق إلى النهضة من خلال حركة الإصلاح والحركة الحديثة في عصره، الفصل الثالث يتطرق إلى فوضى العالم الإسلامي الحديث، العوامل الداخلية والعوامل الخارجية، الفصل الرابع يتكلم عن فوضى العالم الإسلامي في العالم الغربي، أما في الفصل الخامس والسادس يتحدث عن المستقبل والمخرج من هذه الفوضى ليصل في الخاتمة إلى الحديث عن المآل الروحي للعالم الإسلامي. "كتب عقب إنشاء إسرائيل، مستوحى من كتاب شروط النهضة لكنه خطاب في مستوى العالم الإسلامي إنه تحديد للطرق التي يجب سلوكها لتحقيق عالم كلي¹.

استعملنا هذا الكتاب في توضيح أعراض المرض الاجتماعي: أعراض سوسيونفسية (القابلية للاستعمار، الفخر والمديح، الرومانسية) وأعراض سوسيوثقافية (الشينية، اللفظية، الذرية، الجدلية والتبرير، الاضطراب الفكري والسلوكي، التعالم).

2- مجالات الدراسة :

[1] المجال المكاني:

لا ترتبط الدراسة بمجال مكاني معين لأنها دراسة تحليلية نقدية نستعمل فيه أداة تحليل المحتوى لأفكار مالك بن نبي في مجموعة من مؤلفاته حسب فرضيات الدراسة.

[2] المجال الزمني:

لقد مرت هذه الدراسة بالمراحل الزمنية التالية:

- مرحلة الدراسة المكتبية (2014-2016): سعينا في هذه المرحلة إلى جمع أكبر قدر من المعلومات عن مالك بن نبي، من خلال الانترنت والمجلات والكتب من المكتبات الوطنية والخاصة، وكذا اقتناء أغلب مؤلفاته من المكتبات أو معارض الكتب أو الصالونات الوطنية، العربية والدولية التي أقيمت في الجزائر. أو تحميلها عبر الانترنت.

¹ - نور الدين بوكروح، الفكر والسياسة لدى بن نبي، أعمال الملتقى الدولي مالك بن نبي 1905-1973 فكره وأعماله، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، ط2، 2006، ص30

- مرحلة القراءة (2017-2018): أول خطوة هي قراءة أول كتاب لمالك بن نبي وهو مذكرات شاهد للقرن، والذي ضمّنه سيرته الذاتية، والتي تشمل مرحلة الطفولة والشباب، بغية فهم طبيعته تنشئته الاجتماعية والظروف المحيطة بها سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا، وكذلك قراءاته المختلفة وأثرها في تفكيره بعد ذلك، بعدها تمّ الاطلاع على كتبه المختلفة من أجل فهم أكثر لفكره، وانتقاء الكتب التي علاقة مباشرة بدراستنا وتخدم الفرضيات.
- التحليل والمقارنة (2019-2021): انتقينا مجموعة كتب للمفكر مالك بن نبي، وقمنا بتحليل مضمون لكل كتاب من خلال انتقاء المفاهيم المتعلقة بالثقافة والمرض الاجتماعي والتغيير الاجتماعي والثقافي، كالدين، شبكة العلاقات الاجتماعية، التغيير الاجتماعي، الثقافة، الحضارة، الأفكار، الأخلاق، الجمال، التراث، الزمن والإنسان، الفعالية الاجتماعية... وحاولنا إيجاد العلاقة بينها. كما قارنًا بين ما قاله مالك بن نبي عن هذه المفاهيم وغيره من علماء اجتماع ومنظرين وباحثين في تحليلاتهم لهذه المفاهيم وإيجاد نقاط الالتقاء والاختلاف بينهما.
- مرحلة النقد والاستنتاج (2022): بعد كل تلك التحليلات والمقارنات والاستدلال بأقوال المفكر مالك بن نبي وغيره من الباحثين، ونقدنا لبعض ما ذهب إليه، توصلنا إلى الاستنتاج أين قدّمنا حوصلة عامّة عمّا طرحه وعالجه المفكر مالك بن نبي عن فكرة ما أو مفهوم ما مرتبط بالدراسة.

عرض وتحليل بيانات الجداول الخاصة بكتب العينة

1- عرض وتحليل بيانات الجداول الخاصة بكتاب القضايا الكبرى

جدول رقم: 2 توزيع المفاهيم الأساسية في كتاب القضايا الكبرى

المفهوم	ك	%
الأفكار	180	13,77
التاريخ	119	9,11
الثقافة	118	9,03
العلم	113	8,65
الواجبات	104	7,96
الحضارة	100	7,65
الانسان	99	7,57
الزمن	76	5,81
القيم	63	4,82
الفعالية	51	3,90
الأخلاق	35	2,68
النهضة	33	2,52
العلاقات الاجتماعية	30	2,30
الفن	27	2,07
العادات والتقاليد	24	1,84
الدين	23	1,76
القرب	23	1,76
الحقوق	19	1,45
اللغة	15	1,15
الجمال	13	0,99
القانون	11	0,84
المعتقدات	10	0,76

0,46	06	المرض
0,38	05	المثل
0,31	04	التربية
0,23	03	الدّوق
0,15	02	الثّراث
0,08	01	العرف
100	1307	المجموع

نستقرئ من بيانات الجدول الإحصائية الذي يمثل أهمّ المفاهيم المستخدمة والمتداولة لدى "مالك بن نبي" في كتابه المعنون بالقضايا الكبرى، أنّ أعلى نسبة تكرار مقدّرة عند مفهوم الأفكار بـ (13,81%) وتليها نسبة (09,13%) لمفهوم التّاريخ، ثمّ نسبة (09,06%) لمفهوم الثّقافة، أمّا مفهوم العلم فقد نسبته (08,67%) غير أنّ مفهوم الواجبات تحصّلت على نسبة (07,98%)، وتتنخفض النّسبة إلى (07,67%) عند مفهوم الحضارة، بينما كانت نسبة (07,60%) لمفهوم الانسان، كما أنّ مفهوم الزّمن كان له أهميته في فكر مالك بن نبي حيث قدّرت نسبته (05,85%) ومن جهة أخرى فإنّ مفهوم القيم لها دلالتها هي أيضا حيث بلغت (04,83%) إضافة إلى مفهوم الفعاليّة التي بلغت (03,91%).

ولفهم أعمق لهذه المفاهيم المستعملة في كتاب القضايا الكبرى المذكورة في هذا الجدول، قمنا باستخراج جداول فرعية من هذا الجدول الكلّي وربط بعض المفاهيم ببعضها وتبيان دلالاتها من منظور المفكر مالك بن نبي. وهي:

الجدول رقم: 3 تأثير الفعالية في الثقافة

المفهوم	ك	%
الثقافة	118	69,82
الفعالية	51	30,18
المجموع	169	100

نجد من خلال بيانات هذا الجدول المتعلق بتأثير الفعالية في الثقافة أنّ الثقافة بلغت نسبتها (69,82%) بينما بلغت نسبة الفعالية (30,18%)

أعطى مالك بن نبي أهمية كبيرة لعنصر الفعالية في المجتمع، باعتبارها تمدّ أفراد المجتمع بطاقة إيجابية، تساهم في تطوّر المجتمع، وتهدف إلى تحقيق المصلحة العامة بينهم "إنّ الإنقاص من عدم فعالية الفرد، يعني الإنقاص من تخلف المجتمع...إلاّ أنّه يتبقّى لنا أن نعقد الصلة بين الثقافة والفعالية باعتبارها صفة ملازمة للإنسان المتحضّر. فنتيجة الفعالية أمر مؤكّد بصورة إجمالية في الوضعية الاجتماعية والاقتصادية لمجتمع متحضّر معيّن، باعتبار أنّ حضارته ليست إلاّ التعبير عن مستوى معيّن للإنسان والتّراب والزّمن، متضمّنة جميعها في كلّ نتاج من منتجاتها، وفي تركيبها الأصيل بصورة عامّة.¹ ذلك أنّ أيّ منتج من منتجات الحضارة يعكس ويشمل مستوى معيّن للإنسان والتّراب والزّمن في مجتمع ما متحضّر.

كما أنّ نتيجة الفعالية أمر مؤكّد أيضا في بعض الحالات المعينة، وذلك عندما يوجد مجتمع معيّن نام على الصّعيد الصّناعي، في بعض الظروف الخاصة من تاريخه، ضمن حالة لايمك فيها غير وسائله الأولى، بحيث لا يستطيع أن يستعمل من أجل إعادة بنائه إلاّ هذه الوسائل فحسب، أي الإنسان والتّراب والزّمن.²

ويتبيّن تأثير الفعالية في الثقافة من خلال انعكاس سلوك الشّخص على الحياة الاجتماعية والاقتصادية لمجتمع تحرّكت دورة حضارته، إذ يطلق المجتمع الجزائري على الانسان المبادر والمشارك والمندمج في الحياة الاجتماعية والاقتصادية بحكم سلوكه الفعّال أنّه "شخص مثقّف" وهذا ليس إلاّ لأنّه حقّق ارتباطه بمجتمعه وساهم في خدمته.

ففي الأوساط المهنية يبادر العمال بطرح المشاكل، بينما إذا كانت فعاليتهم مرتفعة فإنّهم يشاركون في حلّها.

¹ - مالك بن نبي، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص71.

² - نفس المرجع، ص 71.

وباعتبار المدرسة مؤسسة تنشئة اجتماعية إلا أنها لا تشكل لوحدها الصفات الاجتماعية للشخص بل يستمدّها من محيطه الاجتماعي، وكذا فعاليّته أو عدمها يكتسبها منه، "إنّ الفرد لا يدين بصفاته الاجتماعية لتشكيله المدرسي ولكن لشروط خاصّة بوسطه. أمّا من حيث سلوكنا السلبي إزاء هذه المشكلة أوتلك، فإنّ جميع أسباب اللافعالية الخاصّة بوسطنا هي التي تجعل ممّا أشخاصاً فاقدين للفعاليّة"¹

وتوصّل بن نبي من خلال ملاحظاته حول تباين سلوك الأشخاص إلى النتائج التّالية:

"1- التّخلف هو نتيجة أو حاصل ضروب اللافعالية الفرديّة، فهو فقدان للفعالية على مستوى مجتمع معيّن.

2- اللافعالية لا يمكن التّخفيض منها بواسطة تكوين يقتصر تصوّره على الإطار المدرسي.

3- مشكلة السّلك ترجع إلى الثّقافة، ولكن هذه الثّقافة يجب أن يتمّ تصوّرها وإعدادها ضمن إطار اجتماعي يشمل سائر المجتمع، ولا يقتصر على صنف اجتماعي معيّن."²

فاللافعالية في مجتمع ما تفرز تخلفه، ولا يمكن إسناد علاج اللافعالية إلى المدرسة فقط، بل يتمّ في إطار ثقافي واجتماعي عام. ولهذا يتساءل مالك بن نبي عن كميّة تشكيل سلوك فعّال، وتخليصه من اللافعالية. "كيف يتمّ إعداد ثقافة متلائمة مع السّلك الفعّال؟

إذن فهذا السّلك الأخير لا يتشكّل على مقاعد الدّراسة، ولكن ضمن مجموع الإطار الاجتماعي-الثّقافي الذي يحيط بالفرد. ومنذئذ يصبح بالإمكان أن نحدّد الثّقافة باعتبارها نتاجاً للبيئة."³

إنّها البيئة الاجتماعية بكلّ فئاتها وطبقاتها التي تسند لها هذه المهمّة، "الثّقافة باعتبارها مصدراً لوجوه السّلك، ليست مقصورة على صنف اجتماعي معيّن، ولكنّها جميع الطبقات الاجتماعية."⁴ وعليه فلا يمكن بأيّة حال حصر الثّقافة كمنتج للعمليّة التّعليميّة في المدرسة فقط بل هي ظاهرة بيئيّة اجتماعيّة.

"الثّقافة ليست ظاهرة صادرة عن المدرسة، ولكنّها ظاهرة ناجمة عن البيئة."⁵ إذن "الثّقافة تمثّل ظاهرة بيئة، قبل أن تكون ظاهرة مدرسة."⁶

¹ - نفس المرجع، ص 77.

² - نفس المرجع، ص 78.

³ - نفس المرجع، ص ص 79، 80.

⁴ - نفس المرجع، ص 80.

⁵ - نفس المرجع، ص 77.

⁶ - نفس المرجع، ص 81.

ويمكن ربط ذلك بما سمّاه بنبي بالنّعالَم بصفته من أعراض المرض الاجتماعي، فقد تضعف لدى المتعلّمين أو حاملي الشّهادات الفعاليّة الاجتماعيّة التي تعني التماسك الاجتماعي حفاظا على المصلحة العامّة، في حين قد تظهر لدى فئات غير متعلّمة،.....

مفهوم التّغيير الثقافي عند مالك بن نبي :

يوجب المجتمع على الأفراد نمطا يوميا أو مناسباتيا معينا من السلوك، لكن قد تقتضي حاجاتهم الدائمة والمتغيرة بسبب تطور وتعقّد الحياة وبروز وسائل جديدة في حياتهم باعتبارها منتجات ابداعات واكتشافات جديدة فيظهر تعديل وتغيير في الإطار الثقافي للمجتمع لينتشر فيصبح ذو طابع اجتماعي يتقبّل من طرف المجتمع، وإلا فيأتي هذا التعديل في شكل انتقاد لوضع اجتماعي وثقافي تمسك به المجتمع ورفض تغييره من طرف الأفراد بينما الأفراد تمسكوا بتغييره وإيجاد بدائل له "إنّ المجتمع يقتضي سلوكا معينا من الأفراد، وهؤلاء يقومون برّد الفعل عن طريق اقتضائهم الخاص في صورة أسلوب معين للحياة، بحيث يتمّ هذا التبادل الذي يتولّى تعديل الإطار الثقافي بطريقة ذاتية في صورة إرغام اجتماعي من ناحية، وعملية نقدية من ناحية أخرى".¹

غير أنّ مالك بن نبي لا ينفى دور الثقافة في الدفاع والحفاظ على مكتسباتها بما يحمي هوية المجتمع ويحمي ثقافته من الأخطاء التي تصون بقاء هذه الثقافة "وكلّ ثقافة يجب أن تتولّى الدفاع عن تراثها وذلك أن تضع أولا بين الجسم الاجتماعي والفرد ذلك التبادر الذي يقوم الأخطاء من حيثما تأتت ومهما يكن مصدرها. إلا أنّ هذه المبادلة لا يمكن أن تمارس إلا إذا تمّ ربط الفرد بالجسم الاجتماعي، بالصورة التي تلتحم بها مادة البناء بكامل البنية".²

جدول رقم: 4 دور القيم في تكوين الثقافة

المفهوم	ك	%
الثقافة	118	65,19
القيم	63	34,81
المجموع	181	100

- من خلال قراءتنا لبيانات هذا الجدول والذي يوضّح دور القيم في تكوين الثقافة عند بن نبي، نجد أنّ الثقافة جاءت بنسبة (65,19%) بينما جاءت القيم بنسبة (34,81%).

¹ - نفس المرجع، ص 83.

² - نفس المرجع، ص 85.

وعليه نوه بن نبي إلى دور القيم التي تسود مجتمع ما في تكوين ثقافته بالنظر إلى الحقائق التاريخية، مثل ارتباط ثقافة الشعوب السامية بالقيم الأخلاقية، بينما الشعوب الآرية إلى القيم الجمالية "ودور الثقافة إنما يتمثل على وجه الدقة في خلق هذه اللحمة الاجتماعية أولاً وبالذات. وبخصوص هذه الوظيفة يبدو أن الثقافات قد تباينت فيما بينها بحيث آلت إلى نموذجين، متطابقين مع رسالتين اثنتين: فقد أسست الشعوب السامية ثقافتها على احترام القاعدة المتبعة، أي على القيم الأخلاقية، أما الشعوب الآرية، فقد قامت حضارتها على القيم الجمالية، وعلى الصورة (أو الشكل) التي بلغت اكتمالها بأثينا، حيث قامت هذه الأخيرة بدورها بنقل شعيرتها هذه إلى عهد النهضة بأوروبا"¹

الجدول رقم: 5 العلاقة بين الأفكار والثقافة والعلم

المفهوم	ك	%
الأفكار	180	43,80
الثقافة	118	28,71
العلم	113	27,49
المجموع	411	100

نجد من القراءة الإحصائية لهذا الجدول المبيّن العلاقة بين الأفكار والثقافة والعلم أن أعلى نسبة سجّلت للأفكار (43,80%) بينما سجّلت الثقافة نسبة (28,71%) أما العلم فسجّل نسبة (27,49%).

"فالعلم من حيث أنه علم، هو مجموع من المعلومات ومجموعة الطرق المؤدية لاكتسابها"² والعلم ماهو، في أبسط معانيه إلا البحث عن الحقيقة في كلّ ميدان، في الأخلاق، في التشريع، في الاجتماع، في الطب، في الطبيعة إلخ..."³ إن المجتمع الذي لا يصنع أفكاره الرئيسية لا يمكنه على أية حال أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه، ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه، ولن يمكن لمجتمع في عهد التشييد، أن يتشيد بالأفكار المستوردة أو المسلطة عليه من الخارج."⁴

¹ - نفس المرجع، ص 85.

² - نفس المرجع، ص 185.

³ - نفس المرجع، ص 189.

⁴ - نفس المرجع، ص 198.

لايتأتى العمل الفعّال في المجتمع إلّا إذا كان مشتركا ينظّم النّشاطات الفردية "إلّا أنّ نشاط المجتمع المشترك لايتكوّن في بساطة من مجرد مجموع النّشاطات الفردية، حتّى ولو كانت هذه الأخيرة من نفس الجنس، وحتّى ولو كانت متّحدة كلّها في نفس الاتجاه، إذ يجب أيضا أن يتمّ تنظيمها في كنف النّشاط الإجمالي حسب مخطّط تنظيمي (Organigramme) يتولّى تحديد فعالية هذا النّشاط. فهذا (التّنظيم) للنّشاطات الفردية بالذّات في كنف نشاط إجمالي مشترك هو الذي يضع على وجه الدّقة مشكلة المفهومية"¹

ويبيّن بن نبي دور العمل المشترك في الحياة العامّة "العمل المشترك يستلزم بالضرورة: تنظيم وتنسيق جميع المعطيات وخاصّة جميع الأفكار التي تنهض بالنّشاطات الفردية"² ويوضّح "العمل المشترك يستدعي إيقاعا ووزنا يوتران الجهود الفردية، ويفرغانها في الوقت نفسه داخل الجهد الجماعي"³

حيث أتى معنى العلم للدّلالة على مجموعة من المعلومات المكتسبة وفق طرق منظّمة. إنّه البحث عن الحقائق في عدّة ميادين. وإذا كانت الحاجة أم الاختراع، ولايتأتى الاختراع إلّا بوجود أفكار، فيستوجب على المجتمع صناعة أفكاره، هذه الأخيرة التي تنتج ما يمكن استهلاكه وما يمكن تصنيعه، لأنّ التّشبيد يكون بأفكار نابغة من نفس المجتمع.

ولا تنجح الحياة الاجتماعية بما فيها المهنية والنّقافية و.... إلّا بالعمل المشترك الذي يعني نشاطا مشتركا هادفا بين كلّ الفاعلين، والعمل المشترك يشترط عنصرين هامّين يتمثّلان في التّنظيم والتنسيق في الأفكار أي المعطيات والمعلومات، هذه الأخيرة التي يتمّ اكتسابها وفق طرق منظّمة وممنهجة. وهذا هو معنى العلم وتداخله مع الأفكار.

يظهر معنى العمل المشترك في الحياة اليومية فالفلاح يمدّ السوق بالمنتجات الفلاحية الخضر والفواكه والحليب ومشتقاته، ويمدّ المطاحن بالحبوب المختلفة، والمعصرات بالزيوت اللازمة لتصل إلى تاجر التّجزئة ومنه للمستهلك.

كما يزود مسيري المناجم والطّاقات المختلفة المصانع والشّركات بالمواد الخام، هذه الأخيرة التي تقوم بتكرير وتصنيع هذه المواد، بعدها يقوم المكلفون بالتّسويق والتّوزيع بإيصال المواد المصنّعة (آلات، منسوجات، أثاث، أواني...) إلى المستهلك.

¹ - نفس المرجع، ص 100.

² - نفس المرجع، ص 101.

³ - نفس المرجع، ص 106.

وفي ميدان التربية نجد المؤسسات التعليمية لكي تحقق هدفها في العملية التعليمية التربوية لابد من تفعيل العمل المشترك بين الفاعلين في المؤسسة، فالجانب المالي والمادي يوقره المسير المالي المختص، أما التنظيم والتسيير البيداغوجيين يقوم به نائب المدير للدراسات، بينما عملية تسيير وتنظيم ومتابعة انضباط التلاميذ يقوم بها مستشار التربية، وكل مايتعلق بمتابعة الجانب النفسي وتوجيه القدرات العلمية والفكرية للتلاميذ فيقوم به مستشار التوجيه. بينما يقوم الأستاذ بتزويد التلاميذ بالمعارف والمكتسبات العلمية وفق برنامج تربوي مسطر من الوصاية... وأي ضعف في نشاط أي فاعل تربوي يؤثر في نجاح العملية التربوية بحكم أن نشاطاتهم الفردية يحكمها التنظيم والتنسيق فيما بينهم.

وفي ميدان الصحة تقوم الجامعة والمعاهد بتكوين متخصصين في الصحة، يتم توظيفهم في مختلف المؤسسات الصحية، من أطباء وممرضين وقابلات ومخبريين والقائمين بصيانة التجهيزات الطبية...يقومون بمهامهم الطبية للمرضى وفي كل التخصصات.

يبدو من خلال تحليلات مالك بن نبي لمفهوم الأفكار والثقافة أن الأفكار تصنع لنا الثقافة من خلال تشجيع العمل المشترك وتمتين العلاقات الاجتماعية والأفكار تصنع العلم من خلال ما تقدمه المعلومات والمعطيات العلمية بطريقة ممنهجة في تحفيز انتاج الوسائل والآلات والأدوات التي يحتاجها المجتمع...

2- عرض وتحليل بيانات الجداول الخاصة بكتاب تأملات

الجدول رقم: 6 توزيع المفاهيم الأساسية في كتاب تأملات

المفهوم	ك	%
الانسان	263	14.52
الأفكار	250	13.80
التاريخ	222	12.26
الحضارة	212	11.71
العلم	134	7.40
الثقافة	98	5.41
القيم	97	5.36
النّهضة	75	4.14
الواجبات	63	3.48
الأخلاق	48	2.65
الزّمن	48	2.65
القانون	41	2.26
الفعاليّة	39	2.15
العادات والتقاليد	34	1.88
التّراب	33	1.82
الفن	30	1.66
اللّغة	25	1.38
الحقوق	25	1.38
المرض الاجتماعي	22	1.21
الدّوق	13	0.72
الدّين	11	0.61
الجمال	10	0.55
العلاقات الاجتماعية	07	0.39

0.33	06	المثل
0.16	03	العرف
0.06	01	التراث
0.06	01	المعتقدات
0	0	التربية
100	1811	المجموع

توضّح لنا بيانات الجدول أعلاه الذي يبيّن أهمّ المفاهيم المتكرّرة لدى "مالك بن نبي" في مؤلّفه "تأمّلات"، أنّ أعلى نسبة قدّرت بـ(14,52%) لمفهوم الإنسان، وتتنخفض النسبة لتصل إلى(13,80%) لدى مفهوم الأفكار، وأمّا مفهوم التاريخ بلغت نسبة (12,26%) وغير بعيد عن هذه النسبة سجّلنا (11.71%) لدى مفهوم الحضارة، في حين بلغت نسب مفهوم العلم (07,40) %، وتتنخفض إلى (05,41%) لدى مفهوم الثقافة، أمّا مفهوم القيم فبلغت نسبتها (05,36) %، ومفهوم النهضة بنسبة (04,14%) ثمّ الواجبات بنسبة (03,48%).

ولفهم أعمق لهذه المفاهيم الأساسية المستعملة في كتاب تأمّلات المذكورة في هذا الجدول، قمنا باستخراج جداول فرعية من هذا الجدول الكلّي وربط بعض المفاهيم ببعضها وتبيان دلالاتها من منظور المفكّر مالك بن نبي. وهي:

الجدول رقم: 7 أهمية الفعالية

المفهوم	ك	%
الإنسان	263	42,28
التاريخ	222	35,69
الثقافة	98	15,76
الفعالية	39	6,27
المجموع	622	100

نلاحظ من خلال هذا الجدول الذي يبين أهمية الفعالية أنّ أعلى نسبة كانت للإنسان (42,28%) تليها نسبة التاريخ بـ(35,69%) أمّا الثقافة فبلغت نسبة (15,76%) بينما الفعالية قدّرت نسبتها (06,27%).

من المتعارف عليه أنّ لكلّ فرد مصلحة شخصية يريد تحقيقها وذلك لتحقيق مكانته في المجتمع، فالثقافة عند بن نبي توجّه قدرات وامكانيّات الفرد وفق مصلحته الشخصية وبانسجام هذه المصلحة مع مصلحة المجتمع، أي أنّ الثقافة تهدف إلى تحقيق التوافق والتوازن بين المصلحة الشخصية والمصلحة العامة دون تضيق أو إلغاء أو إهدار للطّاقات "الثقافة هي توجيه الطّاقات الفردية، لتحقيق بناء الفرد في الدّاخل بالنسبة إلى مصلحته، ولتحقيق مكانه في المجتمع بانسجام تلك المصلحة مع مصلحة المجتمع.¹

بينما الفعالية الاجتماعية عند بن نبي عكس الفئور الاجتماعي فهي ذلك القلق والتّوتر الذي يكون وراء كلّ السلوكات أو الأعمال الاجتماعية، إذن هي حالة نفسية اجتماعية تسود المجتمع في ظروف تاريخية ثمّ تنقضي في ظروف تاريخية أخرى "إنّ فكرة الفاعلية أو التّوتر تمسّ الواقع الاجتماعي في كلّ الطّروف، ممّا يضعها معه كلّ مجتمع أو لا يضعها وراء أعماله وسلوكه. فالتّوتر حالة نفسية اجتماعية دلّ التاريخ على أنّها تنشأ في ظروف معينة ثمّ تزول في ظروف أخرى، وأنّ المسوّغات هي التي تكوّن الدّوافع الإنسانية التي تدفع النّشاط إلى أعلى قمة.²

وعليه فالفعالية هي حركة وقوة دافعة تسمح بإدخال عناصر ثقافية جديدة في بناء شخصية الفرد بتقبّل هذه العناصر وتجسيدها في سلوكاته، وتركيب الفعالية عند مالك بن نبي يتمّ عن طريق تنسيق للمقومات الأولية للفعالية المتمثلة في: الفكر والعمل والوسيلة "إنّ عنصر الحركة الدافعة في

¹ - مالك بن نبي، تأملات، مرجع سابق، ص 25.

² - نفس المرجع، ص 42.

الإنسان أو ما يطلق عليه اسم الفعالية، يدخل في بناء الشخصية عن طريق التمثل النفساني لعناصر ثقافية معينة، يمتصها الفرد في الجو الاجتماعي الذي يعيش فيه. كما يمتص الحيوان العناصر الحيوية عن طريق التنفس في الجو الطبيعي.

ولا شك أن الفعالية تتركب في بناء الشخصية بكل بساطة، عن طريق تنسيق حركي تألوفي للمقومات الأولية: الفكر، اليد، المال بمعناه الصحيح أي باعتباره العمل المخزون.¹

- وضح مالك بن نبي أهمية الإنسان في قيمتين: كإنسان مخلوق مكرم أودع الله فيه مجموعة مواهب، وقيمة ثانية تكمن في كونه كائناً اجتماعياً يحظى بها من المجتمع من خلال الوظائف الاجتماعية التي يؤديها وهنا تكمن الفعالية الاجتماعية، هذه الأخيرة تتصف بالتغير حسب الظروف التاريخية، فالشخصية تشمل مركبين: انساني ثابت، واجتماعي متغير "نقدر للإنسان قيمتين: قيمته انساناً، وقيمه كائناً اجتماعياً، قيمة توهب له في طينته الأولى بما وضع الله فيها من تكريم... وقيمة أخرى تعطى له بعمليات اجتماعية معينة... وبعبارة أخرى إن الإنسان يمثل معادلتين: معادلة تمثل جوهره انساناً صنعه من أتقن كل شيء صنعه، ومعادلة ثانية تمثله كائناً اجتماعياً يصنعه المجتمع. ومن الواضح أن هذه المعادلة الأخيرة هي التي تحدد فعالية الإنسان. إنسان في جميع أطوار التاريخ لا يتغير فيه شيء، بل تتغير فعاليته من طور إلى طور.. وهذا يعني أن شخصيته ليست بالبسيطة، وإنما هي مركبة تشتمل على عنصر ثابت يحدد كيانه إنساناً وعنصر متغير يحدد قيمته كائناً اجتماعياً."²

ويؤكد بن نبي أنه إذا سعى الفرد إلى تحقيق وتلبية حاجات عامة لمختلف أفراد المجتمع، زاد الإنتاج الاجتماعي بل يعتبره مالك بن نبي ارتقاء له، وعندما تتظافر وتشارك الجهود والنشاطات الفردية لتلبية الحاجات العامة بسبب بروز أو تطور المصلحة العامة تنمو باستمرار الفعالية الاجتماعية مادامت الغاية هي تحقيق المصلحة العامة لكل فئات ومستويات المجتمع "إن الفاعلية تنمو تدريجياً مع تعقد المصلحة، أي أن الإنتاج الاجتماعي يرتقي بقدر ما يكون النشاط الفردي موجّهاً لسد حاجات غير فردية، أو بعبارة أخرى، بقدر ما يكون موجّهاً لمصلحة عامة."³

ويوضح مالك بن نبي أنه لتحديد مدى فاعلية الأفراد ومعرفة قيمتهم في المجتمع والتاريخ يتوجب أنه كلما تحركت الشروط التي يقوم عليها المجتمع (بالإضافة أو التعديل أو التغيير أو الإلغاء)

¹ - نفس المرجع، ص 58.

² - نفس المرجع، ص 135.

³ - نفس المرجع، ص 36.

تتحرك النشاطات الفردية لتحقيق الانسجام مع هذه الحركة "إن هذه الشروط النفسية الاجتماعية التي تحرك المجتمعات وتفرض على الأفراد الانسجام مع قانون تلك الحركة بما لديهم من المؤهلات المكتسبة التي تكون ما سميناه المعادلة الاجتماعية، أعني المعادلة التي تحدّد فعليّتهم أمام المشكلات وتعطيهم قيمتهم في المجتمع وفي التاريخ".¹

وعليه فإنّ حالة التوتر التي تظهر على سلوك الأفراد والتي تكون موجّهة لمصلحة المجتمع والانسجام معه هي المقصود بالفعالية الاجتماعية، فالتوتر والقلق الصادر عن الانسان ينتج الفعالية الاجتماعية التي تظهر في ظروف اجتماعية وتاريخية معينة تحمل عناصر ثقافية يقوم الانسان أثناء مسيرة حياته وعند بناء شخصيته بتقبّلها وتجسيدها في سلوكاته، وبالنمو المطرد والمستمر للفاعلية الاجتماعية بسبب تطوّر المصلحة العامة، يدخل الانسان عناصر ثقافية أخرى لشخصيته.

الملاحظ أنّ الجمعيات الخيرية كجمعيات كفالة الأيتام، انطلقت في انشائها من فكرة دينية التي تحثّ على التكفل باليتيم، والقيام بالتكفل باليتيم يكون من الناحية المادية من خلال توفير الملبس والمأكل لأسر اليتامى، ثم تطوّرت الفكرة كالقيام بأنشطة ترجع عوائدها لها وكذا تخصيص دروس دعم خاصّة لليتامى المتمدرسين، تكريم الناجحين منهم في مختلف امتحانات نهاية السنة، وإشراكهم في المخيمات الصيفية، وتوفير لأمهات اليتامى ماكنات خياطة لمساعدة عوائلهن...، هذا التطوّر في الفكرة بغية تحقيق مصلحة عامّة موجّهة لليتامى مثل مساعدات التجار أو أرباب العمل والمتبرعين البسطاء ودروس الدّعم المجانية من طرف المعلمين والأساتذة.....، وتطوّر الفكرة سمح بإستحداث وإدخال عناصر ثقافية اجتماعية كالتعاون، والتكافل، تثمين الوقت، ترتيب الأولويات، المشاركة في تظاهرات علمية أودراسية أودينية، الحثّ على المطالعة (بتوفير مكتبة بمقرات الجمعيات)، إنجاز البحوث العلمية، العمل الجماعي... في شخصية المشاركين في عملية كفالة اليتامى من خلال إيجاد آليات متجدّدة وهادفة.

¹ - نفس المرجع، ص 138.

الجدول رقم: 8 مكانة الحق والواجب في الثقافة

المفهوم	ك	%
الثقافة	98	52,69
الواجب	63	33,87
الحق	25	13,44
المجموع	186	100

- من خلال قراءتنا لبيانات هذا الجدول الذي يوضح مكانة الحق والواجب في الثقافة، نجد أنّ نسبة الثقافة كانت (52,69%) بينما كانت نسبة الواجب (33,87%) في حين بلغت نسبة الحق (13,44%)

وعليه نستنتج أنّ لثنائية الواجب والحق مكانة مهمّة في الثقافة عند بن نبي "الباب الثاني الذي ينبغي أن نعود منه للحضارة هو باب الواجب، وأن نركّز منطقنا الاجتماعي والسياسي والثقافي على القيام بالواجب، أكثر من تركيزنا على الرغبة في نيل الحقوق، لأنّ كلّ فرد بطبيعته تواق إلى نيل الحق، ونفور من القيام بالواجب، إذن لسنا نريد من الفرد أن يطالب بحقوقه، فالتّبيعة بحقوقه كفيّل. بل ينبغي على متّقفينا وسياسينا ومن يمثّل كلّ سلطة أن يوجّهوا الهمم إلى الواجب.. فالمجتمع الذي يرتفع وينمو فإنّ ذلك يعني أنّ لديه رصيда من الواجب فائضا على الحقوق...والقرآن الكريم قد دعا العباد من قبل إلى الطّريق الواجب إذ إنّ الحقوق ستأتي هي بطبيعتها.¹

إنّ ثنائية الحق والواجب هما مفهومان متلازمان يستعملان عادة في الخطابات السياسيّة الحزبيّة والنّقابات العماليّة، غير أنّ بن نبي يحثّ على تركيز المنطق الاجتماعي والسياسي والثقافي ومن يمثّله من متّقفين وسياسيين على القيام بالواجب أكثر من المطالبة بالحق، ذلك أنّه بطبيعة الأفراد ينفرون من القيام بالواجب ويلحون في الحصول على الحق، ومن جانب الشّريعة الإسلاميّة دعت إلى أداء الواجب من خلال المعاملات الاجتماعيّة، ذلك أن نيل الحق يستلزم أداء الواجب.... مثال ذلك مطالبة العمال بمستحقّاتهم الماليّة الشّهريّة كاملة رغم عدم استكمالهم لساعات العمل الرّسمية...

إلزام التّلاميذ الحصول على نتائج جيّدة رغم ضعف التّأطير البيداغوجي وكثافة البرامج الدّراسية...

¹ - نفس المرجع، ص ص 30، 31.

مطالبة الأولياء لأبناءهم بالطاعة رغم عدم تقديمهم الرعاية والاهتمام والتربية الصالحة. مطالبة صاحب العمل العمال بتحسين وتيرة وجودة المنتج بينما هناك ضعف في التجهيز والتسيير..

الجدول رقم: 9 تأثير التاريخ في الإنسان

المفهوم	ك	%
الانسان	263	45,98
التاريخ	222	38,81
الزمن	48	8,39
الفعالية	39	6,82
المجموع	572	100

- نجد من بيانات هذا الجدول الذي يوضح تأثير التاريخ في الإنسان، أنّ أعلى نسبة قدّرت بـ (45,98%) مفهوم الإنسان ومن جهة أخرى بلغت نسبة (38,81%) للتاريخ، أما نسبة (8,39%) فكانت للزمن، وأخيرا نسبة (6,82%) للفعالية.

أول الأمر نذكر تعريف بن نبي للتاريخ: "والتاريخ نفسه ليس إلّا قائمة إحصائية لعدد معيّن من الحركات والأفكار.¹ وينظر إليه "لا بصفته مجرد تسلسل حوادث على شاشة الزمن، بل بوصفه عملية اجتماعية محدّدة الأسباب والنتائج، ومرتبطة بمصير الإنسان تقدّر حظّه أو تلقّيه في الحضيض.²

فلا يعدّه مجرد حركات وأفكار، إنما هو عملية اجتماعية مرتبطة بمصير الإنسان.

- ويؤكد بن نبي أنّ الظروف التاريخية والجغرافية لمجتمع ما تفرض قيودا على الانسان والتي تحدّد شروط حياته وتخضعه للنظام العام السائد "إنّ الفرد مقيد مقدّما وإلى حدّ كبير بالظروف التاريخية والجغرافية، التي تفرض شروط حياته قبل أن تشرطها مواهبه الشخصية، وأنّ حظّه مرتبط مقدّما بالقانون العام الذي يسيطر على حياة كلّ فرد ينتسب إلى (الوحدة) التاريخية التي ينتسب إليها هو، وذلك مهما كانت معادلته الشخصية.³ ويستشهد في ذلك بالإنسان الإفريقي الآسيوي "وهذا يعني خاصّة أنّ الانسان الافريقي الآسيوي، يعاني اليوم مهما كانت مواهبه الشخصية،

¹ - نفس المرجع، ص 150.

² - نفس المرجع، ص 189.

³ - نفس المرجع، ص 112.

العوامل السلبية كلّها التي يفرضها على كيانه انتسابه إلى خطّه الجغرافي، إلى وحدة تاريخيّة معيّنة، إلى قارة محدّدة بظروف اجتماعية متشابهة، تسيطر على حياة الإنسان من طنجة إلى جاكرتا، وتكون بالتّالي الصّورة السّلبية للنّضامن الإفريقي الآسيوي، لأنّها تضع على كاهل الإنسان الذي يولد على هذا المحور، جميع أعباء الحرمان التي تنزل عليه المحن وتحرمه من النّعم، ولكنّها تكون في الوقت ذاته وعيه الجماعي، أي العلامة الأولى على كيان موحد في بعض الحدود.¹

علاقة الانسان بالتّاريخ:

- إذا تحرّك الإنسان تحرّك المجتمع والتّاريخ، وإذا سكن سكن المجتمع والتّاريخ، ذلك ما تشير إليه النظرة في تاريخ الإنسانية منذ أن بدأ التّاريخ، فنرى المجتمع حيناً، يزخر بوجود النّشاط وتزدهر فيه الحضارة، وأحياناً نراه ساكناً لا يتحرّك يسوده الكساد وتغمره الظّلمات.²

يشترط بن نبي في حركة المجتمع والتّاريخ حركة الإنسان، وذلك من خلال مجمل النّشاطات التي عرفت الحضارة، وسكون المجتمع والتّاريخ من سكون الإنسان، ففي هذه الحالة يسود الكساد.

فعاليّة الانسان في التّاريخ:

ينظر مالك بن نبي إلى التّاريخ بنظرتين الأولى تؤدّي إلى نتائج عمليّة متّصلة بسلوك الأفراد والتي تحدّد موقف الإنسان من الأحداث فهي استسلام ورضوخ للواقع... أما النظرة الثانية تحدّد مسؤوليات الإنسان إزاء الأحداث التّاريخية، يقوم الإنسان بقياسها حتّى يكتشف أسرارها ثمّ يسيطر عليها، فيوجّهها لأنّه يعلم أن الأسباب التّاريخية صادرة من سلوك الإنسان. أي من إرادة الإنسان في تغيير الأشياء ليحدّد وظيفته الاجتماعية، هذا ما يعرف عنده بالفعاليّة الاجتماعية.

يشير بن نبي "إنّ نظرتنا إلى التّاريخ لا تؤدّي إلى نتائج نظريّة فحسب بل إلى نتائج تطبيقيّة تتّصل بسلوكنا في الحياة، فهي تحدّد مواقفنا أمام الأحداث، وبالتالي أمام المشكلات التي تنجم عنها.

النّظرة الأولى تؤدّي إلى تسجيل ما يطرؤ من حوادث في أنفسنا وفي مذكراتنا، على أنّه من حكم القضاء والقدر، أي من حكم لا يد للإنسان فيه...

نظرتنا الثانية إليه فإنّها بدلا من أن تلقي على أكتافنا ثقل الأحداث تجعلنا نحدّد إزاءها مسؤولياتنا. فبقدر ما ندرك أسبابها ونقيسها... وبقدر ما نكتشف من أسرارها نسيطر عليها بدلا من أن نسيطر عليها، فنوجّهها نحن ولا توجّهنا هي، لأنّنا حينئذ نعلم أنّ الأسباب التّاريخية كلّها تصدر عن سلوكنا وتتبع من أنفسنا، من مواقفنا حيال الأشياء، أعني من إرادتنا في تغيير الأشياء تغييرا يحدّد بالضبط

¹ - نفس المرجع، ص 112.

² - نفس المرجع، ص 129.

وظيفتنا الاجتماعية كما رسمها القرآن الكريم في قوله تعالى: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر" سورة آل عمران، الآية 110. والمعروف في أعْم صوره والمنكر في أشمل معانيه، يكونان جوهر الأحداث التي تواجهنا يوميًا كما يكونان لب التاريخ.. هذا هو المعنى العام للفعالية، وشرطها الأول: هو الذي يحدّد موقف الإنسان إزاءها بصفته صانعاً للتاريخ ومحركاً له.¹

الجدول رقم: 10 دور العلاقات الاجتماعية في الثقافة

المفهوم	ك	%
الثقافة	98	68,06
الفعالية	39	27,08
العلاقات الاجتماعية	07	4,86
المجموع	144	100

- من خلال قراءتنا لبيانات هذا الجدول المتعلّق بدور العلاقات الاجتماعية في الثقافة، سجّلنا أعلى نسبة للثقافة بـ (68,06 %) بينما كانت نسبة الفعالية (27,08 %) أما العلاقات الاجتماعية فنسبتها (04,86 %).

نستنتج أنّ للعلاقات الاجتماعية دور في الحياة الثقافية للمجتمع عند بن نبي ذلك لأنّه إذا كانت قوّة شبكة العلاقات الاجتماعية تدلّ على الحالة الصحيّة السليمة للمجتمع وهي امتداد لحياة ثقافية سليمة وقويّة، فإنّ اختلال الأولى أواعتلالها أوفقدها ينعكس سلباً على الثانية فيشير بن نبي إلى "فقدان شبكة العلاقات الاجتماعية هو فقدان الشّرط الأساسي للحياة الثقافية".² وإذا قلنا الحياة الثقافية فإنّنا نشير إلى شبكة علاقات وصلات ثقافية بين أفراد المجتمع وحتّى بين الفاعلين الثقافيين على مستوى الفعل أوالحديث الثقافي الذي يقوم به الإنسان، وظهرت فيه فعاليته بحكم تبنّيه للفعل الثقافي وانضمامه للعمل الثقافي المشترك. "الكائن الاجتماعي كأّي كائن حيّ يكون تلقائيًا وسائله وأفعاله. فالثقافة إذا ماتكوّنت في مجتمع نشأت فيه تلقائيًا شبكة الصّلات الثقافية، وتحدّدت فيه فعالية الفرد".³

وتساءل بن نبي: ماهي الثقافة التي تنشئ الصّلات الثقافية في المجتمع وتخلق الفرد الفعّال؟

¹ - نفس المرجع، ص ص130، 131.

² - نفس المرجع، ص ص 143، 144. بتصرف

³ - نفس المرجع، ص 146.

"الثقافة ليست مجرد علم يتعلّمه الإنسان في المدارس ويطالعه في الكتب، فإنّ الصورة الثّانية الّتي أوردناها أظهرت اختلافا في السلوك لافي المعرفة: والملاحظة تفرض علينا هنا أن نقدر هذا السلوك بوصفه نتيجة للوسط الّذي تتكوّن فيه شخصيّة الفرد،..... وإذا عدّنا هذه العوامل (العادات والأذواق والأوضاع النفسيّة والخلقيّة) هي الّتي تؤثر في تكوين الشّخصية، لأنّها تكوّن الجوّ العامّ الذي يحدّد دوافع الفرد وانفعالاته، وصلاته بالنّاس والأشياء، فإنّنا نكون بهذا عرّفنا الثّقافة على أنّها ذلك الجوّ المتكوّن من عادات وتقاليد وأذواق. وإذا نحن قد حلّلنا شيئا ما هذه الكلمات فإنّنا - مع اعتبارنا إلى كلّ مايطبع الشّخصية في ظاهرها وباطنها- نقول بالتّالي: إنّ الثّقافة هي الجوّ المشتمل على أشياء ظاهرة، مثل الأوزان والألحان والحركات وعلى أشياء باطنة كالأذواق والعادات والتّقاليد. بمعنى أنّها الجوّ العامّ الّذي يطبع أسلوب الحياة في مجتمع معيّن وسلوك الفرد فيه بطابع خاص، يختلف عن الطّابع الّذي نجده في حياة مجتمع آخر.¹

ويقصد بالثقافة باعتبارها جواً عامّاً يشمل العادات والتّقاليد والأذواق والأوزان والألحان والحركات. الملاحظ في المجتمع الجزائري من خلال مختلف العادات والتّقاليد والطّقوس المتوارثة من أجيال سابقة، الثقافة كجوّ عام يشمل العادات والأذواق والأوضاع النفسيّة والخلقيّة، يحتاج الفرد الجزائري للمشاركة في فعل ثقافي معيّن إلى مجموعة من العلاقات الاجتماعيّة مع العديد من لهم ارتباط بهذا الفعل،

بالنّظر إلى العادة الاجتماعيّة الثّقافيّة في المجتمع المسمّاة "التوزيع" بصفتها موروثا اجتماعيا ثقافيا حيث تبرز قوّة العلاقات الاجتماعيّة، وتحمل قيما اجتماعيّة وأخلاقيّة وجماليّة التّعاون والنّضامن والتّشارك في العمل الجماعي والتّكافل، ومع ظهور قيم في المجتمع كالفردانية والأنانيّة والمادية نتج عنه تراجع التوزيع ما أدّى إلى ضعف العلاقات الاجتماعيّة وذلك بسبب سيادة قيم جديدة كالفردانيّة والأنانيّة....

¹ - نفس المرجع، ص 147.

الجدول رقم: 11 المركبات الأربعة للثقافة

المفهوم	ك	%
العلم (الصناعة)	134	68,71
الأخلاق	48	24,62
الجمال	10	5,13
المنطق العملي	03	1,54
المجموع	195	100

يبين هذا الجدول المركبات الأربعة للثقافة عند بن نبي، أين سجلنا أعلى نسبة للعلم بـ (68,71%) وبعدها تأتي الأخلاق بنسبة (24,62%)، يليها الجمال بنسبة (5,13%) وأخيرا المنطق العملي الذي وصلت نسبته (1,54%).

- العلم هو المبدأ الرابع لمفهوم الثقافة، ومركبا أساسيا لها، حيث أنه يوفر لنا الوسائل التي يتم بها تفعيل وتجسيد السلوكيات الثقافية في المجتمع. "المبدأ الأخلاقي وذوق الجمال والمنطق العملي لا تكون وحدها شيئا من الأشياء، إن لم تكن في أيدينا وسائل معينة لتكوينه، والعلم هو الذي يعطينا تلك الوسائل. فالعلم أو الصناعة -حسب تعبير ابن خلدون- يكون عنصرا هاما في الثقافة لا يتم بدونه تركيبها ومعناها. فهو إذن عنصرها الرابع.¹

ويميز بن نبي بين الثقافة والعلم في عدة نقاط يربطها بكل مركب من مركبات الثقافة، فبالنظر على المبدأ الأخلاقي "وفي توضيح الخلاف الجوهرى بين الثقافة التي تتضمن بوصفها شرطا أوليا تحديد الصلات بين الأفراد وبين العلم الذي لايهتم إلا بالصلات الخاصة بالمفاهيم والأشياء. فالرجل العالم قد يكون عنده إلمام بالمشكلة كفكرة، غير أنه لايجد في نفسه الدوافع التي تجعله يتصورها عملا، في حين أن الرجل المثقف يرى نفسه مدفوعا بالمبدأ الأخلاقي الذي يكون أساس ثقافته إلى عمليتين: عملية هي مجرد علم، وعملية أخرى فيها تنفيذ وعمل. وبهذا يتضح لنا الخلاف الجوهرى.²

- يربط بن نبي المبدأ الأخلاقي بالثقافة حيث يرى أن الثقافة باعتبارها أسلوب حياة لابد أن تكون قائمة على الأخلاق، يبرز أهميته في تكوين العلاقات الشخصية ومن ثمة تكوين شبكة الصلات الثقافية، ففوة أضعف الفعالية شرطها الأساسي المبدأ الأخلاقي، فهذا الأخير يقوم ببناء عالم

¹ - نفس المرجع، ص 151.

² - نفس المرجع، ص ص 148، 149.

الأشخاص، الذي يقوم على عالم الأشياء وعالم الأفكار. "الثقافة لاتستطيع أن تكون أسلوب الحياة في مجتمع معين...، إلا إذا اشتملت على عنصر يجعل كل فرد مرتبطا بهذا الأسلوب، فلا يحدث فيه نشوزا بسلوكه الخاص. ونحن إذا دققنا النظر في هذا العنصر، فإننا نرى أنه لابد أن يكون خلقيا. ... وحققنا شرطا أساسيا من شروطها وهو المبدأ الأخلاقي.¹

"إن العلاقات الشخصية لاتقوم في أي مجتمع على غير أساس أخلاقي. ولما كانت شبكة الصلات الثقافية عبارة عن تعبير عن العلاقات الشخصية في مستوى معين، فإن هذه الشبكة لايمكنها أن تتكون دون مبدأ أخلاقي... فإن شبكة الصلات الثقافية تختل حتما في بلد ما، إذا اختل فيه المبدأ الأخلاقي.

- إن فعالية المجتمعات تزيد أو تنقص بقدر مايزيد فيها تأثير المبدأ الأخلاقي أو ينقص. فإن مواقفها إزاء المشكلات محددة بذلك المبدأ الذي يكون الشرط الأساسي لأفعالها. تحديدا ينظم فيها علاقات الأشخاص تنظيما يناسب المصلحة العامة.... فالمبدأ الأخلاقي يقوم بالضبط ببناء عالم الأشخاص، الذي لايتصور بدونه عالم الأشياء، ولعالم المفاهيم.²

- يعتبر الذوق الجمالي الشرط الثاني للثقافة، فهو يميزها بطابع خاص وعليه فإنه يعطي صورة للمبدأ الأخلاقي "الأساس الثاني الذي تقوم عليه الثقافة، أعني ذوق الجمال الذي يطبع الصلات الاجتماعية بطابع خاص. فهو يضيفي على الأشياء الصورة التي تتفق مع الحساسية والذوق العام ألوانا وأشكالا، فإذا كان المبدأ الأخلاقي يقرر الاتجاه العام للمجتمع بتحديد الدوافع والغايات، فإن ذوق الجمال هو الذي يصوغ صورته.³

ويميز مالك بن نبي بين العلم والثقافة بالنظر إلى الذوق الجمالي: "فإن الأول تنتهي عمليته عند إنشاء الأشياء وفهمها، بينما الثانية تستمر في تجميل الأشياء وتحسينها.⁴

- حدد بن نبي المركب الثالث للثقافة وأطلق عليه مصطلح المنطق العملي والذي يعتبره شرطا للفعالية الاجتماعية، ولتطبيقه لابد أن يحتوي على الوقت والوسائل البيداغوجية لتفعيل الفكرة في سلوك الفرد وفي الحياة الاجتماعية "فإننا نكون به شرطا هاما من شروط الفعالية في الفرد وفي

¹ - نفس المرجع، ص148.

² - نفس المرجع، ص 148.

³ - نفس المرجع، ص ص149، 150.

⁴ - نفس المرجع، ص 150.

المجتمع. ولابدّ لنا أن نلاحظ أنّ تطبيقه، يتضمّن فكرة الوقت والوسائل البيداغوجية لبثّ هذه الفكرة في سلوك الفرد وفي أسلوب الحياة في المجتمع.¹

ويفسّر مالك بن نبي المنطق العملي في المجتمع كمايلي "إنّ المجتمع الذي يسجّل يوميًا أكبر عدد ممكن من الحركات والأفكار، يكون لنفسه محصولًا اجتماعيًا أكبر، فالفرد الذي يسير عشر خطوات، ويحرّك يده مرّة واحدة. والاعتبارات البديهية هذه هي التي أدّت إلى تحديد فكرة تبلور فيما يخصّ الإنتاج الصناعي، وإنّها لتؤدّي في مستوى آخر إلى تحديد مبدأ يخصّ الإنتاج الاجتماعي وهو مبدأ المنطق العملي."²

وتجدر الإشارة أنّه وإن كان ترتيب المركّبات حسب النّسب جاء كمايلي: العلم، الأخلاق، الجمال، المنطق العملي، إلّا أنّ بن نبي قد حافظ على ترتيبها في مؤلّفاته: الأخلاق، الجمال، المنطق العملي، العلم. بينما ترتيبها وأولويّتها فيختلف حسب كل حضارة ومجتمع.

ويربط مالك بن نبي الصّلة بين الفعاليّة وهذه المركّبات كمايلي: "فالمبادئ الأربعة التي قرّرها كفيلة بجمع شروط الفعاليّة، التي -كما بيّنا- هي الشّيء الذي نريده من وراء كلمة (ثقافة)، ذلك أنّنا لو حلّلنا عملاً ماعلى أنّه كائن مركّب ومستقل عن دوافع نفسيّة، فإنّنا نرى أنّ هذه الدوافع يبعثها المبدأ الأخلاقي في النّفس، بعثاً لايمكن معه أن يتصوّر هذا العمل بدونها عملاً إراديًا. وهذا العمل يأتي بصورة معيّنة يحددها ذوق الجمال، وبهذا يتمّ جزء من فعاليّته، كما أنّ هذا العمل سنجده يؤدّي للمصلحة الاجتماعية بقدر مافيه من المنطق العملي الذي يحدّد سرعة إنجازه، وبه تمام جزء فعاليّته الآخر. وهو أخيراً يطلب تطبيق أصول نظريّة ووسائل مادّية يقدّمها العلم."³

¹ - نفس المرجع، ص 150.

² - نفس المرجع، ص 150.

³ - نفس المرجع، ص 150.

3- عرض وتحليل بيانات الجداول الخاصة بكتاب شروط النهضة.

الجدول رقم: 12 توزيع المفاهيم الأساسية في كتاب شروط النهضة

المفهوم	ك	%
الحضارة	269	15,38
التاريخ	176	10,06
الأفكار	159	9,09
العلم	134	7,66
الانسان	111	6,35
الثقافة	99	5,66
الزمن	89	5,09
التقارب	71	4,06
الجمال	69	3,95
الدين	64	3,66
الفن	64	3,66
الواجبات	61	3,49
الأخلاق	57	3,26
القيم	53	3,03
النّهضة	41	2,34
الدّوق	40	2,29
العلاقات الاجتماعية	40	2,29
العادات والتقاليد	29	1,66
المرض	28	1,60
القانون	23	1,31
الحقوق	20	1,15
اللغة	14	0,80
التربية	12	0,68

0,57	10	الفعاليّة
0,51	09	المعتقدات
0,34	06	التراث
0,06	01	العرف
0	0	المثل
100	1749	المجموع

نستقرئ من بيانات الجدول الإحصائية الذي يمثّل أهم المفاهيم المستخدمة والمتداولة لدى المفكر "مالك بن نبي" في كتابه المعنون شروط النهضة، أنّ أعلى نسبة تكرار مقدرة عند مفهوم الحضارة بـ (15,38%) ، وتليها نسبة (10,06%) لمفهوم التاريخ، ثمّ نسبة (09,09%) الأفكار، أمّا مفهوم العلم فقد نسبته (07,66%) غير أنّ مفهوم الانسان تحصّل على نسبة (07,35%)، كما أنّ مفهوم الثقافة له أهميّة في فكر بن نبي حيث قدّرت نسبته (05,66%)، وتنخفض النسبة إلى (05,09%) عند مفهوم الزمن بينما كانت نسبة (04,06%) لمفهوم التراب، ومن جهة أخرى فإنّ مفهوم الجمال له دلالاته أيضا حيث بلغت نسبته (03,95%) إضافة إلى مفهوم الدين الذي وصلت نسبته إلى (03,66%).

ولفهم أعمق لهذه المفاهيم المستعملة في كتاب شروط النهضة المذكورة في هذا الجدول، قمنا باستخراج جداول فرعية من هذا الجدول الكلّي وربط بعض المفاهيم ببعضها وتبيان دلالاتها من منظور المفكر مالك بن نبي. وهي:

جدول رقم: 13 المفاهيم الأساسية المرتبطة بالتغيير الاجتماعي.

المفهوم	ك	%
الحضارة	269	22,60
التاريخ	176	14,78
الإنسان	111	9,33
الثقافة	99	8,32
المجتمع	91	7,65
الوقت - الزمن -	89	7,48
الروح	79	6,64
التراب	71	5,97
الدين - العقيدة الدينية - الفكرة الدينية -	64	5,38
الغريزة	46	3,87
العقل	44	3,70
العلاقات الاجتماعية	40	3,36
التغيير الاجتماعي	11	0,92
المجموع	1190	100

- يتبين لنا من خلال معطيات هذا الجدول الذي يوضح لنا المفاهيم الأساسية المرتبطة بالتغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي، فإننا نجد أن نسبة (22,66 %) من هذه المفاهيم مخصصة للحضارة، بينما نجد نسبة (14,78 %) مخصصة لمفهوم التاريخ، في حين كانت نسبة (9,33 %) خصّصت لمفهوم الإنسان، أما الثقافة فجاءت بنسبة (8,32 %). ثم يأتي مفهوم المجتمع بنسبة (7,65 %) بينما يأتي مفهوم الزمن بنسبة (7,48 %).

- وعليه نستنتج مما سبق أنّ للحضارة أعلى نسبة، لأنّ كلّ حضارة هي انعكاس لحدوث التغيير وكلّ تغيير يؤدي إلى حضارة، فالسكون والخمول دليل لعدم وجود حضارة، وما الحضارة إلّا ذلك التركيب بين طاقات وأفكار الإنسان باستغلال الإمكانيات والثروات المادية خلال فترة زمنية.

- والحضارة هي من الشروط اللازمة لأيّ اجتماع بشري مستقرّ، وسقوط حضارة أي مجتمع هو سقوط للوجود المميّز لهذا المجتمع، وتذويب شخصيته كما أنّ أيّ اجتماع بلا حضارة لها صفة

التطور، سيكون اجتماعا تغلب عليه صفة البدائية، وتسود شريعة الغاب، وذلك يتنافى مع تحقق إنسانية الإنسان.¹

- وفي هذا الباب يوضح مالك بن نبي "إتني أومن بالحضارة على أنها حماية الانسان لأنها تضع حاجزا بينه وبين الهمجية"²

ولعلّ دروس تاريخ الحضارات في العالم تؤيد ما جاء به مالك بن نبي في تعريفه وفهمه للحضارة، فالعرب بعد أن كانوا بدوا في الجزيرة العربية أو خارجها، فإذا بالإسلام يبعث فيهم روح التآلف، ويدفعهم إلى التّحضر، فكان لهم ما هو معروف بالحضارة³. ففي مجتمع الحضارة يتوفّر مناخ الحرية والحماية للفرد، "وتقدم الحضارة لأبنائها كلّ ما يحفظ وجودهم ويقيهم من الانحدار في مختلف المجالات الفكرية والاقتصادية"⁴

فمالك بن نبي ينظر إلى الحضارة نظرة شاملة وكاملة من خلال كل من العامل المادي والمعنوي.

- أمّا مفهوم المجتمع فهو لبّ مواضيع مالك بن نبي، وهو أساس مشكلات الحضارة، فلا حضارة ولا تغيير إلّا في المجتمع بعوالمه: عالم أشخاص، عالم الأفكار وعالم الأشياء، والمجتمع عند بن نبي نوعان: مجتمع طبيعي بدائي لا يؤدّي رسالة حضارية، ومجتمع تاريخي متحرّك يؤدّي رسالة حضارية.

- إنّ توظيف مالك بن نبي لمفهوم الإنسان في كتابه شروط النهضة هو توظيف أساسي، إذ أنّ مشكلة مجتمع ما هي مشكلة إنسان لأنّ الإنسان هو القائم بالحضارة، وهو ثلاثة أصناف: الإنسان السابق للحضارة (الطبيعي)، إنسان الحضارة، والإنسان المسلوب الحضارة. ففي الدّورة الحضارية "عند بدايتها يكون الإنسان في حالة سابقة للحضارة، أمّا في نهاية الدّورة فإنّ الإنسان يكون قد تفسّخ حضارياً وسلبت منه الحضارة تماما. فيدخل في عهد ما بعد الحضارة"⁵

- والإنسان السابق للحضارة والإنسان المسلوب الحضارة مختلفان ويميّز بينهما مالك بن نبي على أنّ "الإنسان المسلوب الحضارة لم يعد قابلا لإنجاز عمل محضّر إلّا إذا تغيّر هو نفسه عن جذوره

¹ - د.أسعد السحمرائي، مرجع سابق، ص 143.

² - مالك بن نبي، النّجدة، المطبعة العالمية، القاهرة، 1957، ص 05.

³ - د.أسعد السحمرائي، مرجع سابق، ص ص 143-144.

⁴ - نفس المرجع، ص 144.

⁵ - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 78.

الأساسية. وعلى العكس من ذلك، فإن الإنسان السابق على الحضارة يظل مستعداً -كما هي الحال مع البدوي المعاصر للنبي- للدخول في دورة الحضارة¹

- وحالة دخول الإنسان للحضارة وخروجه منها شبهها بجزيء الماء قبل دخوله الخزان فهو جزيء يحتوي على طاقة كامنة قابلة لتأدية عمل نافع لاستعمالها في الري أو إنتاج الكهرباء، غير أنه يصبح قاصراً عن تأدية هذا العمل بعد خروجه من الخزان، لقد فقد طاقته المدخرة، ولا يستعيدوها إلا بواسطة عملية التبخر وفق دورته الطبيعية.

- ولهذا نجد أن مالك بن نبي أعطى قيمة عظيمة للإنسان، ذلك المخلوق الذي فضله وكرمه الله على جميع خلقه، بل جعله صانع الحضارة.

الجدول رقم : 14 مجالات التغيير الاجتماعي.

المجالات	ك	%
الإنسان	111	40,96
الزمن (الوقت)	89	32,84
التراب	71	26,20
المجموع	271	100

نجد في هذا الجدول الذي يمثل مجالات التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي أن ترتيب هذه المجالات حسب نسبتها في كتاب شروط النهضة كما يلي :

المجال الأول للإنسان بنسبة (40,96%) ثم المجال الثاني للوقت بنسبة (32,84%) وأخيراً المجال الثالث للتراب بنسبة (26,20%)

- نستنتج من هذه المعطيات أن الإنسان يعتبر المجال الأول الذي يمسّه التغيير الاجتماعي، ومن جهة أخرى هو القائم بالتغيير الاجتماعي وفق الصيغة الحضارية عند بن نبي وهي :

$$\text{حضارة} = \text{إنسان} + \text{تراب} + \text{وقت}$$

وفي هذه العوامل ينحصر رأس مال الأمة الاجتماعي الذي يمدّها في خطواتها الأولى في التاريخ.²

لاشك أن عملية التغيير الاجتماعي عند بن نبي لا تتم إلا وفق المنهج الربّاني المتمثل في الآية الكريمة: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ» سورة الرعد، الآية 11، وتبدأ عملية التغيير الحقيقية عند "النجاح في تحرير الإنسان من عقد النقص والانبهار بمظاهر ما عند

¹ - نفس المرجع، نفس الصفحة.

² - نفس المرجع، ص 55.

الأوربيين، وبتحريره من الترسبات الوراثية في مجال التواكل والخرافة¹ بمعنى التخلص من أعراض المرض الاجتماعي.

"تشير الصيغة إلى أنّ مشكلة الحضارة تتحلل إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت. فلكي نقيم بناء حضارة لا يكون ذلك بأن نكدس المنتجات، وإنما بأن نحلّ هذه المشكلات الثلاث من أساسها."²

"...حتى يكون سلوكنا الشخصي وأسلوب الحياة في المجتمع الذي نعيش فيه مطابقين لمفهوم لاغموض فيه، لا من وجهة التاريخ أي عندما نتصور الثقافة كالشيء الذي يصنع التاريخ، ولا من الوجهة التربوية، عندما نعد الثقافة كالشيء الذي يكيّف الإنسان الذي يصنع التاريخ، أي عندما نريد فهم وظيفة اجتماعية وتطبيقها في مجتمع معين."³

- إن فكرة التصدي للعوامل الطبيعية والمناخ والأحوال الجوية التي تحدت عنها بن نبي وخاصة مشكلة زحف الرمال على الأراضي الزراعية تحيلنا إلى فكرة التحدي لأرنولد توينبي في نظريته في التغير الاجتماعي.

- نستنتج من هذا الجدول أنّ بناء الحضارة يعتمد على ثلاث مقومات رئيسية وهي: الإنسان + التراب + الزمان وهذا الثالوث يتزعمه بالدرجة الأولى الإنسان القادر على التغيير والابتكار، الإنسان الفعّال كما يسميه مالك بن نبي. ويأتي بعد "التربة" أو الرقعة الجغرافية وهي حتّى نتكلم عن أمة وحضارة لبلدان تكون في إطار رقعة "مجالية" ولها حدود محدّدة المعالم.

والوطن هنا أوالتراب الوطني يعدّ ذلك المجال الذي تقام في إطاره الحضارة. وفي علم الاجتماع نجد أن التراب يعادله ما يسمّى بالمجال الجغرافي وهو هامّ جدّا، حيث بيّنت العديد من النظريات أهميته وخاصة النظرية المجالية وكذلك نظرية الحتمية الطبيعية والمسمّاة كذلك بالنظرية الجغرافية والتي تنتسب للعالم البلجيكي "أودلف كيتليه" Adolph Quetellet وفي الحقيقة يعود الفضل للعلامة ابن خلدون في وضعها. والزمان "الزمانية" (Temporalité) كما يسميها مالك بن نبي ثالث عنصر هامّ في المعادلة "الحضارية". ولهذا يعطي أهمية قصوى للزمان وذلك حتّى يتسنى فهم الأوضاع والأحوال بالمجالين الزماني والمكاني.

¹ - د.أسعد السحمراني، مرجع سابق، ص 194.

² - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 50.

³ - نفس المرجع، ص 90.

-كما يعدّ الزّمن عنصر فعّال في المسيرة الإنسانيّة وهذا عكس ما نجده اليوم في مجتمعاتنا العربيّة وعلى رأسها المجتمع الجزائريّ الذي لا يولي أيّ اهتمام للوقت حيث ننشئ أبناءنا على "ثقافة قتل الوقت"

الجدول رقم: 15 دور الإنسان في العلاقات الاجتماعيّة.

المفهوم	ك	%
الإنسان	111	73,50
العلاقات الاجتماعيّة	40	26,50
المجموع	151	100

من خلال تحليل معطيات هذا الجدول الّذي يوضّح دور الإنسان في العلاقات الاجتماعيّة نجد أنّ الإنسان ذكر بنسبة (73,50%) بينما العلاقات الاجتماعيّة كانت بنسبة (26,50%)

- وقد قسم مالك بن نبي الإنسان إلى نوعين: الشّخص والفرد، فالشّخص هو الإنسان الّذي يقيم علاقات اجتماعية مع محيطه الاجتماعي، لا يعيش منعزلا عنه، يشاركه أفراده وأقاربه في كلّ المناسبات وفي كلّ مكان وزمان. وكلّما كانت العلاقة متينة بين الإنسان والمجتمع سادت أواصر المحبة، الإيثار والتضامن. بينما الفرد فهو إنسان لا يقيم علاقات اجتماعية مع محيطه الاجتماعي وأنها جدّ محدودة، فهو إنسان منعزل ويعيش على الهامش في المجتمع لا يشاركهم ولا يشاركونه الحياة. وكلّما كانت العلاقة ضعيفة بين الإنسان والمجتمع سادت الأنانيّة، والفردية والسلبية...

- إنّ تحديد مفهومي الشّخص والفرد مرتبط بمراحل الحضارة أو التّغيير الاجتماعي عند بن نبي، فيستعمل مفهوم الشّخص في مرحلة الرّوح بأكثر قوّة بعدها في مرحلة العقل وتقلّ في مرحلة الغريزة، لأنّ الإنسان يكون في أقصى فعاليّته الاجتماعيّة. ويستعمل مفهوم الفرد أكثر قوّة في مرحلة الغريزة ثمّ في مرحلة العقل وتقلّ في مرحلة الرّوح أيّ بطريقة عكسيّة لأنّ الإنسان يكون في أضعف فعاليّته الاجتماعيّة.

- ويتفق مالك بن نبي مع راد كليف براون حول مفهوم الفرد والشّخص، فيذهب راد كليف براون إلى أنّه لا يمكن فهم البناء الاجتماعي إلّا بملاحظة العلاقات الاجتماعيّة... أمّا الإنسان كشخص، فإنّه عبارة عن مجموعة من العلاقات الاجتماعيّة.¹

¹ - د. محمد إسماعيل قباري، المدخل إلى علم الاجتماع المعاصر، منشأة المعارف، الاسكندرية، د.ت، ص83

- ومنه نستنتج أنّ الإنسان عند مالك بن نبي هو الكائن الفاعل والمكوّن للعلاقات الاجتماعية، مثلما هو القائم بالحضارة، فالإنسان في المجتمع المتحضّر يكون علاقات اجتماعية كثيفة ومتينة مع باقي الأشخاص، ولهذا سمّاه بن نبي "الشخص" تمتاز هذه العلاقات بالتّعاون والتّزاور، الإيثار، المحبة، المهادنة، التّفاهم والمشاركة. بينما أطلق لفظ "الفرد" على إنسان ماقبل أو بعد الحضارة، لأنّه إنسان انعزالي، ضعيف القدرة على إنشاء علاقات اجتماعيّة، بل هي في نطاق ضيق منحصر في إطار مكاني يعيش فيه. تختصّ علاقاته بالتّحاسد، الأنانيّة، التّخاصم ...

الجدول رقم: 16 عوامل التّغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي

العوامل	ك	%
الحضارة	269	56,99
الثّقافة	99	20,98
الدين	64	13,56
العلاقات الاجتماعيّة	40	8,47
المجموع	472	100

من خلال قراءتنا لهذا الجدول الذي يوضّح عوامل التّغيير الاجتماعي لدى مالك بن نبي نسجّل نسبة (56,99%) للحضارة التي تعتبر العامل الأول في عملية التّغيير الاجتماعي بل إنّ الحضارة هي دليل على التّغيير الاجتماعي، أمّا الثّقافة فجاءت بنسبة (20,98%)، بينما كان الدين بنسبة (13,56%)، في حين كانت العلاقات الاجتماعية بنسبة (8.74%)، وأخيرا الايديولوجيا التي لم تذكر في هذا المؤلّف إلا أنّه تطرّق إليها في مؤلّفات أخرى ككتاب مشكلة الثّقافة.

- إنّ مفهوم التّغيير الاجتماعي والحضارة مفهومان متلازمان عند مالك بن نبي فالتّغيير الاجتماعي هو عملية بنائيّة تستهدف إقامة حضارة بواسطة نظام من العلاقات الاجتماعيّة، أو هو تحويل الواقع الاجتماعي المختلف إلى تركيب حضاري متقدّم عن طريق شبكة العلاقات الاجتماعية التي تنشأ نتيجة التّفاعل بين العناصر الثلاثة: الأشخاص، الأفكار، الأشياء. ودون إهمال تأثير الفكرة الدينيّة ذلك المركّب بين العوامل والباعث للحضارات الاجتماعيّة الكبرى في المجتمعات.

- ومنه نستنتج أنّ الحضارة عند مالك بن نبي هي مسعى التّغيير الاجتماعي وغايته فالتّغيير الاجتماعي قد تتداخل معه الثّقاليد، العادات، والدّروشة والشّعوذة ...، بينما الحضارة فهي المسار الايجابي الذي يتّبعه المجتمع من أجل إرساء قواعد متينة وأهداف مرسومة بطرق منهجيّة، ولا يتمّ

ذلك إلا بقوة عالم الأفكار بمعنى آخر فعالية الأفكار أو مايسمى بالوعي "فإنّ تغيّر الوعي من وعي تقليدي خرافي إلى وعي عقلي وعلمي هو طريق التطوّر، وهو بمثابة إعداد التربية الصالحة لكلّ تغيير ايجابي مقبل"¹

ويحتل التّغيير حيّزا هامّا في مؤلّفات مالك بن نبي مفهومه؛ أساسه؛ قانونه؛ ونطاقه وهدفه وشروطه ومواصفات القائمين عليه، وهو في نظره عملية بنائية تستهدف إقامة حضارة بواسطة نظام من العلاقات الاجتماعية. إنّ تحويل الواقع المتخلف إلى تركيب حضاري متقدّم عن طريق شبكة العلاقات الاجتماعية²

- ميّز بن نبي بين مفهوم التّغيير والتّغيير، فالتّغيير عملية تلقائية قد تكون ايجابية أو سلبية، واعتبر "إنّ تطوّر الجماعة يؤدّي بها إمّا إلى شكل راق من أشكال الحياة الاجتماعية وإمّا أن يسوقها على عكس ذلك إلى وضع متخلف"³. في حين أنّ التّغيير هو عملية بنائية تطورية ايجابية مقصودة، والمجتمع في ظلّ التّغيير هو "الجماعة التي تغيّر دائما خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التّغيير، مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التّغيير"⁴

- ومنه نستنتج أنّ عملية التّغيير الاجتماعي هي عملية تطوّر ونموّ تتمّ وفق دورة سمّاها بن نبي بالدورة الخالدة، غير أنّ عملية التّغيير الاجتماعي عنده تعني النّهضة والتّقدم لأنّها عملية مدروسة ومخطّط لها وفُرت لها وسائل معينة لتحقيق أهداف معينة. ويستشهد بن نبي في تنظيره للظاهرة الدورية للحضارة بالآية الكريمة: (وتلك الأيام نداولها بين الناس) سورة آل عمران، الآية 140.

- حياة الحضارة لدى مالك بن نبي تتمّ وفق حركة دائرية لها بداية ونهاية "فنقطة الصّفر التي تنطلق منها هي الحالة السابقة على الحضارة، وهي المرحلة التي تكون القيم الاجتماعية فيها لم تصبح واقعا بعد، ولكن تكون هناك بذرة عالم الأفكار كاملة تحتوي على المقومات الحضارية."⁵

- شبّه مالك بن نبي هذه البذرة بالنقطة التي تحوي العناصر العضوية والنفسية لتركيب الكائن المقبل، أمّا نقطة النهاية التي تتوقّف دورة الحضارة عندها فهي التي يكون الإنسان فيها قد فقد طاقته الروحية والعقلية واستقرّ في حالة تفسّخ حضاري، ويدخل في حالة ما بعد الحضارة. ومن

¹ - برهان غليون، اغتيال عقل، موفم للنشر، الجزائر، ط1، ص194.

² - عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، مؤسسة عالم الأفكار، الجزائر، 2005، ص24.

³ - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص18.

⁴ - نفس المرجع، ص 17.

⁵ - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 51.

ثمة ينتهي تاريخ هذه الحضارة في نقطة ما لتتجدد من نقطة جديدة لانطلاق دورة جديدة، "فالحضارة هي عبارة عن وحدات متشابهة وغير متماثلة، تظهر هنا وهناك متنقلة من مكان ومن شعب لآخر، فهي تنتقل وتهاجر من مكان لآخر وتبقى حية لا تموت، فإن أنهت دورتها الحضارية في مكان ما انتقلت إلى مكان آخر لتبدأ دورتها الحضارية من جديد، طبقا لتركيب عضوي تاريخي.¹ يشتمل هذا التركيب على الإنسان والتربة والزمان إضافة إلى الفكرة الدينية التي تمزج بينهم، وتشكل الدافع لكل تغيير اجتماعي وحضاري.

- هذا وقد احتلت الثقافة المكانة الثانية نظرا للمكانة التي تحتلها في المنظومة الفكرية لمالك بن نبي، حيث الثقافة هي مجموعة الكلام الطيب والخبيث التي توجه قواعد السلوك في المجتمع، والثقافة بشكل واضح هي "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية يلقيها الفرد منذ ولادته كرأس مال أولي في الوسط الذي يولد فيه، فالثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طبعه وشخصيته..... فهي المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر. وهكذا نرى أن هذا التعريف بضم بين دفتيه فلسفة الإنسان، وفلسفة الجماعة، أي معطيات الإنسان ومعطيات المجتمع، مع أخذنا في الاعتبار ضرورة انسجام هذه المعطيات في كيان واحد.²

ومن هذا المفهوم للثقافة تتبين أهميتها في توجيه الفرد والمجتمع، وفي نسج العلاقة السليمة بينهما.

- إن طبيعة حضارة مجتمع ما تنشأ من طبيعة وخصوصية ثقافته، فالحضارة الإسلامية هي انعكاس للثقافة العربية، والحضارة الغربية امتداد للثقافة الأوروبية، والحضارة الفرعونية امتداد لثقافة سكان مصر آنذاك، ثم تتسع هذه الثقافة بما تمده لها هذه الحضارة من مؤثرات ايجابية جديدة.

- عرف مالك بن نبي الثقافة "هي تلك الكتلة نفسها، بما تتضمنه من عادات متجانسة وعقريات متقاربة، وتقاليده متكاملة وأذواق متناسبة وعواطف متشابهة، وبعبارة جامعة هي كل ما يعطي الحضارة سميتها الخاصة"³ فهي تحمل أفكار النخبة وأفكار العامة، إنها غذاء حضارة مجتمع ما.

والعلاقة بين الحضارة والثقافة عند بن نبي مترابطة، وبالتالي فالحضارة هي "جوهر ينتظم جميع أشتائها، وأفكارها وروحها ومظاهرها، وقطب يتجه نحوه تاريخ الإنسانية"⁴

¹ - نفس المرجع، ص 37.

² - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 89.

³ - نفس المرجع، ص 92.

⁴ - نفس المرجع، ص 164.

- ويقسم بن نبي الثقافة إلى أربعة عناصر هي: المبدأ الأخلاقي، الذوق الجمالي، المنطق العملي، والعلم، وتمثل هذه العناصر شروط الفعالية الاجتماعية، إن أولوية ترتيب هذه العناصر تختلف من حضارة إلى حضارة، فالحضارة الغربية يسودها الذوق الجمالي، بينما المجتمعات العربية كانت قائمة على المبدأ الأخلاقي كالأمانة، الصدق، الاحترام، طاعة الوالدين والبر بهما، صلة الرحم....
- كما أن الذوق الجمالي يختلف من حضارة لأخرى فمثلا الحضارة العربية الإسلامية ساد فيها فن الزخرفة والمنمنمات بينما الحضارة الرومانية سادت فيها المجسمات والتماثيل.
- أما الفكرة الدينية رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ إذ لها دور كمركب في التركيب البيولوجي لأي حضارة، وقد خصص مالك فصلا بعنوان "أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة" بين فيه الدور الإيجابي الفعال لها في تركيب الحضارة تؤثر في الفرد إذ "تجعله قابلا لإنجاز رسالة (محضرة)، غير أن دور الفكرة الدينية لا يقتفي بالوقوف عند هذا الحد، فهي تحل لنا مشكلة نفسية اجتماعية أخرى ذات أهمية أساسية تتعلق باستمرار الحضارة. فالمجتمع لا يمكنه مجابهة الصعوبات التي يواجهها بها التاريخ كمجتمع، مالم يكن على بصيرة جليلة من هدف جهوده.¹
- إن علاقة حدوث التغيير الاجتماعي الذي يؤدي إلى قيام الحضارة مرتبط ارتباطا وثيقا بالدين، إذ يستهل مالك بن نبي دراسة موضوع دور الدين في بناء الحضارات بطرح سؤالين هما:
- هل المبدأ القرآني سليم في تأثيره التاريخي؟
- هل يمكن للشعوب الإسلامية تطبيق هذا المبدأ في حالتها الزاهنة؟
- يجيب على السؤال الأول بعد ملاحظته لدورة الحضارة الإسلامية والمسيحية "إن الحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجا، أوهي على الأقل تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام. بل يؤكد أن البحث في أي حضارة لا يكون إلا بالبحث في أصلها الديني مثل الحضارة البوذية أو البرهمية.
- يرى أن الحضارة القائمة على الدين تولد مرتين، مرة عند نزول الوحي والمرة الثانية عندما تسجل الفكرة الدينية في نفوس معتنقيها، وهو وقت دخولها مسرح التاريخ وهذا ما حدث للفكرة الإسلامية في مرة واحدة، بمقتضى الآية الكريمة "لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ" سورة يس، الآية 6، ويجب على السؤال الثاني حيث يرى قابلية تطبيق المبدأ القرآني لأن قوة التركيب وبعثه

¹ - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 79.

في النفوس مثلما كان في عهد النبي، مصداقا لقول الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"¹

- لقد ذكر ابن خلدون دور الدين في الوصول إلى الملك وقيام الدول إلا أن العصبية أكثر تأثيرا فيرى أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم، والدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها والسبب في ذلك "أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتفرّد الوجهة إلى الحق فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم".² وبعد أن تتبّع ابن خلدون قيام العديد من الدول وجد أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة عامة ذلك أن الملك إنما يحصل بالتغلب، والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق الأهواء على المطالبة وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه³ وقال الله تعالى: "لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" سورة الأنفال، الآية 63.

- والعصبية عند ابن خلدون مرتبطة بالالتحام بالنسب ومبنية على صلة الرحم فيعرفها على أنها "النصرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة"⁴ وعليه فصلة الأرحام توجب دوما الاتحاد واللحمة والمناصرة. ولاشك من تأثر بن نبي بفكرة الدعوة الدينية لابن خلدون التي تؤدي إلى إحداث التغيير الاجتماعي وبروز الحضارات. ومنه نستنتج أن هناك صلة متينة بين الدين وقيام الحضارات عند مالك بن نبي لأن كل حضارة تحمل جذور فكرة دينية، ساهمت في بلورة عالم الأشخاص، عالم الأفكار وعالم الأشياء لمجتمع ما، فدفعته إلى التغيير الاجتماعي وتأسيس حضارة.

¹ - عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 137.

² - عبد الرحمن ابن خلدون، نفس المرجع، ص 159.

³ - نفس المرجع، نفس الصفحة.

⁴ - نفس المرجع، ص 132.

-الجدول رقم : 17 مراحل التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي

المراحل	ك	%
الروح	79	46,75
الغريزة	46	27,22
العقل	44	26,03
المجموع	169	100

نجد في هذا الجدول المتعلق بمراحل التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي والمتمثلة في ثلاث مراحل (الروح - العقل - الغريزة)، جاءت مرحلة الروح بنسبة (46,75 %) وهي المرحلة المقترنة ببزوغ الفكرة الدينية في المجتمع، وهي مرحلة الميلاد. أما مرحلة الغريزة فكانت بنسبة (27,22 %) وهي المرحلة التي يخرج فيها من الحضارة، وهي مرحلة الأفول. بينما مرحلة العقل فأنت بنسبة (26,03 %) وهي المرحلة الوسطى بين مرحلتَي الروح والغريزة، وتسمى مرحلة الأوج.

ومراحل التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي هي مراحل الحضارة، تتم بطريقة دائرية، سماها بـ"الدورة الخالدة" في كتابه شروط النهضة، متأثراً بابن خلدون فهو من أوائل المنظرين لدورة الحضارة، سماها الدولة بدل الحضارة، قسّمها إلى ثلاثة أطوار :

1- طور النشأة والتكوين

2- طور النضج والاكتمال

3- طور الهرم والشيخوخة

ويتمّ المرور عبر هذه الأطوار وفق مراحل خمسة هي: مرحلة البداوة مرحلة الملك، مرحلة الترف والنعيم، مرحلة الضعف ثم مرحلة الفناء، وقد أكد أنّ الحضارة نهاية العمران البشري، وقد وضّح في نظريته المتعلقة بمرحلة تطوّر الدولة أنّ اختلاف أحوالها، وخلق أهلها باختلاف هذه المراحل الخمس¹ "إنّ حضارة معينة تقع بين حدّين اثنين: الميلاد والأفول، وإنّ فنحن نملك هنا نقطتين اثنتين من دورتها باعتبارهما ليستا محل نزاع. والمنحنى البياني يبدأ بالضرورة من النقطة الأولى في خط صاعد ليصل إلى النقطة الثانية في خط نازل... وطور وسيط هو الأوج. وبين الطّورين

¹ - د. محمد الدقس، مرجع سابق، ص 92.

الأولين يوجد بالضرورة تواز معين يشير إلى تعاكس في الظاهرة. فطور الأفول النازل هو عكس النهضة الصاعد وبين الطورين يوجد اكتمال معين هو: طور انتشار الحضارة وتوسّعها.¹

- جاءت مرحلة الروح في المرتبة الأولى إذ ترتبط بيزوغ فكرة دينية ما في مجتمع معين يكون في حالة ما قبل الحضارة أو المملوك الحضارة، حيث يكون في جمود وثبات وعوالمه الثلاث (عالم الأشخاص، عالم الأفكار وعالم الأشياء) ساكنة فلا إبداع ولا ابتكار ولا تغيير في كلّ مجالات الحياة، يعيش على نمط أجياله السابقة. ومرحلة الروح هي المرحلة الأولى للتغيير، وفيها تبدأ كافة جوانب حياة المجتمع في الحركة، وفقا لمدى التشبع والإيمان والتمسك بهذه الفكرة الدينية.

- ومنه نستنتج أنّ مالك بن نبي قد رسم منحى بيانيا لمراحل دورة الحضارة إسقاطا لمراحل حياة الإنسان من الطفولة، النضج ثم الشيخوخة؛ مرحلة الطفولة تقابلها مرحلة الروح، مرحلة النضج (الشباب) تقابلها مرحلة العقل؛ مرحلة الشيخوخة تقابلها مرحلة الغريزة.

- ويرى فترة التطور النفسي والأخلاقي للحضارة تكون في مرحلة الروح، لأنّ الروح آنذاك تكون مشبعة بالإيمان الذي تبثّه فيها الفكرة الدينية، في حين مرحلة العقل هي مرحلة انتكاس تبدأ تعيشها الحضارة أين تغطي عليها السمات العقلية التي تبعتها عن الدين والروح وتشغلها بالماديات، فتتطور الاختراعات المادية والإبداعات الفنية، ومنها تظهر الأعراض المرضية الاجتماعية، وعندما تتحرّر الغرائز المكبوتة في مرحلة الغريزة تستعيد الطبيعة غلبتها على الإنسان وهو ما يؤدي إلى نقص الفعالية الاجتماعية للفكرة الدينية.

- أمّا مرحلة العقل فهي عملية انتقالية تطويرية وفق المخطط البياني الذي رسمه بن نبي للحضارة إمّا تطول أو تقصر وفيها يتغلب العقل على الروح فتتطور العلوم والابتكارات والاختراعات وكذا الإبداع الفني والفكري في مختلف المجالات، غير أنّ الغرائز ويقصد بها مالك بن نبي مجموع الصفات البشرية السلبية كالعدوانية والأنانية وحبّ التملك، التكبر والتعالي، استصغار الآخرين... بسبب ابتعاد الناس عن الدين، حيث أن الدين عند بن نبي سماويًا أو وضعيًا يؤسس للفضائل ويدعو لانتشارها في المجتمع كالمحبة والاحترام والتعاون والإيثار.....

- إنّ مرحلة الغرائز هي مرحلة انعتاق وانتشار وتحرّر لكافة الغرائز البيولوجية والمعنوية التي نظمتها الفكرة الدينية، وكان العقل حريصا على مراقبتها وتوجيهها، لكنّ الانشغال بالماديات والاستهلاك والإبداع سبب تراجعاً في الدين، وهذه المرحلة هي المرحلة الثانية في التغيير، لأنّها

¹ - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص73.

مرحلة نزول وهبوط في الأخلاق والفضائل وقيم المجتمع، وهي المرحلة التي ركّز عليها بن نبي لأنّ فيها تظهر فيها أعراض المرض الاجتماعي النفسي والثقافي، وفيها تتفكّك العلاقات الاجتماعية.

كما نستخلص أنّ الحضارة ليست انتقالات وتحولات في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بطريقة عشوائية وإنما هي مراحل مرتّبة ومنظمة مراعية خصوصية كلّ مرحلة، فإن كان تطورها في المرحلة الأولى تصاعدي إلى غاية الوصول إلى القمة أو الأوج ثم يقع نكوص وتراجع إلى غاية الوصول إلى الانحلال. وقد أخذ بن نبي على شبنجلر مقارنته لمراحل الحضارة بمراحل حياة الكائن الحيّ "إنّ الحضارة ككلّ كائن لها طفولتها وشبابها ونضوجها وشيخوختها، وإنما تموت عندما تحقّق روحها جميع إمكاناتها الباطنية على هيئة شعوب ولغات ومذاهب دينية وفنون وعلوم ودول، وإنّ الحضارة عندما تحقّق هذه الأمور وتستنزف إمكانات روحها في تجسيد هذه الانجازات تتخشب وتحوّل إلى مدنية وأخيرا تتجاوز المدنية إلى الانحلال والفناء".¹

الحضارة:

- يعتبر مالك بن نبي مجتمع الحضارة هو المجتمع التاريخي بتغيّره وحركته، وقد وظّف هذا المفهوم متأثراً بأزوالد شبنجلر بعد قراءته لكتاب تدهور الحضارة الغربية، معجبا بطريقة تنظيره لقيام الحضارات ومراحلها، مؤكّدا شبنجلر على تداخل مفهومي الحضارة والتاريخ عند تصنيفه للمجتمعات.

- إنّ فكرة التصدي للعوامل الطبيعية والمناخ والأحوال الجوية التي تحدّث عنها مالك بن نبي وخاصة مشكلة زحف الرمال على الأراضي الزراعية تحيلنا إلى فكرة التحدي لأرنولد توينبي في نظريته في التغير الاجتماعي.

الجدول رقم : 18 تأثير ثنائية الواجب والحقّ في إحداث التّغيير الاجتماعي .

المفهوم	ك	%
الواجب	61	66,30
الحقّ	20	21,74
التّغيير الاجتماعي	11	11,96
المجموع	92	100

¹ - اسوالد شبنجلر، مرجع سابق، ص12.

- من خلال قراءتنا لبيانات الجدول الذي يبيّن تأثير ثنائية الواجب والحقّ في إحداث التّغيير الاجتماعي نجد أنّ نسبة الواجب كانت بـ(66,30%) ونسبة الحقّ بـ(21,74%) أمّا نسبة التّغيير الاجتماعي فهي(11,96%).

- وعليه نستنتج أنّ المرض الاجتماعي يظهر في عدّة أشكال: هي تفكّك العلاقات الاجتماعية، انعدام الفعاليّة الاجتماعية، وأسبقية الحقّ على الواجب. ولإحداث التّغيير الاجتماعي الذي يدفع بالمجتمع إلى ركب الحضارة كان عليه إحداث توازن بين ثنائيتين هما: الحقّ والواجب. فأداء الواجب يعكس مدى وعي الأفراد برسالتهم الحضارية، ويضرب مثالا عن ذلك طائفة اليهود أثناء الحرب العالمية الثّانية ومعاشرته من اضطهاد الدّوائر الحكومية المختلفة لها، فماذا فعلوا؟ لقد كوّنوا مدارس سرّيّة في بيوتهم لتعليم أبنائهم، درّس فيها أساتذة متطوّعون أطباء، محامون ومهندسون، وداوموا على تعمير معابدهم، وتعاونوا وساعدوا بعضهم البعض في أعمالهم التجاريّة، وهكذا نشطت حياتهم تحت الضّغط والمراقبة، هكذا يؤدّي القيام بالواجبات إلى كسب الحقوق.

"...فالحق ليس هديّة تعطى، ولاغنيمة تغتصب، وإنّما هو نتيجة حتمية للقيام بالواجب، فهما متلازمان، والشّعب لا ينشئ دستور حقوقه إلا إذا عدّل وضعه الاجتماعي المرتبط بسلوكه النّفسي".¹

"لقد أصبحنا لانتكلم إلا على حقوقنا ونسينا الواجبات، ونسينا أنّ مشكلتنا ليست في ما نستحق من رغائب بل فيما يسودنا من عادات، وما يراودنا من أفكار، وفي تصوراتنا الاجتماعيّة، بما فيها من قيم الجمال والأخلاق، وما فيها من نقائص تعتري كل شعب نائم"²

- نستنتج من هذا الجدول أنّ تفكّك العلاقات الاجتماعية وتوقّف عجلة التّغيير الاجتماعي منعقد الصّلة بثنائية الحقّ والواجب عند مالك بن نبي إذ هناك علاقة متينة بين أداء الواجب والمطالبة بالحقّ في إحداث التّوازن الاجتماعي بينما لو تقدّمت المطالبة بالحقّ وتقاعس أداء الواجب، حدث الاختلال، لأنّ واجب شخص ما هو في حدّ ذاته حقّ لغيره وبالتالي هي عمليّة عطاء وأخذ فإن لم تؤدّ واجبك فقد حرمت غيرك من حقّه، وعدم أداء الغير واجبه هو حرمانك من حقّك.

- وفي المجتمعات المتحضّرة بقدر ما يعطي الشّخص يأخذ، فأداء الواجبات هو كفالة للحصول على الحقوق، ومن خلال إخلاص كلّ فرد في دوره أووظيفته المنوطة به أوالعمل الموكّل إليه: المعلم، الأب، الأم، الطالب، الحرفي، الفلاح، التّاجر، الحرفي، المسؤول، السّياسي...، وحتى

¹ - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 35.

² - نفس المرجع، ص 37.

كشخص في المجتمع، من خلال بعض السلوكيات اليومية في الشارع أو الأسواق: رمي الأوساخ، النهي عن المنكر، الأمر بالمعروف، المساعدة، السب...وهي في حقيقة الأمر لم يهملها ديننا الحنيف في القرآن والسنة.

الجدول رقم : 19 علاقة التاريخ بالحضارة عند مالك بن نبي

المفهوم	ك	%
الحضارة	269	60,45
التاريخ	176	39,55
المجموع	445	100

- نجد في هذا الجدول الذي يبين علاقة التاريخ بالحضارة عند مالك بن نبي أنّ نسبة (60,45%) كانت للحضارة، بينما نسبة (39,55%) كانت للتاريخ.

- الحضارة عند بن نبي هي انعكاس لحالة التغيير الاجتماعي ولا تغيير اجتماعي إلا ضمن سيرورة تاريخية. - أما التاريخ فهو سجل الزمن لحياة الشعوب والأشخاص والدول وهو الحضارة وتطورها والإنسانية ورفقها والعلاقات البشرية ومسيرتها، فلا حضارة إلا ضمن التاريخ، لأنها تشغل فيه مجالا زمنيا ومكانيا يمثل تراكما للأحداث، "والتاريخ نفسه ليس إلا قائمة إحصائية لعدد معين من الحركات والأفكار".¹

والمجتمع الذي حرّك عجلة الحضارة هو مجتمع تاريخي عند مالك بن نبي بينما المجتمع الطبيعي هو مجتمع خارج عن الحضارة أو مسلوب الحضارة، بمعنى أنّه لم يدخل الحضارة بعد وإما أنّ دورة الحضارة قد انتهت ورجع إلى طبيعته الأولى قبل الحضارة، في انتظار توفّر عناصر الصيغة الحضارية: حضارة = إنسان + تراب + زمن ودون إغفال المركّب الحضاري "الفكرة الدينية".

- لقد تتبّع بن نبي تاريخ الحضارة الإنسانية المختلفة وتأمل الحضارة المسيحية الحالية وقارنها بمسيرة الحضارة الإسلامية السابقة ليتوصّل من وجهة نظر تاريخية إلى أنّ "الحضارة تولد مرتان؛ أمّا الأولى: فميلاد الفكرة الدينية، وأمّا الثانية: فهي تسجيل هذه الفكرة في الأنفس أي دخولها في أحداث التاريخ"²

- وتاريخياً وجد مالك بن نبي أنّ الحضارة الإسلامية جمعت الحالتين معاً، للفراغ الذي عرفته النفس العربية، بينما الحضارة المسيحية نشأت في وسط زحام فكري ثقافي (عبرية، رومانية،

¹ - مالك بن نبي، تأملات، مرجع سابق، ص 150.

² - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 61.

يونانية) ولدت الفكرة الدينية وظلت تتحين الفرصة إلى غاية وصولها وسط البداوة الجرمانية الشاغرة النفس، فانبعثت الفعالية الاجتماعية وامتزجت العناصر الحضارية: الإنسان، التراب والوقت.

- من خصائص أي حضارة عند شبنجلر أنّ لها سيرورة واتّجاه وزمانا ومصيرا وتاريخا ولا يمكن تعديل أو تحويل هذه السيرورة أوالاتّجاه لأنها محكومة بمصير تاريخي "ويرى شبنجلر أنّ لكلّ حضارة تاريخًا وأنّ هذا التاريخ هو تاريخ النفس الأولى ذات الحضارة."¹

- ويحيلنا شبنجلر إلى قضية تماثل الحضارات حيث ينفي هذا التماثل (التطابق) مهما بلغت درجة تقاربها "لا يمكن أن تكون هناك حضارتان متماثلتان كلّ التماثل، وذلك لأنّ كلّ حضارة هي تاريخ مستقلّ بذاته، لا يتأثر أبدا بتاريخ أية حضارة أخرى"². وأنّ لكلّ حضارة طرازها الخاص بها."³

"يتحتّم علينا في حلّ مشكلاتنا الاجتماعية أن ننظر مكاننا من دورة التاريخ، وأن ندرك أوضاعنا، وما يعترينا من عوامل الانحطاط وما ننطوي عليه من أسباب التّقدم. فإذا ماحدّدنا مكاننا من دورة التاريخ، سهل علينا أن نعرف عوامل النّهضة أو السّقوط في حياتنا."⁴

¹ - اسوالد شبنجلر، مرجع سابق، ص 12.

² - نفس المرجع، نفس الصفحة.

³ - نفس المرجع، ص 13.

⁴ - مالك بن نبي، شروط النّهضة، مرجع سابق، ص 52.

4- عرض وتحليل بيانات الجداول الخاصة بكتاب فكرة كمنويلث إسلامي.

الجدول رقم: 20 المفاهيم الأساسية في كتاب فكرة كمنويلث إسلامي

المفهوم	ك	%
الأفكار	150	27,83
الانسان	51	9,46
الواجبات	36	6,68
القيم	30	5,57
الزمن	28	5,19
التاريخ	27	5
العلم	22	4,10
الفن	20	3,71
الفعالية	20	3,71
التّراب	18	3,34
العادات والتقاليد	16	2,97
المعتقدات	16	2,97
الأخلاق	15	2,78
الحقوق	14	2,60
اللغة	13	2,41
الثقافة	11	2,04
الحضارة	9	1,67
القانون	9	1,67
النّهضة	8	1,48
المرض	7	1,30
الدين	6	1,11
العلاقات الاجتماعية	4	0,74
الجمال	3	0,56

0,56	3	التربية
0,37	2	الدوق
0,18	1	الثراء
0	0	العرف
0	0	المثل
100	539	المجموع

- توضّح لنا بيانات الجدول أعلاه الذي يبيّن أهمّ المفاهيم المتكررة لدى "مالك بن نبي" في مؤلفه "فكرة كمنويلث إسلامي"، أن أعلى نسبة قدرت بـ (27,83%) لمفهوم الأفكار، وتتنخفض النسبة لتصل إلى (09,46%) لدى مفهوم الإنسان، وأما مفهوم الواجبات بلغت نسبة (06,68%) وغير بعيد عن هذه النسبة سجّلنا (05,57%) لدى مفهوم القيم، في حين بلغت نسب مفهوم التاريخ (05%)، وتتنخفض إلى (04,10%) لدى مفهوم العلم، أمّا مفهوم الفنّ ومفهوم الفعاليّة فتساوا في نسبتيهما (03,71%)، ثمّ التراب بنسبة (03,34%).

ولفهم أعمق لهذه المفاهيم المستعملة في كتاب فكرة كمنويلث إسلامي المذكورة في هذا الجدول، قمنا باستخراج جداول فرعية من هذا الجدول الكلّي وربط بعض المفاهيم ببعضها وتبيان دلالاتها من منظور المفكر مالك بن نبي. وهي:

جدول رقم: 21 علاقة الأفكار بالأشياء

المفهوم	ك	%
الأفكار	150	71,77
الأشياء	39	18,66
الفعالية	20	09,57
المجموع	209	100

- يتبين لنا من خلال قراءتنا لهذا الجدول والمتعلق بعلاقة الأفكار بالأشياء، أنّ الأفكار كانت بنسبة (71,77%) في حين الأشياء جاءت بنسبة (18,66%) وقدرت نسبة الفعالية بـ (09,57%).

- وعليه فمالك بن نبي انتقد بن نبي استمرار السهولة والبساطة في التمسك بالحصول على الأشياء في فكر المجتمع الإسلامي، فكانت نتيجته زيادة في اقتناء الأشياء وتكديسها بدل التفكير في صنعها أي مضاعفة الأشياء، بينما المجتمعات التي تتصف بالتصميم فهي التي تتمي وتضاعف من أفكارها لتطوير وتصنيع أشياءها. "إنّ النزوع الفكري قد واكب في العالم الإسلامي، استمرار السهولة.... ومن ثمة نصل إلى هذا التقرير المتميز، المتمثل في أنّ المادة التي كان من نتائجها في العالم المصمّم التنمية من كمية (الأفكار)، كان من نتائجها العكسية في العالم الإسلامي، مضاعفة (الأشياء) فحسب.."¹

وإن وجدت أفكار ذات أهمية في المجتمعات الإسلامية إلا أنّها لا تتصف بالفعالية الكافية لإحداث التغيير الاقتصادي والاجتماعي والثقافي فهي مفرغة من تأثيرها ودورها الإيجابي، وهو ما يلاحظ من استمرار تخلف هذه المجتمعات والذي يرجع إلى عدّة عوامل "إنّ الفكرة ليس لها فعاليتها الكافية في العالم الإسلامي، أو هي لا تلعب دورها فيه. ولاريب في أنّ فحص كلّ العوامل التي كان لها مفعول ما، في هذا القصور، سيكون ذا أهمية بالغة ولكن المؤكّد أنّ أحد مظاهر هذا القصور هو ما نلاحظه في التطوّر الزاهن للعالم الإسلامي، من تخلف بالنسبة على التطوّر العام."²

يؤكد مالك بن نبي على تغيير في سلم الأشياء في المجتمعات الإسلامية، وتحليله لشخصية الإنسان المسلم حدّدها في تركيبتين: الأولى بصفته مسير بضرورات اجتماعية، والتركيبية الثانية بصفته إنسان تدفعه عقيدته مرتبطة بالأخلاق، وذلك لفهم ما يخلطه من أفكار ومشاعر.. "إنّ سلم الأشياء عندنا قد تبدّل. لكننا يجب أن نضع الإنسان المسلم هو الآخر في هذا المستوى نفسه-

¹ - مالك بن نبي، فكرة كمنويلث إسلامي، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2002، ص 19.

² - نفس المرجع، ص 24.

(المسلم المقود كإنسان بضرورات اجتماعية، والمدفوع كإنسان عقيدي برغائب أخلاقية معينة)-
لنفهم ما يعتمل في داخله، ويمرّ بوعيه...¹

"إنّ الانسان المسلم لما يعرف بعد تماما، عالم الضرورات، لأنّه لم يصنعه بنفسه. إنّهُ عالم مستورد، تدخل في حياته بفعل تقلّبات تاريخه الخاص"²

ووضّح بن نبي تبدل سلم الأشياء من خلال انتقال مفهوم الضرورات المادية من الأشياء الضرورية إلى الأشياء الكمالية، بعد انتقال وظيفة ضبط هذه الضرورات من المجتمع إلى رب الأسرة، الذي ساهم في توفير الماديات الكمالية (المزينة) داخل أسرته، ممّا غير كذلك في بنية الأفكار والتقاليد والقيم الاجتماعية والثقافية للمجتمع ككلية "ولكن عالم الضرورات - الحقيقية أو المزينة - يبلغ حدّا من التعقيد، لا يبدو من السهل أزاءه عمليّا، أن نقيم على عتبة كلّ (موئل) مصفاة لاتسمح بالعبور لغير الضرورات الحقيقية. فهذا النوع من التكرير أوالتصفية يمكن أن يحدث لا على عتبة كلّ أسرة بمفردها، ولكن على عتبة المجتمع نفسه. وهذا الذي لم يحدث بالفعل كما هي الحال بالنسبة لرب الأسرة، الذي يريد توجيه تربية أطفاله وحياتهم إذ يجد نفسه محمولا على إعداد حساب معين للضرورات الزائفة... وهكذا غزت الحياة الإسلامية - بدون تصفية أو بنصف تصفية - أشياء عديدة ليست ضرورية مطلقا، ظلت تقلّب التقاليد والأفكار والرغائب التي كانت تحرّك تلك الحياة حتّى يومنا هذا...³

فوضى الأشياء وفوضى الأفكار

تنتمي المجتمعات الإسلامية وخاصة المجتمع الجزائري إلى المجتمع العالمي، بينهما معاملات ومبادلات تجارية وفكرية، فالمجتمع العالمي يبيع الأشياء للمجتمع الإسلامي ويفرض عليه شروطه وأفكاره بتقبلها وتطبيقها (الحسنة والرديئة). حيث كان تطوّر المجتمع مشروطا برابطة البيع والشراء التي باتت ضرورة يتقبلها المجتمع بأكثر إلزامية في الميدان الفكري من الميدان الاقتصادي "على أنّ هذا المجتمع ليس منغلقا على ذاته: فهو يكون جزءا من مجتمع عالمي فوق صياغي (supertechnique)، يبيعه الأشياء، ويفرض عليه في الوقت نفسه مقاييسه، ويرغمه على إعداد اعتبار لمعايير، وعلى تمثّل "أفكاره" حسننها ورديئها. ولقد كان تطوّره منذ نصف القرن، مشروطا بهذه الرابطة المادية الصّرف، والحتمية كذلك. ولقد ردّ المجتمع الإسلامي على مفعول هذه الرابطة،

¹ - نفس المرجع، ص 24.

² - نفس المرجع، نفس الصفحة.

³ - نفس المرجع، ص ص 24، 25.

باعتبارها إلزاما في الحقل الاقتصادي، و(فوق الإلزام) في المجال الفكري، فكان ردّه هذا، لكي يتمكن من تحمّل النّقل السّاق، لكومات(الأشياء) التي أدخلها في حياته، ولكي يستوعب الضّغط الضّخم (للأفكار) التي تهدّد شخصيته وبقاءه: بالإلزام من طرف الأشياء، وما فوق الإلزام من طرف الأفكار.¹

عملية شراء الأشياء صارت تقليدا في المجتمع الجزائري والإسلامي عامّة، أنتجت فجوة وفوضى بين عالم الأفكار وعالم الأشياء، لايحيوان تنظيميا داخليا بينهما، أصبح الفرد لم يتحصّل على ضمانات اجتماعيّة ضروريّة لتمكّنه من تحسين منتوج اليدوي أو الفكري. "حقّا إنّ التّقليد لا يذهب مذاهب بعيدة المدى وهو لا يعضد في هذا المدى غير فوضى من (الأشياء) و(الأفكار) كعالمين منفصلين لامجال في داخلهما لأيّ تنظيم، أو كسدّ يمين ليس بينهما أيّ صلة جدليّة؟"²

"وبافتقادنا هذا التّنظيم الدّاخل، الذي يضع كلّ فرد وكلّ شيء، حيث ينبغي أن يوضع، نجد العالم الإسلامي لا يمنح الفرد كلّ الضّمانات الاجتماعيّة لتحسين عمله اليدوي أو الفكري، ولا يتيح له أن يجني ثمار هذا العمل."³

لاشكّ أن أيّ تطوّر تاريخي ونفسي في العالم الإسلامي يمّس ميادين عدّة هي: الميدان الاقتصادي ويعني الحاجة إلى اقتناء الأشياء والوسائل بدل انتاجها وفي الميدان الفكري اتّباع المادّية أي الملموس بدل المعنوي، وفي الميدان الاجتماعي اتّباع الحضارة الشيئية وربط البناء والعلاقات الاجتماعيّة بالمادّيات، وفي التطوّر الجمالي والسّياسي المرتبط بضبط مفهوم الأفكار وحياتها وفعاليتها، والملاحظ أنّ هناك انفصال دائم بين عالمي الأفكار والأشياء في المجتمع الجزائري جعل كل عالم معزول عن الآخر، بينما وهي حالة مرضيّة تستوجب علاجها "ويمكننا أن نسقط هذا الاعتبار(التطوّر التاريخي للعالم الإسلامي في منشآته والتّطور النفسي لأفكاره) على المظاهر المختلفة للحياة الإسلامية لنستخلص منها النّتيجة المطابقة لها. فنحن لو أسقطنا ذلك الاعتبار مثلا على التطوّر الاقتصادي للعالم الإسلامي، منذ قرن من الزّمان نلاحظ هذا التّطور باكتماله في اتّجاه (الأشياء) قد أنتج -ويلزم أن ينتج- (إعوازا) زاد من حاجات هذا العالم من غير أن يزيد من وسائله. وإذا ما أسقطناه على التّطور الفكري، فهمنا السّبب في أنّ هذا التّطور عندما يتحوّل لدى المثقّف المسلم إلى شكل من أشكال المادّية، يكون قد اتّجه نحو الشّكل

¹ - نفس المرجع، ص ص 28، 29.

² - نفس المرجع، ص 31.

³ - نفس المرجع، نفس الصفحة.

المحدّد(بالأشياء) لانحو الشّكل المحدّد(بالأفكار). وكذلك الأمر فيما لو أسقطناه على التّطوّر الاجتماعي بصفة عامّة، فإنّنا نفهم أنّ هذا التّطور يتّجه صوب ذلك الشّكل من أشكال الحضارة الذي أدعوه بالحضارة الشّيثيّة ! ...

يمكننا أن نسقط ذلك الاعتبار أيضا على الاتّجاه الجمالي أو السّياسي، ونستخلص نتائج بالغة الأهميّة... إلّا أنّنا نريد إسقاطه بطريقة أخصّ، على التّصميم المفاهيمي، أعني على حياة الأفكار ذاتها ومدى فعاليتها في العالم الإسلامي.

فالمؤكّد أنّ الالتقاء لما يتمّ بعد كلّيّة بالنسبة إلينا بين عالم الأفكار وعالم الأشياء، ومن جراء هذا ظلّت الفكرة معزولة ومحايّدة، وكأنّها العزلى من سلاحها بفقدانها لفعاليتها.¹

"ولكن المجتمع-وهذا هو الأهمّ بدرجة لاتضارع- يعاني حينئذ نقيض مفعول موقفه: فهو مجتمع فقير الأفكار، في السّاعة التي تمثّل فيها الأفكار الثّروة الوحيدة التي يعوّل عليها، وهو مجتمع أعزل مفاهيميّ أو إيديولوجيّ، في نفس الوقت الذي يتعيّن فيه أن تسوّى كلّ المنازعات في العالم من هنا فصاعدًا لا بالأسلحة ولكن بالأفكار.

- إنّ (عالم الأفكار) هو الذي يدعّم (عالم الأشياء)، العالم الذي لايقف على قدميه بدون العالم الأوّل، ولايمكنه أن يقف على قدميه بنفسه إذا ماأطاحت به النّوائب. والمؤكّد أنّ عصرنا، من جراء العامل الفنّي الذي يعجّل من خطو كلّ الاطرادات، هو العصر الأخصب والأحفل بالتّجارب الاجتماعيّة البنّاءة.²

ويفسّر بن نبي"الانسان والتراب والوقت، التي تفسّر مجتمعة، كلّ عمليّة اجتماعية. ولكنّا إذ ندفع هنا بالتحليل إلى أقصى حدوده، من غير أدنى تغيير في المعادلة: إنسان+ تراب+وقت = حضارة يمكننا، بل يتعيّن علينا أن نقول: إنّ الإنسان هو الذي يحدّد في النّهاية، القيمة الاجتماعيّة لهذه المعادلة، لأنّ التّراب والوقت، لايقومان-إذا اقتصر عليهما فحسب- بأيّ تحويل اجتماعي.³

يربط مالك بن نبي قيمة المجتمع في مختلف مراحل التاريخيّة بأفكاره لأشياءه، كما يرى أيضا أنّ المجتمع الجزائري يعاني ضعفا في الأساس المفاهيمي أي بنيته المفهوماتيّة ضعيفة وعالم أشياءه بأساس هش وضعيف لأنّها مقتناة من مجتمعات أنتجت أفكارها كمّا هائلا من أشياءها التي يقدّرها هذا المجتمع "إنّ قيمة مجتمع معيّن في فترة ما من تاريخه، لايعبّر عنها بمجموعة(الأشياء) في

¹ - نفس المرجع، ص 51.

² - نفس المرجع، ص 52.

³ - نفس المرجع، ص ص 52، 53.

هذا المجتمع، ولكن بمجموعة أفكاره. وإذن فما هي قيمة مجتمعنا الآن؟.. مهما يكن من أمر فإن شيئاً واحداً هو المؤكد: وهو أنّ (أساسنا المفاهيمي) ضعيف للغاية، و(عالم أحياناً) لا يركز على كبير شيء. مضافاً إلى ذلك أنّه حتّى (الأشياء) الموجودة في هذا العالم، كنّا قد اشتريناها من مجتمعات تملك (أفكاراً)¹

"فقد أردنا في هذه الفقرة أن نبيّن له ببساطة أنّه ينضاف إلى الضعف الداخلي في تجهيزنا المفاهيمي، (إضعاف) ناتج عن مجهود منهجي، من المعاكسة الموجهة من الخارج، وباجتماع دينك المفعولين تصبح حياة (الأفكار) صعبة في المجتمع الإسلامي، المجتمع الذي لم يصل بعد - في طوره/ما قبل الاجتماعي/ - عامل الأشياء بعالم الأفكار. وبطبيعة الحال فإنّ لهذا التخلّف الذي يسم طوره/ ما قبل الاجتماعي/ دويّه وتأثيره على كل الحياة في الأشكال المختلفة للفاعلية التي قد تكوّن من الوجهة الاجتماعية أهمّ مشكلات العالم الإسلامي."²

جدول رقم: 22 تأثير الزمن وعالمي الأفكار والأشياء في الأخلاق

المفهوم	ك	%
الأفكار	150	64,65
الأشياء	39	16,81
الزمن	28	12,07
الأخلاق	15	6,47
المجموع	232	100

- نستقرئ من خلال هذا الجدول والمتعلّق بتأثير الزمن وعالمي الأفكار والأشياء في الأخلاق، أنّ أعلى نسبة للأفكار كانت نسبة (64,65 %) في حين الأشياء كانت بنسبة (16,81 %)، بينما قدّرت نسبة الزمن بـ (12,07 %)، وبلغت الأخلاق نسبة (6,47 %).

- وعليه يرى بن نبي أنّ وعي المجتمعات الإسلامية مشّت بين رغبتين، فالأولى هي تدارك التآخر الذي تعيشه هذه المجتمعات (بما فيها المجتمع الجزائري) في كلّ الميادين، أمّا الرّغبة الثّانية فتتمثّل في إنقاذ والمحافظة على الأخلاق والقيم الاجتماعية والثقافية وتوجيهها توجيهاً توفيقياً نحو التطور "ونحن ندرك أنّ الوعي الإسلامي، قد أصبح ممزّقاً منذئذ، بين الرّغبة في استدراك تأخّر يعرف شدّة وقوعه في المجال السياسي - ونعني به التأخّر الذي حاق به على الصّعيد الاجتماعي - وبين الرّغبة

¹ - نفس المرجع، ص ص 53، 54.

² - نفس المرجع، ص 58.

في إنقاذ تراث أخلاقي يعرف مدى قيمته. وإذا كان يمكن لهذا التّوقّ المزدوج أن يجد -في شكل من أشكال التّطوّر الموجّه- تعبيره في صورة تركيب يتمّ فيه التّوفيق بين الحدود المتضاربة والمتنافرة، فإنّه على العكس من ذلك تماماً قد أنتج تناقضاً صريحاً في التّطوّر الحقيقي المتّبع من طرف البلاد الإسلاميّة منذ نصف قرن¹

يشهد العالم تطوّراً متسارعاً في عالم الأشياء (المادّيّات) غير أنّ هذا التّطوّر له منحنيين ففي العالم الغربي يتّسم بالإبداع لأنّ عالم أفكاره ينتج ويصنع عالم أشياءه، بينما في العالم الإسلامي يتّصف بالاستهلاك لأنّ عالم أفكاره لاينتج ولايصنع عالم أشياءه بل يقتصر على الشّراء والاقتناء، ومادام الإنسان المسلم يعيش وسط هذه المادّيّات فهو ملزم بالاندماج في زمن المادّيّات الذي لم ينتجها بشيء من التّعادل، وإلّا عاش في حالة من التّقاطب المزدوج، إمّا طغيان الأفكار والأخلاقيّات، وإمّا طغيان المادّيّات والأشياء. "فقد مُزّق وعي الإنسان المسلم في يومنا هذا من جراء التّناقض، لأنّ هذا الإنسان لم يعرف كيف يندمج في عالم زمنيّ مرغم على الحياة فيه، وإن كان لم يتمثّل بعد معاييرهِ. وهذا حدث من أحداث تطوّر (إعوازي entropique) كان قد زاد من حجم الأشياء أكثر ممّا زاد من حجم الأفكار.. وقد ترتّب على ذلك في الفكر الإسلامي (تقاطب polarisation) مزدوج، شطر حياته النّفسية إلى عالمين منفصلين: فالمسلم يعيش في عالم غريب له منه (أشياءه) وليس (أفكاره)، وتلك خاصيّة النّفسية الصّبيانيّة، عندما يبدأ الطّفل بوضع يده على الأشياء من غير استعداد لفهمها فإذا بنا نراه أحياناً يمدّ يده إلى القمر جادّاً في طلبه ولكن من غير طائل بطبيعة الحال! فهذه الحركة تبدو لنا جذّابة، لدى الطّفل الذي تضحكنّا منه هذه البادرة الدّالة على براءته، عندما يندفع في أوّل تجاربه، لالتقاط عود ثقاب مثلاً، أشعل بغية إثارة حبوره... ولكننا ندرك كم يكون مثل هذه الحركة فاجعاً، في مجتمع مندفع وراء الأشياء، وكم يمكن أن تكون حروق هذا المجتمع نفسه شديدة الإيلام؟²

"فالتّقاطب المزدوج الذي أشرنا إليه فيما مضى، ونحن بصدد النّفسية الإسلاميّة -ملاحظين لما هو واقع من عدم التّرابط العضوي بين عالم الأشياء وعالم الأفكار- يترجم بعقلية مزدوجة³.
"الفوضى في الأشياء وفي الأفكار كان من نتائجها الحتميّة انعدام الأمن في المجتمع، والبلبلّة في الأفكار والاضطراب في الأرواح. فهناك دائماً تبعيّة مشتركة بين الحالة الاجتماعيّة، والحالة

¹ - نفس المرجع، ص 25.

² - نفس المرجع، نفس الصفحة.

³ - نفس المرجع، ص 34.

الأخلاقية في وسط معين: فالفوضى الاجتماعية في أشكالها المختلفة، الاقتصادية والفكرية، تنتج الاضطراب الأخلاقي. وهذا الاضطراب لا يترجم بطبيعة الحال، بنفس الطريقة في طبقات المجتمع المختلفة، ولا في عصور تطوره المختلفة.¹

"إنّ الاعتبار التي قدّمناها في الفقرات السالفة، تترجم بكلّ طريقة أزمة النمو، التي يجتازها العالم الإسلامي منذ أن استيقظ وعيه. وهي اعتبارات تكوّن في جملتها المظهر المرضي، لما تعورف عليه (بالنهضة)، فالأزمة نتيجة لهذه النهضة. ونحن نستطيع أن نبوّب عناصرها حسب طبيعتها الاجتماعية والنفسية، كما سلف أن قدّمنا، فالتأخر في المجال الاجتماعي، وفي الشروط الزاهنة لتطوّر العالم العام، يترجم باضطراب في المجال الأخلاقي، وهذا الاضطراب يترجم بدوره في سلوك الأفراد، فهو في المستويات المختلفة للسلم الاجتماعي يترجم: إمّا بوهن في الرأي أو بالسخط والتطرّف في وجهات النظر."²

إنّ فوضى العلاقات بين عالم الأفكار وعالم الأشياء، والتي يطغى فيها عالم الأشياء بمادياته ومنشآته ووسائله والتي مسّت في سيرورتها ميادين عدة كما ذكر سالفًا في الميدان الاقتصادي والفكري والاجتماعي والجمالي والسياسي ولدّ أزمة نمو، تمثّل حالة مرضية اجتماعية إنّه المرض الاجتماعي، الذي أصبح ملحوظًا في شكل اضطراب أخلاقي، هذا الأخير الذي يظهر من خلال سلوك الأفراد: كضعف الرأي، السخط والتدنّر، التطرف الفكري، واللاأمن الاجتماعي... ولما صار المجتمع الجزائري تحكمه الماديات والمظاهر أصبح يتخلّى عن معايير وقيمه وجملة من عاداته وتقاليده ومعتقداته الاجتماعية، ومبادئه الأخلاقية وحتى بعض تعاليمه الإسلامية، بل أصبح يتّجه إلى الفردانية والأنانية، وتوفير الضروريات والكماليات على نفس الدرجة.....

جدول رقم: 23 علاقة الأفكار بالمنطق العملي

المفهوم	ك	%
الأفكار	150	74,26
الإنسان	51	25,25
المنطق العملي	1	0,49
المجموع	202	100

¹ - نفس المرجع، ص 32.

² - نفس المرجع، ص ص 34، 35.

من خلال قراءتنا لمعطيات هذا الجدول الذي يبين علاقة الأفكار بالمنطق العملي يظهر أن الأفكار جاءت بنسبة (74,26%) تليها الإنسان بنسبة (25,25%) ثم المنطق العملي بنسبة (0,49%). يعتبر مالك بن نبي المنطق العملي المركب الثالث من مركبات الثقافة في كتابه مشكلة الثقافة، ويشير إليه هنا أنه يعاني ضعفا في المجتمعات الإسلامية والمجتمع الجزائري بالأخص، وهذا ماينتج عجزا في الرقابة الذاتية وفي ضبط النتائج في أعمال أفرادها، فجملة النشاطات والجهود والوسائل من جهة ومجموعة النتائج من جهة أخرى مشتتة لأن أفكاره عاجزة عن إيجاد روابط سببية وعملية بينها ويؤكد على فكرة المحصول الغائبة في فكر المجتمع، ويعتبر المجتمع بمثابة جهاز يقوم بتحويل الطاقات الاجتماعية إلى نتائج "من البين أنه لانتزنا ملاحظة طويلة، لكي نأخذ في اعتبارنا أن (المنطق العملي) ينقص البلاد الإسلامية عموما، فهذا أمر متوقع لأن العجز في الأفكار، يخلق أوينتج في المجال النفسي عجزا في (المراقبة الذاتية)، وفي مراجعة (النتائج). ففكرنا لاقيم علاقات بين النشاطات والجهود والوسائل من ناحية، و(نتائجها) من ناحية أخرى. ومفهوم (المحصول) لاوجود له في تربيتنا الأولى، إذ هو لا يكون جزءا من عالم أفكارنا. بينما المجتمع هو جهاز التحويل، الذي يحول الطاقات الاجتماعية إلى (نتائج) مختلفة"¹

- وبدون وجود المنطق العملي ينتج هدر للطاقات والوقت والمال، لأن المنطق العملي يرسم خطأ مستقيما يتبعه الفرد، تحدّد وتوجّه وتنظّم فيه الطاقات بغية الوصول إلى أهداف ونتائج محدّدة مسبقا وخلال فترة زمنية معيّنة وهو ماأطلق عليه المحصول، بينما في المجتمع الجزائري ولما ينعدم المنطق العملي يصبح المجتمع هو الجهاز الذي يقوم بتحويل الطاقات الاجتماعية أثناء نشاطها، ما يؤثّر على اتّجاهها وفي الوصول إلى نتائجها المسطرة.

يلاحظ مالك بن نبي أن هناك ظاهرتين يعاني منهما المجتمع الجزائري هما: التّبديد والتّبذير في الطّاقات والوسائل واللّذين يعتبران من مظاهر اللّأفعاليّة التي ترجع إلى ضعف في أفكاره، هذا مايفسر لنا تقديم تبريرات الإخفاقات والفشل في النشاطات الاجتماعية ممّا يؤدّي إلى محدودية النّتائج، هذه التّبريرات تفسر بأسباب ثانوية غير حقيقيّة "والواقع أنّنا عندما نحلّل بعض النّشاطات النّمودجيّة في المجتمع الإسلامي، نلاحظ أنّ (التّبديد) هو الغالب بكثير في معظم الأحيان على(المحصول)، وبملاحظتنا لبعض النّشاطات النّمودجية في الجزائر، تمكّنت في دراسة ظهرت لي منذ بضعة سنين، من الإشارة بالأرقام إلى تبديد مفرط لطاقاتنا الاجتماعية وتبذير مسرف وغير

¹ - نفس المرجع، ص 59.

محسوس في وسائلنا، وهذا مظهر من مظاهر اللافعالية التي تعزى إلى العجز في (أفكارنا)، ولكننا إذ نقرب الملاحظة التي قمنا بها في الجزائر، من ملاحظة أخرى أجريت على الصعيد الاجتماعي نفسه، نلاحظ أنّ هذا العجز يخلق مفعولا اجتماعيا معيناً، وسببا نفسياً مصطنعاً، يمدد في هذا المفعول ويمنحه تبريراً ومغالطة، لأننا نلاحظ على الصعيد نفسه (التبديد) في الوسائل ممّا يؤول إلى (نتائج) محدودة من ناحية، ثم نجد أنّ الأشخاص يفسرون هذه المحدودية في النتائج لا بسببها الحقيقي المتمثل في التبديد، ولكن بسبب ثانوي وهو (الفقر)!

وبما أنّ هذا السبب الثاني، ليس هو السبب الحقيقي، نجد على نحو من الأنحاء منحسبين في مناقضة أضعنا مفتاح مغاليقها: فنحن لانعاني اللافعالية فحسب، ولكننا نخترع شيئاً ما: (ترّهة) معينة لاستبقائها؟ ونحن عندما نتفحص عن كذب حياتنا الاجتماعية، نجد فيها مالا يستهان به من الترهات من هذا القبيل، بغية تبرير لافعاليتنا. بالإضافة إلى ترّهة (الفقر)، يمكننا أن نذكر ترّهة (الجهل) التي تبرّر لافعاليتنا في مجال آخر، بل وهناك حتّى ترّهة (المسافة).¹

كما يؤكد مالك بن نبي إلى شكل آخر من أشكال اللافعالية المتمثل في عدم وجود علاقات اتصالية بين عالمي الأفكار والأشياء "وهناك أشكال أخرى من اللافعالية غير الترهات، أو هي على الأقلّ تبرّر ترهات من نوع آخر، وتفسّر في النهاية بالذاء نفسه المتمثل في: العجز في الأفكار، وانعدام الاتصال بين عالم أفكارنا وعالم أحيائنا".² ويرى بن نبي "إننا في كلّ مرّة نقف فيها أمام مظهر من مظاهر اللافعالية في المجتمع الإسلامي نرى أنفسنا مجبرين على ربطه (بعالم أفكارنا) لأنّه في هذا العالم تكمن أدواؤنا!"³

ويشير بن نبي "إنّ (عالم أفكارنا) يتكوّن بالتدريج منذ اللحظة التي ندخل فيها هذا العالم. وهو يعانق على التوالي دائرة أوسع، بقدر مانحسن من تفكيرنا في الأشياء ابتداء من المرحلة/ما قبل الاجتماعية/، في انتقالنا تقدّمياً من محيط الأسرة إلى المحيط الاجتماعي. وهكذا يتكوّن تفكيرنا وتنمو معه أفكارنا من احتكاكنا بعالم الأشياء".⁴ "فالمشكلة التي توضع أمام كلّ مجتمع بشري يوجد في هذه الحالة، تمتدّ أساساً إلى عناصره (الحيوية التاريخية) الثلاثة الرئيسيّة المتمثلة في: الإنسان، والتراب والوقت.

¹ - نفس المرجع، ص 62.

² - نفس المرجع، ص 63.

³ - نفس المرجع، ص 64.

⁴ - نفس المرجع، ص 66.

وإذا كانت مشكلة الإنسان، هي التي توضع بصفة عامة في المجتمع الإسلامي، فهناك مظهر يجب أن تعتبر فيه بصفة أخص، ونعني به (نزعة الترحل): فالرحالة انسان لم يتكامل بعد مع أطراد حضارة... والواقع أنه يمثل في تقويم حياة اجتماعية في وسط معين، كعنصر (صفر) أو (محايد)، لأنه يظل بلا تصرف في هذا الوسط، وليس له من تأثير يذكر على توازنه الاقتصادي، ولا على توازنه الثقافي، بل ويمكنه إرباك توازنه السياسي عندما تتدخل فيه مؤثرات أجنبية، كما رأينا ذلك مرارا في بلاد إسلامية كثيرة.¹

جدول رقم: 24 مكانة الأفكار في العلم

المفهوم	ك	%
الأفكار	150	87,21
العلم	22	12,79
المجموع	172	100

نجد من بيانات هذا الجدول الذي يوضح مكانة الأفكار في العلم أن الأفكار سجّلت نسبة (87,21 %) أما العلم فسجّل نسبة (12,79%).

ويؤكد بن نبي على مكانة الأفكار في الحياة الاجتماعية والثقافية والعلمية لأيّ مجتمع، "إنّ دراستنا يجب أن تتناول تحت اشراف (مركز للبحوث) لما يوجد بعد في العالم الإسلامي، حيث المنشآت التي تستطيع أن تقوم بهذا الدور لاتعدو أحد أمرين: إما أن تكون قد شاخت وهرمت، كما هو الحال في يومنا هذا بالنسبة إلى الهيئات التي سبق أن لعبت دورا هاما في الحياة العقلية للعالم الإسلامي، وإما أنها لاتزال حديثة وشابة، ومن ثمّ فهي لم تتكيف بعد مع عمل علمي واسع النطاق."²

للعلم مكانة مميزة في الحياة الثقافية، فهو المركّب الرابع والأخير من مركّبات الثقافة عند بن نبي، والعلم عنده ينطلق من مجموعة أفكار في مجالات عديدة، له مؤسساته وهيئاته، التي تقوم بالتلقين والتّعليم.

وقد لعب العلم دورا هاما في حلّ المشاكل التي شهدتها المجتمعات عن طريق مراكز وهيئات البحوث والدراسات العلمية، هذه الهيئات التي يشترط أن تكون مساهمة للزّمن في تسييرها وتنظيمها وأعمالها، وتتكيف مع المستجدات العلمية.

¹ - نفس المرجع، ص 79.

² - نفس المرجع، ص 18.

5- عرض وتحليل بيانات الجداول الخاصة بكتاب مجالس دمشق.

الجدول رقم: 25 المفاهيم الأساسية في كتاب مجالس دمشق

المفهوم	ك	%
الحضارة	233	17.21
العلم	183	13.52
الثقافة	145	10.71
الواجبات	116	8.57
الانسان	101	7.46
الأفكار	98	7.23
التاريخ	98	7.23
الدين	55	4.06
الزمن	52	3.84
الحقوق	47	3.47
القيم	40	2.95
الأخلاق	23	1.70
الفعالية	23	1.70
النّهضة	23	1.70
القانون	23	1.70
المرض	22	1.62
اللغة	14	1.03
الجمال	14	1.03
التربية	09	0.67
الفن	09	0.67
العلاقات الاجتماعية	07	0.52
المعتقدات	07	0.52
الدّوق	04	0.30

0.22	03	التراث
0.15	02	المثل
0.15	02	العادات والتقاليد
0.07	01	التّراب
0	00	العرف
100	1354	المجموع

يظهر لنا من بيانات الجدول الذي يبيّن المفاهيم الأساسيّة التي اعتمد عليها "مالك بن نبي" في كتابه المعنون (مجالس دمشق) أنّ أعلى نسبة تمثّلت في مفهوم الحضارة والمقدّرة بـ(17.21%) وتليها (13.52%) لمفهوم العلم، أمّا مفهوم الثقافة والذي يعتبر من المفاهيم الأساسيّة لدى بن نبي قدّرت بـ (10.71%)، ثمّ تلتها نسبة لا تقلّ أهميّة عن هذا المفهوم وهو مفهوم الواجبات التي قدّرت بـ (8.57%)، غير أنّ مفهوم الإنسان باعتباره مرتبط بجميع المفاهيم قدّرت نسبته (7.46%)، وبنسبتين متساويتين مقدّرة بـ (7.23%) سجّلت لمفهومي الأفكار والتّاريخ أمّا مفهوم الزّمن باعتباره من أهمّ المفاهيم قدّرت نسبته (3.84%) ثمّ (3.47%) لدى مفهوم الحقوق، أمّا باقي المفاهيم سجّلت نسب ضعيفة.

ولفهم أعمق لهذه المفاهيم المستعملة في كتاب مجالس دمشق المذكورة في هذا الجدول، قمنا باستخراج جداول فرعية من هذا الجدول الكلّي وربط بعض المفاهيم ببعضها وتبيان دلالاتها من منظور المفكّر مالك بن نبي. وهي:

الجدول رقم: 26 مكانة الفعالية بين العلم والثقافة

المفهوم	ك	%
العلم	182	52
الثقافة	145	41,43
الفعالية	23	06,57
المجموع	350	100

نستقرئ من بيانات هذا الجدول المتعلق بمكانة الفعالية بين العلم والثقافة أنّ أعلى نسبة كانت للعلم بنسبة (52 %) تليها نسبة للثقافة (41,43 %) بعدها نسبة (06,57 %) للفعالية.

يعتبر بن نبي أنّ التعليم والعلم لا يكونان الفعالية الاجتماعية، بل مايكتسبه الإنسان منهما هو مجموعة المعارف والمعطيات وكذا التحكم في الطرق المؤدية لاكتسابها، بينما الثقافة هي الدافع للفعالية والقلب الذي يمارس فيه الإنسان فعاليته الاجتماعية من خلال توجيه سلوكه الفردي للمصلحة العامة ومن خلال العمل المشترك الذي يقوم به في وسطه الاجتماعي.

"فإذا كان التعليم والعلم لا يفيان لطبع سلوكنا بالفعالية فإنّ علينا أن نتّجه اتّجاهاً آخر. لأننا قد ورّطنا مفهومنا للثقافة على أنّه يطبع سلوكنا بالفعالية، لأنّه يمدّنا بالمبررات، بينما العلم ليست هذه مهمّاته ولاوظيفته. فالعلم شيء حيادي لا يريد الخير ولا الشر، وإنّما يسعى للجواب عن (كيف) فقط. أمّا الثقافة تريد الخير، وإذا ما انحرفت المواقف الثقافية تصبح تريد الشر.¹

والسلوك الفعّال نتاج الثقافة لا العلم "إنّ السلوك الفعّال، وأسلوب الحياة في المجتمع لا يتكوّنان على أساس العلم، وإنّما يتكوّنان على أساس الثقافة، مع الملاحظة بأنّ هذا التكوين ينشأ مع الطفل منذ اليوم الأول في المهد.²

ويميّز بن نبي في سلوك الفرد بين سلوك فعّال وسلوك غير فعّال، وفي أسلوب حياة المجتمع بين أسلوب حياة منظم ومنسجم وأسلوب حياة فوضوي، والتّفاعل بين سلوك الفرد وحياة المجتمع يفرض رقابة من كليهما على الآخر تكون بصفة مستمرة وهادئة، بينما إذا اختلت الرقابة بسبب طغيان أوتحرّر إحداها على الآخر تنشأ أزمة ثقافية "باعتبار المقارنة بين سلوك فعّال وسلوك غير فعّال، وبين أسلوب حياة يسوده النّظام والانسجام وأسلوب حياة فوضوي (وهنا لابدّ من الإشارة إلى أنّي حينما أتكلّم عن الأسلوب فإنّني أتكلّم عن المجتمع، على الجانب الذي نسمّيه (نحن)، وحينما أتكلّم

¹ - مالك بن نبي، مجالس دمشق، مرجع سابق، ص ص 104، 105.

² - نفس المرجع، ص 105.

على السلوك فإنني أتكلّم على الفرد، على ال(أنا) نرى أنّ سلوك الفرد وأسلوب الحياة في المجتمع، والتّجارب والتّفاعل بينهما يفرض رقابة من هذا على ذاك، ومن ذاك على هذا. إذن لابدّ أن تفرض الرّقابة، وإذا انعدمت هذه الرّقابة اختلّ الأمر، وإذا اختلّت الرّقابة، فمعنى هذا أنّه نشأت أزمة ثقافيّة أو هي في طريق النّشوء. ونحن عندما نطرح سؤال: ما النّقافة؟ فإننا في الحقيقة نواجه ضرورات اجتماعية معيّنة.¹

جدول رقم: 27 تأثير النّقافة في العلاقات الاجتماعية

المفهوم	ك	%
النّقافة	145	95,39
العلاقات الاجتماعية	07	04,61
المجموع	152	100

يتّضح من هذا الجدول المتعلّق بتأثير النّقافة في العلاقات الاجتماعية أنّ النّقافة بلغت نسبة (95,39%) بينما نسبة العلاقات الاجتماعية فبلغت (04,61%)

المجتمع عند بن نبي ليس تجمّع للأفراد يعيشون في حيز مكاني معيّن، بل يكون تكوين المجتمع عن طريق وظيفة ويؤدّي وظيفة ويشترط كذلك ضرورة انسجام أفرادهم مع الوظيفة العامة للمجتمع. واختلال في هذه الأخيرة معناه اختلال في علاقات أفرادهم. كما أبرز الأهميّة العمليّة للنّقافة المتمثّلة في: تمتين شبكة العلاقات الاجتماعية عن طريق ضمان عناية ورعاية المجتمع للفرد وتوفير حماية المجتمع من انحراف الفرد "الحقيقة أنّنا نواجه فقدان المبرّرات في مجتمعنا...، المبرّرات التي تخضع سلوك الفرد لمصلحة الجماعة وللصّالح العام، أي الإرادة (نحن). فإذا فقدت هذه المبرّرات فهذا معناه أنّ الصّلات الاجتماعية التي يقوم عليها المجتمع إمّا ضعيفة أو مفقودة، لأنّ مجموعة أفراد، وإن كانت تتعايش في مدينة أو بلد واحد، لايعني أنّها تكون مجتمعا. فالمجتمع تكونه وظيفة، وهو يؤدّي وظيفة، والأفراد فيه ينسجمون مع وظيفة المجتمع، فإذا ما اختلّت وظيفة المجتمع اختلّت علاقة الأفراد في المجتمع، وهذا معناه أنّ المجتمع مفقود، أو أنّ المجتمع نفسه معطلّ عن القيام بوظيفته. إذن مجموعة من البشر لا تكون مجتمعا، ومن ثمة علينا إذن أن نقول: أنّ الشّيء الذي

¹ - نفس المرجع، ص ص 107، 108.

نريده من الثقافة هو أن تبسط بين الأفراد شبكة علاقات اجتماعية معينة تضمن للفرد عناية ورعاية المجتمع من جانب، ومن جانب آخر تضمن المجتمع من انحراف الفرد ونشوزه.¹ وهذا ماأشرنا إليه تحت عنوان وظائف الثقافة عند مالك بن نبي في الفصل المعنون: (الثقافة ودلالاتها عند مالك بن نبي)

جدول رقم: 28 دور الأفكار في التغيير الثقافي

المفهوم	ك	%
الثقافة	145	42,15
الإنسان	101	29,36
الأفكار	98	28,49
المجموع	344	100

يتضح من هذا الجدول المرتبط بدور الأفكار في التغيير الثقافي أنّ الثقافة جاءت بنسبة (42,15%) بينما جاء الانسان بنسبة (29,36%) في حين جاءت الأفكار بنسبة (28,49%). يرى مالك بن نبي أنّ عملية التغيير تبنى على أساس الأفكار، والأفكار تنقسم إلى نوعين: أفكار صحيحة، وأفكار صالحة، ولايشترط دوما تلازمها بل قد تكون أفكارًا صحيحة وليست صالحة وأفكار ليست صحيحة ولكنها صالحة، والصلاحية تتمثل في مقدار استعمالها خلال فترة زمنية تطول أو تقصر.

"وكلّ ما يناط بمفهوم التغيير يجب أن نتوخّى فيه أمرا ألا وهو أنّ كلّ فكرة لها جانبين: جانب الصّحة، وجانب الصّلاحية. قد تكون فكرة ما صالحة وليست صحيحة وقد تكون صحيحة وفقدت في الطّريق صلاحيتها لأية أسباب."² ويرى بن نبي "والتغيير في المجتمعات ينطلق من ذات الإنسان في شكل تبني فكرة صحيحة أو صالحة ثمّ في المحيط في شكل فعالية اجتماعية أين يظهر التغيير في جانبين: تغيير اجتماعي وتغيير ثقافي. ويبيّن دور الفرد في المجتمع الإسلامي بقوله "يجب على المسلم أن يضطلع برسالته، أن يفكر في إعجازه، وإعجازه لا يتأتّى إلّا بتحقيق شرط جوهري وهو تغيير ما بنفسه وتغيير ما في محيطه مصداقا للآية الكريمة: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقُومَ حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ". سورة الرعد، الآية 11. ولا يمكن أن يغيّر شيئا من الخارج إن لم يغيّر شيئا في نفسه. وحينما نقول هذه الكلمة نقولها باعتبارها علما، ولانقولها فقط تبركا بأية، نقولها

¹ - نفس المرجع، ص 108.

² - نفس المرجع، ص 187.

علما ونعلم مقدارها من الصّحة العلميّة، لا يستطيع مسلم أو غير مسلم أن يغيّر ما حوله إن لم يغيّر أولاً مابنفسه، فهذه حقيقة علميّة يجب أن نتصوّرها قانوناً إنسانياً وضعه الله عزّ وجلّ في القرآن سنّة من سنن الله الّتي تسير عليها حياة البشر.¹

وانطلاقاً من أنّ القيم هي أفكارٌ ومعتقدات اكتسبها الإنسان من بيئته الاجتماعية بغيةً ممارستها مع أفراد بيئته، وكذا القيم الإسلاميّة هي قيم دينيّة اكتسبت من الشريعة الإسلاميّة حفاظاً على استمرار واستقرار المجتمع الإسلامي، بينما يعيب بن نبي "والمسلم يضيق القيم الإسلاميّة الّتي كانت تشرق على وجهه، وتجعلها في نظر الآخرين أجمل صورة إنسانيّة في التاريخ"² ويشير بن نبي أنّ للمسلم رسالة "إذن تحقيق هذه الرسالة - رسالة إنقاذ نفسه وغيره أو مواجهة حالة الطوارئ- تستوجب شروطاً ثلاثة: 1- أن يعرف نفسه، 2- أن يعرف الآخرين، 3- أن يعرف الآخرين بنفسه.³

للمسلم رسالة سامية (إنقاذ نفسه وغيره ومواجهة حالة الطوارئ) يشترط لتحقيقها مراعاة هذه الثلاثية: ألاّ يتجاهل نفوس الآخرين وألاّ يتعالى على الآخرين (بدون تكبر أو تسامي أو كبرياء)، ويدرك معطيات نفوسهم، ويعرف الآخرين بنفسه في صورة محبّة بعد تصفية نفسه من رواسب المرض الاجتماعي وما خلفه فيها الاستعمار من سلبات.

جدول رقم: 29 آلية التّغيير الثقافي عند بن نبي

المفهوم	ك	%
الحضارة	233	35,36
العلم	183	27,77
الثقافة	145	22
الأفكار	98	14,87
المجموع	659	100

يتبيّن لنا من القراءة الإحصائية لهذا الجدول المعنون آلية التّغيير الثقافي عند مالك بن نبي أنّ نسبة الحضارة بلغت (35,36 %) يليها العلم بنسبة (27,77%) أمّا الثقافة بلغت (22%) بينما الأفكار فقدّرت بنسبة (14,87%).

¹ - نفس المرجع، ص 185.

² - نفس المرجع، ص 187.

³ - نفس المرجع، ص 185.

يرى بن نبي أنّ المجتمع بحاجة عبر مساره إلى مبررات روحية واجتماعية تحفظ استمراره واستقراره، نظرا لأنّ مبرراته تقادمت أوفقدت تأثيرها في الحياة الاجتماعية بسبب أهميتها في جوانب الحياة الفكرية والعلمية والاقتصادية...، فيقوم بعملية التعويض والمقصود منها استبدال المبررات القديمة بمبررات جديدة التي تكون خطوتها الأولى هي إيجاد الأفكار الملائمة والموافقة لطبيعة المجتمع، فالظروف الحياتية متغيرة بسبب المتطلبات والحاجات المتجددة ولهذا يتوقع من المبررات الجديدة إحداث التغيير الذي يمس الحياة الثقافية، وتظهر مظاهر التغيير الثقافي أساسا في الفعالية الاجتماعية للإنسان في مجتمعه.

ولما تعجز المبررات الجديدة من إحداث التعويض المتوقع منها تتولد الأزمة الثقافية.

"وإذا أردنا أن نعرف المبررات الموضوعية نذكر على سبيل المثال ماكان لهم من ثقة من كلمتي العلم والحضارة، فقد كانت هذه الثقة هي منطلق الأفكار الأوروبية...والصلة بين هذين الجانبين واضحة فحينما تفقد حياة ما أو مجتمع ما مبرراته لابد أن يقوم بعملية تعويض: يستبدل مبررات قديمة أوتقادمت أوفقدت تأثيرها في الحياة الاجتماعية بوصفها دوافع قوية للحياة الفكرية والعلمية والعسكرية والاقتصادية، يعوّضها بمبررات جديدة. فإذا لم تأت عملية التعويض كما ينتظر منها بالمبررات الجديدة تحدث الأزمة الثقافية".¹

"فإذا فقد مجتمع ما مبرراته ولم يستطع تعويضها بالطرق المشروعة في محاولات مبذولة عندها يعتريه القلق ويعتريه التيه واعتريه الحيرة؟ فماذا يترتب على هذا من تصرفات؟.... يترتب على هذا نجد أنّ البلد الذي حقق الضمانات الاجتماعية لأقصى حد مثل السويد يتميز بشيء خطير، وهو أنّه يتصدّر رأس القائمة في (إحصائية الانتحار العالمية) فظاهرة الانتحار في العالم يشغل فيها المكان الأول البلد الأكثر تقدما نسبيا من الضمانات الاجتماعية"²

فاستبدال المبررات والأسباب القديمة البالية غير الفعالة بالمبررات الجديدة تخدم المجتمع الجزائري وأهدافه وتحفظ ثقافته بأخلاقه وجمالياته ومنطقه العملي وتوجيهه الفني من الأمور التي ركّز عليها بن نبي، أي المجتمع بحاجة بصفة دورية إلى عملية التعويض تجنباً لحدوث الأزمة الثقافية تمنع سيورة هذا المجتمع.

¹ - نفس المرجع، ص 164.

² - نفس المرجع، ص 165

6- عرض وتحليل بيانات الجداول الخاصة بكتاب مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي.

الجدول رقم: 30 المفاهيم الأساسية في كتاب مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي

المفهوم	ك	%
الأفكار	468	36.74
الثقافة	175	13.74
الحضارة	103	8.08
العلم	75	5.89
الزمن	68	5.34
التاريخ	60	4.71
الفعالية	58	4.55
القيم	30	2.35
الأخلاق	25	1.96
المرض	25	1.96
الواجبات	24	1.88
الانسان	22	1.73
اللغة	21	1.65
المثل	19	1.49
العلاقات الاجتماعية	16	1.26
القانون	15	1.18
الحقوق	13	1.02
الترب	11	0.86
العادات والتقاليد	10	0.78
الفن	08	0.63
الدين	07	0.55
الجمال	07	0.55
المعتقدات	06	0.47

0.47	06	النّهضة
0.08	01	التراث
0.08	01	الدّوق
0	00	العرف
0	00	التربية
100	1274	المجموع

نستقرئ من بيانات الجدول أعلاه أنّ مفهوم الأفكار سجّل أعلى نسبة مقدّرة بـ(36,74 %)، ثم تنخفض النسبة لتصل إلى (13,74 %) لمفهوم الثّقافة، وتليها (8,08 %) لمفهوم الحضارة، غير أنّ مفهوم العلم بلغت نسبتها (5,89 %) أمّا مفهوم الزّمن بلغت نسبتها (5,34 %)، ومن جهة أخرى سجّل مفهوم التّاريخ نسبة (4,71 %)، بينما جاء مفهوم الفعاليّة بنسبة (4,55 %)، أما باقي المفاهيم سجّلت نسب ضعيفة.

ولفهم أعمق لهذه المفاهيم المستعملة في كتاب مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي المذكورة في هذا الجدول، قمنا باستخراج جداول فرعية من هذا الجدول الكلّي وربط بعض المفاهيم ببعضها وتبيان دلالاتها من منظور المفكّر مالك بن نبي. وهي:

الجدول رقم: 31 علاقة الأفكار المطبوعة والأفكار الموضوعية بالثقافة

المفهوم	ك	%
الثقافة	175	84,13
الأفكار المطبوعة	18	8,65
الأفكار الموضوعية	15	7,22
المجموع	208	100

يوضح هذا الجدول المتعلق بعلاقة الأفكار المطبوعة والأفكار الموضوعية بالثقافة، أنّ مفهوم الثقافة جاء بنسبة (84,13%) أما الأفكار المطبوعة فجاءت بنسبة (8,65%) بينما الأفكار الموضوعية فجاءت بنسبة (7,22%)

ركّز مالك بن نبي على مفهوم الأفكار في تكوين العالم الثقافي لمجتمع ما، وقسمها إلى أفكار مطبوعة وأفكار عملية موضوعية، ويتجلى مفهوم الأفكار المطبوعة في أنها مجمل الأفكار الأصلية والرائدة والدافعة التي على أساسها تتكوّن ثقافة المجتمع، إنها أصل وأولى النماذج الثقافية التي تورث من جيل إلى جيل، وتشكّل المخزون الأخلاقي لهذا المجتمع.

بينما الأفكار الموضوعية فهي ما أدخله أو ما أضافه الجيل الجديد من أفكار عمّا خلفه وتركه الجيل السابق من أفكار مطبوعة، تسمح هذه الأفكار في تحقيق تكيف الجيل الجديد مع الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والطبيعية... التي طرأت على حياته، لم تكن موجودة سابقاً، "هذا العالم (العالم الثقافي) يشتمل على أفكار رائدة (نماذج) يرثها الجيل عن الجيل السابق ويورثها الذي يليه، وأفكار عملية يواجه بها كلّ جيل الظروف الخاصة بتاريخه، بعد أن يدخل عليها تعديلاً قلّ أو أكثر يلائم مسيرته.

أما الأفكار التي تحتضن نشاطه، فهي في هذه المرحلة مخزونه الأخلاقي. وأما الأفكار العملية التي توجّه نشاطه فهي وسائله التقنية. فإذا ما انتقل المجتمع إلى المرحلة التالية فاستقلّ سيرورة حضارة ما فإنّ تحوّل هذا يستجيب بالضبط لثورة ثقافية تعدل بقليل أو بكثير وسائله التقنية، وفي الغالب يكون التعديل محدوداً، لكنّها تقلب بصورة جذرية قاعدته الأخلاقية.¹

¹ - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 57.

الجدول رقم: 32 علاقة الأفكار المميّنة والأفكار المميّنة (القاتلة) بالثقافة

المفهوم	ك	%
الثقافة	175	87,06
الأفكار المميّنة	13	06,46
الأفكار المميّنة (القاتلة)	13	06,46
المجموع	201	100

يتبيّن لنا من القراءة الإحصائية لهذا الجدول المتعلّق بعلاقة الأفكار المميّنة والأفكار المميّنة بالثقافة أن نسبة الثقافة قدّرت بـ(87,06%) وبنسبة متساوية (06,46%) للأفكار المميّنة والأفكار المميّنة. - يرى مالك بن نبي أنّه يظهر في العالم الثقافي لمجتمع غير متحضّر نوعين من الأفكار غير الفعّالة، لها دور سلبي فيه، وهما: الأفكار المميّنة والأفكار المميّنة، فالأفكار المميّنة هي أفكار فقدت دورها الفعّال في المجتمع والثقافة، لا تؤدّي دوراً إيجابياً فيه، بل صار وجودها من عدمه لا يضيفي مزيّة (فائدة) ثقافية نظراً لاختلاف الظروف عن الظروف التي أوجدتها أوّل مرة، أو لفقدان الظروف المساعدة على بقائها بحكم التّغير الذي يطرأ على حياة أفراد المجتمع. بينما الأفكار القاتلة (التميّنة) فهي أفكار مميّنة فقدت فعاليتها في مجتمعها فتصبح مميّنة إذا استجلبت إلى مجتمع آخر يختلف عالمها الثقافي كليّة، فكلّ مجتمع ينتج عالم ثقافي خاص به، بيد هذا الانتقال العشوائي والقطيعة للأفكار مع أصولها الثقافية الأولى (الأفكار الرائدة) تصبح أفكاراً مميّنة بل أكثر موتاً لأنّها تعيش قطيعة مع أصولها واغتراب في عالم ثقافي جديد لا تقدّم له مزيّة إضافية، بل يعيش أفراد ذلك المجتمع تذبذباً بين أفكار أصيلة غير فعّالة وأفكار دخيلة هدامة.

ويؤكّد مالك بن نبي "فهذه الأفكار التي أضحت قاتلة في محيطها، تصبح أكثر فتكا حينما نستأصلها من ذلك المحيط؛ لأنّها تترك بصفة عامّة مع جذورها التي لا يمكن نقلها تريباً يتأقلم به ضررها في وسطها الأصلي".¹

ما استرعى انتباه بن نبي أنّه ليس كلّ الأفكار المستجلبية من ثقافات أخرى (مثل الثقافة الغربية) هي مميّنة، بل يكمن العيب في ضعف وعي نخبة المجتمع في استجلاب الأفكار، باهتمامها بأفكار لا تتوافق مع عالم ثقافي خاصّ بكلّ مجتمع "إن فكر مابعد الموحّدين هو الذي ينضح الأفكار المميّنة من جهة، ويمتصّ الأفكار المميّنة من جهة أخرى. فتطرح ظاهرة الترابط المزدوجة هذه في وجهها

¹ - نفس المرجع، ص 75.

الثاني مشكلة علينا أن نتجنب طرحها بشكل معكوس. إذ ليس المقصود في الواقع أن نتساءل لماذا توجد عناصر مميتة في الثقافة الغربية، ولكن لماذا تذهب النخبة المسلمة بالضبط للبحث هناك عن هذه العناصر؟ هذه المشكلة التي يتوجب طرحها. ذلك أن ما يحدد (خيار) هذه النخبة في الواقع ليس مضمون الثقافة الغربية، بل مضمون الوعي في عالم مابعد الموحدين الذي حدد (خياراً) لهذه النخبة بإرادة منها، أو بغير إرادة. فهناك خيار في الواقع لأن العالم الثقافي الغربي ليس كله مميتاً. إذ أنه ما يزال يبعث الحياة في حضارة تنظم حتى الآن مصير العالم.¹

ما يلاحظ على المجتمع الجزائري انفتاحاً ثقافياً وعلمياً وتكنولوجياً وإعلامياً و... بسبب التطور السريع والمذهل لوسائل الاعلام والاتصال التي أدت إلى الإقبال والنهات على المنتج الثقافي لمختلف المجتمعات شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً...، ومع ما يحويه تراثنا الثقافي من أخلاقيات وجماليات ومبادئ فنية وصناعية وعملية، يرى فيها الجيل الجديد شيئاً من الضغط والتكبل في حرية التعبير والتصرف، فبدأ يتخلّى شيئاً فشيئاً عن أفكار لاتحرك عالمه الثقافي، بل يستغني عنها ويعوضها بأفكار ثقافية ليست لها رابط بثقافته الأم. هذه الأفكار كانت جامدة في مجتمعها وأصبحت أكثر ضرراً في البناء الثقافي الجديد بحكم الاختلاف الجذري في عناصر وضوابط وحدود كل ثقافة.

الجدول رقم: 33 علاقة المرض الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية بالأفكار

المفهوم	ك	%
الأفكار	468	91,94
المرض الاجتماعي	25	04,92
العلاقات الاجتماعية	16	03,14
المجموع	509	100

نستقرئ من بيانات هذا الجدول المتعلق بعلاقة المرض الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية بالأفكار، أن أعلى نسبة سجلت للأفكار بـ (91,94%) تليها ونسبتين متقاربتين أي (04,92%) للمرض الاجتماعي و(03,14%) للعلاقات الاجتماعية.

نجد أن فكر مالك بن نبي قد انطلق في تكوين وبناء المجتمع من مبدأ الوحدة والتجانس، ولا يمكنه استكمال مسيرة البناء والتطور إلا بهذا المبدأ من حيث العقول والأفكار والضمان التي تكون

¹ - نفس المرجع، ص 149.

مترابطة ومتجانسة ومن حيث الروابط والعلاقات الاجتماعية التي تكون قوّة ومتمينة بين أفراد المجتمع، لأنّ تجمّعهم عند بن نبي لا يعني بتاتا وحدة، والمرض الاجتماعي يظهر لما تكون هذه الاختلالات "ولا يستطيع المجتمع أن يتابع مسيرته بعقول خاوية أو محشوة بأفكار ميّنة، وضمانر حائرة، وشبكة من الروابط المتهدّمة ليس تجمّعها وحدة".¹

يُرجع مالك بن نبي بروز الاضطراب في سلوك الأفراد أوفي حياتهم الاجتماعية بشكل عام إلى ثلاث مسببات وهي: فساد في مابين علاقات الأفكار، فساد في علاقات الأفكار مع عالم الأشخاص، فساد في علاقات الأفكار مع عالم الأشياء. خاصّة لما يحدث هذا الاضطراب قطيعة مع الأفكار الرائدة الأصلية. ففي هذه الحالة تنقضي هذه الأخيرة من ذوات الأفراد، وتصبح الأفكار الموضوعية مجموعة أفكار لأساس ولا منطلق لها وتصير هذه الأفكار غير متماسكة ولأهميّة لها ويؤكّد ذلك في "ومهما يكن من أمر فإنّ أي فساد في علاقات الأفكار فيما بينها (مرتبة المنطق، الفلسفة... إلخ) أو في علاقاتها مع عالم الأشخاص (مرتبة الايديولوجيا- السّياسة... إلخ) أو في علاقاتها مع عالم الأشياء (مرتبة التّقنية والاقتصاد... إلخ) لابدّ أن يولّد اضطرابًا في الحياة الاجتماعيّة وشذوذا في سلوك الأفراد، خصوصا عندما تصل القطيعة مع النّماذج إلى مداها الأقصى، وتصبح قوالب أفكارنا المطبوعة ممسوحة في ذاتنا، وتصبح أفكارنا الموضوعية والمصبوبة في تلك القوالب لاشكل لها، ولاتماسك فيها، ولأهميّة لها".²

تتمحور مواضيع البحوث والدراسات الأكاديمية في البلاد الإسلاميّة خاصة لمابعد التّدرج في ميدان العلوم الاجتماعيّة والانسانيّة في طرح قضايا وأمراض اجتماعيّة ناتجة عن التّغير الاجتماعي الذي تشهده هذه المجتمعات بصفة متسارعة: كالانحراف، التّعدي على القصر، الطّلاق، عمالة الأطفال، الجريمة، القتل، الإدمان على المخدّرات، يهدف منها إما معرفة أسبابها أو نتائجها، أو إمّا يعرف الآخرين بهذه الأمراض والآفات، ويتمنّى ويسعى أكثر أن تؤخذ نتائج هذه الدّراسات في البرامج السّياسية والثقافية، ويوضّح بن نبي ذلك بقوله "قالمسلم الذي يعكف على دراسة الأمراض الاجتماعية في الدّول الإسلاميّة لا يكشف عن أمراضها لمجرد كونه مهتمّا بمعرفتها، أو بالتّعريف بها، بل إنّه يتمنّى على العكس أن تأخذ النّتائج القليلة التي يستخرجها سبيلها إلى الذين بأيديهم وسائل المعالجة في تلك البلاد، إلى قادة السّياسة وقادة النّقافة".³

¹ - نفس المرجع، ص 56.

² - نفس المرجع، ص 65.

³ - نفس المرجع، ص 77.

الجدول رقم: 34 علاقة التاريخ، الفعالية والمرض الاجتماعي بالأفكار

المفهوم	ك	%
الأفكار	468	76,60
التاريخ	60	09,82
الفعالية	58	09,49
المرض الاجتماعي	25	04,09
المجموع	611	100

يتّضح من بيانات هذا الجدول المبيّن علاقة التاريخ، الفعالية والمرض الاجتماعي بالأفكار أنّ الأفكار سجّلت أعلى نسبة بـ (76,60%) أمّا التاريخ فسجّل نسبة (09,82%) ونسبة متقاربة سجّلت الفعالية نسبة (09,49%) وأخيرا المرض الاجتماعي سجّل نسبة (04,09%)

ميّز مالك بن نبي بين الفكرة من حيث الأصالة، من حيث الفعالية ومن حيث الصّحة، فالفكرة الأصلية تكون إمّا صحيحة أو خاطئة فصحّتها تؤدّي بها إلى الحفاظ على أصالتها، وقد تفقد فعاليتها، والتاريخ يسجل فعالية الفكرة التي تحدث حدثا هاما، ويوضّح أيضا أنّ الأفكار التي صنعت التاريخ تتّصف بالفعالية وذلك لما غيّرت في البناء أوهّمت، وأضافت صفحة في التاريخ الإنساني الاجتماعي، فالفكرة الأصلية ذاتية وعينية "فكرة أصيلة لايعني ذلك فعاليتها الدائمة. وفكرة فعّالة ليست بالضرورة صحيحة. إنّ الأصالة ذاتية وعينية وهي مستقلة عن التاريخ. والفكرة إذ تخرج إلى النور فهي: إمّا صحيحة أو باطلة. وحينما تكون صحيحة فإنّها تحتفظ بأصالتها حتّى آخر الزّمان. لكنّها بالمقابل، يمكن أن تفقد فعاليتها وهي في طريقها؛ حتّى ولو كانت صحيحة. فلفعالية الفكرة تاريخها الذي يبدأ... حينما تأتي دفعتها الأصلية لتهزّ العالم.¹

"حين تبصر النور الأفكار التي صنعت تاريخ العالم؛ فإنّها دائما فعّالة... وليست هذه الأفكار بالضرورة صحيحة بأكملها فالفكرة تكون صحيحة أو باطلة في المجال العقدي والمنطق العلمي والاجتماعي. لكنّ تاريخها لايعتمد على خاصيتها الذاتية، بل يستند على تفجّرها، على قدرتها داخل عالم ثقافي، وأخيرا على قوّتها الإطار العام الذي توجد فيه."²

كثيرا ماظهرت انتاجات واختراعات في العالم حسب الحاجة، ناتجة عن أفكار مبدعة سجّلت اسمها في التاريخ ومثال على ذلك وسائل التّواصل الاجتماعي ظهرت كفكرة صحيحة مفادها تقريب

¹ - نفس المرجع، ص ص 102، 103.

² - نفس المرجع، ص 103.

وتقليل المسافات وإنجاز العمل بوتيرة سريعة، مع مرور الوقت أفرزت نتائج سلبية أخرى بسبب عدم حسن استخدامها كتفكك العلاقات الأسرية، ضعف التواصل بين أفراد الأسرة، الإدمان على المواقع الالكترونية، ...

ويؤكد بن نبي "التاريخ يزخر بالأفكار التي ولدت باطلة، ليس فيها أصالة لكنها مع ذلك كان لها فعالية مدوية في أكثر الميادين تنوعاً. وغالبا ماتكون هذه الأفكار محببة مضطرة لحمل قناع الأصالة لتدخل التاريخ كلص يدخل منزلا بمفتاح مزيف".¹

"الفكرة الإسلامية لكي تقارع الأفكار الفعالة للمجتمعات المتحركة عليها أن تستعيد فعاليتها الخاصة، أي أن تأخذ مكانها من جديد وسط الأفكار التي تصنع التاريخ".²

ويجب على أي مجتمع وأثناء سيرورته التاريخية أن يواجه مرحلة من مراحل عدم التوازن والتي أشرنا لها سابقا في المسببات التالية: فساد فيما بين عالم أفكاره، أو فساد بين علاقات عالم الأفكار مع عالم الأشخاص، أو فساد في علاقات عالم الأفكار مع عالم الأشياء. "كل مجتمع مضطر لأن يواجه اتجاهات من عدم التوازن. فهذا الأمر يلزم كل تطور تاريخي"³

الفاعلية:

- يرجع مالك بن نبي منبع كل فعل وأنشاط وأسلوك في دوافعه وأوسائله إلى نظام الأفكار، ولقياس الفعالية الاجتماعية أوقصورها يستوجب الرجوع إلى نتائج عالم الأفكار، فإذا كانت النتائج الإيجابية قوية ومرتفعة دللت على ارتفاع وقوة في الفعالية الاجتماعية، بينما العكس في الأولى فيدل على قصور في الفعالية "مهما يكن من أمر فإذا سلمنا بأن كل عمل يخضع لنظام الأفكار في دوافعه كما في وسائله العلمية، فإنه من الجدير بالملاحظة بأنه لكي يكون للنشاط الاجتماعي أرضية فكرية فإن الفكرة هنا لا تكون في حالاتها الصافية، بل في حالة تندمج فيها بالسلوك أي في تلك الحالة التي نفسرها بها ونفهمها ونتحملها. وعندما نضع حساب ميزان القصور والفعالية في مجتمع، فإننا نضع بصورة أساسية حساب ميزان النتائج الإيجابية (لعالم الأفكار) فيه في حالته الزاهنة. ونحن نعلم من ناحية أخرى بأن خيانة الأفكار المندمجة في السلوك وابتعاد الأفكار المتداولة عن الأفكار الأساسية: هما الأداتان اللتان نقيس بهما انعدام فعالية مجتمع تسللت من جيل إلى جيل، عبر سلوك ما وعقد معينة.

¹ - نفس المرجع، ص 104.

² - نفس المرجع، ص 110.

³ - نفس المرجع، ص 78.

المرض واللافعالية:

والجانب المرضي في الأفكار يتمثل في انفصال الأفكار عن عالمها الثقافي الأصلي، فإذا أحدثت الأفكار قطيعة مع نماذجها (أفكارها الرائدة) وانطبعت في سلوك الأشخاص بالمحاكاة والتقليد تنتقل عدوى الفكرة وينتشر السلوك المعاكس للعالم الثقافي الأصلي الذي يظهر في شكل مرض اجتماعي، وانتقال هذه الأفكار يزيد العدوى فيزيد انتشار الأمراض الاجتماعية بين الأشخاص، ومن جيل إلى جيل "المحاكاة في السلوك تجد طريقها عبر الأفكار. أمّا جانبها المرضي، فإنها العدوى الاجتماعية التي تنتقل من جيل إلى آخر عبر امتصاص هذه الأفكار التي تنفصل عن نماذجها في عالمها الثقافي الأصلي. إذ تصبح هذه الأفكار حينئذ الجراثيم التي تنقل الأمراض الاجتماعية. وفكرة تحمل هذه الصفة: هي دائماً فكرة خانت نماذجها المثالية ويرتد المرض على المجتمع الذي يتحمل نتائج كل انحراف يمسّ عالمه الثقافي. وأحياناً تحدث الفكرة المخدولة ردّة فعلها في نهاية الأمر عندما يكتشف زيفها.¹

ويبين مالك بن نبي أنّ الأفكار المريضة تظهر عندما يتقلص ارتباطها بعالمها الثقافي الأولي، وما إن تنتشر تصبح ناقلة لأمراض اجتماعية أخرى.....

الجدول رقم: 35 مكانة الأفكار في الحضارة والعلم والنّهضة

المفهوم	ك	%
الأفكار	468	71,78
الحضارة	103	15,80
العلم	75	11,50
النّهضة	06	0,92
المجموع	652	100

يوضح لنا هذا الجدول المتعلق بمكانة الأفكار في الحضارة والعلم والنّهضة والذي سجلت فيه الأفكار أعلى نسبة بـ (71,78%) تليها الحضارة بنسبة (15,80%) ثم العلم بنسبة (11,50%) وأخيراً النّهضة بنسبة (0,92%).

يشيد مالك بن نبي بالأفكار الفعّالة التي تساهم في تغيير اجتماعي ثقافي في المجتمع وتكون فعّالة في بعض الظروف يرجع إلى تمتّعها بخاصية القداسة عند أهل ذلك العصر التي ظهرت فيه،

¹ - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص ص 158، 159.

فأوروبا مثلاً اعتمدت حسب مالك بن نبي على ثلاثة مفاهيم أساسية: العلم والتقدم والحضارة. وأعطتها صفة القداسة لأهميتها وذلك كمشروع إرساء قواعد حضارة. "لقد أودعت أوروبا القرن التاسع عشر قدرها في ثلاث كلمات: العلم، التقدم، الحضارة. فكانت هذه أفكاراً مقدسة سمحت لها أن ترسي داخل حدودها قواعد حضارة القرن العشرين، وأن تبسط خارج حدودها سلطتها على العالم".¹

ويعتبر أيضاً أنّ الأفكار الجوهرية المتأصلة هي الدافع والسبب لتأسيس حضارة مجتمع ما، هذه الأفكار هي التي تدخل هذا المجتمع التاريخ، أي يصبح مجتمع متحضّر، مجتمع تاريخي، وبناء المجتمع التاريخي لنظامه الفكري طبقاً للنموذج الفكري الأصلي لحضارته وعليه يتمّ تحديد الخصائص المميزة له عن الثقافات والحضارات الأخرى "إنّ حضارة ما هي نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تدخل به التاريخ. ويبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقاً للنموذج الأصلي لحضارته. إنّه يتجذّر في محيط ثقافي أصلي يحدّد سائر خصائصه التي تميّزه عن الثقافات والحضارات الأخرى".²

"إنّ دور الأفكار في حضارة ما لا يقتصر على مجرد الزينة والزخرفة، كزخارف المدفأة في المنزل، فهو لا يصبح كذلك إلاّ حينما يصبح المجتمع في عصور ما بعد التحضر.

وبما أنّ الحضارة لها القدرة على القيام بوظيفة فإنّ المجتمع يلجّ في التاريخ هذا معناه أنّ للأفكار دور وظيفي "ففي فترة اندماج مجتمع ما في التاريخ يكون للأفكار دور وظيفي، لأنّ الحضارة هي القدرة على القيام بوظيفة أو مهمة معينة".³

إنّ إرادة المجتمع وقدرته تضفيان صفة الموضوعية على وظيفة الحضارة -وهي جملة العوامل المعنوية والمادية اللازمة لتربية الفرد - وهي نفسها تتموضع في شكل سياسة، في صورة تشريع يمثلان اسقاطاً مباشراً لعالم الأفكار على الصعيد الاجتماعي والأخلاقي".⁴

وقد أثبت التاريخ أنّ المعجزات التاريخية لها علاقة بالأفكار الجوهرية التي تكون أفكاراً دافعة "إنّ المعجزات الكبرى في التاريخ مرتبطة دائماً بالأفكار الدافعة".⁵

¹ - نفس المرجع، ص 105.

² - نفس المرجع، ص 41.

³ - نفس المرجع، ص 42.

⁴ - نفس المرجع، ص 43.

⁵ - نفس المرجع، ص 48.

الجدول رقم : 36 علاقة الأفكار باللغة

المفهوم	ك	%
الأفكار	468	70,48
الثقافة	175	26,36
اللغة	21	03,16
المجموع	664	100

من خلال القراءة الإحصائية لهذا الجدول المبيّن لعلاقة الأفكار باللغة بلغت أعلى نسبة (70,48%) للأفكار، وجاءت الثقافة بنسبة (26,36%) وتصل نسبة اللغة إلى (03,16%).

اللغة والأفكار والثقافة

-لاحظ مالك بن نبي في فترة الستينات من القرن الماضي ازدواجية في اللغة في المجتمع الجزائري، هذه الازدواجية ليست متعلّقة بالعمل الفكري فحسب وإنما متعلّقة بالحياة اليومية الاجتماعية، وعليه فإنّ هناك ازدواجية لغوية شعبية، أمّا من حيث نتائج وإفرازات ازدواجية اللغة فإنّها تعتبر منطلقاً جديداً يبعث الحركية في العالم الثقافي، وتسمح المفاهيم الآتية من ثقافة أخرى بالتأثير على الأفكار المطبوعة التي تراجع دورها وتأثيرها، فتسترجعها بل وتعيد إنتاج أفكارها الموضوعية، غير أنّها تبقى غير واضحة المعالم والتي يعود سببها لازدواجية الأصل وهو راجع كذلك لازدواجية اللغة بحكم المفاهيم الآتية من ثقافة أخرى، غير أنّ ذلك لايفقدها ارتباطها بأفكارها الرائدة "يمكننا أن نعرض الجزائر نموذجاً آخر، اللغة المنافسة فيه الفرنسية، وهي تستوعب ليس فحسب حاجات العمل الفكري، بل الاتجاهات العادية للحياة اليومية، وإذا فلدينا هنا مشكلة ازدواجية لغوية شعبية.

إنّ النتائج الاجتماعية ليست أبداً واحدة. ففي حالة تصبح ازدواجية اللغة مفجراً يعيد الحركة للعالم الثقافي.

فمع المفاهيم المرسلّة من ثقافة أخرى، والمترجمة بقليل أو كثير من الأمانة، فالأفكار المطبوعة التي لم يعد لها أي صدى، ولاحوار مع الحياة، ولاتأثير على مجراها: تستعيد كلمتها وتعود لإنتاج أفكار موضوعية يكتنف مقاصدها شيء من الغموض، يعود لأصلها المزدوج، لكنّها تظلّ تنتسب لأفكارها الأصيلة ولاتنقد اتّصالها بها.¹

¹ - نفس المرجع، ص137.

تكمّن أهميّة اللّغة في أنّها وسيلة تواصل وتفاعل بين الأفراد في المجتمعات وذلك من خلال التّعبير عن الأفكار ونقل الموروث الثقافي، ولاحظ مالك بن نبي أنّ المجتمع الجزائري يعرف ازدواجيّة لغويّة شعبيّة، بين اللّغة العربيّة واللّغة الفرنسيّة، هذه الأخيرة التي تعتبر من مخلفات الاستعمار الفرنسي بالجزائر.

7- عرض وتحليل بيانات الجداول الخاصة بكتاب مشكلة الثقافة.

الجدول رقم: 37 المفاهيم الأساسية في كتاب مشكلة الثقافة

المفهوم	ك	%
الثقافة	469	31.52
الأفكار	233	15.66
الانسان	105	7.06
التاريخ	81	5.44
العلم	79	5.31
الحضارة	72	4.84
الجمال	47	3.16
الأخلاق	44	2.96
الواجبات	39	2.62
الزمن	39	2.62
الفن	34	2.28
اللغة	30	2.02
القيم	29	1.95
الفعالية	29	1.95
التربية	24	1.61
النهضة	21	1.41
العادات والتقاليد	20	1.34
الدين	17	1.14
الثّراب	12	0.81
الثّراث	11	0.74
المرض	11	0.74
الدّوق	11	0.74
الحقوق	09	0.61

0.61	09	العلاقات الاجتماعية
0.40	06	المثل
0.27	04	المعتقدات
0.13	02	القانون
0.06	01	العرف
100	1488	المجموع

يعتبر كتاب مشكلة الثقافة من أبرز مؤلفات المفكر "مالك بن نبي" واحتلت المفاهيم الخاصة بالثقافة أهمية كبيرة في تحليلاته. لذلك سجلنا أعلى نسبة لدى مفهوم الثقافة مقدرة بـ (31,52 %) وتخفض هذه النسبة إلى النصف لتصل إلى (15,66 %) لدى مفهوم "الأفكار"، غير أن مفهوم الإنسان عرف نسبة (7,06 %)، وتليها (5,44 %) لدى مفهوم التاريخ ثم سجل مفهوم العلم نسبة (5,31 %)، إلا أن مفهوم الحضارة سجل نسبة (4,84 %)، كما أعطى قيمة لمفهوم الجمال الذي بلغت نسبته (3,16 %).

نستنتج أن مفهوم الثقافة من أهم المفاهيم مبرزا في هذا الكتاب تحليلات متنوعة حول هذا المفهوم فيذكر مختلف تعاريف الانثروبولوجيين وعلماء الاجتماع لمفهوم الثقافة ومن ثمة نقدها، إذ يعتبر هذا المفهوم "ثمرة من ثمار عصر النهضة، عندما شهدت أوروبا في القرن السادس عشر انبثاق مجموعة من الأعمال الأدبية الجلية في الفن وفي الأدب وفي الفكر.¹

ولفهم أعمق لهذه المفاهيم المستعملة في كتاب مشكلة الثقافة المذكورة في هذا الجدول، قمنا باستخراج جداول فرعية من هذا الجدول الكلي وربط بعض المفاهيم ببعضها وتبيان دلالاتها من منظور المفكر مالك بن نبي. وهي:

¹ - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص25

الجدول رقم: 38 علاقة الأفكار بالثقافة

المفهوم	ك	%
الثقافة	469	56,10
الأفكار	233	27,87
التاريخ	81	9,69
الفعالية	29	3,47
التربية	24	2,87
المجموع	836	100

يتبين لنا من بيانات هذا الجدول أنّ الثقافة جاءت بنسبة (56.10%) بينما الأفكار جاءت بنسبة (27,87%)، يليها مفهوم التاريخ بنسبة (9,69%) أما نسبة مفهوم الفعالية فكانت (3,47%) وأخيرا مفهوم التربية بلغت (2,87%).

نستج من هذا الجدول أنّ للأفكار أهمية كبرى في المسألة الثقافية عند مالك بن نبي بل في دورة حياة المجتمع "إنّ تنظيم المجتمع وحياته وحركته، بل فوضاه وخموده وركوده، كلّ هذه الأمور ذات علاقة وظيفية بنظام الأفكار المنتشرة في ذلك المجتمع، فإذا ما تغيّر هذا النظام بطريقة أو بأخرى فإنّ جميع الخصائص الاجتماعية الأخرى تتعدّل في الاتجاه نفسه.¹

"إنّ حياة المجتمع المادية هي واقع موضوعي ومستقل عن إرادة الناس، أمّا حياة المجتمع العقلية culture أي مجموعة الأفكار الاجتماعية والنظريات والأديان ونظريات علم الجمال والمذاهب الفلسفية فهي كلّها انعكاس هذا الواقع الموضوعي.² كما يرى أنّ كلّ ثقافة معينة هي انعكاس من حيث شكل مفهومها لمجتمع معين.

ولا يتأتى دور الأفكار في الثقافة إلّا بربط أجزائها بأجزاء أشياء ذلك المجتمع "فإذا ما اتّجهنا إلى المجال الاجتماعي وجدنا أنّ الأفكار والأشياء لا يمكن أن تتحوّل إلى عناصر ثقافية إلّا إذا تألّفت أجزاؤها فأصبحت تركيبا فليس للشيء المنعزل أو الفكرة المنعزلة معنى أبدا.³

ويظهر هذا في المجتمع الجزائري من خلال النمط العمراني في المدن التاريخية القديمة أوفي المناطق الريفية فكلّ نمط دلّالته، حيث يتمّ تسخير الأشياء في مباني (السكنات، والمرافق كالسوق

¹ - نفس المرجع، ص13.

² - نفس المرجع، ص32.

³ - نفس المرجع، ص 64.

والمسجد والمدرسة،..)خدمة لأفكار ثقافة أهل المنطقة، وهذا أيضا يكون في مجال التجارة، والفلاحة والحرف... أي أنّ الأفكار تنتج أشياء الثقافة، والتي بدورها تصبح مرآة عاكسة للثقافة مجتمعا. ومفهوم الثقافة عند مالك بن نبي لا يشمل الأفكار لوحدها بل يتعداها أسلوب الحياة الاجتماعية "الثقافة لا تضمّ في مفهومها الأفكار فحسب، وإنّما تضمّ أشياء أعمّ من ذلك تخصّ أسلوب الحياة في مجتمع معيّن من ناحية، كما تخصّ السلوك الاجتماعي الذي يطبع تصرّفات الفرد في ذلك المجتمع من ناحية أخرى.¹

فيعتبر "تعدّد وجوه الثقافة لا يساعدنا في تعريفها على أنّها(شيء)، بل على أنّها علاقة متبادلة، هي العلاقة التي تحدّد السلوك الاجتماعي لدى الفرد بأسلوب الحياة في المجتمع، كما تحدّد أسلوب الحياة بسلوك الفرد.²

"والواقع أنّ أيّ مجتمع في بدايته لا يكون قد شاد بعد (عالم أشياءه)، بل كلّ ما هنالك أنّ (عالم أفكاره) يبدأ في التكوين، دون أن يشتمل أحيانا إلّا على بؤادر تفكير إيديولوجي.³ وممّا سبق نجد أنّ معالم عالم الأفكار وعالم الأشياء لثقافة ما ونخصّ بالذكر ثقافة المجتمع الجزائري تظهر في أسلوب الحياة الاجتماعية وسلوك الفرد فيها كطريقة العيش والمأكل والملبس والسكن والتأثيث وطرق وطقوس الاحتفال بالمناسبات الدينية والأعراس والختان وإقامة الزردات والوعدات والنّشرات وإقامة المآتم.... وحتى المناسبات الوطنية...

"إنّ النشاط الاجتماعي والثقافي لفكرة ما، مرتبط في الواقع ببعض الشّروط النفسية الاجتماعية التي بدونها تفقد الفكرة فاعليّتها... إذن ففاعليّة الفكرة هي رهن بشروط نفسيّة واجتماعيّة تتنوّع بتنوّع الزّمان والمكان... الخ إنّنا إذا ما عرّفنا تاريخ مجتمع معيّن، فسنجد أنّه كما أنّ لديه مقبرة يستودعها موتاه، فإنّ لديه مقبرة يستودعها أفكاره الميّتة، الأفكار التي لم يعد لها دور اجتماعي. فالفكرة من حيث كونها فكرة ليست مصدرا للثقافة، أعني عنصرا صالحا لتحديد سلوك ونمط معيّن من أنماط الحياة، فإنّ فاعليّتها ذات علاقة وظيفية بطبيعة علاقتها بمجموع الشّروط النفسيّة الزّمنية، التي ينطبع بها مستوى الحضارة في المجتمع.⁴

¹ - نفس المرجع، ص 13.

² - نفس المرجع، ص 43.

³ - نفس المرجع، ص 45.

⁴ - نفس المرجع، ص ص 46، 47.

"إنّ الفاعليّة الاجتماعيّة تعتمد بصفة عامّة على أسلوب الحياة في مجتمع معيّن، وعلى السّلك الذي ينتهجه الفرد كيما ينسجم مع هذا الأسلوب، وعليه إذا مامضينا لمواجهة مشكلة الثقافة، وجدنا أنفسنا نواجه ضمنا مشكلة أسلوب الحياة ومشكلة السّلك الذي ينسجم معها".¹

تظهر الفاعليّة الاجتماعيّة جليا من خلال نمط الحياة الاجتماعيّة من جهة ومن خلال سلوك الفرد في الحياة الاجتماعيّة من جهة أخرى، وتبرز أهميّة الأفكار عند بن نبي إلى مدى فعاليتها بصفتها منبعاً للثقافة، مادامت محتواة في الشّروط النفسيّة والاجتماعيّة ولا تزال تحافظ على صلتها الدائمة بها، فالتّاريخ كفيل بتجميع الأفكار غير فعّالة، وسحبها من الحياة الثقافيّة للمجتمع، ويظهر هذا جلياً في بعض العادات التي تزيد من الأعباء الماديّة للأسرة الجزائريّة حالياً كتقليص أيام الاحتفال بالأعراس وبعض مظاهره كحمام العروس، تقديم الهدايا لأهل العروس، والطقوس المتعلّقة بجني المحصول أو استجلاب الأمطار (كطقس بوغنجة) وحتى بعض منتجات الحرف اليدويّة التي أصبح غير مستهلكة وغير مطلوبة لعدم أهميّتها....

يحدّد بن نبي مشكلة الثقافة أنّها مواجهة لمشكلة أسلوب الحياة ومشكلة سلوك الأفراد الذي يحظى بانسجامه في أسلوب الحياة الاجتماعيّة، وتكمن مشكلة الثقافة عنده من النّاحية التّربويّة في مشكلة توجيه الأفكار والذي يعني أساس قويّ وسير متوافق (مراحل متتالية ومضبوظة) وهدف مشترك للطّاقات في شكل تكتّلات، لأن في التكتل قوة، فضعف التّوجيه يضيّع الطّاقات المبدعة والمنتجة، ويجدر بالمجتمع الجزائري ليخرج من أزمتة الثقافيّة بتنظيم الطّاقات في تكتّلات عن طريق توجيه أفكارها التي تعمل على أداء مهام اجتماعيّة، وهذا مانلمسه في تكتل النّقابات، والعمال في قطاعات مختلفة كقطاع الصّحة، التّربية، التّكوين، الصّناعة، الفلاحة، المواصلات، الاتّصال،....

"مشكلة الثقافة من الوجهة التّربويّة هي في جوهرها مشكلة توجيه الأفكار، ولذلك كان علينا أن نحدّد المعنى العام لفكرة التّوجيه، فهو بصفة عامّة قوة في الأساس وتوافق في السّير ووحدة في الهدف؛ فكم من طاقات وقوى لم تستخدم لأننا لا نعرف كيف نكتّلها، وكم من طاقات وقوى ضاعت فلم تحقق هدفها حين زحمتها قوى أخرى صادرة عن المصدر نفسه، متّجهة إلى الهدف نفسه.

فالتّوجيه هو تجنّب الإسراف في الجهد والوقت، فهناك ملايين السّواعد العاملة والعقول المفكّرة في البلاد الإسلاميّة صالحة لأن تستخدم في كلّ وقت؛ والمهم هو أن ندير هذا الجهاز الهائل

¹ - نفس المرجع، ص 42.

المكوّن من ملايين السّواعد والعقول، في أحسن ظروفه الرّمنيّة والإنتاجيّة... وليس يكفي مطلقاً أن ننتج أفكاراً، بل يجب أن نوجّهها طبقاً لمهمّتها الاجتماعيّة المتّحدة التي نريد تحقيقها.¹

"إنّ من أوليّات واجبنا أن تعود النّقافة عندنا إلى مستواها الحقيقي، ولذلك يجب أن نحدّدها عاملاً تاريخياً لكي نفهمها، ثمّ نظاماً تربوياً تطبيقياً لنشرها بين طبقات المجتمع."²

معنى النّقافة في التّاريخ:

لا يمكن لنا أن نتصوّر تاريخاً بلا ثقافة، فالشّعب الذي يفقد ثقافته يفقد حتماً تاريخه. والنّقافة - بما تتضمنه من فكرة دينية انتظمت الملحمة الإنسانيّة في جميع أدوارها من لدن آدم - لايسوغ أن تعدّ علماً يتعلّمه الإنسان، بل هي محيط يحيط به وإطار يتحرّك داخله، فهو يغذّي جنين الحضارة في أحشائه، إنّها الوسط الذي تتكوّن فيه جميع خصائص المجتمع المتحضّر، وهي الوسط الذي تتشكّل فيه كلّ جزئيّاته تبعاً للغاية العليا التي رسمها المجتمع لنفسه، بمن في ذلك الحداد والفنان والراعي والعالم والإمام، وهكذا يتركّب التّاريخ.³

معنى النّقافة في التّربية:

النّقافة تشتمل في معناها العام على إطار حياة واحدة يجمع بين راعي الغنم والعالم جمعا توحد معه لبنيهما مقتضيات مشتركة، وهي تهتمّ في معناها بكلّ طبقة من طبقات المجتمع فيما يناسبها من وظيفة تقوم بها، وما لهذه الوظيفة من شروط خاصة؛ وعلى ذلك فإنّ النّقافة تتدخل في شؤون الفرد، وفي بناء المجتمع، وتعالج مشكلة (القادة) كما تعالج مشكلة الجماهير.... الخ هي ذلك الدّم في جسم المجتمع يغذي حضارته، يحمل أفكار (الصّفوة) كما يحمل أفكار (العامة)، وكلّ من هذه الأفكار منسجم في سائل واحد من الاستعدادات المتشابهة، والاتّجاهات الموحّدة، والأذواق المناسبة. وفي هذا المركّب الاجتماعي للنّقافة ينحصر برنامجها التربوي.⁴

لابدّ أنّ النّقافة عند مالك بن نبي أن تجمع بين المحدّد التّاريخي والبرنامج التربوي حتى يتسنى فهمها وتطبيقها في المجتمع. فبالنسبة له لا تاريخ بلا ثقافة، ومجتمع ضاع تاريخه هو مجتمع أضاع ثقافته، والانطلاقة التّاريخية لمجتمع ما مرتبطة بفكرة دينية سمحت له بإقلاعه الحضاري كما يرى أنّ البرنامج التربوي في ثقافة ما لا بدّ أن يجمع الاستعدادات المتشابهة ويوحّد الاتّجاهات

¹ - نفس المرجع، ص 67.

² - نفس المرجع، ص 76.

³ - نفس المرجع، ص 77.

⁴ - نفس المرجع، ص ص 77، 78.

النفسية الاجتماعية وينظم الأذواق بطريقة مناسبة، لكل فئات وطبقات المجتمع دون إقصاء، وفق كل وظيفة تمتنها فئات هذه الطبقات ووفق الشروط الخاصة بكل وظيفة: كالساسة، والعمال، والمهنيين والتجار والفلاحين والإداريين والمعلمين والأطباء والمحامين والقضاة والحرفيين و.... الخ

الجدول رقم: 39 علاقة المرض الاجتماعي بالثقافة

المفهوم	ك	%
الثقافة	469	92,14
الفعالية	29	5,70
المرض الاجتماعي	11	2,16
المجموع	509	100

نجد من بيانات الجدول أن نسبة (92.14%) جاءت للثقافة، أما الفعالية فجاءت بنسبة (05,70%) بينما المرض الاجتماعي جاء بنسبة (02.29%).

يعتبر مالك بن نبي الأفكار الموروثة من الاستعمار أفكارا مميتة لما تحمله من نتائج ومخلفات أثرت على وحدة ثقافة المجتمعات المستعمرة "ففي نفسية غالبية الشعوب بذور فكرية مميتة، وليست الإنسانية مهددة من الغيوم المشبعة بالإشعاع الذي تعلقه فوق رؤوسنا تجارب ذرية فحسب، ولكنها أيضا مختنقة في جو مشحون بهذه الجراثيم المميتة التي ورثتها عن العهد الاستعماري، والنخبة الإفريقية سوف تستطيع خدمة السلام في فكر الإنسان مباشرة، بما تغير من موقفه الفكري والخلقي إزاء المشاكل القائمة اليوم.¹

ومن ذلك ما خلفه الاستعمار الفرنسي في ثقافة المجتمع الجزائري من سياسة تفريق (سياسة فرق تسد)، وغرس للفردانية، ومحاربة المواطنة، طمس الدين الإسلامي، منع إقامة الشعائر الدينية، محاربة القيم الثقافية والدينية والاجتماعية والأخلاقية، وغرس قيم دخيلة التي تخدم مصالح المستعمر.

¹ - نفس المرجع، ص 127.

الجدول رقم: 40 علاقة الانسان بالثقافة

المفهوم	ك	%
الثقافة	469	81,71
الانسان	105	18,29
المجموع	574	100

يتّضح من بيانات هذا الجدول الذي يبيّن علاقة الانسان بالثقافة، حيث سجّلت أعلى نسبة لمفهوم الثقافة (81,71%) بينما مفهوم الإنسان (18,29%).

- وإذن فلكي نستحدث تركيب العناصر الثقافية ينبغي أولاً أن يتحقّق شرط جوهري هو أن نخلق وأن نوثق الصّلة الصّورية بين الفرد وبين العوالم الأربعة (عالم الأشخاص، عالم الأفكار، عالم الأشياء، عالم العناصر والظواهر الطّبيعية) التي أحصيناها، ولعالم الأشخاص حقّ التّقدم والسّبق لا من أجل امتياز شخص الانسان فحسب، بل لأنّه يمثّل الرّصيد الثقافي الذي يزوّد الفرد منذ ولادته، بالمقاييس الدّاتية التي تحدّد سلوكه، وتؤكد انتسابه إلى ثقافة معيّنة. فالشرط الأول العام لتحقيق مشروع ثقافة هو الصّلة بين الأشخاص أولاً.¹

ويبرز مالك بن نبي أهميّة الثقافة في المجتمع "الثقافة هي التّعبير الحسيّ عن علاقة الفرد بهذا العالم أي بالمجال الروحي Nosphère الذي ينمي فيه وجوده النّفسي، فهي نتيجة هذا الاتّصال بهذا المناخ فالفرد إذا ما فقد صلته بالمجال الحيوي، قرّنا أنّه مات موتاً مادياً، وكذلك الأمر إذا فقد صلته بالمجال النّفسي فإنّه يموت موتاً ثقافياً، إذن الثقافة هي حياة مجتمع التي بدونها يصبح مجتمعا ميتاً"²

يعتبر الإنسان في فكر مالك بن نبي محور العمليّة الثقافيّة بل مصدرها باعتباره حاملاً للأفكار ومنتجاً للسلوك، كما يمثّل الرّصيد الثقافي الذي ينقل الثقافة من جيل إلى آخر، وتكمن القيمة الثقافيّة في صلة الإنسان بالعوالم الأربعة (عالم الأشخاص، عالم الأفكار، عالم الأشياء، عالم الظواهر الطّبيعية).

ولتحقيق مشروع ثقافة يستوجب توثيق وتمتين الصّلة واللّحمة الاجتماعيّة بين الأشخاص "فالشرط الأول العام لتحقيق مشروع ثقافة هو إذن الصّلة بين الأشخاص أولاً، فأساس كلّ ثقافة هو بالضرورة (تركيب) و(تأليف) لعالم الأشخاص، وهو تأليف يحدث طبقاً لمنهج تربوي.

¹ - نفس المرجع، ص 62.

² - نفس المرجع، ص 50.

الجدول رقم: 41 عناصر الثقافة عند مالك بن نبي

المفهوم	ك	%
العلم (التوجيه الفني أو الصناعة)	79	42,70
الجمال	47	25,41
الأخلاق	44	23,78
المنطق العملي	15	08,11
المجموع	185	100

نجد في بيانات هذا الجدول أنّ الثقافة عند مالك بن نبي تتشكّل من أربعة عناصر جاءت مرتبة حسب نسبها كمايلي: (42,70%) للعلم، يليه الجمال بنسبة (25,41%) أمّا الأخلاق فجاءت بـ (23,72%) بينما المنطق العملي كان بنسبة (08,11%).

يعتبر كتاب مشكلة الثقافة من أبرز مؤلفات المفكر "مالك بن نبي" واحتلت المفاهيم الخاصة بعناصر الثقافة أهمية كبيرة في تحليلاته. لذلك سجلنا أعلى نسبة لدى مفهوم العلم (التوجيه الفني أو الصناعة) مقدرة بـ (42,70%) وتنخفض هذه النسبة إلى (25,41%) لدى مفهوم "الجمال"، غير أن مفهوم الأخلاق عرف نسبة (23,78%)، وأخيرا نسبة (08,11%) لمفهوم المنطق العملي.

والثقافة هي التركيب العام لتراكيب جزئية أربعة هي: الأخلاق والجمال والمنطق العملي والصناعة¹

التوجيه الأخلاقي:

الوحدة التاريخية للأفراد تتكوّن من قوّة تماسك الأفراد في المجتمع، هذه القوّة مرتبطة بغريزة العيش في جماعة، وبالتالي لتكوين الحضارة تستعمل نفس الغريزة، التي يوظفها المجتمع بأخلاق فاضلة عالية "تحدّد قوّة التماسك الضرورية للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية، هذه القوّة مرتبطة في أصلها بغريزة الحياة في (جماعة) عند الفرد، ارتباطا يتيح له تكوين القبيلة والعشيرة والمدينة والأمة... أمّا المجتمع الذي يتجمّع لتكوين حضارة فإنّه يستخدم الغريزة نفسها، ولكنّه يهديها ويوظفها بروح خلقي سام".²

كما يشير مالك بن نبي أنّ المدنية الغربية لا تقتصر على منتجات العلوم والصناعات بل ضرورة وجود صلات اجتماعية التي تعتبر بمثابة الأساس الخلقي الذي تقوم عليه هذه المدنية في ميدان العلم والفن، وعليه فالتوجيه الأخلاقي هو أساس قيام المدنية الغربية، والأساس الخلقي يكون منبعه

¹ - نفس المرجع، ص 67.

² - نفس المرجع، ص 79.

الأديان، وأخلاق المدنية الغربية منبعها الديانة المسيحية التي جمعت مجهودات علمائها بصلات اجتماعية لتقديم منتجات واختراعات.

ويوضح مالك بن نبي أنّ الصّلات الاجتماعية باعتبارها تقوم على الأساس الخلقي تولّد لنا علومًا وصناعات وفنونًا "إنّ أكبر مصادر خطئنا في تقدير المدنية الغربية أن ننظر إلى منتجاتها أنّها نتيجة علوم وفنون وصناعات وننسى أنّ هذه العلوم والفنون والصناعات ما كان لها أن توجد لولا صلات اجتماعية خاصة لا تُتصور هذه الصناعات والفنون بدونها فهي الأساس الخلقي الذي قام عليه صرح المدنية الغربية في علومه وفنونه، بحيث لو ألغينا ذلك الأساس لصار الإلغاء على جميع ما نشاهده اليوم من علوم وفنون".¹

الأخلاق: خصّص بعض علماء الاجتماع والانثروبولوجيين دراسات عن الأخلاق منها :

الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية عنوان دراسة لعالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر (1864-1920) الذي بحث العوامل التي أدّت إلى ظهور الرأسمالية الحديثة، وتوصل إلى نتيجة مفادها أنّ المعتقدات الدينية (القيم الدينية) في الأخلاق البروتستانتية تشكّل أهمّ عامل وراء ظهور الرأسمالية الحديثة، خلال الفترة الزمنية التي تلت ظهور الإصلاح الديني، وحسب فيبر فإنّ هي التي بعثت في الفرد الشعور بالمسؤولية الأخلاقية ودفعته للعمل بجد واجتهاد وجمع الثروة والتقليل من الاستهلاك بغية توفير الثروة.* انظر ماكس فيبر، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية.

- الأخلاق التطورية: مذهب يقول بأن الأخلاق تنمو وتتطور، ويقوم هذا المذهب على نظرية التطور (النشوء والارتقاء) التي وضعها لامارك، داروين، ووالاس، سبنسر وآخرون. إنّ الشعور الأخلاقي ما هو إلا نتيجة من خير نتائج التطور (النشوء والارتقاء)، وعملية التكيف مع الطبيعة المحيطية أومع الوسط هي خير، وكلّ ما يدعم عملية التكيف البيولوجية هو خير أيضا. ووفقا لهذا المذهب، فإنّ الإنسان المتمدّن، أكثر تعديلا لأعماله وسلوكه وفق غايته، وأحسن نظاما في حياته من الانسان المتوحش.* انظر لامارك، داروين، ووالاس، سبنسر وآخرون

- **التوجيه الجمالي:** تعكس الثقافة عند مالك بن نبي المستوى الاجتماعي وأيّ تغيير في هذا الأخير تزيد امكانية الثقافة في ابراز هذا التمييز "لكلّ ثقافة وجودها الخاص، الذي تزداد معه قدرتها على التمييز كلّما تغيّر المستوى الاجتماعي لجانبي الموازنة"²

¹ - نفس المرجع، ص 80.

² - نفس المرجع، ص 52.

يولي بن نبي الجمال أهمية وقيمة اجتماعية، فالجماليات منبع الأفكار وهي الشكل النهائي الذي تظهر فيه سلوكيات الأفراد في أي مجتمع "ولا شك أن للجمال أهمية اجتماعية كبيرة، إذا ما عدّناه المنبع الذي تصدر عنه الأفكار، وتصدر عنه بواسطة تلك الأفكار أعمال الفرد في المجتمع. والواقع أن أزهد الأعمال له صلة كبرى بالجمال. فالشيء الواحد قد يختلف تأثيره في المجتمع باختلاف صورته التي تنطق بالجمال أو تتضح بالقبح، ونحن نرى أثر تلك الصورة في تفكير الإنسان وفي عمله، وفي السياسة التي يرسمها لنفسه.¹

يرى بن نبي أن المقاييس الذاتية في الأحكام بالجمال والقبح هي التي تحدّد أسلوب الحياة الاجتماعية في مجتمع ما كما تعطي تمييزا خاصا بين المجتمعات من حيث فعاليتها الاجتماعية بمعنى تحدّد خاصية ثقافة المجتمعات ولهذا نجد تمايز الثقافات من خلال الرقعة الجغرافية والحدود. "إنّ مقاييسنا الذاتية التي تتمثل في قولنا (هذا جميل) و(ذاك قبيح)، أو (هذا خير) و(ذلك شر)، هذه المقاييس هي التي تحدّد سلوكنا الاجتماعي في عمومها، كما تحدّد موقفنا أمام المشكلات قبل أن تتدخل عقولنا، إنّها تحدّد دور العقل ذاته إلى درجة معينة، وهي مع ذلك درجة كافية تسمح لنا بتمييز فاعليته الاجتماعية في مجتمع معين بالنسبة إلى مجتمع آخر.²

لكلّ حضارة ثقافة ولكلّ ثقافة محيط ولكل محيط إطار جمالي خاص، والإطار الجمالي تظهر فيه الأعمال الشخصية والإدارية والمهنية للأفراد والمنظمات، "إنّ فكرة المحيط تدخل في كلّ عمل فردي أو إداري في وسط متحضّر، ولكنّها تدخل ضمنا فقط لاعلى وجه التحديد، الذي نريد القيام به هنا حين نتحدّث عن أحد مقومات الثقافة وهو: الجمال. والإطار الحضاري بكلّ محتوياته متصل بذوق الجمال، بل إنّ الجمال هو الإطار الذي تتكوّن فيه أية حضارة... إنّ الجمال هو وجه الوطن في العالم، فلنحفظ وجهنا لكي نحفظ كرامتنا، ونفرض احترامنا على جيراننا الذين ندين لهم بالاحترام نفسه"³ فما لاحظته بن نبي في المجتمع الجزائري "أنّنا أصبحنا اليوم نفقد ذوق الجمال، ولو أنّه كان موجودا في ثقافتنا، إذن لسخرناه لحلّ مشكلات جزئية تكوّن في مجموعها جانبا من حياة الإنسان.⁴

¹ - نفس المرجع، ص 82.

² - نفس المرجع، ص ص 53، 54.

³ - نفس المرجع، ص 85.

⁴ - نفس المرجع، ص 82.

وما ركّز عليه مالك بن نبي أنّ المجتمع الجزائري أصبح يفقد ذوق الجمال في محيطه وثقافته، التي يمكننا إحالتها إلى ضعف تفعيلها، فبتوظيف الجمال في حياة الشخص يستطيع حلّ مشكلات ولو بسيطة في حياته، وتحفظ له الكرامة والاحترام...، فمعايير النظافة والالتقان والتعاون... تحمل في شكلها مظاهراً جمالية وأثّاراً اجتماعية.

المنطق العملي: يعني به "كيفية ارتباط العمل بوسائله ومقاصده، وذلك حتى لانستسهل أونسعّب شيئاً دون مقياس، يستمدّ معايير من الوسط الاجتماعي وما يشتمل من امكانيات... غير أنّه من النّادر جدّاً أن يعرف المنطق العملي، أي استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من وسائل معينة"¹

يربط مالك بن نبي المنطق العملي بالأهداف المرجوة والوسائل المتاحة لتحقيق تلك الأهداف، إذن فهو موازنة بينهما أو ما يشار إليه بمفهوم التخطيط.

وإذا انعدم المنطق العملي في المجتمع برزت اللاّفعالية نظراً لوجود الفتور الاجتماعي، فتصبح الأعمال تحكمها العبيّة والعشوائية والفوضى، فكلّ نشاط من ورائه هدف وكلّ هدف يتحقّق بواسطة وسائل مسخّرة، وعليه يمكن اعتبار غياب المنطق العملي خلل يمسّ السياسة والثّقافة وعالم الأفكار "إنّنا نرى في حياتنا اليّومية جانباً كبيراً من اللاّفعالية في أعمالنا، إذ يذهب جزء كبير منها في العبث وفي المحاولات الهائلة. وإذا ما أردنا حصرها لهذه القضية فإنّنا نرى سببها الأصيل في افتقارنا الضّابط الذي يربط بين الأشياء ووسائلها وبين الأشياء وأهدافها فسياستنا تجهل وسائلها، وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا، وفكرتنا لا تعرف النّحقيق، وإنّ ذلك كلّه ليتكرّر في كلّ عمل نعمله وفي كلّ خطوة نخطوها"²....

والغائب في المجتمع الجزائري هو منطق العمل، أي تجسيد الفكرة في الميدان، لأنّ غالبية أفرادهم يستغلون تفكيرهم في الكلام أكثر من العمل والحركة، ويتضايقون ممّن هم أكثر منهم منطقاً في تفكيرهم أو كلامهم أو أعمالهم "إنّ الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل والحركة وهو لا يفكر ليعمل بل ليقول كلاماً مجرّداً، بل إنّ أكثر من ذلك يبغض أولئك الذين يفكرون تفكيراً مؤثّراً، ويقولون كلاماً منطقيّاً من شأنه أن يتحوّل في الحال إلى عمل ونشاط..."³

¹ - نفس المرجع، ص 85.

² - نفس المرجع، ص 87.

³ - نفس المرجع، ص ص 87، 88.

التوجيه الفني أو الصناعة: يشير مالك بن نبي أنّ كلّ الفنون والمهن والقدرات وتطبيقات العلوم تدخل في مفهوم الصناعة، ويشترط بن نبي مجلسا للتوجيه الفني الذي يتيح للأفراد التكوين والتوجيه والمتابعة للوصول إلى تحسين وتطوير هذا الفن وتوفير منتجاته للمجتمع "والصناعة للفرد وسيلة لكسب عيشه وربما لبناء مجده ولكنها للمجتمع وسيلة للمحافظة على كيانه واستمرار نموه، وعليه فيجب أن نلاحظ في كلّ فن هاذين الاعتبارين. وإنّا لنرى في هذا الباب ضرورة إنشاء مجلس للتوجيه الفني، ليحل نظريًا وعمليًا المشكلة الخطيرة للتربية المهنية تبعًا لحاجات البلاد.¹

تتشكّل الثقافة عند مالك بن نبي من أربع عناصر (مركبات) وهي: التوجيه الأخلاقي، التوجيه الجمالي، المنطق العملي، التوجيه الفني.

فأولًا قوة التماسك الاجتماعي الذي تزرعه الثقافة بين أفراد المجتمع والذي يمثّل التوجيه الأخلاقي، ثانياً ما يتّصل بذوق الجمال والذي يمثّل التوجيه الجمالي، ثالثاً: هو الاستغلال الأقصى لوسائل الإنتاج والذي يمثّل المنطق العملي، وأخيراً ممارسة فن أو مهنة ما أو كلّ ما يعود على الشخص من عائد مادي لتمكينه من العيش الكريم.

جدول رقم: 42 العناصر اللمادية للثقافة

المفهوم	ك	%
الفن	34	24,81
اللغة	30	21,90
القيم	29	21,17
العادات والتقاليد	20	14,60
الدّوق	11	08,03
المثل	06	04,38
المعتقدات	04	02,92
القانون	02	01,46
العرف	01	0,73
المجموع	137	100

¹ - نفس المرجع، ص 88.

نستقرئ من بيانات الجدول الإحصائية الذي يمثل أهم العناصر الالامادية للثقافة، أن أعلى نسبة تكرار مقدرة عند مفهوم الفن بـ(24,81%) وتليها نسبة (21,90%) لمفهوم اللغة، ثم نسبة (21,17%) لمفهوم القيم، أما مفهوم العادات والتقاليد فقد بلغت نسبته (14,60%) غير أن مفهوم الذوق تحصل على نسبة (08,03%)، وتتنخفض النسبة إلى (04,38%) عند مفهوم المثل، بينما كانت نسبة (02,92%) لمفهوم المعتقدات، كما أن مفهوم القانون قدرت نسبته (01,46%). ومن جهة أخرى فإن مفهوم العرف له دلالة هي أيضا حيث بلغت (0,73%).

شبه بن نبي الثقافة بالدم الذي يسري في جسم المجتمع، يحمل أفكار النخبة وأفكار عامة الناس اللذين ينسجمان ويشكلان الاتجاهات المتشابهة الاتجاهات والأذواق وهذا لأجل تطوير الحضارة. وقد حدد مالك بن نبي سبل علاج المجتمع الجزائري من أمراضه الاجتماعية والثقافية عن طريق عملية تصفية العادات والتقاليد والأخلاق والإطار الاجتماعي مما يشوبه من عوامل ومظاهر سلبية "من أول واجباتنا تصفية عاداتنا وتقاليدنا وإطارنا الخلقي والاجتماعي، مما فيه من عوامل قتالة ورمم لافائدة منها، حتى يصفو الجو للعوامل الحية والداعية للحياة. ولن تتأتى هذه التصفية إلا بفكر جديد، يحطم ذلك الوضع الموروث عن فترة تدهور، يبحث عن وضع جديد هو وضع النهضة.

ونخلص من ذلك إلى ضرورة تجديد الأوضاع بطريقتين:

الأولى: سلبية تفصلنا عن رواسب الماضي.

والثانية: إيجابية تصلنا بالحياة الكريمة.¹

"تحديد التبادل الفعال الذي نتصوره ليساعد على تكوين ثقافة معينة، يجب أن يبدأ من هذه النظرة العامة عن (المحيط) الثقافي، فالثقافة هي أولا (محيط) معين يتحرك في حدوده الإنسان، فيغذي إلهامه ويكيف مدى صلاحيته للتأثير عن طريق التبادل؛ والثقافة (جو) من الألوان والأنغام، والعادات والتقاليد والأشكال والأوزان والحركات، التي تطبع على حياة الإنسان اتجاهها وأسلوبا خاصا يقوي تصوّره، ويلهم عبقريته، ويغذي طاقاته الخلاقة؛ إنها الرّباط العضوي بين الإنسان والإطار الذي يحوطه.²

¹ - نفس المرجع، ص 71.

² - نفس المرجع، ص 103.

"الثقافة تنقل أفكار الجمهور الشعبية، وأفكار القادة الفنية، وهذان العنصران هما اللذان يغذيان عبقرية الحضارة، فهي تدين لهما بدفعتهما وبمقدرتها الخلاقة. ولكن من أين يأتي جوهر هذين العنصرين؟

تلكم هي المشكلة التربوية التي نواجهها، فكل واقع اجتماعي هو في أصله قيمة ثقافية خرجت إلى حيز التنفيذ.¹

"إن أيّ تفكير في مشكلة الحضارة هو في جوهره تفكير في مشكلة الثقافة، وبذلك تكون الحضارة في جوهرها عبارة عن مجموع القيم الثقافية المحققة. وإذن فمصير الإنسان رهن دائما بثقافته.² يتجلى من تعريفات مالك بن نبي لمفهوم الثقافة أنها تحوي عناصر لامادية متعددة: قيم وعادات وتقاليد وأذواق وعرف ولغة ومعتقدات ومثل وفن وقانون.. تصنف ضمن التراكيب الجزئية بعضها في الأخلاق وبعضها في الجمال... والآخر في الصناعة ...

فماهي أهمية هذه التراكيب الجزئية؟ ماهي وظيفتها الثقافية؟
فالثقافة محيط وجو يشمل قيما ثقافية وعادات وتقاليد العامة التي تدخل ضمن الأخلاق. ويشمل كذلك أذواقا وأوزانا وأشكالا وحركات وأنغاما وألوانا والتي تدخل ضمن الجمال. ويشمل معتقدات وقانونا ولغة و... والتي تدخل ضمن الصناعة.
هذه التراكيب تميز حياة الانسان اتجاهها وسلوكها بطابع ثقافي معين يسمح بتقوية تصوّره، وإلهام عبقريته، وتغذية طاقاته الإبداعية.

وثقافة المجتمع الجزائري تشمل على هذه العناصر اللامادية بمختلف القيم الدينية والثقافية والاجتماعية والأخلاقية والعادات والتقاليد والأذواق و.....

¹ - نفس المرجع، ص 104.

² - نفس المرجع، ص 101.

8- عرض وتحليل بيانات الجداول الخاصة بكتاب من أجل التغيير.

الجدول رقم: 43 المفاهيم الأساسية في كتاب من أجل التغيير

المفهوم	ك	%
الأفكار	178	25.72
الواجبات	98	14.16
العلم	78	11.27
الثقافة	64	9.25
الزمن	43	6.21
التاريخ	28	4.05
اللغة	27	3.90
الانسان	22	3.18
الترب	19	2.75
الأخلاق	14	2.02
القيم	140	2.02
العلاقات الاجتماعية	13	1.88
الحضارة	13	1.88
المعتقدات	13	1.88
الفن	12	1.73
الفعالية	09	1.30
المرض	09	1.30
الحقوق	08	1.16
الجمال	08	1.16
التقاليد	07	1.01
العادات	04	0.58
القانون	04	0.58
التراث	03	0.43

0.29	02	الدين
0.29	02	الدوق
0	0	العرف
0	0	المثل
0	0	النهضة
0	0	التربية
100	692	المجموع

تبين لنا بيانات الجدول الذي يبرز أهم المفاهيم المعتمدة من طرف المؤلف في كتابه من أجل التغيير، أن أعلى نسبة مسجلة قدرت بـ (25.72%) لدى المفهوم الأساسي وهو الأفكار، تليه (14.16%) لمفهوم الواجبات، وتنخفض هذه النسبة لتصل إلى (11.27%) عند مفهوم العلم، غير أن مفهوم الثقافة بدوره والذي لا يقل أهمية عن المفاهيم الأخرى سجلت نسبة (9.25%)، ثم مفهوم الزمن قدرت نسبته (6.21%)، ومن جهة أخرى مفهوم التاريخ سجل نسبة (4.05%)، كما أن مفهوم اللغة لم يغيب عن فكر بن نبي والذي سجل فيه (3.90%)، وباعتبار الإنسان كونه له علاقة مع جميع المفاهيم فإنه كان من اهتمامات مالك بن نبي حيث بلغت نسبته (3.18%).

ولفهم أعمق لهذه المفاهيم المستعملة في كتاب من أجل التغيير المذكورة في هذا الجدول، قمنا باستخراج جداول فرعية من هذا الجدول الكلي وربط بعض المفاهيم ببعضها وتبيان دلالاتها من منظور مالك بن نبي. وهي:

الجدول رقم: 44 أهمية الزمن في التغيير الثقافي

المفهوم	ك	%
الأفكار	178	62,46
الثقافة	64	22,45
الزمن	43	15,09
المجموع	285	100

نستقرئ من بيانات هذا الجدول المتعلق بأهمية الزمن في التغيير الثقافي أنّ أعلى نسبة كانت للأفكار بنسبة (62,42%) تليها نسبة للثقافة (22,45%) بعدها نسبة (15,09%) للزمن.

باعتبار الأفكار هي المحرك الأساسي في المجتمعات وفي جميع المجالات: السياسية والاقتصادية والعلمية والتكنولوجية والثقافية فيرى مالك بن نبي أنّ هناك علاقة جدلية بين الأحداث الاجتماعية والسياسية والأفكار خلال مراحل زمنية من التاريخ، حيث أنّ كلّ تغيير في الحدث الاجتماعي والسياسي مصدره الأفكار، كما أنّ الأحداث تقوم بتطوير الأفكار والتاريخ يسجل مختلف الوقائع والأحداث والتغيرات "هناك في الواقع علاقة جدلية بين الأفكار والأحداث الاجتماعية والسياسية في كافة مراحل التاريخ. وماهمنا اعتباره هنا هو تأثير الانقطاع بين الأفكار والأحداث الاجتماعية على تطور مجتمع ما، وأسباب هذا الانقطاع".¹

والمجتمع الجزائري لا يخلو من أحداث اجتماعية وسياسية و... انطلقت بدايتها من فكرة أو مجموعة أفكار انتشرت في فترة زمنية معينة، وأهمّ مثال على ذلك الثورة الجزائرية التي انطلقت من فكرة تغيير أوضاع مزرية تتصف بالجهل والجوع والفقر والمهانة والتعذيب... تهدف إلى محاربة الاستعمار تبنتها ثلّة من الشباب الجزائريين (مجموعة 22) التي خطّطوا وأعلنوا الثورة في أنحاء الجزائر، لتنتهي بانتهاء المرحلة الاستعمارية وتغيير الأوضاع وإعلان استقلال الجزائر. كما قد سبق لها أيضا ثورات شعبية قادها العديد من الشيوخ والقادة العسكريين لمحاربة الاستعمار الفرنسي.

¹ - مالك بن نبي، من أجل التغيير، مرجع سابق، ص ص 13، 14.

الجدول رقم: 45 علاقة اللغة بالثقافة

المفهوم	ك	%
الثقافة	64	70,33
اللغة	27	29,67
المجموع	91	100

من خلال القراءة الإحصائية لبيانات هذا الجدول المتعلق بعلاقة اللغة بالثقافة أن الثقافة قدّرت نسبتها بـ(70,33%) بينما اللغة فقدّرت نسبتها (29,67%)

يرى مالك بن نبي أن للغات السامية خاصيتين: الخاصية الأولى تلقي الكتب المنزلة، والخاصية الثانية قيادة الفكر الإنساني لمئات السنين وخاصة الفكر العلمي. يقول "الفكر العربي واللغة العربية، هما اللذان التقطتا التراث اليوناني ونقلاه، بعد أن طوّراه تطويراً ملحوظاً إلى أوروبا في القرون الوسطى...والواقع أن هذه اللغة إذا كانت تستطيع اليوم أن تصبو، بوجهها الديني إلى عالمية حقيقية لكونها تعبّر عن فكر 500 مليون مسلم، فإنّها تستطيع كذلك، أن تعبّر عن الفكر التقني لأية حضارة..."¹

ويعتبر المفكر مالك بن نبي اللغة وسيلة أساسية لتطوير الفكر الشعبي، إلا أنها لا تقتصر مع أشكال الحياة بل يجب أن تتكيف مع مظاهر الحياة، حتى تسمى المسميات بأسمائها، اللغة تطوّر من نفسها بما يتوافق مع مظاهر الحياة المتجدّدة، باعتبار اللغة تسمح بالتعبير عن الفكر التقني لأية حضارة وتعكس المستوى التقني لكل حضارة "تعدّ اللغة وسيلة أساسية لتطوير (الفكر الشعبي) إلا أن الفكر العربي وأداة تعبيره، أي اللغة العربية، لا يقرنان اقتراناً لارجوع عنه بشكل معين من أشكال الحياة، بل إنهما يتكيفا، أو يجب أن يتكيفا، مع كلّ مظاهر الحياة."²

وللتوضيح أكثر على سبيل المثال القفزة التي عرفها ميدان الاعلام والاتصال وماستحدثت من مصطلحات عربية تواكب مصطلحات تقنية في هذا المجال (منتوجات ووسائل وأجهزة و....)

¹ - نفس المرجع، ص 61.

² - نفس المرجع، ص 60.

الجدول رقم: 46 علاقة المرض الاجتماعي بالتغيير الثقافي

المفهوم	ك	%
الثقافة	64	78,04
المرض الاجتماعي	09	10,96
الفعالية	09	10,96
المجموع	82	100

يتبين لنا من القراءة الإحصائية لبيانات هذا الجدول المعنون "علاقة المرض الاجتماعي بالتغيير الثقافي" أنّ أعلى نسبة سجّلت للثقافة بـ(78,04%) وبنسبتين متساويتين لكلاً من المرض الاجتماعي والفعالية (10,6%)

تطرق بن نبي إلى أهمية الأفكار وماتنتجه في حالة التثشت والضّياح، حيث أنّها تعجز عن إحداث التنمية المرغوب فيها "لو كانت الأفكار موجودة من قبل، فإنّها لم تكن تستطيع في حالة التثشت والضّياح الذي توجد فيه، أن تؤثر ديناميكياً وتصحيحاً على أسلوب الإنماء في بلدنا. إنّها اليوم متّحدة في قالب متكامل لا بدّ أن يعمل على تكوين نظام سياستنا الداخليّة"¹

أمّا على مستوى الواقع الجزائري يلحّ مالك بن نبي على ضرورة تجسيد هذه الأفكار علمياً وذلك بإعادة تنظيم الجهاز الإداري والقضائي، والبنية الاقتصادية والاجتماعية والضّريبية باعتبارها المرحلة الأصعب من عملية التنظيم ويوجب على ضرورة وضع حد لبعض المظاهر التي سمّاها بالعادات السيئة خاصة البيروقراطية التي تعرقل عمليتي التخطيط والتنفيذ "وفي الواقع يجب علينا في الوقت الحاضر أن نجسّد هذا التوضيح العقائدي على المستوى التقني، ونتطرق هنا إلى المرحلة الأصعب من عملية إعادة تنظيم هذه القطاعات: جهازنا الإداري والقضائي، وبنيتنا الاقتصادية والاجتماعية والضّريبية. يجب وضع حدّ لبعض العادات السيئة، وعلى الأخصّ فيما يتعلّق بالعادات البيروقراطية التي تضع أعباء إضافية لافائدة منها في مناهج التفكير(التخطيط) والتنفيذ عندنا، أو في إدارتنا للقطاع العام."²

إضافة إلى ما ذكره مالك بن نبي سابقاً، يحدّد مجموعة من المظاهر السلبية الأخرى باعتبارها أعراضاً للمرض الاجتماعي: كانهطاط في العادات، عدم احترام وتطبيق القوانين، فساد الإطار الثقافي بما يطرأ عليه من مساس بمركّبات الثقافة: بالأخلاق أو الجمال أو المنطق العملي أو العلم.

¹ - نفس المرجع، ص18.

² - نفس المرجع، ص 19.

"إذا أدركنا الانحطاط في عاداتنا، إذا تحدّينا قوانيننا، إذا أفسدنا إطارنا الثقافي، وعلى الأخصّ بالتّضحية بجمال مدننا وهدوئها، إذا لم نعرف كيف نحفظ بالمحصول الممتاز للزّمن الصّعب... كلّ هذا يدخل مسبقاً في حساب وضع صعب محتمل تستفيد منه الامبريالية"¹

تطرّق مالك بن نبي إلى أنّ عمليّة التّخطيط السّاعية إلى تحريك الموارد البشريّة والماديّة التي تؤدّي بدورها إلى خلق حركيّة اجتماعيّة أثناء عمليّة التّنفّذ والتي تظهر في شكل عمل جماعي، وأيّ إخلال في عناصر التّخطيط أو أيّ مساس بأخلاقيّات العمل الجماعي ينعكس بالسّلب على الحركيّة الاجتماعيّة من حيث قوّتها أو من حيث الوصول إلى أهدافها المسطّرة عن طريق عمليّة التّخطيط "التّخطيط في بلد في طور النّمو، يهدف أساساً إلى تحريك كامل طاقاته وموارده البشريّة والماديّة تحريكاً يؤدّي إلى خلق ديناميكيّة اجتماعيّة. وبابتعاد أحد عناصر هذا التّخطيط، مهما كان ضئيلاً عن المقياس العام للمجموع، أو عن القواعد الأخلاقيّة الملازمة للعمل الجماعي لا يمكن بالنتيجة، إلّا أن يؤثّر تأثيراً سلبياً على توازن الديناميكية التي يراد خلقها."²

ويحتاج التّخطيط عند مالك بن نبي إلى جهاز يعده وينظّمه يسمّى التّقنية كما يقوم بمتابعة سيرورة عمله ومدى فعاليّة خطّته. ومن جهة أخرى ينجح التّخطيط إذا كانت أفكاره الأصليّة الرائدة نابعة ومراعية لطبيعة المجتمع نفسه أي عمليّة التّخطيط تكون من المجتمع وإليه "إلّا أنّ التّخطيط يفقد كلّ معناه التقني ابتداء من اللّحظة التي تكون فيها فكرته الرائدة مستوحاة من الخارج. فهذا لا يكون تخطيطاً وإنّما مجرد مهارة."³

وأيّ مجتمع يمرّ بفترات تاريخيّة صعبة يلجأ إلى طاقاته الأخلاقيّة والسياسيّة وطموحاته وضغوطاته المتكرّرة للخروج من أزمتة والولوج إلى مرحلة التّطور "إنّ كلّ الطّاقات الأخلاقيّة والسياسيّة وكلّ الطّموحات والضّغوطات المتراكمة... هي التي تسنح للبلد أن يتجاوز المرحلة الصّعبة من تاريخه، وأن يدخل في خضم ثورته التي ستكون بالضّبط ذروة هذا التطور التّحضيرية."⁴

يلقّ مالك بن نبي أماله على الطّاقات الفكرية في بناء المجتمع الجزائري وأسند لها مهمّة أساسيّة وهي البناء "يتربّث على هذه النّخبة (الطاقات الفكرية) أن تقوم بدورها في بناء المجتمع

¹ - نفس المرجع، ص 26.

² - نفس المرجع، ص 31.

³ - نفس المرجع، ص 33.

⁴ - نفس المرجع، ص 47.

الجزائري الجديد، إنّ عالم الأفكار لدينا يجب أن تبنيه تلك النّخبة، تلك هي مهمّتها الأساسيّة، وعليها-في هذا المجال كذلك ودون شك- أن تحرّر أذهاننا من بعض البلبلة التي فيها، والعالم ليس مجرد تكوين للأشياء وللأفكار، وعلى الأخصّ، فيما يتعلّق بالأفكار التي يعني تكوينها الاختلال والفوضى والتّوفيقية والمواطنة العالمية، أي كلّ ما يجعل الفكرة تفقد أصالتها وقيمتها البناءة.¹

¹ - نفس المرجع، ص 57.

9- عرض وتحليل بيانات الجداول الخاصة بكتاب ميلاد مجتمع.

الجدول رقم: 47 المفاهيم الأساسية في كتاب ميلاد مجتمع

المفهوم	ك	%
التاريخ	153	14,38
الأفكار	144	13,53
العلاقات الاجتماعية	107	10,06
الانسان	82	7,71
العلم	69	6,48
الحضارة	61	5,73
الأخلاق	60	5,64
الدين	58	5,45
الثقافة	38	3,57
الزمن	36	3,38
القيم	32	3,01
القانون	30	2,82
الفعالية	26	2,44
العادات والتقاليد	25	2,35
الواجبات	21	1,97
المرض الاجتماعي	20	1,88
اللغة	19	1,80
التربية	17	1,60
الفن	15	1,41
الثّراب	15	1,41
الجمال	10	0,94
النّهضة	10	0,94
الحقوق	07	0,66

0,66	07	المعتقدات
0,09	01	التراث
0,09	01	العرف
0	0	الدّوق
0	0	المثل
100	1064	المجموع

نستقرئ من بيانات الجدول الإحصائية الذي يمثّل أهمّ المفاهيم المستخدمة والمتداولة لدى المفكر "مالك بن نبي" في كتابه المعنون ميلاد مجتمع، أنّ أعلى نسبة تكرار مقدّرة عند مفهوم التاريخ بـ(14,38%) وتليها نسبة(13,53%) لمفهوم الأفكار، ثمّ نسبة (10,06%) لمفهوم العلاقات الاجتماعية، أمّا مفهوم الانسان فقد نسبته (7,71%) وتخفض النسبة إلى(6,48%) عند مفهوم العلم، بينما كانت نسبة (5,73%) لمفهوم الحضارة، كما أنّ مفهوم الأخلاق كان له أهميته في فكر بن نبي حيث قدرت نسبته (5,64%). غير أنّ مفهوم الدّين تحصّل على نسبة (5,45%)، ومن جهة أخرى فإنّ الثقافة لها دلالتها هي أيضا حيث بلغت نسبتها (3,57%) إضافة إلى مفهوم الزّمن التي بلغت (3,38%).

ولفهم أعمق لهذه المفاهيم المستعملة في كتاب ميلاد مجتمع (شبكة العلاقات الاجتماعية) المذكورة في هذا الجدول، قمنا باستخراج جداول فرعية من هذا الجدول الكلّي وربط بعض المفاهيم ببعضها وتبيان دلالاتها من منظور المفكر مالك بن نبي. وهي:

الجدول رقم: 48 المفاهيم المتعلقة بماهية المرض الاجتماعي عند مالك بن نبي

المفهوم	ك	%
المجتمع	262	36.80
العلاقات الاجتماعية	107	15.02
الأخلاق	60	8.43
الدين (الفكرة الدينية)	58	8.15
عالم الأفكار	41	5.76
الثقافة	38	5.34
التغيير الاجتماعي	35	4.92
عالم الأشياء	33	4.63
الفعالية	26	3.65
عالم الأشخاص	24	3.37
الواجبات	21	2.95
الحقوق	07	0.98
المجموع	712	100

من خلال قراءتنا لبيانات هذا الجدول الذي يبيّن المفاهيم الدالة على المرض الاجتماعي عند بن نبي، حيث نجد أن أعلى نسبة قدرت بـ (36.80 %) والتي تشير إلى مفهوم المجتمع، ذلك أن محور فكر مالك بن نبي هو المجتمع بكل أبعاده الثقافيّة، الدينيّة، السياسيّة والاقتصاديّة....فرغم أنّ تكوينه تقني (هندسة كهربائية) إلّا أنّ دراسته ومجمل مؤلفاته تصبّ في ميدان علم الاجتماع.

- ينطلق مالك بن نبي من فكرة الوحدة والتجانس، والمجتمع يشكّل نقطة الانطلاق لوجود أيّ شكل من أشكال الحياة وبالتالي الحضارة، وهذا التجانس يمسّ العوالم الثلاث للمجتمع وهي: عالم الأشخاص، عالم الأفكار وعالم الأشياء.

- بينما المجتمع الهشّ يعيش اهتزاز في علاقاته الاجتماعيّة وتخلخل في وظائفه، لهذا استعمل بن نبي مفهوم المجتمع وتحليلاته ومقارناته خاصّة بين المجتمع الإسلامي والمجتمع المسيحي.

- كما سجّلنا نسبة (15.02 %) لمفهوم العلاقات الاجتماعية إذ يعتبر أوّل عمل تاريخي يقوم به أيّ مجتمع هو إقامة علاقات اجتماعية فيما بينهم، وأنّ المرض الاجتماعي هو ما يصيب

العلاقات الاجتماعية من تداخل واضطراب، وتكون العلاقات الاجتماعية تارة متماسكة ومتينة في مجتمع الحضارة، وتكون منفصلة ومنحلة في مجتمع ما بعد الحضارة.

- وقد سجلنا أنّ الأخلاق احتلت المكانة الثالثة في البناء الحضاري وهذا بنسبة (8.34%)، ونلاحظ هنا أنّ الأخلاق تعد من العوامل الأساسية وهذا ما أراد أن يبينه هذا العالم، عكس الماركسيّة التي ترى في الأخلاق مجرد حيل وأكاذيب تستعملها الطبقة الحاكمة لضمان بقائها. فمالك بن نبي ينظر للأخلاق نظرة ايجابية وعملية (Opérationnelle) فالأخلاق هي سمة من سمات التّحضر والعمران. وهذا ما يتفق مع المقولة المشهورة للمفكر الكبير "مونتائين" (Montaigne) الذي قال في هذا الباب: "Science sans conscience n'est que ruine de l'ame". فالأخلاق تاج الأفعال والتّصرفات. ولا يخلو مجتمع ما من علاقات اجتماعية وصلات ثقافية فهذه الأخيرة التي لا يمكن أن تتكوّن دون المبدأ الأخلاقي وأي عارض يطرأ على المبدأ الأخلاقي سيؤثر على الصّلات الثقافيّة والعلاقات الاجتماعية كذلك "إنّ شبكة الصّلات الثقافيّة تختلّ حتما في بلد ما، إذا اختلّ فيه المبدأ الأخلاقي"¹ من ثمة ينعكس كذلك على فعالية المجتمعات بقدر الزيادة أو التراجع المبدأ الأخلاقي "إنّ فعالية المجتمعات تزيد أو تنقص بقدر ما يزيد فيها تأثير المبدأ الأخلاقي أو ينقص".² ولاشك أنّ الأخلاق عند بن نبي تمسّ العوالم الثلاث: الأشخاص، الأشياء والأفكار (المفاهيم) فالتأثير يقع على عالم الأشخاص لتظهر آثاره على عالم الأشياء والأفكار.

- يتقارب مالك بن نبي في فكرة المبدأ الأخلاقي إلى شبنجلر في فكرة الدّستور الأخلاقي، حيث يرى شبنجلر أنّ للحضارة دستورا أخلاقيا يتمثل في العقيدة وقوة النفس.

- وبالنسبة للمجتمعات الإسلامية والمجتمع الجزائري يقرّ مالك بن نبي أنّ تضائل الطّاقة الإيمانيّة لقلة التّفاعل مع الإسلام من الزّاوية الروحية أضعف العزم على المجابهة والتّطوير، فخارت القوى، وتبدّدت الطّاقات، لأنّ كلّ قوى العالم عاجزة عن النهوض إن لم يكن منبعثا من الذات، ولأنّه ضعف الإيمان في دوائر الذات، ووهنت الرّوح القرآنيّة الدّافعة إلى طلب الأفضل في الحياة الدّنيا والآخرة، وحصل الرّكود فكان التّخلف في المجتمع"³، فالدين الإسلاميّ يحثّ على الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ومصدر للفضائل ونبذ الرّذائل التي تشكّل مفهوم الأخلاق. والصّحة الاجتماعيّة مرتبطة بوحدة الجماعة والتّعاون فيما بينها في السّراء والضّراء. لأنّ الله أمرنا

¹ - مالك بن نبي، تأملات، مرجع سابق، ص 148.

² - نفس المرجع، نفس الصفحة.

³ - أسعد السحمراني، مرجع سابق، ص ص 79، 80.

بالتأليف بين القلوب المتباعدة وإتباع الجماعة وطاعة الله ورسوله وأولي الأمر "لأنّ في الوحدة قوّة تساعد على ممارسة الدور الإسلامي ذي البعد التّقدمي، من أجل الخير العام الشّامل، وفي التّفكّك والتّناذب العصبي، قضاء على الرّوح القرآنيّة"¹ التي جاء فيها أمر الله (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) سورة الأنفال، الآية 46.

أمّا الدّين فذكر بنسبة (8.15%) وهو المفهوم الرّابع الأكثر ثقلًا في كتاب ميلاد مجتمع، فالدين عند بن نبي يلعب دورًا كبيرًا في بعث الحضارة، وركّز على الدّين عندما ربط في تحليله بين الدّين والعلاقات الاجتماعية ذلك أنّ العلاقة الاجتماعية التي تربط الإنسان بالإنسان هي انعكاس للعلاقة الروحية بين الإنسان وربّه، وهذا ما تغرسه فيه الفكرة الدّينية، فكلمًا قويت هذه العلاقة زادت كثافة العلاقات الاجتماعية، وكلّما ضعفت العلاقة الروحية ضعفت العلاقات الاجتماعية وبالتالي يلج المجتمع في حالة الفراغ الاجتماعي أي يقلّ الخوف من الله والعمل على طاعته فتنعكس على علاقة الناس ببعضهم وتنتشر الآفات التي نهانا ديننا عنها مثل ضعف الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، التّطفيّف في الميزان، قطع صلة الرّحم، الرشوة، الكذب، النّفاق، عدم مساعدة المحتاج، و....

- كما استفاد مالك بن نبي من تجارب سابقيه وخاصة العلّامة عبد الرحمن ابن خلدون الذي ألّف كتابًا كاملاً عن دور الدّين في بناء العمران وسمّاه "شفاء السّائل في تهذيب المسائل" وكذلك كتاب "أعزّ ما يطلب" للمهدي ابن تومرت والذي استطاع أن يؤسّس دولة كاملة انطلاقًا من الفكرة الدّينية. وعليه يعدّ الدّين بمثابة العامل الحاسم في بناء الحضارة إلّا أنّ مالك بن نبي لا يتوقّف عند هذا العامل نظرًا لكون الحضارة عمليّة معقّدة ومركّبة وتتطلّب تضافر العديد من العوامل وعليه فيلجأ إلى عامل آخر وهو الأخلاق.

- ومنه نستنتج أنّ الظّاهرة الدّينية عند بن نبي هي ظاهرة ملازمة للحياة الإنسانية عبر كلّ الحضارات والتّطوّر الاجتماعي الإنساني يحمل بذور بقايا وأثار من فكرة دينيّة متعلّقة بكلّ حقيقة تاريخيّة ومنها استمدّت هذه الحضارات والأمم قوانينها المدنيّة التي تنظّم حياة المجتمع. "ولقد سارت هندسة البناء من كهوف العبادة في العصر الحجري، إلى عهد المعابد الفخمة جنبًا من جنب مع الفكرة الدّينية التي طبعت قوانين الإنسانية بل علومها، فولدت الحضارات في ظلّ المعابد"²

¹ - نفس المرجع، ص 82.

² - مالك بن نبي، الظّاهرة القرآنيّة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2004، ص 70

- والطبيعة البشرية تبحث دوماً عن تفسيرات غيبية ميتافيزيقية لاهوتية لتفهم الأمور المادية الشينية وغاياتها، وما العادات الاجتماعية إلا امتداد لهذه التفسيرات والمعتقدات "وعوائد الشعوب وتقاليدها تتشكل بصورة يملئها اهتمام ميتافيزيقي يدفع أقل القرى همجية، التي تشيد كوخاً بسيطاً في مركزها تتجه نحو الحياة الروحية القبلية، وهي حياة تتفاوت في بدائيتها إلى حد كبير. وما التوتمية والأساطير واللاهوت إلا حلول مقترحة للمشكلة نفسها"¹

- وفي المراتب الأخيرة نجد الفعالية والواجبات والحقوق، لما لها من تأثير عندما تتراجع الفعالية الاجتماعية في عالم الأشخاص وتزيد المطالبة بالحقوق مقابل التراجع عن أداء الواجبات مايسمح ببروز وانتشار المرض الاجتماعي (pathologie sociale) ، وهذا حال المجتمعات العربية عامة والجزائر خاصة تلك المجتمعات الذي أصبح يتصف بالجمود والتخلف.

- ومنه نستنتج أن مالك بن نبي ينظر للمرض الاجتماعي من منظور الفعالية والعطاء للعناصر الاجتماعية للمجتمع بكل أفراد ومدى أهمية الدين والأخلاق والعمل، فعدم وظيفية هذه العناصر هي السبب في انتشار حالة المرض الاجتماعي.

المرض الاجتماعي:

-الاغتراب أو الاستلاب عند هيجل وكارل ماركس: الاغتراب عند ماركس هو اغتراب الإنسان، وهذا الاغتراب وليد ظروف وممارسة النظام البورجوازي الرأسمالي الذي أدخل نظام تقسيم العمل وفتت عملية الإنتاج وجزأها، وصار العامل يقوم بجزء من العمل في عملية العمل مثل الآلة، ولم يعد يرى إنتاجه. وأعراض الاغتراب في أربع نقاط: فقدان العامل التحكم في إنتاجه وفي توجيه مصيره وحياته الشخصية. فقدان الرضا المهني للعامل، تجريد العامل من خصائصه وصفاته الإنسانية، غربة العامل عن الناس لتحوّل العلاقات الاجتماعية إلى علاقات مادية شينية.*انظر كارل ماركس، رأس المال.

وشخص ميلفان سيمان خمسة أعراض للاغتراب في: عدم قدرة المغترب في التأثير في محيطه الاجتماعي، العجز في ضبط سلوكه، عدم إتاحة المعايير الملائمة للتغيير، وعدم ملائمة المعايير المتاحة للتغيير، عدم توافق المغترب مع قيم الثقافة الاجتماعية السائدة، الفشل في إيجاد النشاط الجالب للرضا النفسي.

¹ - نفس المرجع، ص 69.

- والمرض الاجتماعي هو الأنوميا (اللامعيارية) عند إميل دور كايم: وهو وضع أوموقف اجتماعي يغيب فيه انسجام القيم والمعايير الاجتماعية أو تناقض بعضها البعض ويترتب عن هذا ظاهرة التفسخ الاجتماعي، مما يجعل الفرد في حيرة لا يعرف كيف يتصرف ولا كيف يوجه سلوكه، ويشعر بنوع من الارتباك والإحباط وفقدان الشعور بالسعادة والطمأنينة، ويؤثر هذا الوضع تأثيرا سلبيا على نفسية الفرد الذي يصبح عاجزا على الدخول في علاقات مع الآخرين، وقد تدفع بالفرد إلى الانتحار. (دراسته عن الانتحار).

الجدول رقم : 49 تقسيم المجتمعات عند مالك بن نبي

أنواع المجتمعات	ك	%
المجتمع التاريخي	14	58,33
المجتمع الطبيعي	10	41,67
المجموع	24	100

- يتبين لنا من خلال قراءتنا لهذا الجدول المتعلق بتقسيم المجتمعات عند مالك بن نبي نجد أن استخدام مفهوم المجتمع التاريخي بكلّ تسمياته جاء بنسبة (58.33%) بينما كان استخدام مفهوم المجتمع الطبيعي بكلّ تسمياته جاء بنسبة (41,67%).

وعليه نستنتج أن أساس دراسات مالك بن نبي هي دراسة المجتمع وتشريحه على عدة نواحي ثقافية، اقتصادية، أخلاقية، دينية، فكرية، سياسية... وقد عرفه كما يلي: الجماعة التي تغير دائما خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغيير، مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التغيير¹، المجتمع ليس مجرد تجمع للأفراد وإنما اشتراكهم في خصائص اجتماعية وأهداف تغييرية في إطار زمني ومكاني معين. وقد قسم المجتمعات حسب تطورها الحضاري إلى قسمين:

- المجتمعات الطبيعية: وهي المجتمعات الخارجة أو السابقة عن الحضارة، أي التي تعدل من معالمها الشخصية، وهي "نموذج المجتمع الساكن ذي المعالم الثابتة، كالمجتمعات الموجودة في مستعمرة النمل أو النحل والقبيلة الإفريقية في عصر ما قبل الاستعمار، والقبيلة العربية في العصر الجاهلي تمثلان هذا النموذج"² وقد أطلق عليها كذلك مصطلح: المجتمعات البدائية، الزاكنة، الساكنة.

¹ - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 17.

² - نفس المرجع، ص 9.

- المجتمعات التاريخية: وهي المجتمعات الداخلة في ركب الحضارة، أي تلك التي ولدت في ظروف أولية معينة، إلا أنها عدلت من بعض صفاتها الجذرية تبعا لقانون تطورها. وهي "النموذج المتحرك، أعني المجتمع الذي يخضع لقانون التغيير، الذي يعدل معالمه من جذورها.¹ وقد أطلق عليها كذلك: المجتمعات المتحركة، المتحضرة، مجتمعات الحضارة.
- عليه لماذا يهتم مالك بن نبي بمفهوم المجتمع التاريخي أكثر من المجتمع الطبيعي؟
- يعود ذلك إلى أن مؤلفات ودراسات بن نبي تنضم إلى سلسلة مشكلات الحضارة، فهو يركز على تعريف، تشرح وتبين خصائص مجتمع الحضارة، فالمرحلة الطبيعية هي مرحلة عابرة مبنية على البساطة والتلقائية، ثابتة ومستقرة لا تغيير فيها.
- والحضارة هي صلب اهتمام وفكر مالك بن نبي، ومجتمع الحضارة هو مجتمع حرك التاريخ واستغل قدراته وثرواته البشرية والمادية والزمنية لتحقيق التغيير والتّميز الحضاري. وقد ركّز على مفهوم المجتمع التاريخي لأنه القائم بالحضارة "وتكسب الجماعة الإنسانية صفة المجتمع عندما يشرع في الحركة، أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها. وهذا ما يتفق من الوجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة معينة أما الجماعة الساكنة فإن لها حياة اجتماعية دون غاية، فهي تعيش في مرحلة ما قبل الحضارة.²
- يصنّف مالك بن نبي المجتمعات الإسلامية والعربية من محور طنجة جاكرتا بما فيها المجتمع الجزائري إلى المجتمعات الطبيعية. ولكن لماذا هذا التصنيف؟
- إن دورة الحضارة التي رسمها بن نبي للمجتمعات الإسلامية قد مرّت بمراحلها الثلاث:
- * مرحلة النهضة: والتي سمّاها مرحلة الروح، تبدأ عندما يقع الاتصال بين السماء والأرض وذلك بنزول الفكرة الدينية التي تسيطر على الغرائز ثم تتحكم فيها فتروّضها وتنظّمها ولا تقضي عليها ولا تلغيها لأنّ الطبيعة أوجدتها. غير أنّ هذه الغرائز تبقى خامدة تستحين الفرص المواتية للتحرر. وهذا ما حدث في المجتمع الإسلامي عند بداية الدّعوة المحمدية أين التقّ الصّحابة على النّبي صلى الله عليه وسلم وأيدوه في مكة وناصروه في المدينة، وتأخى الأنصار والمهاجرون، وانتشر الإسلام بواسطة الغزوات والفتوحات الإسلامية، وزادت كثافة العلاقات الاجتماعية بين المسلمين.

¹ - نفس المرجع، ص 10.

² - مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، مرجع سابق، ص 18.

* مرحلة الأوج: والتي سماها مرحلة العقل، إنّ نموّ وتوسّع المجتمع يولّد قضايا وضرورات جديدة تفرض على الحضارة لتلبيةّها أن تسلك مسلك العقل، وتتوافق في التاريخ الإسلامي مع استيلاء الأمويّين على الحكم، ابتداء من معركة صفّين سنة 38هـ. وتضعف في هذه المرحلة سيطرة الرّوح المشبّعة بالفكرة الدّينيّة على الغرائز التي تجد سبيلها للتحرر شيئاً فشيئاً. في حين أنّ العقل لا يملك قوة السّيطرة، بينما يتّجه إلى الإبداع والاختراع فتتطوّر الفنون والعلوم، ومن جهة أخرى يتدنّى مستوى أخلاق المجتمع وينصرف عن مراقبة وتعديل سلوك الأفراد وينشغل بالماديات والملذّات والبذخ...

* مرحلة الأفول: والتي سماها مرحلة الغريزة، تبدأ عندما تتراجع مكانة الوظيفة الاجتماعية وتتغلب الطبائع الإنسانية على الأفراد، والتحرر التّام للغرائز، وهنا تنتهي الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدّينية فتتفكّك العلاقات الاجتماعية وتتحلّ الأخلاق، وتزيد المطالبة بالحقوق ويقلّ أداء الواجب وتضعف الفعاليّة الاجتماعية إلى أدنى مستوياتها، فتبرز أعراض المرض الاجتماعي: السّوسيونفسي والسّوسيوثقافي.

- نستنتج أنّ تسمية مالك بن نبي للمجتمع الموجود خارج دائرة الحضارة بالمجتمع البدائي لأنّ البدائيّة عنده تسبق مرحلة الحضارة والتّحضّر، وتمسّ هذه البدائيّة العوالم الثلاث عالم الأشخاص، عالم الأفكار، عالم الأشياء، تتميز بالبساطة والتلقائية والفتور في العلاقات الاجتماعية. كما وصفه بالمجتمع الرّاكد والمجتمع الساكن لأنّ هذا المجتمع هو مجتمع فقير فكرياً ومادياً ينعدم فيه الإنتاج إذن هو مجتمع يتميّز بالثّبات والرّكود والسّكون وتنعدم فيه الفعاليّة الاجتماعية.

بينما مجتمع الحضارة عند مالك بن نبي هو محور تنظيراته الاجتماعية، الاقتصادية والسياسية والثّقافيّة، وسماه كذلك بالمجتمع التّاريخي حيث أنّ أيّ مجتمع لا يمكنه أن يصنّف تاريخياً إلّا بالنّظر إلى مستواه الحضاري. ويتميّز بالحركيّة المستمرة والفعاليّة الاجتماعية وكثافة علاقاته الاجتماعية، كما سماه بالمجتمع المتحرّك حيث أنّه إذا كان مجتمع ما قبل الحضارة هو مجتمع ساكن وراكد فإنّ مجتمع الحضارة هو مجتمع متحرّك يقوم بعملية التّغيير الاجتماعي المستمر المتواصل، وهو عمليّة تطور، نموّ، تقدّم ونهضة.

وعليه فالمجتمع الجزائري يعيش هذه المرحلة الأخيرة بكلّ أعراضها وتناقضاتها. من بينها: سيطرة الأطماع البدائية، وشعور الفرد بالحرمان المطلق، وتلبية الحاجة العاجلة، والاستسلام

للمكتوب... ولعل هذه الأمور هي التي تفسّر لنا لماذا كان التسيير المالي السيئ للمؤسسات، والتهافت على المادّة، والتبذير، والبذخ، وصرف الأموال بدون حساب¹ إضافة إلى مختلف مظاهر الفساد "كإعطاء حق الزيارة للمرابطين، وتخصيص مال لفئة من رجال الدين تدّعي أنّها تصرفه في الأعمال الخيريّة، واتّخاذ الرّشوة كقاعدة للتّعامل، والسلب والنّهب جهارا من طرف جماعة من المدنيّين والعسكريّين من ذوي الجاه والسّلطة"². ممّا ولّد اضطرابا في الأخلاق والنّظام الاجتماعي والثقافي والاقتصادي.

- ونلاحظ أنّ المجتمع الجزائري خاصّة قد مسّه هذا السّكون والرّكود بسبب الابتعاد عن الفكرة الدينيّة، بل إنّ ما تعيشه هذه المجتمعات هو التمدّن المرتبط بزيادة التّكديس والاستهلاك الماديّ دون تمييز أو تقدير، الماديّات في حقيقة الأمر هي منتجات حضارة أخرى، بينما عالم الأشخاص، عالم الأفكار وعالم الأشياء خامدة لا تنتج أمرا نافعا بل هناك تدنّي على المستوى الاجتماعي وتراجع للأخلاق وانحصار دور الدين في المساجد، وفقر في الأفكار الحيّة المنتجة النّافعة، والتّمسك بالأفكار الميّتة أو القاتلة كانتشار الشّعوذة والسّحر والتّبرك بالأولياء.....، ويقصد بالأفكار القاتلة هي أفكار ميّتة مستجلبة من حضارات أخرى فقدت فعاليتها وقوتها في التّغيير في بلادها وبالتالي فهي مميتة في بلاد أخرى.

الجدول رقم: 50 نطاق المرض الاجتماعي عند مالك بن نبي.

المفهوم	ك	%
عالم الأفكار	41	41,84
عالم الأشياء	33	33,67
عالم الأشخاص	24	24,49
المجموع	98	100

نلاحظ من خلال هذا الجدول المبيّن لنطاق المرض الاجتماعي عند بن نبي أنّ أعلى نسبة كانت لعالم الأفكار (41.84%) بعدها نسبة (33,67%) لعالم الأشياء، وأخيرا عالم الأشخاص بنسبة (24.49%)

- من خلال قراءة لتا لبيانات هذا الجدول نجد أنّ المرض الاجتماعي يمسّ أولا عالم الأفكار لما

¹ - مصطفى الأشرف، الجزائر: الأمة والمجتمع، تر: د.حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص406.

² - نفس المرجع، ص407.

يطرأ عليها من تغيرات مرضية وهي: الذرية-التعاليم-اللفظية-الجدلية والتبرير - الاضطراب الفكري. وعالم الأفكار يشمل أغلب أعراض المرض الاجتماعي التي عددها مالك بن نبي، داعياً إلى إنشاء بنية مفهوماتية خاصة بالمجتمع الإسلامي.

ويمسّ المرض الاجتماعي في المرتبة الثانية عالم الأشياء إنها الأعراض المرضية التي تنتاب المجتمع اتجاه الأشياء ومكانتها ضمن أولوياته وهي: الشيئية أو التكديس.

أما المرتبة الأخيرة فعالم الأشخاص، لا يمكن فصل الأمراض التي تمسّ عالم الأفكار وعالم الأشياء عن عالم الأشخاص لأنها تنعكس في الأخير على سلوك الأشخاص وتظهر كظواهر اجتماعية، وهذا الفصل هو فصل تقني.

تتضح هذه الأعراض في: القابلية للاستعمار، الرومانسية، الفخر والمديح لأنها تمسّ طبائع النفس الاجتماعية.

- يواجه المجتمع الجزائري صعوبات سياسية وثقافية والتي تمثل دلالات للمرض الاجتماعي وهي "إما أنها تنشأ من خلل في عالم الأشخاص، وإما أنها تنشأ من خلل في عالم الأفكار، أو خلل في عالم الأشياء، وإما أنها تنشأ من خلل في علاقات هذه العوالم بعضها ببعض".¹

الجدول رقم: 51 علاقة الدين والمرض الاجتماعي بالعلاقات الاجتماعية

المفهوم	ك	%
العلاقات الاجتماعية	107	60.11
الدين	58	32.59
المرض الاجتماعي	13	7.30
المجموع	178	100

- من خلال قراءتنا لبيانات هذا الجدول الذي يوضح علاقة الدين والمرض الاجتماعي بالعلاقات الاجتماعية، نجد أنّ أعلى نسبة للعلاقات الاجتماعية بـ (60.15%) ونجد نسبة الدين جاءت بـ(32.59%) بينما نسبة المرض الاجتماعي كانت (7.30%).

- يعقد مالك بن نبي الصلة بين مفهومي الدين والعلاقات الاجتماعية بل لقد خصّص لهما فصلا كتاب ميلاد مجتمع، فميلاد أي مجتمع يتفق مع بزوغ فكرة دينية فيه، إنها تمثل الطرف الاستثنائي في أي مجتمع طبيعي ساكن. فالعلاقة الروحية بين الله وبين الإنسان هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، والتي تربط بين الإنسان وأخيه الإنسان وتتجلى في شكل قيم أخلاقية.

¹ - مالك بن نبي، تأملات، مرجع سابق، ص22.

- ففي المجتمع الإسلامي مثلاً ومع بداية انتشار الدعوة المحمدية سمت أخلاق جديدة قضت على أخلاق الجاهلية، وأسست لمجتمع جديد منبع تطوره القرآن الكريم والسنة الشريفة، ونختصرها في الحوار الذي دار بين المهاجرين النجاشي في الحبشة، قال جعفر بن أبي طالب: أيها الملك كنّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل منّا القويّ الضعيف، فكنا على ذلك، حتّى بعث الله إلينا رسولا منّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبدّه، نخلع ما نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، الفواحش، وقول الزور، أكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، أمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشارك به شيئاً، أمرنا بالصلاة والزكاة والصيام...¹

استنبط مالك بن نبي تأثير الدين في العلاقة الاجتماعية "العلاقة الاجتماعية التي تربط الفرد بالمجتمع هي في الواقع ظلّ العلاقة الروحية في المجال الزمني.² وكلما قويت العلاقة الدينية تمتنت العلاقة الاجتماعية وزادت الفعالية الاجتماعية وخير دليل على ذلك الحديث النبوي صلى الله عليه وسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر يحبّ لنفسه ما يحبّ لأخيه.

- أرجع مالك بن نبي الظرف الاستثنائي للعلاقات الاجتماعية الذي يدفع بالمجتمعات إلى التّغير الاجتماعي وبناء الحضارة إلى الدين. إنّ الظرف الاستثنائي هو عارض غير عادي يطرأ على التركيب الحضاري للإنسان والتّراب والوقت، وتعتبر نقطة بداية الدّورة الحضارية "وهو التركيب الذي يتّفق مع ميلاد مجتمع معيّن، كما يتّفق بصورة ما مع بداية عمله التاريخي.³

- ومنه نستنتج أنّ مالك بن نبي قد بيّن أنّ أساس قوّة المجتمع الإسلامي عند قيامه أثناء بداية الدّعوة ما هو إلّا الدين الذي أعاد بناء المجتمع الإسلامي على أساس المؤاخاة، بل يراها الدّافع الحقيقي لكلّ تغيير اجتماعي "وما كان لثورة إسلاميّة، أن تكون ذات أثر خلاف، إلّا ما قامت على أساس بين المسلمين" ويحيلنا إلى أنّ المؤاخاة الفعلية هي أساس قيام المجتمع الإسلامي أوّل مرّة أيّ مجتمع المهاجرين والأنصار. والمؤاخاة هي الصّورة الحقيقية لمتانة العلاقات الاجتماعية ونجد في ذلك الأحاديث النبوية العديدة:

"المسلم للمسلم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له باقي الجسد بالسهر والحمى"

¹ - أبو محمد عبد المالك بن هشام، السيرة النبوية، تعليق د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت،

لبنان، ج1 و2، 1427 هـ-2006، ص ص 211، 212

² - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 57.

³ - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص 55.

"لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"

"المسلم للمسلم لا يظلمه ولا يسلمه"

وبالتالي يعيب على المصلحين عدم اهتمامهم "بالمؤاخاة" كانطلاق لتغيّر النفس والذات والوصول إلى تغيّر الجماعة.

- كما ربط مالك بن نبي بين المرض الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية، إذ يعرفه أنه انفصالات في شبكة العلاقات الاجتماعية حيث يظهر المرض الاجتماعي عند تحلل وتمزق هذه العلاقات بمعنى وقوع انفصال داخلي في علاقات أفراد المجتمع. وتكون تارة متماسكة ومتينة في مجتمع الحضارة، "والحد النهائي للتطور الاجتماعي الذي يمكن أن يبلغه مجتمع ما متوقف على الحالة التي يحقق فيها هذا المجتمع أفضل الظروف النفسية والزمنية لأداء نشاطه المشترك... إذ أنه في هذه الحالة يحقق أرفع درجات الاندماج والانسجام، فيكون التوتّر الأخلاقي قد بلغ ذروة درجاته. ويبلغ المجتمع الحد النهائي في تطوره عندما يفقد بالتدريج خاصّة الانسجام"¹ وعندما يقلّ التوتّر في الشبكة تصبح عاجزة عن القيام بالنشاط المشترك بفعالية، وتكون منفصلة منحلة في مجتمع ما بعد الحضارة يتجلّى هذا التحلل والانفصال في بروز الأنانية والفردية تغطي على فكر وسلوك الأفراد فيقول عنه بن نبي "أكبر دليل على وجوده يتمثل فيما يصيب (الأنا) عند الفرد من (تضخم) ينتهي إلى تحليل الجسد الاجتماعي لصالح الفرد، عندما يختفي (الشخص) أوخاصّة عندما يستردّ (الفرد) استقلاله وسلطته في داخل الجسد الاجتماعي"² ممّا يفرز صعوبة واستحالة أداء العمل الجماعي المشترك. ولكن كيف يكون التحلل في الشبكة الاجتماعية؟

يشرح بن نبي ذلك بأن الانتقال من الحالة المثالية إلى الحالة النهائية يحدث في هيئة انفصال داخلي، تنشأ عنه ألوان من التمزق في الجسد الاجتماعي، وأصدوع وثغرات في انسجامه وتوافقه"³ وكميّة الثغرات والانفصالات تشير إلى درجة الفراغ الاجتماعي، وتستمرّ هذه الانفصالات لتصل نهايتها في صورة انحلال تام في الجسد الاجتماعي.

وعليه نجد كنتيجة أنّ مراحل المرض الاجتماعي يتناسب مع المرحلة التاريخية التي يمرّ بها المجتمع، وما تطور العلاقات الاجتماعية إلّا انعكاس لكلّ مرحلة من هذه المراحل.

- إذن للدين مسارات يحفظ بها العلاقات الاجتماعية والموجودة على ثلاث مستويات:

¹ - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 38.

² - نفس المرجع، ص 43.

³ - نفس المرجع، ص 40.

علاقة الفرد بالفرد/علاقة الفرد بالجماعة/علاقة الجماعة بالجماعة.

- يربط مالك بن نبي الدّين بالعلاقات الاجتماعية في تحليله للعلاقات الاجتماعية فكّما تحسّنت علاقة الانسان برّبّه فالترّم بأوامره ونواهيه، تحسّنت علاقاته الاجتماعية في الجماعة.

- كما أنّ الثّقافة تربط بين: النّسق الدّيني، النّسق التّربوي، النّسق الاقتصادي والنّسق السّياسي. وعليه أساس الثّقافة هو التّفاعل مع مجموعة الأنساق.

الدّين: وقد سبق مالك بن نبي علماء اجتماع درسوا العلاقة بين الدّين والعلاقات الاجتماعية منها:

- ركّز ماكس فيبر على علاقة الدّين بالتّغيير الاجتماعي معتمداً على أديان متعدّدة، سواء كانت توحيدية، أم غير توحيدية، وسعى إلى فهم المعاني التي يضيفها الفاعلون على أفعالهم، وتوصّل ماكس فيبر إلى أنّ الدّيانة البروتستانتية هي الوحيدة التي تؤثر على الفاعلين للقيام بأنشطة اقتصادية عقلانية، بينما الدّينانات الأخرى لا تهتمّ بالحياة اليومية بقدر ما تعمل من أجل الحياة الأخرى. إذن الدّين محفّز للقيام بالفعل العقلاني عند فيبر.

- بينما كان الهدف من دراسة إيميل دور كايم للدّين هو البحث عن دور الطّقوس في الحياة الاجتماعية، وعن مختلف التّحوّلات التي تلحق الدّيانة، وتوصّل إلى أنّ الدّين مكّون أساسي يحقّق الوحدة والتّلاحم الاجتماعي (دراسته حول الانتحار).

مايدفعنا إلى طرح مجموعة أسئلة تطرح أهمّها:

هل الدّين يلعب دائماً وظيفة إيجابية المتمثلة في توحيد وتماسك المجتمع؛ إذ يمكن في

بعض الأحيان أن يلعب دور التّفرقة؟

كيف نميّز بين الدّين الذي يقوّي العلاقات الاجتماعية وبين ديانات تسمح بظهور نزاعات

بين الأقليّات في المجتمع الواحد؟

- من الملاحظ اليوم في مجتمعا ذلك التّفكّك في العلاقات الاجتماعية، التي صارت تحكمها المصلحة والمنفعة، أي سيطرة المادّة عليها وهذا ما يلاحظ حتّى في الحديث اليومي كاستعمال لفظ "شريكي" والذي يدلّ على طغيان المادّة على كافّة المعاملات.

- بينما تراجعت مختلف أنواع العلاقات الاجتماعية بما فيها العلاقات العائلية، فبحكم التّغير الاجتماعي الذي مسّ البناء الاجتماعي، وانتقال نمط العائلة الجزائرية من العائلة الممتّدة إلى العائلة النووية والتي اتّخذت منازلها مستقلاً، بالتّالي انحصرت روابط العائلة الكبيرة (الجّد والجدة، الأعمام و أبناء الأعمام) وبحكم الاشتغال بمشاغل الحياة اليومية، وخروج المرأة للعمل قلّت الزّيارات الأسرية وفي داخل الأسر الواحدة أصبحت علاقة الزّواج مهدّدة بحكم وجود الزّوجين خارج

المنزل في أغلب الأوقات، وكذا الخلافات والشجارات بين الإخوة أوبينهم وبين أوليائهم، فزادت نسبة الطلاق، وبرزت الجرائم الأسرية كالاعتداء على الأصول أو الفروع، والعنف على المرأة أو الطفل داخل الأسرة، الخيانة الزوجية، زنا المحارم التي ضربت بمبادئ الدين والقيم الاجتماعية والأخلاقية عرض الحائط.

- كما ساهم نمط البناء في تفكك علاقة الجيرة، حيث أن البناء الأفقي كان يفتح مجال التعاون والاحتكاك بين الجيران، بينما في نمط العمودي تراجع هذا الاحتكاك الذي أصبح سطحيا. وهذا ما يفسر الحالة المرضية التي وصلها المجتمع الجزائري، خاصة على مستوى العلاقات الاجتماعية من انفصال وتمزق وتفكك.

الجدول رقم : 52 المؤثرات الايجابية للعلاج من المرض الاجتماعي

المفهوم	ك	%
الدين	58	50,87
الفعالية	26	22,88
الواجب	21	18,42
الحق	07	6,14
الثروة الاجتماعية	02	1,75
المجموع	114	100

نستقرئ من معطيات هذا الجدول الذي يبين المؤثرات الايجابية للقضاء على المرض الاجتماعي يظهر أن الدين جاء بنسبة (50,87 %) تليه الفعالية (22,88 %) بينما جاءت نسبة الواجب (18,42%) ثم تأتي نسبة الحق بـ (6,14 %) والثروة الاجتماعية بنسبة (1,75 %).

- يظهر لنا أن المجتمع السليم الخالي من الأمراض الاجتماعية يمتاز بروح الجماعة العالية والتكامل والتفاعل والتضامن. والمؤثرات الايجابية الدالة على صحة وسلامة المجتمع وهي: الدين: يمثل المؤثر الأكثر إيجابا في الاستقرار وسلامة المجتمع، ذلك أنه كلما زاد التمسك والاعتصام بالدين والالتزام بلوازمه ونواحيه قلّ المرض، كما أن قوة العلاقة الاجتماعية مستمدة من قوة الإيمان والتشبث بالفكرة الدينية وقوة العلاقات بين الفرد وربه.

الفعالية الاجتماعية: تعتبر المؤثر الإيجابي الثاني في استقرار وسلامة المجتمع، فالمجتمع السليم يتميز بفاعلية اجتماعية عالية نظرا لارتفاع قوة الوحدة والتضامن بين أفرادها، وتجعله عن المرض

الاجتماعي، فالفعالية هي الطاقة الحيوية التي تمس البناء الاجتماعي وتشمل روح المبادرة وقوة العمل الاجتماعي المشترك والمنسجم.

- ولا يتحدث مالك بن نبي عن الفعالية الاجتماعية خارج شبكة العلاقات الاجتماعية وتأثير الفكرة الدينية، فالفعالية الاجتماعية تتطور عندما يدخل المجتمع في ركب الحضارة بفعل الفكرة الدينية.

- جاء الواجب كمؤثر ايجابي هام في القضاء على المرض الاجتماعي، إذ يركز مالك بن نبي على أسبقية الواجب عن الحق، إذ يعتبر المطالبة بالحق قبل أداء الواجب حالة غير صحية وغير سليمة في المجتمع بينما إذا طالب بهذا الحق بعد أداء واجبه فهو مؤثر ايجابي يحافظ على المجتمع من المرض الاجتماعي.

- وذكر الحق كمؤثر ايجابي ويرجع ترتيبه الرابع باعتبار أن مالك بن نبي يصر على تأدية الواجبات بكل تقاني وإخلاص لكن دون إغفال أو إهمال للحقوق أي مقابل الحصول على الحقوق.

- جاءت الثروة الاجتماعية في المرتبة الخامسة وحصرها بنبي في عالم الأفكار، إذ يقيسها بما في المجتمع من أفكار لأن الأفكار تلد نفسها، وفعاليتها خاضعة لشبكة العلاقات الاجتماعية.

"الثروة الاجتماعية لاتقاس في المجتمع بكمية ما يملك من أشياء، بل بمقدار مافيه من أفكار"¹

- ويذهب مالك بن نبي إلى أنه "لا يمكن أن نتصور أن عملا متجانسا من الأشخاص والأفكار والأشياء دون هذه العلاقة الضرورية"² وعليه فثروة مجتمع معين تجمع بين كمية وفعالية أفكاره وشبكة علاقاته الاجتماعية.

الجدول رقم: 53 المؤثرات السلبية المفردة للمرض الاجتماعي

المفهوم	ك	%
التحلل والتفكك	18	62,07
التدهور	04	13,79
التمزق	04	13,79
اللافعالية	03	10,35
المجموع	29	100

- بعد قراءتنا الإحصائية لمعطيات هذا الجدول الذي يبين لنا المؤثرات السلبية المفردة للمرض الاجتماعي، احتل مفهومي التفكك والتحلل المرتبة الأولى بنسبة (62.07%)، يليهما وبنفس النسبة

¹ - نفس المرجع، ص 37.

² - نفس المرجع، ص 38.

ولكليةا لمفهوم التدهور ومفهوم التمزق بنسبة (13.79%)، وتحصلت الالفاعلية على المرتبة الأخيرة بنسبة (10.34%).

- يمثل التحلل والتفكك المؤثر الأكثر سلبيًا في اختلال التوازن الاجتماعي وبالتالي في بروز المرض الاجتماعي ومضاعفة حدتها، ويقصد بالتحلل والتفكك هو ما يمس العلاقات الاجتماعية من انحلال وذوبان وتعتبر آخر مرحلة للورم الخبيث في الجسد الإنساني لنصل إلى بتر وقطعية في العلاقات الاجتماعية وهي انعكاس لاختلال العلاقة بين الفرد وربه.

يلي التحلل والتفكك مؤثر التدهور وهو الاختلال الذي يمس الأوضاع المادية، وكذلك التمزق الذي يقصد به التقطعات التي تمس شبكة العلاقات الاجتماعية وهي المرحلة السابقة عن مرحلة التحلل والتفكك الكلي في الصلات الاجتماعية.

أما الالفاعلية عند مالك بن نبي فتعني غلبة النزعة الذاتية على النزعة الاجتماعية وتراجع العمل المشترك المنسجم في المجتمع وتقلص روح المبادرة الجماعية.

ومنه نستنتج أنه من الظواهر السلبية التي تزيد وتفاقم من المرض الاجتماعي ويعكس في الآن ذاته حالة تطوره في الجسد الاجتماعي، إذ يبدأ المرض عندما تعجز شبكة العلاقات الاجتماعية عن أداء عمل مشترك ثم يشرع التمزق والتدهور ينخر هذه العلاقات، لتصل في الأخير إلى التفكك والتحلل إذ يقول عنها بن نبي "فقبل أن يتحلل المجتمع تحللًا كليًا، يحتل المرض جسده الاجتماعي في هيئة انفصالات في شبكته الاجتماعية، ... وهذه الحالة المرضية قد تستمر قليلاً أو كثيراً، قبل أن تبلغ نهايتها في صورة انحلال تام. وتلك هي مرحلة التحلل البطيء الذي يسري في الجسد الاجتماعي".¹

¹ - نفس المرجع، ص 43.

10- عرض وتحليل بيانات الجداول الخاصة بكتاب وجهة العالم الإسلامي.

الجدول رقم: 54 المفاهيم الأساسية في كتاب وجهة العالم الإسلامي

المفهوم	ك	%
الأفكار	236	14,88
الانسان	196	12,36
العلم	166	10,47
التاريخ	140	8,83
الحضارة	130	8,20
الثقافة	66	4,16
الحقوق	63	3,97
الأخلاق	60	3,78
النّهضة	58	3,66
الواجبات	55	3,47
القيم	52	3,28
التّراب	49	3,09
الدين	46	2,90
الفن	45	2,84
العلاقات الاجتماعية	39	2,46
الزّمن	36	2,27
العادات والتقاليد	30	1,89
القانون	30	1,89
الفعاليّة	24	1,51
الدّوق	17	1,07
اللّغة	13	0,82
المعتقدات	13	0,82
الجمال	10	0,63

0,25	04	التراث
0,25	04	المرض
0,25	04	التربية
0	0	العرف
0	0	المثل
100	1586	المجموع

نستقري من بيانات الجدول الإحصائية الذي يمثل أهم المفاهيم المستخدمة والمتداولة لدى المفكر "مالك بن نبي" في كتابه المعنون وجهة العالم الإسلامي، أنّ أعلى نسبة تكرار مقدرة عند مفهوم الأفكار بـ (14,88%) وتليها نسبة (12,36%) لمفهوم الإنسان، ثم نسبة (10,47%) لمفهوم العلم، أما مفهوم التاريخ فقد نسبته (8,83%) غير أنّ مفهوم الحضارة تحصلت على نسبة (8,28%)، وتخفض النسبة إلى (4,16%) عند مفهوم الثقافة، بينما كانت نسبة (3,97%) لمفهوم الحق، كما أنّ مفهوم الأخلاق كان له أهميته في فكر بن نبي حيث قدّرت نسبته (3,78%) ومن جهة أخرى فإن مفهوم النهضة لها دلالتها هي أيضا حيث بلغت (3,66%) إضافة إلى مفهوم الأخلاق التي بلغت (3,47%).

ولفهم أعمق لهذه المفاهيم المستعملة في كتاب مشكلة الثقافة المذكورة في هذا الجدول، قمنا باستخراج جداول فرعية من هذا الجدول الكلي وربط بعض المفاهيم ببعضها وتبيان دلالاتها من منظور المفكر مالك بن نبي. وعمدنا إلى انتقاء كتاب (وجهة العالم الإسلامي) لدراسة أعراض المرض الاجتماعي عند بن نبي لأنّ فيه تعرّض لأغلب هذه الأعراض وهي:

الجدول رقم : 55 أعراض المرض الاجتماعي.

الأعراض	ك	%
القابلية للاستعمار	36	43,90
اللفظية (الشعرية)	20	24,39
الفخر والمديح	11	13,41
الذرية	04	4,88
الاضطراب الفكري والسلوكي	04	4,88
الشبيئية (التكديس)	03	3,66
الجدلية والتبرير	03	3,66
الرومانسية	01	1,22
التعالم	00	00
المجموع	82	100

من خلال قراءتنا هذا الجدول والذي يبين لنا توزيع أعراض المرض الاجتماعي في كتاب وجهة العالم الإسلامي، يتضح لنا أنّ أعلى نسبة سجلت هي (43,90%) وتعود للقابلية للاستعمار، يليها مباشرة اللفظية بنسبة (24,39%) أما الفخر والمديح قد جاء بنسبة (13,41%) في حين جاءت نسبة متساوية وهي (4,88%) بين الذرية والاضطراب بنوعيه: فكري وسلوكي، بينما كانت نسبة (3,66%) للشبيئية أو التكديس، وبنفس النسبة (3,66%) جاءت الجدلية والتبرير، وجاءت الرومانسية بنسبة (1,22%).

- يقصد مالك بن نبي بالقابلية للاستعمار هي إمكانية الخضوع والتقبل التام للآخر المتقدم علمياً ومادياً والتي كانت تمثلها الدول الاستعمارية الأوروبية كالاستعمار الفرنسي في الجزائر... إذ تمثل القابلية للاستعمار الاستعداد النفسي لتقبل أفكار وسلوكيات الآخر وتقليدها بسلبياتها وإيجابياتها، والناتج عن تقديم الذات، وهذا ما يشاهد في المجتمعات العربية من تغير نمط المعيشة والسكن واللباس والمأكل والاستهلاك بسبب الغزو التكنولوجي والثقافي والإفرازات السلبية للعولمة مما أثر على التربية والأخلاق والقيم.

- يليها مباشرة اللفظية وسمّاها بن نبي أيضاً بالشعرية ويقصد بها التلاعب بالألفاظ إذ يميل مجتمع ما بعد الموحدين إلى التلاعب بالألفاظ والكلمات المنمقة والصيغ المزوقة والنزوع إلى

الشعرية والشهوة إلى الكلام والتركيز على البديع والبلاغة اللغوية التي تجمل الأخطاء وتخفي النقائص.

- أما ما يتعلق بالفخر والمديح -زيادة على تعميق وتزويق الكلام- يميل المجتمع المريض وخاصة النخبة المثقفة إلى توظيف الألقاب التفضيحية ضف إلى ذلك التفاخر بمخلفات ومناقب السلف والفخر بالأمجاد والتشبث بالماضي، إذ يصير المتنفس الدائم للتخلف والإحباط الحالي.

- الاضطراب عند بن نبي نوعيه: فكري وسلوكي ويقصد به ما يطرأ على الفكر والسلوك من اختلال وعدم التوازن وعدم الثبات الرّاجع إلى الاتصال بالحضارة الغربية وإفرازاتها ومقارنتها بالوضع الرّاهن المعاش المستاء منه أو ما يسمّى بالنقاطب أو الثنائيات القطبية فالشخص تارة يريد التمسك بالموروث الثقافي الاجتماعي والتاريخي والديني كالممدح والفخر وتارة أخرى الاقتباس والتقليد من الغرب.

-وفيما يخصّ الذرية وهي التفكير الجزئي والمنفصل للوقائع والأحداث دون ربط منطقي أو واقعي. - ويقصد بالشّيشية أو التكديس اقتناء وشراء الأشياء الضرورية والكمالية، إذ يصبح المجتمع بعيدا عن ترشيد استهلاكه بل يميل إلى الإسراف والتبذير وتكديس المقتنيات والسلع والأدوات والتباهي في المظاهر من مأكّل وملبس ومشرب ومباني... والاهتمام بالكم بدل النوع وكما سماها بن نبي أيضا (الكمية).

- بينما الجدلية والتبرير فهي لما يحيد المجتمع المريض إلى الثّرة والكلام الرّائد والمجادلات والتبريرات غير النّافعة، مثل ما وصل عن السلف في الجدل عن جنس الملائكة، بينما في الوقت الرّاهن نجد العديد من المناقشات التّافهة غير الجادة، وهذا ما يعبر عن عمق الانحطاط والتخلف. -في حين يعني بالرومانسية الاندفاع في الأحاسيس والعواطف وبدل معالجة المشاكل بالنقاش والنقد بالتحليل أي بطريقة علمية موضوعية ومنطقية تعالج من الجانب العاطفي واستعمال الشعر والخيال.

- وأخيرا تجدر الإشارة أنّ مالك بن نبي لم يذكر التّعالّم في كتاب (وجهة العالم الإسلامي)، إلاّ أنّه ذكر هذا العرض المرضي في كتاب (شروط النهضة)، وهو التّعالّم بغية التّباهي والتّظاهر بالعلم من أجل المظاهر والاسم لا من أجل العلم وإحداث التّغيير والخروج من الفوضى والانحلال.

- ومنه نستنتج أنّ مالك بن نبي قد جمع مجموعة من الأعراض المرضية التي عاينها في المجتمع الجزائري وفي بعض المجتمعات الإسلامية، من خلال معاشته لها في الجزائر من جهة وباكتشافه لها وتحليله لها بصورة موضوعية أثناء إقامته في فرنسا. ومقارنة بين نتائج الحضارة

الغربية والحضارة الإسلامية وتوصل أن العالم الإسلامي يعيش فوضى أساسها القيم السلبية وتتمثل في أعراض المرض الاجتماعي التي قسّمها مالك بن نبي إلى تسعة وهي:

1.. - القابلية للاستعمار: وهي استعدادات لتقبل سلوكيات وأفكار المستعمر "إن الاستعمار يستغل هذه الاستعدادات ويقرن أسبابها النفسية بخطط تربوية مناسبة في البلاد المستعمرة، لأنها ليس لديها في ثقافتها الموروثة من عهد انحطاطها ما يقاوم أسباب الانحراف في نفسية شعوبها، فيصل إلى أن يضع بتلك الاستعداد سياسة (عاطفية - شهوانية) تتفق مع مصالحه"¹. والاستعمار لا يبقى محصورا بالاستعمار التاريخي، إنما يمتد في خصائصه إلى عصرنا الحاضر، من خلال مغريات الحضارة الغربية التي صارت المجتمعات الإسلامية معجبة ومقلدة لها في كل مظاهرها دون تمييز أو تصفية بما يلائم دينها وأخلاقها وأفكارها، فبعد الاستقلال السياسي لهذه المجتمعات إلا "أن روح الاستعمار لم تبرح عقول أفرادها ولا نفسياتهم ولا ثقافتهم، لأن داء القابلية للاستعمار لم يمكنها من استئصال جذوره (الاستعمار) عندها"² وصار يتحكم فيها على الصعيد الايديولوجي، السياسي، الاقتصادي، الثقافي...

2.. - اللفظية: انعكاس صورة الثثرة في الحديث والإطناب اللغوي في كلام المجتمع المريض أن يطغى عليه استخدام الألفاظ الأدبية الرثانة "على حساب الكلمة الدالة المعبرة التي تربط الفكرة، التي تترجمها الألفاظ اللغوية، بالواقع العملي"³، وقد تحدّث عنها المستشرق الانكليزي والأستاذ جيب (GIBB) وأطلق عليها النزعة الأدبية.

وتفرز لنا اللفظية سوء تقدير الأمور، بالتالي عدم إعطائها القدر الكافي من الاهتمام وعدم معالجتها بطريقة سليمة وفي الوقت المناسب.

- لقد اطلع بن نبي على مقدّمة ابن خلدون ونقد نظريته في قيام الدولة وتأثر بفكره، إذ جاءت فكرته (القابلية للاستعمار) امتدادا وتطورا لفكرة ابن خلدون حيث لاحظ مالك بن نبي في زمانه كيف أن الشعوب المتخلفة تقلد الشعوب المتحضرة (الغربية-المستعمرة) في مأكلاها وملبسها ولغتها ونمط معيشتها وطرق استهلاكها وأخلاقها والتّهافت على منتجاتها. وقد ساهمت وسائل الإعلام في نشر وتوسّع هذا التقليد اعتقادا منهم أنه للوصول للحضارة لابدّ من اقتفاء آثارهم وتقليدهم.

¹ - مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط3، 1988، ص 27

² - محمد بغدادي باي، مرجع سابق، ص 128

³ - نفس المرجع، ص 112.

وانتقد محمد اقبال هذه الظاهرة الجديدة في المجتمع الإسلامي وهي الميل نحو الغرب والذي يساهم في انتشارها هو تيار التجديد الذي يمثل تلك الطائفة التي تخرجت من المدارس الغربية، واتصلت بالفكر الغربي، وقال عن هذه الظاهرة "إن أجدر ظاهرة بالملاحظة في التاريخ الحديث هي السرعة الهائلة التي يتحرك بها عالم الإسلام في جانبه الروحي نحو الغرب"¹

3 - الفخر والمديح: كثيرا ما تلجأ النخبة المثقفة في المجتمع المريض إلى أسلوب الفخر والمديح في كلامهم الذين يصبحان كآلية دفاعية "إن المغالاة في مدح الماضي الزاهر والفخر بالأمجاد التي طواها الزمن هي عبارة عن عملية تسلية للفكر وتخدير للضمير تبعدهما عن الشعور بالمتاعب الحقيقية"² لطغيان النظرة الكمالية لإنجازات السلف.

وتفرز لنا هذه السمة المرضية إخفاء مواضع النقص والاختلال "فتجمل الأخطاء وتستتر العجز بستار من البلاغة المزعومة"³. وهي ما أسماها جب (GIBB) بعقدة النسمي.

4..- الذرية: ولقد وصف المستشرق الانجليزي (GIBB) الفكر الإسلامي بالذرية وأيده في ذلك مالك بن نبي فيحصرها في تفكير مسلم القرن العشرين "الذرية أعني صعوبة أو استحالة إقامة بنية عقلية، إنما تمثل الانعكاس البسيط لافتقار عالمنا النفسي لبعد معين هو بعد الفكرة"⁴، إذ يفتقد الأفراد النظرة الكلية للأمور وبالتالي تكون معالجاتها في جزئياتها الصغيرة التي لا تخدم الكل.

5..- الجدلية والتبرير: إنهما وسيلتان دفاعيتان للنخبة المثقفة خاصة بعد اطلاعه على مؤلفاتها "هذا ما سجله مالك بن نبي من مأخذ على كتابات كل من جمال الدين الأفغاني ضد رينان، وأحمد رضا في مؤلفه (الإفلاس الأخلاقي للسياسة الغربية في الشرق)، والكواكبي في كتاب (أم القرى)"⁵ وحتى في خطابات ومؤلفات الحركة الإصلاحية في الجزائر.

وما الجدل إلا كثرة الكلام بدون غاية أو هدف يفيد إلى المجتمع بينما التبرير هو محاولة إيجاد أكبر قدر من الحجج والبراهين التعجيزية في مسألة لا تعود بالفائدة على المجتمع، بل من أجل تعجيز الآخر أو مناقشة حقائق إسلامية غير هامة. وقد علق الدكتور علي حرب في كتابه (نقد النص) "للمثقفين والمنظرين العرب من دعاة الإصلاح والتغيير سواء منهم ذوو المرجعية الإسلامية

¹ - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 63.

² - بغدادي باي، مرجع سابق، ص 116.

³ - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 60.

⁴ - مالك بن نبي، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 127.

⁵ - بغدادي باي محمد، مرجع سابق، ص 118

القديمة من الأصوليين والسلفيين، أو ذو المرجعية الحديثة من العلمانيين والديمقراطيين الليبراليين أو الماركسيين. إذ أنّ كلا الفريقين، برأيه، يحاول تحقيق مشاريعه وطموحاته، في تغيير الواقع وتحويله، بواسطة الكلام أو الخيال¹

6.. - الرّومانسيّة: "وهي انعكاس لطغيان الخرافة ولوان البديع والبيان في الأعمال الفكرية إنّها تمثّل قطيعة بين الواقع والفكرة. وتظهر أثارها في التمسك وتداول تراث وأدبيات الماضي التي تعج بالخيال والحنين منها قصص ألف ليلة وليلة وحكايات جدّاتنا عن الغول الخرافي..."

- وقد تراجعت الرّومانسيّة عمّا لاحظته مالك بن نبي في عهده لأن الرّومانسية صارت منحصرة في جماعتين: جيل يفتخر بإنجازات الثّورة والكفاح المسلّح والسّياسي، وجيل متمسّك بالطّريقة التي تتمسّك بكرامات الأولياء الصّالحين من جهة أو بإنجازات السّلف من الصّحابة والتّابعين. بينما جمهور واسع من شباب اليوم هم شباب متمرد مستاء من أحواله يرى أن لا عيش أفضل من العيش في بلاد الغرب التي تتغنّى بالديمقراطية والحرية والتّقدم.

وتفرز لنا الرّومانسية إبطال الدور الإيجابي للثقافة وتضعف قوّة تكييف الفرد في المجتمع.
7.. - التّعالّم: إن كان الجهل والأمية آفة الفقراء والأميين فإنّ التّعالّم هو آفة المتعلّمين بل تصير حرفتهم وسماها بن نبي "الحرفيّة في الثّقافة" من خلال حمل اللافتات العلميّة، والمتعلّم لم يقن العلم ليصيرّه ضميرا فعّالا، بل ليحوله آلة للعيش، وسلما يصعد به إلى منصّة البرلمان².
ولأنّ الثّقافة والعلم مرتبطان بإحداث التّغيير الاجتماعي، هذا التّغيير الذي يقصد به مالك بن نبي الحضارة، يرى من سمة التّعالّم أنّه يمثّل حاجزا أمام التّغيير بسبب أنانية المتعلّمين وعدم تفعيل الثّقافة في الاتّجاه الإيجابي.

8.. - الشّينيّة: مرض مجتمع ما بعد الموحّدين الذي يطغى عليه حبّ المادّة وتكديس المنتجات واقتناء المشتريات، إنّها صورة المدنيّة لا الحضارة لأنّ المادّيات تطغى على المعنويّات المتمثّلة في الثّقافة والأخلاق والمعاملات، لقد انتقدها كثيرا بن نبي لأنّ الحضارة هي التي تنتج منتجاتها.
وقد توصّل شبنجلر قبل مالك بن نبي أنّه عند سقوط الحضارة تلج طور المدنيّة وتطغى على المجتمع روح المصلحة الاقتصاديّة "وتصبح الفخامة المادّيّة والوفرة العدديّة صاحبتيّ الحول والطّول وتنحلّ الضّمائر وتصبح العظمة تقاس بالبائع والدّراع وتقدر بالقنطار والدينار"³

¹ - د. علي حرب، نقد النّص، المركز الثّقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص163

² - مالك بن نبي، شروط النّهضة، مرجع سابق، ص 91.

³ - اسوالد شبنجلر، مرجع سابق، ج1، ص15.

9..- الاضطراب الفكري والسلوكي: يرى بن نبي أن المجتمع ما بعد الموحدين هو "خليط من الأذواق، ومن المحاولات، ومن التذبذب، ومن مواقف التدين"¹، إنها صورة لموقعين متناقضين يمس جوانب الحياة المختلفة في قضايا التعليم، المرأة، العمل، التقاليد، والعبادات..... ولا شك أن الاضطراب الفكري ينعكس على السلوك، فقد لفت انتباهه ذلك التأثير الذي يمس المسلم أثناء سماعه خطب الأئمة في المساجد، بينما عند خروجه يأتي بسلوكيات عكس ما كانت تدعو إليه الخطب، بل حتى على سلوك الإمام الخطيب في حد ذاته وإلى غير ذلك من السلوكيات في الشوارع، المحلات، الأسواق، المساجد، الجامعات، المدارس، السياسة، الأحزاب السياسية... ومنه نستنتج أن هذه القيم السلبية في مجتمع ما بعد الموحدين عند بن نبي تدل عن الفراغ الروحي، الضعف الفكري، السقوط الاجتماعي، الإفلاس الأخلاقي والشلل الحركي في مواجهة مشاكل الحاضر، وبالتالي تحول دون تحقيق مشروع نهضوي ثقافي فعلي. وقد أجمل هذه الأعراض كمايلي: "فإلى جانب ما اتصف به إنسان ما بعد الموحدين من (ذرية) وتزمت ونزوع إلى المديح، لم تستطع التخلص منه عقول المصلحين، إلى جانب هذا كله تقف عيوب ذات طابع جماعي، كالجدل والحرفية والتشبث بأذيال الماضي والتخليق في الخيال، وهي ما يطبع ثقافة ما بعد الموحدين."²

- الجدول رقم: 56 أعراض المرض الاجتماعي النفسي (السوسيوسيكولوجي).

أعراض المرض الاجتماعي النفسي	ك	%
القابلية للاستعمار	36	69,24
الفخر والمديح	11	21,15
الذرية	04	7,69
الرومانسية	01	1,92
المجموع	52	100

من خلال ملاحظتنا لمعطيات هذا الجدول والمتعلقة بأعراض المرض الاجتماعي النفسي حيث نلاحظ أن أعلى نسبة كانت للقابلية للاستعمار ب(69,24%)، بعدها نسبة (21,15%) للفخر والمديح، تليها نسبة الذرية ب(7.69%) ثم الرومانسية بنسبة (01.92%) الأعراض الاجتماعية النفسية للمرض هي أعراض مرتبطة بالخصوصيات النفسية لمجتمع ما بعد الحضارة، ولما كان مالك بن نبي قد صنف المجتمعات الإسلامية إلى مجتمعات توقفت فيها دورة

¹ - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 78.

² - نفس المرجع، ص ص 56، 57.

الحضارة، أصيبت كل أوضاعها الاجتماعية بالجمود والسكون والحفاظ على الوضع كما هو "إن الفرد في المجتمع الإسلامي عاجز عن التقدم، والتخلي عما تعارف عليه الناس، عاجز عن اجتياز مراحل تاريخية جديدة، عاجز عن ابتكار المعاني والأشياء الجديدة وتمثلها".¹ إنها الميل إلى المحافظة وهي سمة لإرادية تدل على افتقار ونقص.

- تأثر مالك بن نبي في فكرة القابلية للاستعمار بابن خلدون في فكرته المغلوب مولع أبداً بالاقتراء بالغالب، والمتمثل في الاستعداد النفسي وتقبل الخضوع للآخر وتقليده في السلوكيات والأفكار والعادات و...، فقد خص بن خلدون في الفصل الثالث والعشرين من الباب الثاني بعنوان (في أن المغلوب مولع أبداً بالاقتراء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده)، لسيادة الاعتقاد بكمالها فيتم انتحال عوائد ومذاهب الغالب والتشبه به "ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله"²، وهذا ما لاحظته بن خلدون في مختلف الدول التي توسعت في أمصارها طبقاً لقول العرب (العامة على دين الملك) والملك في اعتقادهم هو كل غالب.

أما نزعة الفخر والمديح فإنها تؤثر على تراجع الفعالية الاجتماعية وجعلت الفرد حبيس الماضي "فحين اتجهت الثقافة إلى امتداح الماضي أصبحت ثقافة أثرية، لا يتجه العمل الفكري فيها إلى الأمام بل ينتكس إلى الوراء"³

المرض الاجتماعي: تأثر مالك بن نبي في تشريحه لأمراض المجتمع الإسلامي بما نظر له جيب العالم الانجليزي حول القيم السلبية التي تعتبر حالياً أسس الفوضى في العالم الإسلامي ومفهوم النزعة الأدبية هو جزء من هذه القيم السلبية، وهي ما تحدث عنه مالك بن نبي عن اللفظية (الشعرية) في الثقافة وانتشار نزعة المديح "وتلك وسيلة رشيقة مناسبة تخفي مواضع النقص والاختلال، فتجمل الأخطاء وتستتر العجز بستر من البلاغة المزعومة"⁴ وهذه الأعراض السوسيونفسية تجعل الفرد يحيد بجهد من العمل إلى علم الكلام، وتصبح نفسه مريضة يشيع فيها الإفلاس الخلقي والاجتماعي والفلسفي والسياسي.

¹ - نفس المرجع، ص 34.

² - عبد الرحمن ابن خلدون، مرجع سابق، ص 149.

³ - نفس المرجع، ص 53.

⁴ - بغدادي محمد باي، مرجع سابق، ص 60.

الجدول رقم : 57 أعراض المرض الاجتماعي الثقافي (السوسيوقافي)

أعراض المرض الاجتماعي	ك	%
اللفظية	20	66,67
الاضطراب الفكري والسلوكي	04	13,33
الشيئية (التكديس)	03	10
الجدلية والتبرير	03	10
التعالم	00	0
المجموع	30	100

- من خلال قراءتنا الاحصائية لهذا الجدول المتعلق بأعراض المرض الاجتماعي الثقافي يتضح أنّ اللفظية هي المرض السوسيوقافي الأعلى نسبة من بين تلك الأعراض بنسبة (66,67%)، ويأتي الاضطراب الفكري والسلوكي بنسبة (13.33%) بينما تساوت نسبة الشيئية (التكديس) والجدلية والتبرير بـ (10%)

- وعليه نستنتج أنّ التّراشق اللفظي والتّلاعب بالكلمات وتنميق العبارات وتزويق الجمل طبعت مجتمع ما بعد الحضارة، بعدما تراجعت فيها القيم الأخلاقية والدينية والاجتماعية، ومازالت المجتمعات العربية الإسلامية تمارس هذه الآفة. وعلى غرارها المجتمع الجزائري الذي طغى عليه خطاب المناقب وتزويد اللفظية استفحالا في جماعة المتعلمين أو النخبة والسّياسيين أثناء التّجمعات والتّظاهرات والملتقيات الثقافية والفكرية التي صارت سمتها "ذكر المزايا والمناقب وتحاشي كل نقد علمي ومعارضة"¹ وكذا انخراط الحاضرين بصورة آلية في ذكر الخصال وكيل المدح وتحاشي الخلاف ممّا أضفى روح القداسة على تراثنا الثقافي وتاريخنا الوطني وعلى الشخصيات الفاعلة داخل المجتمع. أمّا الجدلية والتّبرير فهي نزعة يميل فيها الأفراد إلى تبرير واقعهم وتخلفهم وإخفاقاتهم وسلوكياتهم، والمجادلة من أجل الكلام والتّثرة وإثبات الذات ولفت الانتباه وليس لإضافة معرفة جديدة. في حين أنّ الشيئية هي الغرام باقتناء السلع والمواد حتّى الكماليات والتّهافت في التّناول في البناء، فالمادية أو الشيئية صورة للمجتمع المريض المتحلل من قيم بنائه أوّل مرّة.

¹ - بومدين بوزيد، مرجع سابق، ص 27.

- ومنه نستنتج أنّ مالك بن نبي ينتقد اللفظية أو الشعرية وهي الاهتمام والتركيز على الألفاظ والكلمات وتزويق الجمل وكثرة الكلام والاطناب في التعبير الجميل، وهنا تبدأ خيانة الكلام لرسالته، لأنّ "الكلام ذو قدسيّة"¹ وليس مجرد رصف للألفاظ مثلما يحدث في الخطب الانتخابيّة التي توظّف فيها لغة أسرة جميلة بل لابدّ أن يترجم هذا الكلام إلى عمل ونشاط، بدل أن يوجّه الطاقات وينشّط الجهود إلى تحقيق الأفضل تكون غاياته السعي لتحقيق مكسب سياسي أو مركز اجتماعي "ولكم رأينا ناسًا يتصدّرون الحياة العامّة فيتناولون الأشياء لمجرد التّفاصح والتّشديق بها لا لدفعها ناشطة في مجال العمل، فكلّامهم على هذا ليس إلّا ضرباً من الكلام، مجرداً من أيّة طاقة اجتماعيّة أو قوة أخلاقيّة"² وهنا يصير المجتمع إلى مرحلة الغرام بالكلمات "والغرام بالكلمات أعظم خطراً من الغرام بالمعدن أو الرّخام أو الحجر، فهو يؤدّي أولاً وقبل كلّ شيء إلى أن يفقد الإنسان حاسة تقدير الأمور على وجهها الصّحيح، وهو أمر لازم لكلّ جهد ايجابي من أجل البناء."³

الجدول رقم: 58 أعراض الاضطراب الفكري

الاضطراب الفكري	ك	%
عقدة السّهولة	04	28,57
ذهان الاستحالة	04	28,57
عقدة التّسامي	03	21,43
التّناقض والتّنافر	02	14,29
الجمود الفكري	01	7,14
المجموع	14	100

- تطرّقنا في الجدول أعراض المرض الاجتماعي إلى الاضطراب وقد عبّر عنه مالك بن نبي بالعديد من الأعراض الجزئيّة، ونجد أنّ الاضطراب الفكري جاء في عدّة صور هي "ذهان السّهولة وذهان الاستحالة" بنفس النّسبة (28,57%) ثمّ عقدة التّسامي بنسبة (21,43%) بعدها يأتي التّناقض والتّنافر بنسبة (14,29%) وأخير الجمود الفكري بنسبة (7,14%)

- ممّا سبق ذكره في فصل المرض الاجتماعي نجد أنّ ذهان السّهولة يعني استسهال الأمور والاستخفاف بها للاعتقاد ببساطتها دون إعطائها القدر الكافي من النّقد والتحليل والتّركيب.

¹ - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 70.

² - نفس المرجع، ص 70.

³ - نفس المرجع، ص 58.

- أما ذهان الاستحالة يعكس فكرة العجز وعدم القدرة على الأداء والتصور بسبب الاعتقاد بالجهل والضعف، بينما عقدة التّسامي فهي الاعتقاد السائد بالأفضلية عن الغير وتعكس غالباً التّفاخر بأمجاد الماضي والنّجاحات التي حقّقوها عبر التّاريخ، في حين أنّ التّناقض والتّنافر يعني عدم الاستقرار على حالة أو وضعية أوقرار بل الانتقال من حالة إلى عكسها ومن رأي إلى نقيضه إذ نجد مثلاً الشّباب يقبلون على ظاهرة أو أسلوب في التّفكير أو موضة لباس أو نمط معيشي ما لينتقلوا إلى عكسه، والتّفور ممّا يجمعهم بالحالة السّابقة.

الجدول رقم: 59 أعراض الاضطراب السلوكي

الاضطراب السلوكي	ك	%
الفوضى	18	40,91
الانفصال	17	38,64
الشّلل الأخلاقي والاجتماعي	04	9,10
العنف	02	4,54
التّعالي والغرور	02	4,54
المجاملة	01	2,27
المجموع	44	100

- من خلال قراءتنا لبيانات هذا الجدول الذي يبيّن أعراض الاضطراب السلوكي يتّضح أنّ الفوضى كانت بنسبة (40,91 %) ثمّ الانفصال بنسبة (38,64 %) بعدها الشّلل الأخلاقي والاجتماعي بنسبة (9,10 %) يليه العنف بنسبة متساوية مع التّعالي (04.54 %) كما يأتي التّعالي والغرور بنسبة (04.54 %) وأخير المجاملة بنسبة (02.27 %).

استعمل مالك بن نبي مصطلح الانفصال عند الحديث عن تفكك العلاقات الاجتماعيّة ويعني التّغرات والنّقطعات في هذه العلاقات والتي تمسّ علاقات اجتماعية عديدة كعلاقة الجيرة، العلاقات الأسرية، العلاقات الوالديّة، الأخويّة، صلة الرّحم بأنواعها، علاقة الأساتذة، التّلاميذ، علاقات العمل، علاقة الرّئيس بمرؤوسه العلاقات الزوجيّة، والتي طغى عليها الرّياء والتّفاق وعدم الاحترام، وتحقيق المصلحة الذاتيّة واللاتسامح.

- ومنه نستنتج أنّ مفهوم الفوضى الذي طبع سلوك مجتمع ما بعد الحضارة بسبب عدم الامتثال لمبادئ الاسلام كمسلك للحياة "وبذلك حصل الانفصال أو قُل الانفصام الذي ولّد ازدواجية شخصيّة

بين المسلم الذي يلتصق بالإسلام أثناء ممارسته العبادة، أو سماع حديث عنه، وينقلب إلى شخص آخر يخضع لتناقضات القواعد السلوكية والخلقية التي سادت في الواقع"¹

- عندما تحدّث مالك بن نبي على مجتمع مابعد الموحّدين فإنّ المجتمع الجزائري ينتمي إليه، ويشترك معه في السّلبيات، وقد لاحظ أعراضاً مرضية فيه واستشهد بها في تحليلاته وعمّمها على مجتمع مابعد الموحّدين نظراً للظروف والخصائص المشتركة بينهما، ونظراً لملاحظاته الكثيرة أثناء رحلاته وزياراته للعديد من هذه المجتمعات الإسلامية للدراسة أو لإلقاء محاضراته...

¹ - أسعد السحمرائي، مرجع سابق، ص ص 86، 87.

الجدول رقم: 60 حوصلة توظيف المفاهيم الهامة في كتب العينة

الكتاب	المفهوم	ك	%
مشكلة الثقافة	الثقافة	469	44,50
	العلم	79	7,50
	الأخلاق	44	4,17
	الجمال	47	4,46
	الأفكار	233	22,11
	الواجب	39	3,70
	العلاقات الاجتماعية	09	0,85
	الانسان	105	9,96
	الفعالية	29	2,75
	المجموع	1054	100
مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي	الثقافة	175	20,11
	العلم	75	8,63
	الأخلاق	25	2,87
	الجمال	07	0,80
	الأفكار	468	53,79
	الواجب	24	2,76
	العلاقات الاجتماعية	16	1,84
	الانسان	22	2,53
	الفعالية	58	6,67
	المجموع	870	100
تأملات	الثقافة	98	10,75
	العلم	134	14,69
	الأخلاق	48	5,26
	الجمال	10	1,10

27,41	250	الأفكار	
6,91	63	الواجب	
0,77	07	العلاقات الاجتماعية	
28,84	263	الانسان	
4,27	39	الفعالية	
100	912	المجموع	
15,88	118	الثقافة	القضايا الكبرى
15,21	113	العلم	
4,71	35	الأخلاق	
1,75	13	الجمال	
24,23	180	الأفكار	
14	104	الواجب	
4,04	30	العلاقات الاجتماعية	
13,32	99	الانسان	
6,86	51	الفعالية	
100	743	المجموع	
20,45	145	الثقافة	مجالس دمشق
25,67	182	العلم	
3,24	23	الأخلاق	
1,98	14	الجمال	
13,82	98	الأفكار	
16,36	116	الواجب	
0,99	07	العلاقات الاجتماعية	
14,25	101	الانسان	
3,24	23	الفعالية	
100	709	المجموع	

13,22	64	الثقافة	من أجل التغيير
16,12	78	العلم	
2,89	14	الأخلاق	
1,65	08	الجمال	
36,78	178	الأفكار	
20,25	98	الواجب	
2,68	13	العلاقات الاجتماعية	
4,55	22	الانسان	
1,86	09	الفعالية	
100	484	المجموع	
6,60	38	الثقافة	ميلاد مجتمع
11,98	69	العلم	
10,42	60	الأخلاق	
1,74	10	الجمال	
25	144	الأفكار	
3,65	21	الواجب	
21,87	126	العلاقات الاجتماعية	
14,23	82	الانسان	
4,51	26	الفعالية	
100	576	المجموع	
7,75	66	الثقافة	وجهة العالم الإسلامي
19,48	166	العلم	
7,04	60	الأخلاق	
1,17	10	الجمال	
27,70	236	الأفكار	
6,46	55	الواجب	

4,58	39	العلاقات الاجتماعية	
23	196	الانسان	
2,82	24	الفعالية	
100	852	المجموع	
13,38	99	الثقافة	شروط النهضة
18,11	134	العلم	
7,70	57	الأخلاق	
9,32	69	الجمال	
21,49	159	الأفكار	
8,24	61	الواجب	
5,41	40	العلاقات الاجتماعية	
15	111	الانسان	
1,35	10	الفعالية	
100	740	المجموع	
3,53	11	الثقافة	فكرة كمنويلث إسلامي
7,05	22	العلم	
4,81	15	الأخلاق	
0,96	03	الجمال	
48,08	150	الأفكار	
11,53	36	الواجب	
1,28	04	العلاقات الاجتماعية	
16,35	51	الانسان	
6,41	20	الفعالية	
100	312	المجموع	
17,69	1283	الثقافة	المجموع الكلي للمفاهيم الأساسية
14,51	1052	العلم	

05,25	381	الأخلاق	في كتب العينة
02,63	191	الجمال	
28,90	2096	الأفكار	
08,51	617	الواجب	
04,01	291	العلاقات الاجتماعية	
14,51	1052	الانسان	
03,99	289	الفعالية	
100	7252	المجموع	

اعتمدنا في اختيار المفاهيم الهامة في كتب العينة على أهم المفاهيم المتعلقة بمتغيرات الفرضيات الجزئية وهي مفاهيم أساسية للدراسة وتتمثل في: المرض الاجتماعي، الثقافة والتغيير الاجتماعي والثقافي.

حيث اخترنا لمفهوم المرض الاجتماعي: العلاقات الاجتماعية، الفعالية، الواجب. ومفهوم الثقافة: الثقافة، الأخلاق، الجمال، العلم.

مفهوم التغيير الاجتماعي والثقافي: الانسان، الأفكار.

يتضح من بيانات هذا الجدول المتعلق بحوصلة للمفاهيم الهامة في كتب العينة (مشكلة الثقافة، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تأملات، القضايا الكبرى، مجالس دمشق، من أجل التغيير، ميلاد مجتمع، وجهة العالم الإسلامي، شروط النهضة، فكرة كمنوليث إسلامي) أن أعلى نسبة كانت 28,90% للأفكار، بينما بلغت الثقافة نسبة (17,69%) ونسبتين متساويتين للمفهومين: الانسان والعلم بـ (14,51%)، كما جاء مفهوم الواجب بنسبة (08,51%) وتحصل مفهوم الأخلاق على نسبة (05,25%) يليه العلاقات الاجتماعية بنسبة (04,01%)، وقد وظفت الفعالية بنسبة (03,99%) وفي الأخير وظف الجمال بنسبة (02,63%).

المرتبة الأولى: مفهوم الأفكار نستنتج وجود تفاوت في استعماله في مختلف كتب العينة أين تمّ توظيفه بنسبة (53,79%) في كتاب مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ونسبة (48.08%) في كتاب كمنوليث إسلامي، بينما (36.78%) في كتاب من أجل التغيير، ونسبة (27.70%) في كتاب وجهة العالم الإسلامي، ونسبة (27.41%) في كتاب تأملات، وبلغت نسبة (25%) في

كتاب ميلاد مجتمع، ويليها 24.23%) في كتاب القضايا الكبرى، أما في كتاب الثقافة بنسبة (22.11%)، في حين بلغت أقل نسبة (13.82%) في كتاب مجالس دمشق.

المرتبة الثانية: مفهوم الثقافة في كتاب مشكلة الثقافة جاء بنسبة (44.50%) وتليها (20.45%) في كتاب مجالس دمشق، وفي كتاب مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي فسجلت (20.11%)، وتتنخفض النسبة إلى (15.88%) في كتاب القضايا الكبرى، وعرفت نسبة (13.38%) في كتاب شروط النهضة ونسبة متقاربة قدرت بـ (13.22%) في كتاب من أجل التغيير، وبلغت أقل نسبة (03.53%) في كتاب فكرة كمنويلث إسلامي.

المرتبة الثالثة: وبصفة متساوية بين الانسان والعلم: الانسان باعتباره الحامل للثقافة من جيل إلى آخر نجد أكبر نسبة في كتاب تأملات (28.84%) وتليها نسبة (23%) في كتاب وجهة العالم الإسلامي، بينما بلغت (16.35%) في كتاب فكرة كمنويلث إسلامي، أما في كتاب شروط النهضة فقد بلغت نسبته (15%)، وبنسبة متقاربة في كتاب مجالس دمشق بـ (14.25%)، بينما في كتاب القضايا الكبرى بلغت نسبة (13.32%)، من جهة أخرى قدرت بنسبة (09.96%) في كتاب مشكلة الثقافة، وأقل نسبة (02.53%) في كتاب مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي.

بينما مفهوم العلم فقد تحصل على نسبة (25.67%) في كتاب مجالس دمشق، تليها نسبة 19.48%) في كتاب وجهة العالم الإسلامي، أما في كتاب شروط النهضة فبلغت (18.11%)، وجاءت (16.12%) في كتاب من أجل التغيير، أما في كتاب القضايا الكبرى فسجلت نسبة (15.21%)، غير أننا نجد في كتاب تأملات بلغت (14.69%)، وبنسب متقاربة بلغت على التوالي نسبة (08.63%) مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مشكلة الثقافة (07.50%)، فكرة كمنويلث إسلامي (7.05%) وهي أقل نسبة.

المرتبة الرابعة: أما مفهوم الواجب سجل أعلى نسبة في كتاب من أجل التغيير حيث وصلت إلى (20.25%)، وتليها (16.36%) في كتاب مجالس دمشق، أما كتاب القضايا الكبرى فقد احتوى على نسبة (14%)، بلغت نسبة (11.53%) في فكرة كمنويلث إسلامي وتليها (08.24%) في كتاب شروط النهضة، وبنسبتين متقاربتين جاءت الأولى في كتاب تأملات (06.91%) والثانية في وجهة العالم الإسلامي (06.41%)، وأقل نسبة (02.76%) في كتاب مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي.

المرتبة الخامسة: في حين جاء مفهوم الأخلاق بنسبة (10.42%) في كتاب ميلاد مجتمع، وتليها 07.70% في كتاب شروط النهضة، وجاءت (07.04%) في كتاب وجهة العالم الإسلامي،

وسجلت نسبة 05.26% في كتاب تأملات، وبنسبتين متقاربتين في القضايا الكبرى بـ(04.71%) و(04.17%) في كتاب مشكلة الثقافة، و(04.81%) في كتاب فكرة كمنويلث إسلامي، وأقل نسبة جاءت 02.87% في كتاب مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي.

المرتبة السادسة: مفهوم العلاقات الاجتماعية نجد في كتاب ميلاد مجتمع قُدرت نسبته (21.87%)، وفي كتاب شروط النهضة احتوى على نسبة (05.41%)، غير أننا وجدنا نسبة (04.58%) في كتاب وجهة العالم الإسلامي، وبلغ نسبة (04.04%) في كتاب القضايا الكبرى، وتنخفض النسبة إلى (02.68%) من أجل التغيير، وأقل نسبة (0.77%) في كتاب تأملات.

المرتبة السابعة: مفهوم الفعالية قُدرت بنسب متقاربة جاءت على التوالي (06.86%) في كتاب القضايا الكبرى، (06.67%) في كتاب مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، و(06.41%) في كتاب فكرة كمنويلث إسلامي، وأضعف نسبة (01.35%) في كتاب شروط النهضة.

المرتبة الثامنة: مفهوم الجمال سجلت أعلى نسبة بـ(09.32%) في كتاب شروط النهضة، أما في كتاب مشكلة الثقافة (04.46%)، وبنسب متقاربة حيث بلغت في كتاب مجالس دمشق (01.98%)، وفي كتاب القضايا الكبرى بـ (01.75%) ، وفي كتاب ميلاد مجتمع (01.74%) من أجل التغيير بـ(01.65%)، وفي كتاب تأملات بـ(01.10%)، وأقل نسبة (0.80%) في كتاب مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي.

خلاصة الفصل

بعد عرضنا لبيانات جداول كتب العينة التي جاءت مرتبة أبجديا حسب عناوينها، قدّمنا فيها ماقد قام به المفكر مالك بن نبي من تحليل وربط بين المفاهيم، ليوضح فيها نظراته ومن ثمة كشف بنيته المفهومية، وطريقة تحليله للمواضيع، ووجدنا تفاوت في نسب متفاوتة للعديد من المفاهيم حسب كلّ كتاب أهمّها: الثقافة، العلم، الأخلاق، الجمال، الواجب، العلاقات الاجتماعية، الأفكار، الإنسان والفعالية. وكل من هذه المفاهيم يحمل دلالات وأبعادا لأحد المتغيرات الفرضية: فمن أبعاد المرض الاجتماعي: العلاقات الاجتماعية، الواجب، الفعالية ومن أبعاد التغيير الاجتماعي والثقافي: الانسان، الأفكار، العلم بينما أبعاد الثقافة تتمثل في الأخلاق والجمال.

لنركز أهمّ المفاهيم الثقيلة المرتبطة بفرضيات الدراسة من جهة ولها أهمية كذلك في البنية المفاهيمية عند مالك بن نبي، وإدراجها في جدول يتضمّن حوصلة لأهمّ المفاهيم ومعرفة درجة تفاوت نسبها ضمن كلّ كتاب طبعا حسب محاور كلّ كتاب.

الفصل السّابع:

النتائج العامّة المتعلّقة

بالفرضيّات

تمهيد:

تطرقنا في الفصل السابع إلى: النتائج العامة المتعلقة بالفرضيات. أين قمنا بتوزيع نتائج عرض وتحليل بيانات الجداول المتعلقة بكتب العينة حسب متغيرات الفرضيات الثلاث للدراسة فعرضنا النتائج العامة المتعلقة بالفرضية الأولى، ثم النتائج العامة المتعلقة بالفرضية الثانية، وأخيرا النتائج العامة المتعلقة بالفرضية الثالثة.

الفرضية الأولى هي:

- بروز المرض الاجتماعي في المجتمع الجزائري مرتبط بعدم تجديد عناصره الثقافية.

الفرضية الثانية هي:

- المرض الاجتماعي في المجتمع الجزائري ناتج عن وجود عناصر ثقافية دخيلة.

الفرضية الثالثة هي:

- يحدث التغيير الاجتماعي في المجتمع الجزائري أثرا في بنائه الثقافي (إحداث تغيير ثقافي).

1. النتائج العامة المتعلقة بالفرضية الأولى:

1- بروز المرض الاجتماعي في المجتمع الجزائري مرتبط بعدم تجديد عناصره الثقافية.

في كتاب القضايا الكبرى

- تمثل الفعالية الاجتماعية سلوك الفرد في المجتمع، فهي من المجتمع وإلى المجتمع، لأنها تنبع من البيئة الاجتماعية وتحقق المصلحة العامة. والوضعية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الجزائري مرتبطة بمدى فعالية الفرد فيه، ويمارسها حسب طبيعة إطاره الثقافي. وتهدف الثقافة عندئذ إلى تحقيق التوازن بين المصلحة الشخصية والمصلحة العامة.

- التهاون في أداء الواجب من طبيعة الأفراد في المجتمع الجزائري، والتغيير الاجتماعي والثقافي وحتى الاقتصادي مرتبط بتحقيق الفائض في القيام بالواجب بدل التركيز على المطالبة بالحق أكثر.

- مركبات الثقافة تشمل مايلي: الذوق الجمالي، المبدأ الأخلاقي، المنطق العملي والعلم.

في كتاب شروط النهضة

- كل مجتمع يتكوّن من ثلاث عوالم: عالم الأفكار، عالم الأشخاص، عالم الأشياء. المجتمع نوعان: الطبيعي البدائي وهو مجتمع لا يقوم بعمل حضاري، والمجتمع التاريخي وهو المجتمع المتحضّر. التغيير الاجتماعي مرادف لمفهوم المجتمع المتحضّر، ويمرّ بثلاث مراحل، مرحلة الروح، مرحلة العقل، مرحلة الغريزة.

- عالم الأشخاص يتكوّن أساساً من الانسان، وهو ثلاثة أصناف: الإنسان السابق للحضارة، إنسان الحضارة، والإنسان المسلوب الحضارة. الحضارة تعني التغيير الاجتماعي والثقافي وهو مسار يتبعه المجتمع من أجل إرساء قواعد متينة وأهداف محدّدة وبطرق منهجية.

- تستنفذ الطاقة الروحية والعقلية للإنسان عند نهاية دورة الحضارة، ومعادلتها هي: الانسان+التراب+الزمن ويتأثير الفكرة الدينية.

- المرض الاجتماعي يظهر في ثلاثة مظاهر: تفكك العلاقات الاجتماعية، انعدام الفعالية الاجتماعية، وأسبقية الحق عن الواجب. وثنائية الحق والواجب أمر مهم للحفاظ على التوازن الاجتماعي واستمرار التغيير الاجتماعي والثقافي، بينما يقع الاختلال الاجتماعي لما تطغى المطالبة بالحق عن أداء الواجب.

في كتاب فكرة كمنويلث إسلامي.

- عالم الأفكار في المجتمع الجزائري معطل، فهو يتّصف بالسهولة والبساطة ما يدفع إلى الاقتناء بدل الإنتاج وإلى الشراء بدل التصنيع. إذن عالم الأفكار وعالم الأشياء منفصلين.
- وجود ضعف في البناء المفاهيمي للمجتمع الجزائري، وهو متعلّق بعالم أفكاره، وعالم أشياءه ضعيف أيضا لأنّ أشياءه اشتراها من مجتمع آخر أنتجها عالم أفكاره. المجتمع الجزائري مستهلك فقط يتّصف بالشّئيّة والتّكديس.
- تشبّت وعي المجتمع الجزائري عند مالك بن نبي بين رغبتين، أولاها هي تدارك التأخر الذي يعيشه في كلّ الميادين، ثانيها هي إنقاذ والمحافظة على الأخلاق والقيم الاجتماعية والثقافية وتوجيهها لتوجيهها توفيقيا نحو التطور.
- سيطرة اللاّفاعلية الاجتماعية في المجتمع الجزائري والإصرار على إيجاد تبريرات دائمة لها، ومن أشكالها وجود قطيعة بين عالمي الأفكار والأشياء، والعلاج منها ينطلق من عالم أفكاره.

في كتاب : مجالس دمشق

- الثّقافة هي القلب الأخلاقي والجمالي الذي يوجّه فيه سلوك الفرد لتحقيق المصلحة العامّة، أي يمارس فعاليّته الاجتماعية. فالثّقافة هي محرّك الفعاليّة الاجتماعية، والوسط الذي يكتسب منه ويمارس فيه فعاليّته بينما العلم لايقدم فعاليّة اجتماعيّة بل يقّم معارف ومعطيات.
- القيم من أهمّ عناصر الثّقافة، والعديد من المجتمعات تأسست على القيم باختلاف أنواعها، بما في ذلك المجتمعات الإسلاميّة التي تأسست على القيم الدّينيّة المستوحاة والمستمدّة من الدّين الإسلامي، غير أنّها ضائعة وغير مفعلة.

في كتاب : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي

- الأفكار الفعّالة المشكّلة لعالم الأفكار في المجتمع المتحضّر نوعان: الأفكار المطبوعة (الأفكار الرّائدة) والأفكار الموضوعية.
- المرض الاجتماعي يظهر على مستوى عالم الأفكار من خلال أفكار ميّنة (غير فعّالة) أو على مستوى عالم الأشخاص من خلال انحلال العلاقات الاجتماعية.
- الاضطراب السلوكي الاجتماعي يرجعه بن نبي إلى فساد في علاقات الأفكار مع العوالم الثلاث: عالم الأفكار، عالم الأشخاص، وتكون على ثلاث مستويات: فساد في مابين علاقات الأفكار، فساد في علاقات الأفكار مع عالم الأشخاص، فساد في علاقات الأفكار مع عالم الأشياء. وإذا استمر هذا الفساد أحدث قطيعة بين نوعي الأفكار، وتصير الأفكار الموضوعية متفكّكة وبلاأساس ولأهميّة.

- انفصال الأفكار الرائدة عن عالمها الثقافي جعلها تتصف بالتقليد، الذي يأخذ بها الأشخاص في سلوكهم، وتظل في الانتقال والعدوى وينتشر المرض الاجتماعي.

المجتمع المتحضر (التاريخي) يتأسس على أفكاره الرائدة (الجوهرية)، هذه الأفكار تمثل نموذجها الفكري الأصلي.

في كتاب : مشكلة الثقافة

- تأليف ودمج أجزاء الأفكار والأشياء يكون بتحويل أفكار وأشياء المجتمع في الواقع الاجتماعي، فينتج منها عناصره الثقافية.

- أهمية الأفكار تبرز في قوة فعاليتها الاجتماعية، ومادامت الشروط النفسية والاجتماعية للمجتمع تحوي أفكاره ظلت الثقافة منبعاً للفعالية الاجتماعية السائدة في هذا المجتمع.

- بينما الأفكار الميتة فيعمل التاريخ على سحبها التدريجي من الحياة الثقافية للمجتمع، حيث يتخلّى الأفراد عنها شيئاً فشيئاً، لأنها تصبح أفكاراً غير فعالة. والثقافة تدور على محورين هما المحدّد التاريخي فلاتاريخ بلاتقافة، والبرنامج التربوي الذي يوحد الاستعدادات والاتجاهات والأذواق لتتناسب مع الفئات الاجتماعية ووظيفة كلّ فئة اجتماعية.

- الثقافة هي التركيب العام لتراكيب جزئية أربعة هي: الأخلاق والجمال والمنطق العملي والعلم (الصناعة). التوجيه الأخلاقي هو قوة التماسك الاجتماعي الذي تزرعه الثقافة بين أفراد المجتمع، التوجيه الجمالي ما يتصل بذوق الجمال من خلال الشكل النهائي للسلوكيات، وبناء عليه تتمايز ثقافات المجتمعات، المنطق العملي هو الاستغلال الأقصى لوسائل الإنتاج، والتوجيه الفني هو العلم أو الصناعة هو ممارسة فن أو مهنة ما أو كلّ ما يعود على الشخص من عائد مادي لتمكينه من العيش الكريم.

- المجتمع الجزائري عند بن نبي أصبح يفقد ذوق الجمال في محيطه وثقافته، بسبب ضعف تفعيله، فمعايير النظافة والاتقان والتعاون... تحمل في شكلها مظاهراً جمالية وآثاراً اجتماعية.

- كما أنّ المجتمع الجزائري عند مالك بن نبي يغيب عنه منطق العمل، أي تجسيد الفكرة في الميدان، لأنّ غالبية أفرادهم يستغلون تفكيرهم في الكلام أكثر من العمل.

بينما يقترح مالك بن نبي في التوجيه الفني في المجتمع الجزائري إنشاء مجلس للتوجيه الفني مهمته التكوين والتوجيه والمتابعة للوصول إلى تحسين وتطوير هذا الفن (تخصّص علمي أو مهني) وتوفير منتوجاته للمجتمع.

- الثقافة تحمل أفكار النخبة وأفكار العامة منسجمة ومشكلة لاستعدادات واتجاهات وأذواق مشتركة.

- إحداث النهضة عند بن نبي يقع من خلال فكر جديد خارج من وضع موروث متدهور ، وتصفية العادات والتقاليد والإطار الخلقي والاجتماعي الموروثة من العوامل السلبية التي لافائدة منها، وتفعيل والتركيز على العوامل الإيجابية البناءة لحياة كريمة.
- الثقافة تحوي عناصر لامادية متعددة: قيم وعادات وتقاليد وأذواق وعرف ولغة ومعتقدات ومثل وفن وقانون.. تصنف ضمن تراكيبها الجزئية. وتتمثل الوظيفة الثقافية لهذه التراكيب الجزئية في: الثقافة محيط وجو يشمل قيما ثقافية وعادات وتقاليد العامة التي تدخل ضمن الأخلاق. ويشمل كذلك أذواقا وأوزانا وأشكالا وحركات وأنغاما وألوانا والتي تدخل ضمن الجمال. ويشمل معتقدات وقانونا ولغة و... والتي تدخل ضمن الصناعة.
- هذه التراكيب تميز حياة الانسان اتجاهها وسلوكا بطابع ثقافي معين يثير تفكيره ويبرز قدراته الإبداعية.

في كتاب: من أجل التغيير

- تتطور مفردات اللغة بما يتوافق مع مظاهر الحياة المتجددة، فاللغة وسيلة لتطوير الفكر الشعبي والتعبير عن الفكر التقني للمجتمع.
- تسود في المجتمع الجزائري بعض المظاهر الاجتماعية السلبية كانهطاط في العادات، عدم احترام القوانين، فساد الإطار الثقافي التي تصنف ضمن أعراض المرض الاجتماعي بما يطرأ عليه من مساس بمركبات الثقافة: بالأخلاق أو الجمال أو المنطق العملي أو العلم تبعد مسار المجتمع الجزائري عن التغيير الاجتماعي والثقافي.

2-النتائج العامة المتعلقة بالفرضية الثانية:

2- المرض الاجتماعي في المجتمع الجزائري ناتج عن وجود عناصر ثقافية دخيلة.

في كتاب القضايا الكبرى : لاتوجد

في كتاب تأملات

- قوة وحركة الفعالية الاجتماعية تؤدي إلى إدخال عناصر ثقافية جديدة في بناء شخصية الشخص الجزائري باكتسابها من محيطه الاجتماعي وممارستها سلوكيا. أما تركيب الفعالية هو عملية تنسيق لمقوماتها الأولية المتمثلة في: الفكر والعمل والوسيلة.
- الفعالية الاجتماعية هي حالة تؤثر تظهر على سلوك الأفراد موجّهة لمصلحة المجتمع وفق ظروف اجتماعية وتاريخية معينة وتحمل عناصر ثقافية يقوم الانسان بتجسيدها في سلوكاته.

- النمو المطّرد والمستمر للفعاليّة الاجتماعية بسبب تطوّر المصلحة العامة، يجعل الانسان يدخل عناصر ثقافيّة أخرى لشخصيّته.

- الطّروف التّاريخية والجغرافيّة لمجتمع ما عند بن نبي تخضع الانسان لنظام اجتماعي وثقافي معيّن. فالعناصر الثقافيّة التي يتم إدخالها في نظام ثقافي لمجتمع تحمل خصوصيّة مجاله الجغرافي وظروفه التّاريخية والاجتماعيّة.

- الحياة الثقافيّة مركّبة من شبكة صلات ثقافيّة بين أفراد المجتمع وبين الفاعلين الثقافيّين في الواقع الثقافي للإنسان، يمارس فيه فعاليّته بحكم تبنّيه للفعل الثقافي وانضمامه للعمل الثقافي المشترك.

- الثقافة التي تنشئ الصّلات الاجتماعيّة في المجتمع وتكوّن الفرد الفعّال عند مالك بن نبي هي الثقافة التي تكوّن الجوّ العام الذي يحدّد دوافع الفرد وانفعالاته، وصلاته بالنّاس والأشياء، ويشتمل على أشياء ظاهرة وعلى أشياء باطنة. فهي أسلوب الحياة في مجتمع معيّن وسلوك الفرد فيه.

- المبدأ الأخلاقي يقوم ببناء عالم الأشخاص وأنّ قوّة أو ضعف الفعاليّة الاجتماعية وشبكة الصّلات الثقافيّة في المجتمعات وخاصّة المجتمع الجزائري تتناسب طرديّاً مع قوّة أو ضعف المبدأ الأخلاقي.

في كتاب شروط النّهضة

- قيام الحضارة أو حدوث التّغيير الاجتماعي والثقافي لا يتمّ إلّا في المجتمع، والمجتمع عند مالك بن نبي يتكوّن من ثلاث عوالم: عالم الأفكار، عالم الأشخاص وعالم الأشياء. ومشكلة مجتمع هي مشكلة الانسان، لأنّه القائم بالتّغيير الهادف والموجّه في الميدان الاجتماعي والثقافي. تشتمل الثقافة أساساً على التّنشئة الاجتماعية والقيم الفرديّة والاجتماعيّة.

- القابليّة للاستعمار هي أهمّ أعراض المرض الاجتماعي، ولايزال المجتمع الجزائري يظهر عليه هذا العرض، والذي ساهم في تدهوره الثقافي وتبعيّته للغرب.

في كتاب فكرة كمنويلث إسلامي

- وجود أفكار في المجتمع الجزائري ذات أهميّة ولا تتّصف بالفعاليّة الكافية لإحداث التّغيير الاقتصادي والاجتماعي والثقافي فهي مفرغة من تأثيرها ودورها الإيجابي، فيبقى هذا المجتمع يعيش في تخلف.

- التّبادل في سلّم الأشياء في المجتمع الجزائري يظهر من خلال انتقال مفهوم الضّرورات الماديّة من الأشياء الضّروريّة إلى الأشياء الكماليّة، وانتقال وظيفة ضبط هذه الضّرورات من المجتمع إلى ربّ الأسرة، ممّا غير كذلك في بنية الأفكار والتّقاليد والقيم الاجتماعيّة والثقافيّة للمجتمع كليّة.

- اقتران التبادل الاقتصادي بالزامية التبادل الفكري الذي يقوم بفرض المجتمع العالمي على المجتمع الجزائري تقبل وتنفيذ شروطه وأفكاره مقابل بيع أشياءه له.

- استفحال الفوضى بين عالم الأفكار وعالم الأشياء في المجتمع الجزائري من جراء تقليد شراء الأشياء، فصارا لايحيوان تنظيما داخليا بينهما، وعدم حصول الفرد على ضمانات اجتماعية ضرورية لتمكّنه من تحسين منتوجه اليدوي أو الفكري.

- أي تطوّر تاريخي ونفسي في العالم الإسلامي يمّس عدّة ميادين هي: الميدان الاقتصادي ويعني الحاجة إلى اقتناء الأشياء والوسائل بدل انتاجها وفي الميدان الفكري اتباع المادية أي الملموس بدل المعنوي، وفي الميدان الاجتماعي اتباع الحضارة الشّينية وربط البناء والعلاقات الاجتماعية بالماديات، وفي التطور الجمالي والسياسي المرتبط بضبط مفهوم الأفكار وحياتها وفعاليتها.

- إنّ فوضى العلاقات بين عالم الأفكار وعالم الأشياء، والتي يطغى فيها عالم الأشياء بمادياته ومنشآته ووسائله والتي ممّت في سيرورتها ميادين عدّة كما ذكر سالفا في الميدان الاقتصادي والفكري والاجتماعي والجمالي والسياسي ولّد أزمة نموّ، تمثّل حالة مرضية اجتماعية إنّه المرض الاجتماعي، الذي أصبح ملحوظا في شكل اضطراب أخلاقي، هذا الأخير الذي يظهر من خلال سلوك الأفراد: كضعف الرأى، السخط والتذمّر، التطرف الفكري، واللاأمن الاجتماعي...

- تراجع المجتمع الجزائري الأخذ عن معايير وقيمه وجملّة من عاداته وتقاليده ومعتقداته الاجتماعية، ومبادئه الأخلاقية وحتى بعض تعاليمه الإسلامية، في سلوكه ومعاملاته بسبب تحكّم المظاهر المادية فيه.

- المجتمع الجزائري يعاني من ظاهرتين متلازمتين لدى بن نبي هما: التّبديد والتّبذير في الطّاقات والوسائل واللّذين يعتبران من مظاهر اللّاعالية التي ترجع إلى ضعف في أفكار أفرادها، يجعلهم يقدّمون تبريرات الإخفاقات والفشل في النّشاطات الاجتماعية ممّا يؤدي إلى محدودية النّتائج.

في كتاب مجالس دمشق : لا يوجد

في كتاب مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي

- الأفكار غير الفعّالة في العالم النّقافي لمجتمع غير متحضّر نوعين: الأفكار الميتة والأفكار المميّنة.

1- الأفكار الميتة هي أفكار فقدت دورها الفعّال في المجتمع والثّقافة. صار وجودها من عدمه

بلا فائدة ثقافية، بحكم التّغير الذي يطرأ على حياة أفراد المجتمع.

- 2- الأفكار المميتة (القاتلة) هي أفكار مميّة فقدت فعاليتها في مجتمعها فتصبح مميتة إذا استجلبت إلى مجتمع آخر يختلف عالمهما الثقافي كليّة، ولا تقدّم له فائدة ثقافية إضافية.
- ويعيش أفراد المجتمع الجزائري تذبذبا بين أفكار أصيلة غير فعّالة وأفكار دخيلة هدامة.
- ليست كلّ الأفكار المستجلبة إلى المجتمع الجزائري هي مميتة، لكنّ الضعف في وعي النخبة عند انتقائها لأفكار غير فعّالة وغبر متوافقة مع العالم الثقافي للمجتمع الجزائري.
- فكر المجتمع الجزائري يتخلّص من الأفكار المميّة ويتمسك بالأفكار المميتة لثقافات أخرى. إذ يقبل على المنتج الثقافي لمجتمعات عديدة، ومع ما يحويه تراثنا الثقافي من أخلاقيات وجماليّات ومبادئ فنيّة وصناعيّة وعملية. يرى فيها الجيل الجديد شيئا من الضّغط والتّكبير في حريّة التعبير والتّصرف، فيشرع بالتّخلي عن أفكار لاتحرّك عالمه الثقافي، وتعويضها بأفكار ثقافية ليست لها رابط بثقافته الأمّ. هذه الأفكار كانت جامدة في مجتمعها وأصبحت أكثر ضررا في البناء الثقافي الجديد بحكم الاختلاف الجذري في عناصر وضوابط وحدود كلّ ثقافة.
- كلّ تطوّر تاريخي لمجتمع ما يصاحبه حالة من عدم التّوازن بسبب: فساد فيما بين علاقات عالم أفكار، أو فساد بين علاقات عالم الأفكار مع عالم الأشخاص، أو فساد في علاقات عالم الأفكار مع عالم الأشياء، أي محاكاة الفكرة الإسلامية للأفكار الفعّالة للمجتمعات المتحرّكة.
- وجود ازدواجيّة اللّغة في المجتمع الجزائري (العربيّة والفرنسيّة) بعد الاستقلال، وهي ليست متعلّقة بالعمل الفكري فحسب وإنّما متعلّقة بالحياة اليومية الاجتماعيّة.
- في كتاب مشكلة الثقافة**
- الأفكار الموروثة من الاستعمار هي أفكار مميتة لأنّ مخلفاتها أثّرت على وحدة ثقافة المجتمع الجزائري.
- التّبادل الثقافي الفعّال يساعد على تكوين ثقافة معينة، ويجب أن يبدأ من النّظرة العامة عن (المحيط) الثقافي، فالثّقافة هي أولا (محيط) معيّن يتحرّك في حدوده الإنسان، فيغذّي إلهامه ويكيّف مدى صلاحيّته للتأثير عن طريق التّبادل. فكلّ واقع اجتماعي هو في أصله قيمة ثقافيّة خرجت إلى حيّز التّنفيد.

3-النتائج العامة المتعلقة بالفرضية الثالثة

4- يُحدث التغيير الاجتماعي في المجتمع الجزائري أثرا في بنائه الثقافي.

في كتاب القضايا الكبرى

- مشكلة السلوك هي مشكلة الثقافة، فأَيّ خلل في الثقافة يولّد خلا في الفعاليّة الاجتماعية، وأي خلل في الفعاليّة الاجتماعية يولّد خلا في السلوك. ونشاط المجتمع المشترك يستوجب تنظيم وتنسيق الأفكار والنشاطات الفرديّة حسب مخطّط تنظيمي بقصد تحديد فعالية هذا النشاط.
- مساهمة القيم السائدة (الأخلاقية، الجمالية...) في تكوين ثقافة مجتمع ما.
- العلاقة بين العلم والأفكار تظهر من خلال نجاح الحياة الاجتماعية والثقافية والمرهون بالعمل المشترك والهادف بين كلّ الفاعلين

في كتاب تأملات

- زيادة الإنتاج الاجتماعي متوافق مع نمو الفعاليّة الاجتماعية فتتنامو الفعاليّة كلّما تضافرت ووجهت الجهود والنشاطات الفردية لتلبية الحاجات العامة لكل فئات ومستويات المجتمع.
- حركة المجتمع والتّاريخ مرهونة في حركة الإنسان، من خلال مجمل النشاطات الإنسانية المنطلقة من عالم الأفكار أنتجت ابداعات مختلفة تجسّدت في منتجات حضارية معنوية ومادية.
- شبكة العلاقات الاجتماعية شرط أساسي للحياة الثقافيّة عند المفكّر مالك بن نبي، ففوّة شبكة العلاقات الاجتماعية تمثّل حالة صحيّة للمجتمع وامتداد لحياة ثقافيّة سليمة وقويّة.
- تبرز أهمية المبدأ الأخلاقي في الثقافة من خلال تكوين العلاقات الشّخصيّة ومن ثمة تكوين شبكة العلاقات الاجتماعية والصّلات الثقافيّة، ففوّة أضعف الفعاليّة الاجتماعية مشروط بالمبدأ الأخلاقي. وقيام العلاقات الشّخصية يكون على أساس أخلاقي. ولما كانت شبكة الصّلات الثقافيّة عبارة عن تعبير عن العلاقات الشّخصيّة في مستوى معيّن، فإنّ هذه الشبكة لايمكنها أن تتكوّن دون مبدأ أخلاقي.
- العلم يقوم بإنشاء الأشياء وفهمها فقط، بينما الثقافة تقوم بتجميل وتحسين الأشياء بصفة متواصلة ومستمرّة.

في كتاب شروط النهضة

- كلّ تغيير اجتماعي وثقافي ينشئ حضارة، عكس السّكون والخمول، والحضارة هي التّركيب بين طاقات وأفكار الإنسان باستغلال الإمكانيّات والثّروات الماديّة خلال فترة زمنيّة.

الإنسان يعتبر المجال الأول الذي يمسه التغيير الاجتماعي والثقافي، ومن جهة أخرى هو القائم بالتغيير الاجتماعي وفق الصيغة الحضارية عند مالك بن نبي وهي: حضارة = إنسان + تراب + وقت - عملية التغيير الاجتماعي عند بن نبي لا تتم إلا وفق المنهج الربّاني المتمثل في الآية الكريمة: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّىٰ يَغْيِرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» سورة الرعد، الآية 11. بمعنى التخلص من أعراض المرض الاجتماعي.

- الزمن ثالث عنصر هام في المعادلة "الحضارية"، التغيير الاجتماعي والثقافي، وفي المسيرة الإنسانية.

- الشخص هو الإنسان الذي يقيم العلاقات الاجتماعية مع محيطه الاجتماعي، وكلما كانت العلاقة متينة بين الإنسان والمجتمع سادت أواصر المحبة، الإيثار والتضامن.

- إن تحديد مفهومي الشخص والفرد مرتبط بمراحل التغيير الاجتماعي والثقافي أو الحضارة عند بن نبي، فيستعمل مفهوم الشخص في مرحلة الروح بأكثر قوة بعدها في مرحلة العقل ونقل في مرحلة الغريزة، لأن الإنسان يكون في أقصى فعاليته الاجتماعية. ويستعمل مفهوم الفرد أكثر قوة في مرحلة الغريزة ثم في مرحلة العقل ونقل في مرحلة الروح أي بطريقة عكسية لأن الإنسان يكون في أضعف فعاليته الاجتماعية.

- الفكرة الدينية رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ إذ لها دور كمركب في التركيب البيولوجي لأي حضارة، وقد خصص مالك فصلا بعنوان "أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة" بين فيه دورها الايجابي الفعّال في تركيب الحضارة.

- عملية التغيير الاجتماعي والثقافي هي عملية تطوّر ونموّ تتمّ مراحلها وفق دورة هي مراحل الحضارة مرحلة الروح، مرحلة العقل، ومرحلة الغريزة. وكلّ مرحلة تتعلّق ببزوغ وقوة ثم تراجع وخفوت تأثير الفكرة الدينية في نفوس الأفراد.

التغيير الاجتماعي هو عملية بنائية بواسطة نظام من العلاقات الاجتماعية والتركيبات الثقافية. إذن عملية التغيير الاجتماعي تعني النهضة والتقدم لأنها عملية مدروسة ومخطّط لها وفّرت لها وسائل معينة لتحقيق أهداف معينة.

في كتاب فكرة كمنويلث إسلامي:

- حدوث تغيير في سلم الأشياء في المجتمعات الإسلامية، ومن خلال تحليل لشخصية الانسان المسلم حدّدها المفكر مالك بن نبي في تركيبيتين: الأولى بصفته مسير بضرورات اجتماعية، والتركيبية الثانية بصفته انسان تدفعه عقيدته، مرتبطة بالأخلاق. ففي المجتمع الجزائري يتّصف

بالإستهلاك لأنّ عالم أفكاره لا ينتج ولا يصنع عالم أشيائه بل يقتصر على الشراء، فجانِب الإبداع في عالم الأفكار معطلّ.

- غياب المنطق العملي في المجتمع الجزائري فالمجتمع هو الجهاز الذي يقوم بتحويل الطّاقات الاجتماعيّة أثناء نشاطها، ما يؤثّر على اتّجاهها وفي الوصول إلى نتائجها المسطّرة. مع ضرورة الاستعانة بالعلم -لما له من مكانة مميّزة في الحياة الثقافيّة- لحلّ المشاكل عن طريق مراكز وهيئات البحوث والدراسات العلميّة.

في كتاب مجالس دمشق

- تمييز المفكّر مالك بن نبي لسلوك الفرد بين السلوك الفعّال والسلوك غير الفعّال، وأسلوب حياة المجتمع بين أسلوب الحياة المنظّم والمنسجم وأسلوب الحياة الفوضوي، والتّفاعل بين سلوك الفرد وحياة المجتمع يفرض رقابة من كليهما على الآخر، تكون بصفة مستمرة وهادئة. وعليه وجوب وجود الرّقابة على سلوك الفرد وعلى أسلوب الحياة في المجتمع، وعلى التّجارب والتّفاعل بينهما.

- نشأة الأزمة الثقافيّة مرتبطة بمفهوم الرّقابة، وقوّتها وأطرافها إذ تنشأ الأزمة الثقافيّة أو تكون في طريق النّشوء عندما يكون اختلال في الرّقابة بسبب طغيان أو تحرّر إحداها على الآخر.

- وظائف الثقافة عند مالك بن نبي متمثلة في بسط بين الأفراد شبكة علاقات اجتماعيّة معيّنة، هي ضمان للفرد عناية ورعاية المجتمع، وضمان المجتمع من انحراف الفرد ونشوره.

- عمليّة التّغيير الاجتماعي والثقافي عند بن نبي تبنى على أساس الأفكار الصّالحة وينطلق أولاً من ذات الإنسان في شكل تبني فكرة صحيحة أو صالحة ثمّ في المحيط في شكل فعاليّة اجتماعيّة وهذا التّغيير الذي أصبح بمثابة قانون اجتماعي يمسّ مختلف المجتمعات. ويظهر التّغيير في جانبين: تغيير اجتماعي وتغيير ثقافي. يبدأ من الذات الخاصّة إلى المجتمع عامّة، فتغيير الغير يبدأ بتغيير النّفس.

- آليّة التّغيير الثقافي تهدف إلى الحفاظ على استمرار واستقرار المجتمع لذا يحتاج عبر مساره إلى مبرّرات روحيّة واجتماعيّة متجدّدة بحكم تقادم مبرّراته أو فقدان تأثيرها في الحياة الاجتماعيّة.

- المجتمع عند مالك بن نبي في حاجة مستمرة للقيام بعملية التعويض أي استبدال المبرّرات القديمة (روحيّة، اجتماعيّة، موضوعيّة، فكريّة...) بمبرّرات جديدة بإيجاد الأفكار الملائمة لطبيعة المجتمع وحاجاته المتجدّدة، وتظهر مظاهر التّغيير الثقافي أساساً في الفعاليّة الاجتماعيّة للإنسان في مجتمعه. وفي حالة العجز في إحداث التعويض تتولّد الأزمة الثقافيّة.

في كتاب مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي

اعتماد التاريخ على فعالية الأفكار وتأثيرها في العالم الثقافي للمجتمع وعلى قوتها في الإطار الاجتماعي والاقتصادي والسياسي العام المتواجدة فيه، إنها أفكار صانعة للتاريخ ويتم قياس قوة أوصور الفعالية الاجتماعية بالرجوع إلى نتائج عالم الأفكار.

الأفكار المتعلقة بالعلم والتقدم والحضارة مقدسة، معناه أن للأفكار دور وظيفي لأن الحضارة هي القدرة على القيام بوظيفة أو مهمة معينة.

- لازدواجية اللغة نتائج أهمها أنها تعتبر منطلقاً جديداً يبعث الحركة في العالم الثقافي، وتسمح المفاهيم الآتية من ثقافة أخرى بالتأثير على الأفكار المطبوعة التي تراجع دورها وتأثيرها، فتسترجعها بل وتعيد إنتاج أفكارها الموضوعية، غير أنها تبقى غير واضحة المعالم والتي يعود سببها لازدواجية الأصل وهو راجع كذلك لازدواجية اللغة بحكم المفاهيم الآتية من ثقافة أخرى، غير أن ذلك لايفقدها ارتباطها بأفكارها الرائدة. بإمكان ازدواجية اللغة عند بن نبي من إعادة الحركة للعالم الثقافي بما تضيفه من مفاهيم جديدة.

في كتاب مشكلة الثقافة

- نظام الأفكار عند بن نبي وثيق الصلة بالمسألة الثقافية للمجتمع فأى تغير يطرأ في الخصائص الاجتماعية والثقافية للمجتمع ناتج عن تغير في نظام الأفكار.

- حياة المجتمع تشمل: الحياة العقلية والحياة المادية، والثقافة هي حياة المجتمع العقلية ضمن واقعه الموضوعي.

- الثقافة عند مالك بن نبي هي العلاقة المتبادلة المحددة للسلوك الاجتماعي لدى الفرد بأسلوب الحياة في المجتمع، كما تحدد أسلوب الحياة في المجتمع بالسلوك الاجتماعي للفرد. وبداية تكوين المجتمع هو بداية تكوين عالم أفكاره.

- مشكلة الثقافة هي مواجهة لمشكلة أسلوب الحياة ومشكلة سلوك الأفراد وتكمن مشكلة الثقافة من الناحية التربوية في مشكلة توجيه الأفكار.

- موت الأفراد عند مالك بن نبي نوعان: موتاً مادياً تكون بفقدان الفرد صلته بمجاله الحيوي الذي يعيش فيه، وموتاً ثقافياً تكون بفقدان الفرد صلته بمجاله الثقافي الذي يعيش فيه ويتفاعل مع أفراد.

- الإنسان أساس العملية الثقافية لأنه حاملاً للأفكار ومنتجاً للسلوك الاجتماعي، وحافظاً للرصيد الثقافي للمجتمع، وناقلاً للثقافة عبر الأجيال.

- لتحقيق مشروع ثقافة عند بن نبي يستوجب توثيق وتمتين الصلة واللحمة الاجتماعية بين الأشخاص، مع ضرورة إحداث التركيب والتأليف لعالم الأشخاص حسب منهج تربوي.

في كتاب من أجل التغيير

- تأكيد مالك بن نبي على وجود علاقة جدلية بين الأحداث الاجتماعية والسياسية والأفكار خلال مراحل زمنية من التاريخ، حيث أنّ كلّ تغيير في الحدث الاجتماعي والسياسي في زمن ما مصدره الأفكار. والأحداث تقوم بتطوير الأفكار والتاريخ يسجل مختلف الوقائع والأحداث والتغيرات.

- اتحاد الأفكار في شكل متكامل ومنسجم تكون قادرة على إحداث التغيير بتكوين نظام سياسي واجتماعي وثقافي من خلال عمليتي التخطيط والتنفيذ.

- عملية التخطيط تسعى إلى تحريك الموارد البشرية والمادية التي تؤدي بدورها إلى إحداث حركية اجتماعية أثناء عملية التنفيذ، يقوم بها جهاز يحدّه وينظّمه يسمّى التقنية كما يقوم بمتابعة سيرورة عمله ومدى فعالية خطته. ولنجاح التخطيط يشترط أن تكون أفكاره الأصلية الرائدة نابعة ومراعية لطبيعة المجتمع نفسه.

- أهمية الطّاقات الفكرية في بناء المجتمع الجزائري وإسناده لها مهمة بناء العالم الفكري والثقافي الذي ينعكس على عالم الأشخاص وعالم الأشياء.

في كتاب ميلاد مجتمع

- الظاهرة الدينية ظاهرة ملازمة للحياة الإنسانية وكلّ تغيير اجتماعي وثقافي يحمل آثار فكرة دينية ومنها يستمدّ المجتمع قوانينه المدنية.

- أيّ علاقات اجتماعية أو صلات ثقافية في مجتمع ما تتكوّن من المبدأ الأخلاقي، وتأثيره يقع على عالم الأشخاص لتظهر آثاره على عالم الأشياء والأفكار.

- مجتمع الحضارة هو المجتمع التاريخي يتميز بالحركية المستمرة والفعالية الاجتماعية وكثافة علاقاته الاجتماعية، وهو مجتمع متحرّك يقوم بعملية التغيير الاجتماعي المستمر المتواصل، وهو عملية تطوّر ونمو.

في كتاب وجهة العالم الإسلامي : لا يوجد.

الإستنتاج العام للدراسة:

1- فيما يتعلق بالفرضية الأولى:

بروز المرض الاجتماعي في المجتمع الجزائري مرتبط بعدم تجديد عناصره الثقافية.

- الفعالية الاجتماعية تتبع من البيئة الاجتماعية وتُحقّق المصلحة العامة، تظهر في سلوك الفرد في المجتمع، والوضعية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الجزائري مرتبطة بمدى فعالية الفرد فيه، ويمارسها حسب طبيعة إطاره الثقافي. وتهدف الثقافة عندئذ إلى تحقيق التوازن بين المصلحة الشخصية والمصلحة العامة في المجتمع الجزائري.

- إنّ التّغيير الاجتماعي والثقافي في المجتمع الجزائري مرتبط بتحقيق الفائض في القيام بالواجب بدل التّركيز على المطالبة بالحق، فالتّغيير الاجتماعي والثقافي هو مسار يتّبعه المجتمع من أجل إرساء قواعد متينة وأهداف محدّدة وبطرق منهجية.

- كلّ مجتمع بما فيه المجتمع الجزائري يتكوّن من ثلاث عوالم: عالم الأفكار، عالم الأشخاص، عالم الأشياء. ويمرّ التّغيير الاجتماعي بثلاث مراحل: مرحلة الروح، مرحلة العقل، مرحلة الغريزة.

- معادلة الحضارة عند بن نبي: هي: الانسان + التّراب + الزّمن وبتأثير الفكرة الدينية. وفي نهاية كلّ حضارة تُستنفذ الطاقة الروحية والعقلية للإنسان.

- المرض الاجتماعي في الواقع الاجتماعي للمجتمع الجزائري يظهر في ثلاثة مظاهر: تفكّك العلاقات الاجتماعية، انعدام الفعالية الاجتماعية، وأسبقية الحقّ عن الواجب. وثنائية الحقّ والواجب أمر مهم للحفاظ على التوازن الاجتماعي واستمرار التّغيير الاجتماعي والثقافي، بينما يقع الاختلال الاجتماعي لما تطغى المطالبة بالحق ويتقاعس أداء الواجب.

- عالم الأفكار في المجتمع الجزائري معطل، فهو يتّصف بالسهولة والبساطة ما يدفع إلى الاقتناء بدل الإنتاج وإلى الشراء بدل التّصنيع. إذن عالم الأفكار وعالم الأشياء منفصلين.

- وجود ضعف في البناء المفاهيمي للمجتمع الجزائري بسبب تعلقه بعالم أفكاره، بينما هناك ضعف في عالم أشيائه لأنّ أشيائه المشتراة هي منتجات عالم أفكار مجتمع آخر. وعليه المجتمع الجزائري مستهلك فقط يتّصف بالشّينية والتّكديس.

- تشبّت وعي المجتمع الجزائري عند بن نبي بين رغبتين:

1. تدارك التّأخر الذي يعيشه في كلّ الميادين.

2. المحافظة على الأخلاق والقيم الاجتماعية والثقافية وتوجيهها توجيها توفيقيا نحو التّطور.

- سيطرة اللافاعلية الاجتماعية في المجتمع الجزائري والعلاج منها ينطلق من عالم أفكاره.
- الثقافة هي القلب الأخلاقي والجمالي الذي يمارس فيه المجتمع الجزائري فعاليته الاجتماعية.
- فالثقافة هي الدافع للفعالية الاجتماعية، والوسط الذي يكتسب منه ويمارس فيه فعاليته بينما العلم لايقدم فعالية اجتماعية.
- بعض القيم الدينية في المجتمع الجزائري ضائعة وغير مفعلة.
- الأفكار الفعالة في المجتمع المتحضر نوعان: أفكار مطبوعة (أفكار رائدة) وأفكار موضوعة.
- من مظاهر المرض الاجتماعي في المجتمع الجزائري تكون إما بالنمساك بالأفكار الميتة أوإحلال العلاقات الاجتماعية.
- الاضطراب السلوكي الاجتماعي في المجتمع الجزائري راجع إلى فساد في علاقات الأفكار مع العوالم الثلاث: عالم الأفكار، عالم الأشخاص، وعالم الأشياء، واستمرار الفساد يحدث قطيعة بين الأفكار المطبوعة والأفكار الموضوعة.
- انتشار المرض الاجتماعي يرجع إلى عدوى الأفكار الرائدة المنفصلة عن عالمها الثقافي وإنصافها بالتقليد لدى المجتمع الجزائري.
- تمثل الأفكار الرائدة (الجوهرية) النموذج الفكري الأصلي للمجتمع.
- العناصر الثقافية للمجتمع الجزائري هي نتاج تأليف ودمج وتحويل أفكار وأشياء هذا المجتمع إلى الواقع.
- قوة وشدة فعالية الأفكار الاجتماعية تبرز أهمية الأفكار، وتظل الثقافة منبعاً للفعالية الاجتماعية المساندة في المجتمع الجزائري كلما كانت الشروط النفسية والاجتماعية للمجتمع تحوي أفكاره.
- الأفكار الميتة يسحبها التاريخ تدريجياً من الحياة الثقافية للمجتمع، بتخلي الأفراد عنها شيئاً فشيئاً، لأنها تصبح أفكاراً غير فعالة بمافيه المجتمع الجزائري.
- تقوم الثقافة في المجتمع الجزائري على: المحدّد التاريخي والبرنامج التربوي.
- الثقافة هي التركيب العام لتراكيب جزئية أربعة هي: الأخلاق والجمال والمنطق العملي والعلم(الصناعة). الأخلاق هي قوة التماسك الاجتماعي، الجمال الشكل النهائي للسلوكيات، المنطق العملي هو الاستغلال الأقصى لوسائل الإنتاج، والعلم هو التوجيه الفني أو الصناعة هو ممارسة أيّ فن أو مهنة ذات عائد مادي.
- المجتمع الجزائري أصبح يفقد ذوق الجمال في محيطه وثقافته، بسبب ضعف تفعيله.

- غياب المنطق العملي من المجتمع الجزائري والذي يعني تجسيد الفكرة في الميدان، لطغيان الكلام على العمل.

- ضرورة إنشاء مجلس للتوجيه الفني مهمته التكوين والتوجيه والمتابعة لتطوير أي تخصص علمي أومهنّي وتوفير منتوجاته للمجتمع الجزائري.

- الثقافة تحمل أفكار النخبة وأفكار العامة منسجمة ومشكلة لاستعدادات واتجاهات وأذواق مشتركة.

- العناصر اللمادية للثقافة تصنف ضمن تراكيبها الجزئية. وتتمثل الوظيفة الثقافية لهذه التراكيب الجزئية في:

✓ الثقافة محيط وجو يشمل قيما ثقافية وعادات وتقاليده العامة التي تدخل ضمن الأخلاق.

✓ ويشمل كذلك أذواقا وأوزانا وأشكالا وحركات وأنغاما وألوانا والتي تدخل ضمن الجمال.

✓ ويشمل معتقدات وقانونا ولغة و... والتي تدخل ضمن الصناعة.

هذه التراكيب تطبع حياة الانسان بطابع ثقافي تسمح بإثارة تفكيره وإبراز قدراته الإبداعية.

- تتطور مفردات اللغة بما يتوافق مع مظاهر الحياة المتجددة، فاللغة وسيلة لتطوير الفكر الشعبي والتعبير عن الفكر التقني للمجتمع.

- إحداث النهضة في المجتمع الجزائري يقع من خلال تقديم فكر جديد متجدد وتصفيّة العادات والتقاليد والإطار الخلقي والاجتماعي من العوامل السلبية، وتفعيل العوامل الإيجابية.

- الانحطاط في العادات، عدم احترام وتطبيق القوانين، فساد الإطار الثقافي من أعراض المرض الاجتماعي الثقافي تمس بمركبات الثقافة، وبالتالي تبعد مسار المجتمع الجزائري عن التغيير الاجتماعي والثقافي الهادف.

- التجديد في العناصر الثقافية للمجتمع الجزائري مرتبط بالزمان والمكان، فكل زمان ومكان معايير خاصة تتحكم في اتجاه ووتيرة هذا التجديد.

- حركية المجتمع الجزائري تتأثر بتحقيق توازن في أنساقه الأربعة: التربوي، السياسي، الاقتصادي، الديني، وطغيان أي نسق يسبب خلا في البناء الاجتماعي، والتجديد يمس الأنساق بطريقة متوازنة.

- ضرورة توجيه الأفكار لتحقيق مهمة اجتماعية، ووضع برنامج لتوجيه الثقافة وفق الغاية المنشودة. إذن التجديد الإيجابي هو تجديد العناصر الجوهرية لتراكيب الثقافة.

2- فيما يتعلق بالفرضية الثانية:

المرض الاجتماعي في المجتمع الجزائري ناتج عن وجود عناصر ثقافية دخيلة.

- قوة وحركة الفعالية الاجتماعية تؤدي إلى إدخال عناصر ثقافية جديدة في بناء شخصية الفرد الجزائري باكتسابها من محيطه الاجتماعي وممارستها سلوكيًا. أما تركيب الفعالية هو عملية تنسيق لمقوماتها الأولية المتمثلة في: الفكر والعمل والوسيلة.
- الفعالية الاجتماعية هي حالة تؤثر تظهر على سلوك الأفراد موجّهة لمصلحة المجتمع وفق ظروف اجتماعية وتاريخية معينة وتحمل عناصر ثقافية يقوم الإنسان بتجسيدها في سلوكاته.
- الفعالية الاجتماعية تتطور بتطور المصلحة العامة، مما يجعل الإنسان يدخل عناصر ثقافية أخرى لشخصيته.
- الظروف التاريخية والجغرافية للمجتمع الجزائري تخضع الإنسان لنظام اجتماعي وثقافي معين. فالعناصر الثقافية التي يتم إدخالها في نظام ثقافي لهذا المجتمع تحمل خصوصية مجاله الجغرافي وظروفه التاريخية والاجتماعية.
- الحياة الثقافية مركبة من شبكة صلات ثقافية بين أفراد المجتمع وبين الفاعلين الثقافيين في الواقع الثقافي للإنسان، يمارس فيه فعاليته بحكم تربيته للفعل الثقافي وانضمامه للعمل الثقافي المشترك.
- الثقافة هي التي تنشئ الصلات الاجتماعية في المجتمع وتكون الفرد الفاعل فهي أسلوب الحياة في مجتمع معين وسلوك الفرد فيه.
- المبدأ الأخلاقي يقوم ببناء عالم الأشخاص، ويؤثر في الفعالية الاجتماعية وشبكة الصلات الثقافية.
- التغيير الاجتماعي والثقافي يحدث في المجتمع والمتكون من ثلاث عوالم: عالم الأفكار، عالم الأشخاص وعالم الأشياء. الإنسان هو القائم بالتغيير الهادف والموجه في الميدان الاجتماعي والثقافي.
- تشتمل الثقافة أساسا على التنشئة الاجتماعية والقيم الفردية والاجتماعية.
- تظهر على المجتمع الجزائري القابلية للاستعمار والتي ساهمت في تقيده الثقافي وتبعيته للغرب.
- عدم وجود أفكار في المجتمع الجزائري تنصف بالفعالية الكافية لإحداث التغيير الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ماسمح ببقائه متخلفا.

- التّبادل في سلّم الأشياء في المجتمع الجزائري أحدث خلا في مفهوم الضّروقات الماديّة من الأشياء الضّروقيّة إلى الأشياء الكماليّة. ممّا غير في بنية الأفكار والتّقاليد والقيم الاجتماعيّة والتّقانيّة للمجتمع.

- فرض على المجتمع الجزائري إلزاميّة التّبادل الفكري (تنفيذ الشّروط والأفكار) مقابل التّبادل الاقتصادي في معاملاته التّجاريّة مع الدّول الغربيّة.

- استفحال الفوضى بين عالم الأفكار وعالم الأشياء في المجتمع الجزائري جرّاء تقليد شراء الأشياء، أدّى إلى ضعف الضّمانات الاجتماعيّة الضّروقيّة لتحسين منتوجه اليدوي أو الفكري.

- أيّ تطوّر تاريخي ونفسي في المجتمع الجزائري يمسّ عدّة ميادين هي: الميدان الاقتصادي، الميدان الفكري، الميدان الاجتماعي وكذا الميدان الجمالي والسّياسي.

- إنّ فوضى العلاقات بين عالم الأفكار وعالم الأشياء، بسبب طغيان الماديّات في كلّ ميادين حياة المجتمع ولّد أزمة نموّ، نتج عنه اضطراب أخلاقي، يظهر في سلوك الأفراد. ممّا أفرز اهمال المجتمع الجزائري معاييره وقيمه وجملة من عاداته وتقاليده ومعتقداته الاجتماعيّة، ومبادئه الأخلاقيّة حتّى بعض تعاليمه الإسلاميّة، في سلوكه ومعاملاته.

- المجتمع الجزائري يعاني من ظاهرتين متلازمتين: التّبديد في الطّاقات والتّبدير في الوسائل واللّذين يعتبران من مظاهر اللّافعاليّة الرّاجعة إلى ضعف في أفكار أفراد.

- يوجد في العالم التّقاني لمجتمع غير متحصّر نوعين من الأفكار غير الفعّالة:

3- الأفكار المميّنة هي أفكار فقدت دورها الفعّال في المجتمع والتّقانة.

4- الأفكار المميّنة (القائلة) هي أفكار مميّنة وتصبح مميّنة إذا استجلبت.

ويعيش أفراد المجتمع الجزائري تذبذبا بين أفكار أصيلة غير فعّالة وأفكار دخيلة هدّامة.

- ليست كلّ الأفكار المستجلبة إلى المجتمع الجزائري هي مميّنة، لكنّ الضّعف في وعي النّخبة عند انتقائها لأفكار غير فعّالة وغير متوافقة مع العالم التّقاني للمجتمع الجزائري.

- فكر المجتمع الجزائري يستبدل أفكاره المميّنة بالأفكار المميّنة لثقافات أخرى. إذ يقبل على المنتج التّقاني، ويهمل أفكار تراثه التّقاني ويعوّضها بأفكار ثقافيّة دخيلة. هذه الأخيرة تتّصف بالجمود في مجتمعهما وتحدث خلا في البناء التّقاني الجزائري.

- كلّ تطوّر تاريخي لمجتمع ما يصاحبه حالة من عدم التوازن بسبب: فساد فيما بين علاقات عالم الأفكار، أفساد بين علاقات عالم الأفكار مع عالم الأشخاص، أفساد في علاقات عالم الأفكار مع عالم الأشياء.
- وجود ازدواجية اللغة في المجتمع الجزائري (العربية والفرنسية) بعد الاستقلال، وهي ليست متعلّقة بالعمل الفكري فحسب وإنما متعلّقة بالحياة اليومية الاجتماعية.
- الأفكار الموروثة من الاستعمار هي أفكار مميتة لأنّ مخلفاتها أثّرت على وحدة ثقافة المجتمع الجزائري.
- التّبادل الثقافي الفعّال يساعد على تكوين ثقافة معيّنة، ويجب أن يبدأ من النّظرة العامّة عن (المحيط) الثقافي، فالثّقافة هي أولاً (محيط) معيّن يتحرّك في حدوده الإنسان، فيغذّي إلهامه ويكيّف مدى صلاحيّته للتأثير عن طريق التّبادل. فكلّ واقع اجتماعي هو في أصله قيمة ثقافية خرجت إلى حيّز التنفيذ.

3- فيما يخص الفرضية الثالثة

يُحدث التّغيير الاجتماعي في المجتمع الجزائري أثراً في بنائه الثقافي.

- مشكلة السّلوّك في المجتمع الجزائري هي مشكلة الثّقافة، لارتباط الثّقافة بالفعاليّة الاجتماعية، وارتباط الفعاليّة الاجتماعية بالسّلوّك. ونشاط المجتمع المشترك يستوجب تنظيم وتنسيق الأفكار والنّشاطات الفرديّة حسب مخطّط تنظيمي بقصد تحديد فعاليّة هذا النّشاط.
- مساهمة القيم السّائدة (الأخلاقية، الجمالية...) في تكوين ثقافة مجتمع ما.
- العلاقة بين العلم والأفكار تظهر من خلال نجاح الحياة الاجتماعية والثّقافية والعمل المشترك.
- زيادة الإنتاج الاجتماعي في المجتمع الجزائري متوافق مع نمو الفعاليّة الاجتماعية.
- قوّة شبكة العلاقات الاجتماعية هي انعكاس لقوّة حياة ثقافية. وقوّة أضعف الفعاليّة الاجتماعية في المجتمع الجزائري مشروط بالمبدأ الأخلاقي الذي يكوّن شبكة الصّلات الثّقافية.
- العلم يقوم بإنشاء وفهم الأشياء أمّا الثّقافة تقوم بتجميل وتحسين مستمرين للأشياء.
- كلّ تغيير اجتماعي وثقافي ينشئ حضارة، وهي التّركيب بين طاقات وأفكار الإنسان باستغلال الإمكانيّات والثّروات الماديّة خلال فترة زمنيّة.
- الإنسان يعتبر المجال الأوّل للتّغيير الاجتماعي والثّقافي، والقائم به عن طريق التّخلص من أعراض المرض الاجتماعي.

- الزّمن ثالث عنصر هامّ في المعادلة "الحضاريّة" والتّغيير الاجتماعي والثقافي.
- الفكرة الدّينيّة رافقت دائماً تركيب الحضارة خلال التّاريخ إذ لها دور كمركب في التّركيب البيولوجي لأيّ حضارة.
- عمليّة التّغيير الاجتماعي والثقافي تتمّ حسب مراحل الحضارة: مرحلة الرّوح، مرحلة العقل، ومرحلة الغريزة. وبواسطة نظام من العلاقات الاجتماعيّة والتّركيبات الثقافيّة. إذن هو عمليّة مدروسة ومخطّط لها وفّرت لها وسائل معيّنة لتحقيق أهداف معيّنة.
- المجتمع هو الجهاز الذي يقوم بتحويل الطّاقات الاجتماعيّة وتحديد اتّجاهها والاستعانة به لحلّ المشاكل عن طريق مراكز وهيئات البحوث والدراسات العلميّة.
- تمييز بن نبي لسلوك الفرد بين السلوك الفعّال والسلوك غير الفعّال، وأسلوب حياة المجتمع بين أسلوب الحياة المنظّم وأسلوب الحياة الفوضوي، والتّفاعل بين سلوك الفرد وحياة المجتمع يفرض وجوب وجود الرّقابة على سلوك الفرد وعلى أسلوب الحياة في المجتمع بصفة مستمرة وهادئة.
- نشأة الأزمة الثقافيّة في المجتمع الجزائري وقوتها وأطرافها يرجع إلى اختلال في الرّقابة بسبب طغيان أوتحرّر إحداهما على الآخر.
- وظائف الثقافة متمثّلة في بسط بين الأفراد شبكة علاقات اجتماعيّة معيّنة، هي ضمان للفرد عناية ورعاية المجتمع، وضمان المجتمع من انحراف الفرد ونشوزه.
- عمليّة التّغيير الاجتماعي والثقافي في المجتمع الجزائري تبنى على أساس أفكار صالحة وفعاليّة اجتماعيّة، ويظهر التّغيير في جانبين: تغيير اجتماعي وتغيير ثقافي. يبدأ من الذات الخاصّة إلى المجتمع عامّة، فتغيير الغير يبدأ بتغيير النّفس.
- آلية التّغيير الثقافي تهدف إلى الحفاظ على استمرار واستقرار المجتمع الجزائري لذا يحتاج عبر مساره إلى مبرّرات روحيّة واجتماعيّة متجدّدة بحكم تقادم مبرّراته أوفقدان تأثيرها في الحياة الاجتماعيّة
- عمليّة التعويض هي ضرورة اجتماعيّة، يقوم المجتمع بمافيها المجتمع الجزائري باستبدال مبرّراته القديمة (روحيّة، اجتماعيّة، موضوعيّة، فكريّة...) بمبرّرات جديدة بإيجاد الأفكار الملائمة لطبيعته وحاجاته المتجدّدة، وتظهر مظاهر التّغيير الثقافي في فعاليّة الانسان الاجتماعيّة. والإخفاق في إحداث التعويض يولّد الأزمة الثقافيّة.
- المجتمع الجزائري يتّصف بالاستهلاك لأنّ جانب الإبداع في عالم أفكاره معطل.

- بإمكان ازدواجية اللغة في المجتمع الجزائري من إعادة الحركة للعالم الثقافي بما تضيفه من مفاهيم جديدة بالتأثير في الأفكار المطبوعة وإعادة إنتاج الأفكار الموضوعية.
- الثقافة هي حياة المجتمع العقلية ضمن واقعه الموضوعي، إذن أيّ تغيير يطرأ في الخصائص الاجتماعية والثقافية للمجتمع الجزائري ناتج من تغيير في نظام أفكاره. ويقصد بها العلاقة المتبادلة بين للسلوك الاجتماعي للفرد وأسلوب الحياة في المجتمع. ويموت الانسان ثقافياً عند فقدانه صلته بمجاله الثقافي.
- الإنسان أساس العملية الثقافية لأنه حاملٌ للأفكار ومنتجٌ للسلوك الاجتماعي، وحافظٌ للرصيد الثقافي للمجتمع، وناقلٌ للثقافة عبر الأجيال.
- لتحقيق مشروع ثقافة في المجتمع الجزائري يستوجب تمتين اللحمة الاجتماعية مع ضرورة إحداث التركيب لعالم الأشخاص حسب منهج تربوي، لأن مشكلة الثقافة هي مواجهة لمشكلة أسلوب الحياة ومشكلة سلوك الأفراد وتكمن مشكلة الثقافة من الناحية التربوية في مشكلة توجيه الأفكار.
- كلّ تغيير في الحدث الاجتماعي والسياسي في زمن ما مصدره الأفكار. والأحداث تقوم بتطوير الأفكار والتاريخ يسجل مختلف الوقائع والأحداث والتغيرات.
- عمليتي التخطيط والتنفيذ تهدف إلى اتحاد وانسجام الأفكار لإحداث التغيير بتكوين نظام سياسي واجتماعي وثقافي.
- عملية التخطيط تُؤسس على الأفكار المطبوعة (الرائدة) وتسعى إلى إحداث حركية اجتماعية أثناء عملية التنفيذ، يقوم بها جهاز يسمى التقنية كما يقوم بمتابعة سيرورة عمله ومدى فعالية خطته.
- أهمية الطاقات الفكرية في بناء المجتمع الجزائري وإسناده لها مهمة بناء العالم الفكري والثقافي الذي ينعكس على عالم الأشخاص وعالم الأشياء.
- الظاهرة الدينية ظاهرة ملازمة للحياة الإنسانية وكلّ تغيير اجتماعي وثقافي يحمل آثار فكرة دينية ومنها يستمد المجتمع قوانينه المدنية.
- أيّ علاقات اجتماعية أوصلات ثقافية في مجتمع ما تتكوّن من المبدأ الأخلاقي، وتأثيره يقع على عالم الأشخاص لتظهر آثاره على عالم الأشياء والأفكار.
- تجديد العناصر الثقافية يكون حسب مراحل وهي: التنسيق - التنظيم والتوجيه (التخطيط) لتجنب ضياع الطاقات والوقت. إذ يتوجب على المجتمع الجزائري عدم إغفال التخطيط من أجل التغيير بما يتوافق مع حاجات المجتمع المتجددة وما يتوافق مع خصوصيته ومبادئه.

- وظائف الثقافة متمثلة في بسط بين الأفراد شبكة علاقات اجتماعية معينة، هي ضمان للفرد عناية ورعاية المجتمع، وضمان المجتمع من انحراف الفرد ونشوزه

خاتمة

- أساس دراسات المفكر مالك بن نبي هي دراسة المجتمع وتشريحه على عدة نواحي ثقافية، اقتصادية، أخلاقية، دينية، فكرية، سياسية.. المجتمع وهو تجمع للأفراد يشتركون في خصائص اجتماعية وأهداف تغييرية في إطار زمني ومكاني معين.

ودراسات ومؤلفات مالك بن نبي تنضم إلى سلسلة مشكلات الحضارة، يركّز فيها على تعريف، تشریح وتبيان خصائص مجتمع الحضارة والمجتمع الجزائري ينتمي للمجتمعات الإسلامية التي عاشت دورة الحضارة ومرت بمراحلها الثلاث:

* مرحلة النهضة: والتي سمّاها مرحلة الروح، تبدأ عندما يقع الاتصال بين السماء والأرض وذلك بنزول الفكرة الدينية التي تسيطر على الغرائز ثمّ تحكم فيها فتروّضها وتنظّمها ولا تقضي عليها ولا تلغيها لأنّ الطبيعة أوجدتها. غير أنّ هذه الغرائز تبقى خامدة تستحق الفرص المواتية للتحرّر. وهذا ما حدث في المجتمع الإسلامي عند بداية الدّعوة المحمّدية عندما زادت كثافة العلاقات الاجتماعية بين المسلمين.

* مرحلة الأوج: والتي سمّاها مرحلة العقل، إنّ نموّ وتوسّع المجتمع يؤلّد قضايا وضرورات جديدة تفرض على الحضارة لتليّتها أن تسلك مسلك العقل، وتتوافق في التاريخ الإسلامي مع استيلاء الأمويين على الحكم، ابتداء من معركة صفين سنة 38هـ. وتضعف في هذه المرحلة سيطرة الروح المشبعة بالفكرة الدينية على الغرائز التي تجد سبيلها للتحرّر شيئاً فشيئاً. ويتّجه العقل إلى الإبداع والاختراع فتتطوّر الفنون والعلوم، ومن جهة أخرى يتدنى مستوى أخلاق المجتمع وينصرف عن مراقبة وتعديل سلوك الأفراد وينشغل بالماديات والملذّات والبذخ...

* مرحلة الأفول: والتي سمّاها مرحلة الغريزة، تبدأ عندما تتراجع مكانة الوظيفة الاجتماعية وتتغلب الطبائع الإنسانية على الأفراد، والتحرّر التام للغرائز، وهنا تنتهي الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينية فتتفكك العلاقات الاجتماعية وتنحل الأخلاق، وتزيد المطالبة بالحقوق ويقلّ أداء الواجب

وتضعف الفعاليّة الاجتماعيّة، فتبرز أعراض المرض الاجتماعي: السوسيونفسي والسوسيوثقافي.

والمجتمع يشكّل نقطة الانطلاق لوجود أيّ شكل من أشكال الحياة وبالتالي الحضارة، وهذا التجانس يمسّ العوالم الثلاث للمجتمع وهي: عالم الأشخاص، عالم الأفكار وعالم الأشياء. بينما المجتمع الهشّ يعيش اهتزاز في علاقاته الاجتماعيّة وتخلخل في وظائفه، لهذا استعمل بن نبي مفهوم المجتمع في تحليلاته ومقارناته.

كما يحتلّ التّغيير الاجتماعي حيّزا هامّا في مؤلّفات مالك بن نبي، وهو في نظره عمليّة بنائيّة تستهدف إقامة حضارة بواسطة نظام من العلاقات الاجتماعيّة، ويتبع كلّ تغيير اجتماعي تغيير ثقافي يمسّ مكوّنات الثقافة وهي: الأخلاق، الجمال، المنطق العملي والتّوجيه الفنّي (العلم أو الصّناعة) في المجتمع ويظهر من خلال سلوك الأفراد وأسلوب حياة المجتمع، وكلّ حضارة عند مالك بن نبي تحمل جذور فكرة دينيّة، هناك صلة متينة بين الدّين وقيام الحضارات لأنّ ساهمت في بلورة عالم الأشخاص، عالم الأفكار وعالم الأشياء لمجتمع ما، فدفعته إلى التّغيير الاجتماعي وتأسيس حضارة. وعناصر الصّيغة الحضاريّة: حضارة = إنسان + تراب + زمن، ودون إغفال المركّب الحضاري "الفكرة الدّينيّة".

- أمّا التّاريخ فهو سجلّ الزّمن لحياة الشّعوب والأشخاص والدّول وهو الحضارة وتطوّرها والإنسانيّة ورقبها والعلاقات البشريّة ومسيرتها، فلا حضارة إلّا ضمن التّاريخ، لأنّها تشغل فيه مجالا زمنيا ومكانيا يمثّل تراكما للأحداث.

- والمجتمع الجزائري عند مالك بن نبي مريض اجتماعيّا، والمرض الاجتماعي هو ما يصيب العلاقات الاجتماعيّة من تخلخل واضطراب، وتكون العلاقات الاجتماعيّة تارة متماسكة ومتينة في مجتمع الحضارة، وتكون منفصلة ومنحلة في مجتمع ما بعد الحضارة. والمجتمع الجزائري يعيش التّحلل والتّفكك والذي يمثّل المؤثّر الأكثر سلبا في اختلال التّوازن الاجتماعي وبالتالي في بروز المرض الاجتماعي ومضاعفة حدّته، ويقصد بالتّحلل والتّفكك هو ما يمسّ العلاقات الاجتماعيّة من انحلال وذوبان وتعتبر آخر مرحلة للورم الخبيث في

الجسد الإنساني لنصل إلى بتر وقطيعة في العلاقات الاجتماعية وهي انعكاس لاختلال العلاقة بين الفرد وربّه.

- أوضح مالك بن نبي أنّ حالة التّحلل والتّفكك يليها التّدهور وهو الاختلال الذي يمسّ الأوضاع الماديّة، وكذلك التّمزق الذي يقصد به التّقطعات التي تمسّ شبكة العلاقات الاجتماعية وهي المرحلة السّابقة عن مرحلة التّحلل والتّفكك الكلّي في الصّلات الاجتماعية.

- يطغى على سلوك أفراد المجتمع الجزائري اللاّفعاليّة وتعني عند بن نبي غلبة النّزعة الذاتيّة على النّزعة الاجتماعيّة وتراجع العمل المشترك المنسجم في المجتمع وتقلّص روح المبادرة الجماعيّة.

- اللاّفعاليّة من الظّواهر السّلبية التي تزيد من المرض الاجتماعي ويعكس في الآن ذاته حالة تطوّره في الجسد الاجتماعي، إذ يبدأ المرض عندما تعجز شبكة العلاقات الاجتماعيّة عن أداء عمل مشترك ثمّ يشرع التّمزق والتّدهور ينخر هذه العلاقات، لتصل في الأخير إلى التّفكك والتّحلل.

- وتوظيف بن نبي لمفهوم الإنسان هو توظيف أساسي، إذ أنّ مشكلة مجتمع ما هي مشكلة إنسان لأنّ الإنسان هو القائم بالحضارة، الإنسان القادر على التّغيير والابتكار، الإنسان الفعّال كما يسمّيه مالك بن نبي. وهو ثلاثة أصناف: الإنسان السّابق للحضارة (الطّبيعي)، إنسان الحضارة، والإنسان المسلوب الحضارة.

التوصيات :

- وضع المفكر مالك بن نبي لبنات لعلم اجتماع جمع فيه بين المؤثرات العامة لتأسيس مجتمع متحضّر على مستوى اعوالم الثلاث: عالم الأفكار، عالم الأشخاص وعالم الأشياء، أضفى خصوصيّة تفسيرية تحليليّة به "إنّ علم الاجتماع من زاوية مالك بن نبي شمولي الطرح ولكنّه مبني على العناصر الأساسيّة التي تُكوّن المجتمع وهي الثقافة والتكنولوجيا والإنسان تتمرّز في وسط الزمان والتراب، أي الموطن".¹

- إنّ هذه الدّراسة في تخصّص علم الاجتماع الثقافي وإنّ سعت لمعالجة فرضيات أثارت الفضول العلمي للباحثة، غير أنّه ومن خلال هذه الدّراسة استوقفنا العديد من إشكالات بعدما تمّت معالجة مفاهيم: الثقافة، المرض الاجتماعي، والتّغيير الاجتماعي والثقافي للكشف عن مقارنة مالك بن نبي السوسيولوجيّة للمجتمع الجزائري، هذه الإشكالات لم تدرج كنقاط ذات صلة مباشرة في موضوع البحث المقدّم غير أنّها تتطلّب البحث فيها من قبل دراسات أخرى، نرجو أن تثير الفضول العلمي لباحثين آخرين في مختلف تخصّصات علم الاجتماع وتفتح أبواب البحث العلمي، وذلك من خلال الإجابة على الأسئلة التّالية:

1. كيف يتمّ اعتماد هذه المقاربة السوسيولوجية للمجتمع الجزائري عند المفكر مالك بن نبي لفهم الواقع الجزائري الحالي وحلّ مختلف مشاكله وفي جميع المجالات: الأخلاقية، التّربويّة، السّياسية، الاقتصادية، الثقافيّة، الإداريّة...؟
2. إذا اعتبرنا هذه المقاربة مقارنة سوسيولوجية لفهم الواقع الاجتماعي، فما هي طرق توظيفها؟
3. ما هي أطر هذه المقاربة السوسيولوجية وكيفيّة ضبطها لدراسة مختلف الظواهر الاجتماعيّة خاصّة السّلبية؟
4. هل المشاكل التي يعيشها المجتمع الجزائري ناتجة عن غياب مقارنة سوسيولوجية جزائريّة لحلّها؟

¹ - د. ابراهيم بويحيوي، النّظريات السوسيولوجيّة، دار كنوز الحكمة، الجزائر، 2018، ص122.

5. هل النظريات السوسيولوجية لمختلف المدارس والاتجاهات قادرة على تفسير وفهم الواقع الجزائري أم يحتاج هذا الأخير إلى مقاربة سوسيولوجية نابغة من ظروفه التاريخية، الدينية، السياسية، الاقتصادية، الثقافية الخاصة به؟
6. هل المقاربة السوسيولوجية للمجتمع الجزائري عند مالك بن نبي (وهي نتاج أواخر القرن العشرين) قادرة على تفسير الظواهر المستجدة في الواقع الجزائري في الوقت الراهن؟ أو للسنوات القادمة؟
7. ما مدى توظيف مخابر البحث في العلوم الاجتماعية والانسانية مفاهيم بن نبي في مشاريع البحث الجامعي وربطها بواقع المجتمع الجزائري؟

قائمة المراجع

القران الكريم

الحديث الشريف

المعاجم والقواميس

- 1- ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، ج1، ط3، بيروت، لبنان، 1999.
- 2- بدوي أحمد زكي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1993.
- 3- بودون وف بوريكو، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، تر: سليم حداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1983.
- 4- خليل أحمد خليل، المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع، دار الحداثة، بيروت، لبنان، ط1، 1984.
- 5- غيث محمد عاطف، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1995.
- 6- قاسيمي ناصر، مصطلحات أساسية في علم اجتماع الإعلام والاتصال، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2017.
- 7- لبصير عبد المجيد، موسوعة علم الاجتماع (مفاهيم في السياسة والاقتصاد والثقافة العامة)، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2010، ص 173.
- 8- نعمة أنطوان، مدور عصام وآخرون، المنجد في اللغة العربية، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط2، 2008.
- 9- همّام طلعت، قاموس العلوم النفسية والاجتماعية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1984.

المراجع بالعربية

- 10- إبراهيم عثمان والنوري قبس، التغير الاجتماعي، الشركة العربية للتسويق، القاهرة، مصر، 2009.
- 11- ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1424هـ/2004م.
- 12- أبو زيد أحمد مصطفى، دراسات في الانسان والمجتمع والثقافة، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، 1995.
- 13- أبو طاحون عدلي، مناهج وإجراءات البحث الاجتماعي، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، مصر، 1998.

- 14- أبو محمد عبد المالك بن هشام، السيرة النبوية، تعليق د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ج1 و2، 1427 هـ-2006.
- 15- أحمد خليل خليل، الكيسي علي محمد، العلاقة بين المثقف والسلطة، ط1، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2001.
- 16- أحمد مصطفى مريم وآخرون، التغير ودراسة والمستقبل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2002.
- 17- ازوالد سبنجلر، تدهور الحضارة الغربية، تر: أحمد الشيباني، دار مكتبة الحياة، لبنان، ج1 و2، 1964.
- 18- أستيتية ملحس دلال، التغير الاجتماعي والثقافي، دار وائل، عمان، الأردن، ط3، 2010.
- 19- الأشرف مصطفى، الجزائر: الأمة والمجتمع، تر: د. بن عيسى حنفي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
- 20- الخشاب مصطفى، دراسة المجتمع، دار الانجلومصرية، الإسكندرية، مصر، 1977.
- 21- أنجرس موريس، منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، تر بوزيد صحراوي، كمال بوشرف، سعيد سبعون، دار القصة، الجزائر، 2004.
- 22- بحيري قادة، محطات اقتصادية من فكر مالك بن نبي، دار العرب، وهران، الجزائر، 2005.
- 23- برغوث الطيب، محورية البعد الثقافي في استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، دار قرطية، الجزائر، ط2، 1425 هـ / 2004.
- 24- برغوث الطيب، موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، دار الينابيع، الجزائر، ط1، 1993.
- 25- بشنون سليمان، الثقافة والشخصية الوطنية، دار هومة، بوزريعة، الجزائر، 2013.
- 26- بغداداي باي محمد، التربية والحضارة (بحث في مفهوم التربية وطبيعة علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي)، عالم الأفكار، 2006.
- 27- بن قينة عمر، المشكلة الثقافية في الجزائر (التفاعلات والنتائج)، دار أسامة، عمان، الأردن، ط1، 2000.
- 28- بن نبي مالك، آفاق جزائرية، تر الطيب الشريف، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، ب.ت.
- 29- بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية، تر عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1425 هـ / 2004 م.
- 30- بن نبي مالك، العفن (مذكرات 1932-1940)، تر: خندودي نور الدين، ج1، ط1، دار

الأمة، الجزائر، 2007.

- 31- بن نبي مالك، القضايا الكبرى، دار الفكر، سوريا، ط1، 1991.
- 32- بن نبي مالك، النّجدة، المطبعة العالمية، القاهرة، 1957.
- 33- بن نبي مالك، بين الرّشاد والنّيه، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1423هـ/2002م.
- 34- بن نبي مالك، تأمّلات، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1427هـ/2006م.
- 35- بن نبي مالك، شروط النّهضة، تر عمر كامل مسقاوي وعبد الصّبور شاهين، دار الفكر، سوريا، ط4، 1987.
- 36- بن نبي مالك، فكرة الأفريقيّة الآسيويّة: في ضوء مؤتمر باندونج، دار الفكر، سوريا، ط4، 1427هـ/2006م.
- 37- بن نبي مالك، فكرة كمنوبلث إسلامي، دار الفكر، سوريا، 1990.
- 38- بن نبي مالك، في مهبط المعركة (ارهاصات الثّورة)، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط7، 2006.
- 39- بن نبي مالك، مجالس دمشق، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 1427هـ/م 2006.
- 40- بن نبي مالك، مذكرات شاهد للقرن (الطّفل-الطّالب)، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1425هـ/2004م.
- 41- بن نبي مالك، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بركة بسام وشعبو أحمد، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 2002.
- 42- بن نبي مالك، مشكلة النّقافة، تر عبد الصّبور شاهين، دار الفكر، سوريا، ط4، 1984.
- 43- بن نبي مالك، من أجل التّغيير، ط5، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1427هـ/2006م.
- 44- بن نبي مالك، ميلاد مجتمع (شبكة العلاقات الاجتماعيّة)، تر عبد الصبور شاهين، دار الفكر، سوريا، ط3، 1986.
- 45- بن نبي مالك، وجهة العالم الإسلامي، تر عبد الصبور شاهين، دار الفكر، سوريا، ط4، 1984.
- 46- بن نعمان أحمد، نفسيّة الشّعب الجزائري (دراسة علميّة في الأنثروبولوجيا النّفسيّة)، دار الأمة، الجزائر، 1994.
- 47- بناسي أحمد، المدخل إلى فكر مالك بن نبي، منشورات التّبيين، الجاحظية، الجزائر، 2006م/1426.
- 48- بوجنون مسعود، الحركة الإسلاميّة الجزائريّة (سنوات المجد والشّؤم)، تر: عزيزي عبد السلام، دار مدني، البلدية، الجزائر، 2002.

- 49- بوحوش عمار، دليل الباحث في المنهجية وكتابة الرسائل الجامعية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
- 50- جلبي علي عبد الرزاق، الاتجاهات الأساسية في نظرية علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ب.ت.
- 51- جلبي علي عبد الرزاق، دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1984.
- 52- الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ج4، ب.ت.
- 53- حرب علي، نقد النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1993.
- 54- حروش نورالدين، إدارة الموارد البشرية، دار الأمة، الجزائر، 2011.
- 55- الحسن محمد إحسان، النظريات الاجتماعية المتقدمة (دراسة تحليلية في النظريات الاجتماعية المعاصرة)، ط3، دار وائل، عمان، الأردن، 2013.
- 56- الحسن محمد إحسان، رواد الفكر الاجتماعي، دار الحكمة، بغداد، العراق، 1991.
- 57- الحسني حمد السيد، محمد علي محمد، د.الشكري علياء، د.الجوهري محمد، دراسات في التغير الاجتماعي، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية، مصر، ب.ت.
- 58- خوجة عبد العزيز بن محمد، قراءات في دراسة المجتمع الجزائري (مجموع مقاربات سوسيو-أنثروبولوجية)، نور للنشر، ألمانيا، 2017.
- 59- الدّقس محمد، التّغير الاجتماعي بين النّظرية والتّطبيق، دار مجدلاوي، عمان، الأردن، ط2، 1417هـ/1996م.
- 60- دوب.أس.أس، التّغير الاجتماعي، تر: الجوهري عبد الهادي، د.النكلاوي أحمد، د.فيصل عواطف، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، ط1، مارس 1998.
- 61- زرارة فيروز مامي، مشكلات وقضايا سوسيولوجية معاصرة، دار الأيام، عمان، الأردن، 2014.
- 62- الساعاتي حسن سامية، الثقافة والشخصية، بحث في علم الاجتماع الثقافي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1983.
- 63- السّحمرائي أحمد، مالك بن بني مفكراً إصلاحياً، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط2، 1406هـ/1986م.
- 64- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1954)، ج8، عالم المعرفة، الجزائر.
- 65- السّنهوري أحمد عبد الرزاق، علم أصول القانون، مطبعة فتح الله الياس وأولاده، مصر، 1936.

- 66- السّويدي محمد، مقدّمة في دراسة المجتمع الجزائري (تحليل سوسيولوجي لأهمّ مظاهر التّغيير في المجتمع الجزائري المعاصر)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1990.
- 67- الشّرقاوي مصطفى خليل، علم الصّحة النّفسيّة، دار النّهضة العربيّة، بيروت، لبنان، ب.ت.
- 68- الشّيخ بلحاج قاسم أحمد، نظرية الحضارة عند المفكّر مالك بن بني، منشورات التّبيين، الجاحظية، الجزائر، 1998.
- 69- صيام شحاتة، النّظرية الاجتماعيّة (من المرحلة الكلاسيكيّة إلى مابعد الحداثة)، دار مصر العربيّة، مصر، ط1، 2009.
- 70- طواليبي نور الدّين، الدّين والطّقوس والتّغيّرات، تر:وجيه البعيني، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1988.
- 71- عاصي إبراهيم، الحقيقة و المآل (آخر حوار مع مالك بن بني)، عالم الأفكار، الجزائر، ب.ت.
- 72- عاطف غيث محمد، علم الاجتماع: النّظرية والمنهج والموضوع، ج1، دار المعارف، 1966.
- 73- عبادة عبد اللّطيف، صفحات مشرقة من فكر مالك بن بني، مؤسسة عالم الأفكار، الجزائر، 2005.
- 74- عبادة عبد اللّطيف، فقه التّغيير في فكر مالك بن بني، عالم الأفكار، الجزائر، ط1، 2006.
- 75- عبد الرّحمن عبد الله، تطوّر الفكر الاجتماعيّ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1998.
- 76- عكاشة شايف، الصّراع الحضاري في العالم الإسلامي (مدخل تحليلي في فلسفة الحضارة عند مالك بن بني)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1998.
- 77- عمر مجد الدّين، خمّش خيري، علم الاجتماع الموضوع والمنهج، دار مجدلاوي، عمان، الأردن، ط3، 1426هـ/2005م.
- 78- العيسوي بن حمد عبد الله، مالك بن بني: حياته وفكره، مؤسسة الممتاز، الرياض، السّعودية، ط1، 1994.
- 79- العيسوي عبد الرّحمن محمد، الإرشاد والعلاج النّفسيّ، الدّار الجامعية، الاسكندرية، مصر، 2006.
- 80- غريب محمد عبد الكريم، البحث العلمي التّصميم المنهج والإجراء، نهضة الشّروق، مصر، ط3، د.ت.
- 81- غريب محمد عبد الكريم، البحث العلمي التّصميم والمنهج والإجراءات، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، 1982.

- 82- غليون برهان، اغتيال عقل، موفم للنشر، الجزائر، ط1، *
- 83- قاسيمي ناصر، التحليل السوسيولوجي (نماذج تطبيقية)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2017.
- 84- قباري محمد اسماعيل، المدخل إلى علم الاجتماع المعاصر، منشأة المعارف، الاسكندرية، د.ت.
- 85- القرشي علي، التغير الاجتماعي عند مالك بن نبي (من منظور تربوي لقضايا التغير في المجتمع المسلم)، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط1، 1989.
- 86- القليني فاطمة، د. الجوهري هناء، د. الفرنواني منى، د. حسن أغا ألفت، د. الجوهري محمد، علم الاجتماع الإعلامي، دار القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، ط1، 2001.
- 87- الكردي محمد، التخطيط للتنمية الاجتماعية، دار المعارف، القاهرة، 1977.
- 88- لحرش موسى، استراتيجية استئناف البناء الحضاري للعالم الإسلامي في فكر مالك بن نبي، ديوان المطبوعات الجامعية (المطبعة الجهوية بقسنطينة)، الجزائر، 2006.
- 89- مصباح عامر، علم الاجتماع: الرّواد والنّظريّات، دار الأمانة الجزائرية، ط1، 2010.
- 90- معمر داود، مقاربة ثقافية للمجتمع الجزائري (دراسة لبعض الملامح السوسيونفسية واقتصادية)، أيدكوم للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، 2013.
- 91- منصور محمد حسين، المدخل إلى القانون (القاعدة القانونية)، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، لبنان، ط1، 2010.
- 92- ميموني رشيد، زعيبي مراد وآخرون، علم الاجتماع من التّغريب إلى التّأصيل، دار المعرفة، الجزائر، 1996.
- 93- النّوّوي بن شرف الدّين يحيى، شرح الأربعين النّوّوية، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1982.
- 94- وصفي عاطف، الانثروبولوجيا الثقافيّة، دار المعارف، مصر، ط1، 1975.
- المجالات والدّوريات**
- 95- أعمال الملتقى الدّولي مالك بن نبي (1973-1905) فكره وأعماله، منشورات المجلس الاسلامي الأعلى، الجزائر، ط2، 2006.
- 96- مجلة البحوث الإسلامية (مجلة دورية)، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلميّة والإفتاء والدّعوى والإرشاد، الرياض، العدد 21، 1408 هـ.
- 97- مجلة حوليّة، كآية: الشّريعة والدراسات الإسلاميّة، جامعة قطر، العدد 09، 1991.
- 98- مجلة دراسات حول الجزائر والعالم، مركز البحوث حول الجزائر والعالم، الدّويرة، الجزائر، العدد 5، 2017.

الرسائل والمذكرات الجامعية:

99- السعد خالد نورة، التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي (دراسات في بناء النظرية الاجتماعية) دكتوراه منشورة، جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية، الدار السعودية، السعودية، ط1، 1418/1997 م.

100- سعيد الهادي، الفكر الديني الحديث مالك بن نبي، رسالة ماجستير في علم الاجتماع الديني، معهد علم الاجتماع، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، 2007/2008.

101- سعيدي حمودة، مكانة الأفكار في الفلسفة الاجتماعية عند مالك بن نبي (رسالة ماجستير فلسفة)، جامعة الجزائر، 1984/1985.

102- ملوكي سليمان، إشكالية الثقافة والسياسة عند مالك بن نبي، وهي دراسة أكاديمية مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة كلية العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة الجزائر، 2010/2009.

المراجع باللغة الأجنبية:

باللغة الفرنسية:

- 103- Albin Michel, Dictionnaire de la Sociologie (encyclopédie universelle), Paris, 1998.
- 104- Bardin Laurence, l'analyse de contenu, presses universitaires de France, Paris, 2^édition, 4^e trimestre 1980.
- 105- Bennabi Malek, la réalité et le devenir, traduit par Nourreddine Khendoudi, Alem El Afkar ,Algerie, 2004.
- 106- Bennabi Malek, le problème des idées dans le monde musulman, el AY'YINATE, Alger, 1990.
- 107- Bennabi Malek, les conditions de la renaissance: problème d' une civilisation, société d'édition et de communication, Tipaza,, Algerie, 1992
- 108- Bennabi Malek, Mondialisation, choisis par Abderrahmane Ammara, Dar EL Hadara, 2004.
- 109- Boujnoun Messaoud, L'Islam et l'occident, dar el Baath, Constantine, Algerie, 1984
- 110- Bourdieu Pierre et Sayed Abdelmalek, Le déracinement, les éditions de Minuit, Paris, 1964.
- 111- Révol René, Dictionnaire des sciences économiques et sociales, édition HACHETTE, Paris, 2002.
- 112- Dictionnaire Micro-Robert, Dictionnaire de Français Primordial, Paris, Tome 2, 1979.
- 113- Guy Rocher, Introduction à la Sociologie générale, édition Hurtubise HMH Itée, Montréal, Canada, 1992, 3^éme édition.

- 114- Guy Rocher, Le changement social, édition H.M.N, Paris, 1972.
- 115- Le dictionnaire de Français Hachette, ENAG, 1992.
- 116- Louis Alexandre, Dictionnaire Nord-Américain de la langue Française, Belisle, Québec, Canada ,1979.
- 117- Megherbi Abdelghani, Culture et personnalité algérienne de Massinissa à nos jours, ENAG, Algerie, 1981.
- 118- Perville Guy, les étudiants algériens de l'université française(1880-1962), préface Harbi Mohamed, Alger, Algérie, 1997.
- 119- Yves Jean et Garier Oliver, Dictionnaire d'économie et sciences sociales, Hatier, 2ème édition, Janvier1994.

باللغة الإنجليزية:

- 119 - Badawi Zaki Ahmed, Dictionary of social welfare and development (English, French, Arabic) DAR ALKITAB Al MASRI, Cairo, DAR ALKITAB ALLUBNANI, Beirut; 1st edition, 1987.
- 120 - Herskovits.M, Cultural Anthropology, Indian Press, Bombay, India, 1969
- 121 - Maatouk Frederic, Dictionary of Sociology (English, French, Arabic) Academia, Lebanon, 1993.
- 122 - Medical dictionary, Oxford concise, 4th édition.